المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

تأليف

أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم
المعروف بابن الأثير، الموصلي، المتوفى في عام ٦٣٧ من الهجرة

بتحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد
المدرس في قسم التخصص بكلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

الجزء الثاني

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م / ٨٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى

النوع الرابع

فى الالتفات

وهذا النوع وما يليه هو خُلَاصة علم البيان التى حولها يُدَنْدَن ، وإليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن ، وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبِل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هـذا النوع من الكلام خاصة ؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطابِ حاضرٍ إلى غائب ، أو من خطاب غائب إلى حاضر . أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض ، أو غير ذلك مما يأتى ذكره مفصلا ، ويسمى أيضا « شجاعة العربية » وإنما سمى بذلك لأن الشجاعة هى الإقدام ، وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ، ويتَوَرَّد مالا يتورّده سواه ، وكذلك هذا الالتفات فى الكلام ؛ فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة .

اعلم أن عامة المنتمين إلى هـذا الفن إذا سُئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة ، قالوا : كذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها ، وهذا القول هو عُكَّاز العميان ، كما يقال ، ونحن إنما نسأل عن السبب الذى قصدت العرب ذلك من أجله .

وقال الزمخشرى رحمه الله : إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن فى الكلام ، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب ؛ تَطْرِيةً لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه .

وليس الأمر كما ذكره ؛ لأن الانتقال فى الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطريةً لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه ؛ فإن ذلك دليل على

أنّ السامع يَمَل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطا للاستماع ، وهذا قدح فى الكلام ، لاوصف له ؛ لأنه لوكان حسنا لما مل ، ولو سلمنا إلى الزمخشرى ماذهب إليه لكان إنما يوجد ذلك فى الكلام المطوّل ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ؛ لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ ، أو أقل من ذلك ، ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصداً للمخالفة بين المنتقَلِ عنه والمنتقَلِ إليه ، لاقصدًا لاستعمال الأحسن ، وعلى هذا فإذا وجدنا كلاما قد استعمل فى جميعه الإيجاز ولم ينتقل عنه ، أو استعمل فيه جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه ، وكان كلا الطرفين واقعا فى موقعه ؛ قلنا : هذا ليس بحسن؛ إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب ، وهذا قول فيه مافيه ، وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة .

والذى عندى فى ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، أو من الغيبة إلى الخطاب ؛ لايكون إلا لفائدة اقْتَضَتْه ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تُحَدُّ بحدٍّ ، ولا تُضْبَط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها ؛ فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل فى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لايجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يَتَشَعَّبُ شُعَباً كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذى ترد فيه .

وسأوضح ذلك فى ضرب من الأمثلة الآتى ذكرها .

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة: (الْحَمْدُ لِلّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) هـذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومما يختص به هـذا الكلام من الفوائد قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) بعد قوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فإنه إنما عَدَل فيه من الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال : (الحمد لله) ولم يقل « الحمد لك » ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) نخاطب بالعبادة إصْرَاحًا بها وَتَقَرُّباً منه عَزَّ اسمه بالانتهاء إلى محدود منها ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة ، فقال : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) عطفا على الأول ؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب ؛ فأسند النعمة إليه لفظا ، وَزَوَى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا ، فانظر إلى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعانى الشريفة التى الْأَقْدَامُ لاتكاد تطؤها ، والأفهام مع قربها صافحة عنها ، وهذه السورة قد انتقل فى أولها من الغيبة إلى الخطاب ؛ لتعظيم شأن المخاطب ، ثم انتقل فى آخرها من الخطاب إلى الغيبة ؛ لتلك العلة بعينها ، وهى تعظيم شأن المخاطب أيضاً ؛ لأن مخاطبة الربّ تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه ، فينبغى أن يكون صاحب هـذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه فى مواضعها على اشتباهها .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) و إنما قيل : (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر بعد قوله : (وقالوا) وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهى زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى

والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ماقالوه ، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم ومُوَبِّخاً لهم .

ومما جاء من الالتفات مراراً على قصر متنه ، وتقارب طرفيه ، قوله تعالى أول سورة بنى إسرائيل : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فقال أولاً : (سبحان الذى أسرى) بلفظ الواحد ، ثم قال : (الذى باركنا) بلفظ الجمع ، ثم قال: (إنه هو السميع البصير) وهو خطاب غائب ، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير ، وهذا جميعه يكون معطوفاً على أسرى ، فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه فى الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتِّساعاً وتفنناً فى أساليب الكلام ، ولمقصد آخر معنوى هو أعلى وأبلغ .

وسأذكر ماسنح لى فيه فأقول : لما بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذى أسرى ؛ إذ لايجوز أن يقال الذى أسرينا ؛ فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء ، وهو أولى بخطاب العظيم فى نفسه الذى هو بلفظ الجمع ، استدرك الأول بالثانى ؛ فقال : (باركنا) ثم قال : (لنريه من آياتنا) فجاء بذلك على نَسَقِ (باركنا) ثم قال : (إنه هو) عطفاً على أسرى ، وذلك موضع متوسط الصفة ؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره ، وتلك حال متوسطة ، فخرج بهما عن خطاب العظيم فى نفسه إلى خطاب غائب ، فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة فى هذه الآية الواحدة التى جاءت لمعانٍ اختصت بها ، يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها .

ومما ينخرط فى هذا السلك الرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس ، كقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وهذا رجوع من الغيبة إلى خطاب النفس ، فانه قال : (وَزَيَّنَّا) بعد قوله : (ثُمَّ اسْتَوَى) وقوله : (فَقَضَاهُنَّ) (وأَوْحَى) والفائدة فى ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست فى سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً ، فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس ؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد ، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه ، وفى خلاف هذا الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الغيبة .

ومما ينخرط فى هذا السلك أيضاً الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة ، كقوله تعالى : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم فى مَعْرِض المناصحة ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويُدَارِيهم ، لأن ذلك أدخل فى إمحاض النصح حيث لايريد لهم إلا مايريد لنفسه ، وقد وضع قوله: (وَمَالِيَ لاأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) مكان قوله : وما لكم لاتعبدون الذى فطركم ، ألا ترى إلى قوله: (وإليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذى فطرنى وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المَسَاقَ إلى أن قال : (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التى تمر عليها فى آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فَحْوَاهَا واستنبطت رُمُوزَهَا .

وعلى هذا الأسلوب يجرى الحكم فى الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد ، كقوله تعالى : (حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) والفائدة ههنا فى الرجوع من خطاب

النفس إلى خطاب الواحد تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر ، والإشارة بأن إنزال الكتاب إنما هو إليه ، وإن لم يكن ذلك صريحاً ، لكن مفهوم الكلام يدلّ عليه .

وإذا تأملت مَطاوِى القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة ، وإنما اقتصرنا على هذه الأمثلة المختصرة ليقاس عليها مايجرى على أسلوبها.

وقد ورد فى فصيح الشعر شىء من ذلك ، كقول أبى تمام [(١)] :

وَرَكْبٍ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً ... مِنَ السَّيْرِ لَمْ تَقْصِدْ لَهَا كَفُّ قَاطِبِ [(٢)]

فَقَدْ أَكَلُوا مِنْهَا الْغَوَارِبَ بِالسُّرَى ... وَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كَالْغَوَارِبِ [(٣)]

يُصَرِّفُ مَسْرَاهَا جُذَيْلُ مَشَارِقٍ ... إِذَا آبَهُ هَمٌّ عُذَيْقُ مَغَارِبِ [(٤)]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وأولها قوله :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ ... تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وقد تقدم لها فى هذا الكتاب ذكر ، فانظر (ج ١ ص ٥٦) .

(٢) الركب : الجماعة الراكبون ، قيل : هو خاص بركاب الإبل ، والركاب - بكسر الراء - الركائب ، والقاطب : الذى يمزج الخمر بالماء ، يريد أن هؤلاء الراكبين يسيرون هذه الركائب سيرا شديدا فيه إجهاد وعنف ، ولا يمزجونه باللين والشفقة ؛ والمقصود أنهم مغذون فى السير مجدون .

(٣) الغوارب : جمع غارب ، وهو الكاهل ، والسرى : سير الليل ، ولها : الضمير يعود إلى الركاب ، يريد أن شدة سير هؤلاء وإدامته ، قد أكلت غوارب ركائبهم ، ولقد صارت الركائب تحسب الراكبيها غواربها ؛ لكثرة ماألفتهم واعتادتهم .

(٤) يصرف مسراها : يسيرها ويميل بها كما يشاء ، والجذيل : تصغير جذل وهو عود ينصب لتحتك به الجمال الجربى ، والعذيق : تصغير عذق ، وهو فى الأصل قنو النخلة ، ويكنى بهذين الوصفين عن الرجل المحنك المجرب للأمور ، ومنه قول القائل :

« أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ »

يَرَى بِالْكَعَابِ الرودِ طَلْعَةَ ثَائِرٍ ... وَبِالْعِرْمِسِ الْوَجْنَاءِ غُرَّةَ آيِبِ (١)

كَأَنَّ بِهَا ضِغْناً عَلَى كُلِّ جَانِبٍ ... مِنَ الْأَرْضِ أَوْ شَوْقاً إِلَى كُلِّ جَانِبِ (٢)

إِذَا الْعِيسُ لَاقَتْ بِي أَبَادُلَفٍ فَقَدْ ... تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ (٣)

هُنَالِكَ تَلْقَى الْجُودَ مِنْ حَيْثُ قُطِّعَتْ ... تَمَائِمُهُ وَالْمَجْدَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ (٤)

ألا ترى أنه قال فى الأول : « يُصَرِّفُ مَسْرَاها » مخاطبة للغائب ، ثم قال بعد ذلك : « إذا العيسُ لاقت بى » مخاطباً نفسه ، وفى هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطب عند ذلك نفسه مبشراً لها بالبعد عن المكروه والقرب من المحبوب ، ثم جاء بالبيت الذى يليه معدولاً به عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره ، وهو أيضاً خطاب لحاضر ، فقال : « هُنَالِكَ تَلْقَى الجود » والفائدة بذلك أنه يخبر غيره بما شاهده ، كأنه يصف له جود الممدوح وما لاقاه منه ؛ إشادةً بذكره ، وتنويهاً باسمه ، وحملاً لغيره على قصده ، وفى صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة ، وهى قوله : « حيث قُطِّعَتْ تمائمه » مايقتضى

(١) الكعاب : البارزة النهدين ، والرود : الجارية الناعمة ، والثائر : الهائج للقتال ، والعرمس : الناقة الشديدة ، والوجناء : القوية .

(٢) الضغن - بكسر فسكون هنا - الحقد ، يريد أنه كثير الترحال ؛ فهو إما كاره لجميع بقاع الأرض فهو لايبقى فى بقعة منها إلا ريثما يتحول عنها ، وإما محب لجميع البقاع فهو فى شغف شديد إلى رؤية كل بقعة منها .

(٣) العيس : الإبل البيض التى يخالط بياضها شقرة ، واحدها أعيس وعيساء ، والنوائب : المصائب ، واحدها نائبة ، وهى فى الأصل اسم فاعل من نابت تنوب : أى عرت وعرضت .

(٤) رواية الديوان فى هذا البيت هكذا :

هُنَالِكَ تَلْقَى الْمَجْدَ حَيْثُ تَقَطَّعَتْ ... تَمَائِمُهُ ، وَالْجُودَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ

والتمائم : جمع تميمة ، وهى مايعلق على الصبى ليحفظه فى زعمهم ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى الخصلة من الشعر .

له الرجوع إلى خطاب الحاضر ، والمراد بذلك أن محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه ، وقد يراد به معنى آخر ، وهو أن هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المَنّ والمَطْل والاعتذار وغير ذلك ، إذ التمائم لاتقطع إلا عمن أمنت عليه المخاوف .

وعلى هذا النهج ورد قول أبي الطيب المتنبي في قصيد[1] يمدح به ابن العميد في النوروز ، ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا إلى ملوكهم ، فقال في آخر القصيد :

كَثُرَ الفِكْرُ كَيفَ نُهْدِي كما أهْـــدَتْ إلَى رَبِّهَا المَلِيكِ عِبادُهْ[2]
وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ المَالِ وَالْخَيْــــلِ فَمِنْهُ هِـــبَاتُهُ وَقِيَادُهْ[3]
فَبَعَثْنَا بِأرْبَعِينَ مِهَاراً كُلُّ مُهْرٍ مَـــيْدَانُهُ إنْشَادُهْ[4]
عَدَدٌ عِشْتَهُ يَرَى الجِسْمُ فِيــهِ أرَبًا لاَ يَرَاهُ فِيمَا يُزَادُهْ[5]

(١) أول هذه القصيدة قوله :

جَاءَ نَيْرُوزُنَا وَأنْتَ مُرَادُهْ وَوَرَتْ بِالَّذِي أرَادَ زِنَادُهْ

(٢) يقول : قد أكثرت الفكر ، وترددت كيف أهدى إليك شيئا ، كما تهدى العبيد إلى ربها .

(٣) يقول : كل ماعندنا من الأموال والخيول ، فهو من هباته ومنائحه ، وما قاده لنا من الخيول فهو من عنده ، وقد أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى :

مِنْكَ يَا جَنَّةَ النَّعِيمِ الهَدَايَا أفَنُهْدِي إلَيْكَ مَامِنْكَ يُهْدَى

(٤) المهر : الفتى من أولاد الخيل ، وتقول : مهر ومهرة ، والجمع مهار وأمهار ومهرات ، وأراد هنا بالمهر البيت من الشعر ، ويروى « مهار » بالجر و بالنصب ؛ فالجر على أنه بدل أو صفة ، والنصب ليس على التمييز؛ لأن تمييز هذا العدد مفرد ، تقول : عندى أربعون دينارا ، وفى التنزيل العزيز (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيـْلَةً) ولـكنه على النعت على المعنى ؛ لأن المجرور فى المعنى مفعول به .

(٥) المعنى زاد الله فى عمرك هذا العدد ، وهو الأربعون ؛ وكان ابن العميد قد جاوز السبعين .

فَارْتَبِطْهَا فَإِنَّ قَلْبًا نَمَاهَا مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الْجِيَادَ جِيَادُهْ(١)

وهذا من إحسان أبي الطيب المعروف ، وهو رجوع عن خطاب الغائب إلى الحاضر ، واحتج أبو الطيب عن تخصيص أبياته بالأربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة ، وهى أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الإنسان فيها من القوة والشباب وقضاء الأوطار مالايراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر بألطف اعتذار فى أنه لم يزد القصيد على هذه العدة ، وهذا حسن غريب .

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فكقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة ، وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم لِيُعَجِّبَهُمْ منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم ، ولو قال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ؛ لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة ، وليس ذلك بخاف عن نَقَدَة الكلام ،

ومما ينخرط فى هذا السلك قوله تعالى : (إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) الأصل فى تَقَطَّعُوا تقطعتم ، عَطْفًا على الأول ، إلا أنه صرف (٢) الكلام من الخطاب إلى

---

(١) يريد بالقلب الذى نماها قلبه ، ويريد بالجياد الأبيات التى أنشأها وصنعها ، ولما عبرفيما سبق عن الأبيات بالمهار عبر ههنا عن حفظها بالارتباط ؛ ليجانس الكلام بعضه بعضا .

(٢) فى ب ، ج « حرف الكلام » بالحاء المهملة ، وهو تحريف ، وصوابه « صرف الكلام » بالصاد المهملة ، كما أثبتناه .

الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبح عندهم مافعلوه ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله تعالى . فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ؛ فهو مجازيهم على مافعلوا

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) فإنه إنما قال : (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل فآمنوا بالله و بى عطفا على قوله إنى رسول الله إليكم لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله و بكلماته كائنا من كان أنا أو غيرى ؛ إظهاراً للنَّصَفَةِ ، و بعداً من التعصب لنفسه ، فقدّر أولا فى صدر الآية إنى رسول الله إلى الناس ، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين : الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه ، والثانى الخروج من تهمة التعصب لنفسه .

القسم الثانى : فى الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر .

وهذا القسم كالذى قبله فى أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع فى أساليب الكلام فقط ، بل لأمر وراء ذلك ، وإنما يُقصد إليه تعظيماً لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل ، وتفخيماً لأمره ، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر .

فمما جاء منه قوله تعالى : (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) فإنه إنما قال : (أشهد الله واشهدوا)

ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له و بمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاونٌ بهم ، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول ؛ لاختلاف مابينهما ، وجيء به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه : أُشْهَدْ علىَّ أنى أحبك ، تهكماً به ، واستهانة بحاله .

وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر ؛ إلا أنه ليس كالأول ، بل إنما يفعل ذلك توكيداً لما أجرى عليه فعل الأمر ؛ لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ـ الآية) وكان تقدير الكلام أمر ربى بالقسط و بإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر ؛ للعناية بتوكيده فى نفوسهم ؛ فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب ، إذ عمل الجوارح لايصح إلا بإخلاص النية ، ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » .

واعلم أيها المتوشّح لمعرفة علم البيان ، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لايكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لايتوخّاه فى كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذى اطلع على أسرارهما ، وفتش عن دفائنهما ، ولا تجد ذلك فى كل كلام ؛ فإنه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقّها فهماً ، وأغمضها طريقاً .

القسم الثالث : فى الإخبارعن الفعل الماضى بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضى ، فالأول الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضى : اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به فى حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضى ، وذاك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التى يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضى ، وربما أدخل فى هذا

الموضع ماليس منه جهْلاً بمكانه ؛ فإنه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بمجارٍ هذا المجرى .

وسأبين ذلك فأقول : عطف المستقبل على الماضى ينقسم إلى ضربين : أحدهما بلاغى ، وهو إخبار عن ماض بمستقبل ، وهو الذى أنا بِصَدَدِ ذكره فى كتابى هذا الذى هو موضوع لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة ، والآخر غير بلاغى ، وليس إخبارا بمستقبل عن ماض ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماض ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض .

فالضرب الأول كقوله تعالى : (وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) فإنه إنما قال : (فتثير) مستقبلا وما قبله ومابعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو حكاية الحال التى يقع فيها إثارةُ الريح السحابَ ، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، لحال تُسْتَغْرَبُ أوتهمّ المخاطب أو غير ذلك .

وعلى هـذا الأسلوب ما ورد من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه فى غزوة بدر ؛ فإنه قال : لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لأْمَةٌ (١) كاملة لا يُرَى منه إلا عيناه ،وهو يقول : أنا أبوذات الكئوس، وفى يدى عَنَزَة (٢) فأطعن بها فى عينه ، فوقع ، وأطأ برجلى على خده حتى خرجت الْعَنَزَة مُتَعَقِّفَةً (٣) ؛ فقوله : «فأطعن بها فى عينه ، وأطأ برجلى » معدول به عن لفظ

---

(١) اللأْمة ــ بفتح اللام وسكون الهمزة ، وقد تخفف همزته فتقلب ألفا ، كما يقال : راس ، وسال ــ وهى الدرع ، ويقال : اللأْمة السلاح ، ولأمة الحرب : أداته .

(٢) العنزة ــ بفتح العين والنون ــ مثل نصف الرمح ، أوأكبر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح ، والعكازة : قريب منها .

(٣) متعقفة : ملوية .

الماضى إلى المستقبل ؛ ليمثل للسامع الصورة التى فعل فيها ما فعل من الإقدام والجراءة على قتل ذلك الفارس المستلئم ، ألا ترى أنه قال أولا : لقيت عبيدة ، بلفظ الماضى ، ثم قال بعد ذلك : فأطعن بها فى عينه ، ولو عطف كلامه على أوله لقال : فطعنت بها فى عينه .

وعلى هذا ورد قول تأبَّطَ شرًّا[١] :

بِأنّى قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِى ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ[٢]

فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ[٣]

فإنه قصد أن يصوّر لقومه الحال التى تَشَجَّعَ فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها مشاهَدَةً ، للتعجب من جراءته على ذلك الهول ، ولو قال فضربتها عطفاً على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة .

فإن قيل : إن الفعل الماضى أيضاً يَتَخَيَّل منه السامع مايتخيله من المستقبل قلت فى الجواب : إن التخيل يقع فى الفعلين معاً ، لكنه فى أحدهما ــ وهو المستقبل ــ أوكد وأشد تخيلا ؛ لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر

---

(١) من كلمة له رواها غير واحد من حملة الشعر ، منهم أبو الفرج الإصبهانى فى الأغانى (١٨ ــ ٢١٠ بولاق) وأول هذه الكلمة قوله :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ ... بِمَا لاَ قَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ

(٢) وقع فى ب ، ج « بشهب كالصحيفة » وهو تحريف ، وتصويبه عن الأغانى فى الموضع السابق ذكره ، والسهب ــ بفتح فسكون ــ الأرض المستوية ، وجمعه سهوب ، ولذلك شبهه بالصحيفة ، والصحصحان ومثله الصحصح : الأرض الواسعة المستوية

(٣) روى أبو الفرج وغيره بين هذين البيتين بيتين آخرين ، وهما قوله :

فَقُلْتُ لَهَا : كِلاَنَا نِضْوُ أَيْنٍ ... أَخُو سَفَرٍ ؛ فَخَلِّى لِى مَكَانِى

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فَأَهْوَى ... لَهَا كَفِّى بِمَصْقُولٍ يَمَانِ

وبعد ذلك البيت الثانى الذى ذكره المؤلف .

إلى فاعلها فى حال وجود الفعل منه ، ألا ترى أنه لما قال تأبط شرا « فأضربها » تخيل السامع أنه مباشر للفعل ، وأنه قائم بإزاء الغول ، وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا لا يوجد فى الفعل الماضى ؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة فى حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهذا لا خلاف فيه ، وهكذا يجرى الحكم فى جميع الآيات المذكورة ، وفى الأثر عن الزبير رضى الله عنه ، وفى الأبيات الشعرية .

وعليه ورد قوله تعالى أيضاً ، وهو : (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فقال أولا « خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ » بلفظ الماضى ، ثم عطف عليه المستقبل الذى هو « فَتَخْطَفُهُ » وَ « تَهْوِي » ، وإنما عدل فى ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهُوِىّ الريح به ، والفائدة فى ذلك ما أشرت إليه فيما تقدم ، وكثيراً ما يراعى أمثال هذا فى القرآن .

وأما الضرب الثانى ـ الذى هو مستقبل ـ فكقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فإنه إنما عطف المستقبل على الماضى لأن كفرهم كان ووجد ، ولم يستجدّوا بعده كفرا ثانياً ، وصَدّهم متجدد على الأيام لم يمض كونه ، وإنما هو مستمر يستأنف فى كل حين ، وكذلك ورد قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضى ههنا إلى المستقبل فقال : (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) ولم يقل فأصبحت عطفاً على أنزل ، وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ؛ فإنزال الماء مَضَى وجوده ، واخضرار الأرض باقٍ لم يَمْضِ ، وهذا

كما تقول : أَنْعَمَ عَلَيَّ فُلَانٌ فَأَرُوحُ وَأَغْدُو شاكرا له ، ولو قلت : فَرُحْتُ وَغَدَوْتَ شاكراً له ، لم يقع ذلك الموقع ؛ لأنه يدل على ماضٍ قد كان وانقضى ، وهذا موضع حسن ينبغى أن يتأمل .

وأما الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل فهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته أن الفعل الماضى إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذى لم يوجد بَعْدُ كان ذلك أبلغ وأوكد فى تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم وجودها .

والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضى أن الغرض بذاك تَبْيِينُ هيئة الفعل واستحضار صورته ؛ ليكون السامع كأنه يشاهدها ، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذى لم يوجد بعد .

فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) فإنه إنما قال (ففزع) بلفظ الماضى بعد قوله (يُنْفَخُ) وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنه كائن لامحالة ؛ لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به .

وكذلك جاء قوله تعالى : (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) وإنما قيل (وَحَشَرْنَاهُمْ) ماضيا بعد (نُسَيِّرُ) وَ (تَرَى) وهما مستقبلان للدلالة على أن حَشْرَهُمْ قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال ، كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك ؛ لأن الحشر هو المهم ؛ لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضى

ومما يجرى هذا المجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل ، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضى ، وقد سبق الكلام عليه .

فمن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) فإنه إنما آثر اسم المفعول الذى هو (مجموع) على الفعل المستقبل الذى هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بهذه الصفة ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ) فإنك تعثر على صحة ما قلت .

النوع الخامس

فى توكيد الضميرين

إن قيل فى هذا الموضع : إن الضمائر مذكورة فى كتب النحو ؛ فأى حاجة إلى ذكرها ههنا ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته ؟

قلت : إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة ، وأولئك لا يتعرضون إليه ، وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأنّ المنفصل منها كذا ، والمتصل كذا ، ولا يتجاوزون ذلك ، وأما أنا فإنى أوردت فى هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحوىّ ، وأعنى بقولى « توكيد الضميرين » أن يؤكد المتصل بالمنفصل ، كقولك : إنَّكَ أَنْتَ ، أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله ، كقولك : أَنْتَ أَنْتَ ، أو يؤكد المتصل بمتصل مثله ، كقولك : إنَّكَ إنَّكَ لَعَالِمٌ ، أو إنَّكَ إنَّكَ لَجَوَادٌ .

وإنما يؤتى بمثل هذه الأقوال فى معرض المبالغة ، وهو من أسرار علم البيان .

ولنقدم فى ذلك قولا يحصره ويجمع أطرافه ؛ فنقول :

إذا كان المعنى المقصود معلوما ثابتاً فى النفوس فأنت بالخيار فى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر ، وإذا كان غير معلوم ، وهو مما يشك فيه ؛ فالأَوْلَى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر فى الدلالة عليه ؛ لتقرره وتثبته .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) فإن إرادة السَّحَرَة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده ؛ لأنهم لم يُصَرِّحُوا بما فى أنفسهم من ذلك ، لكنهم لما عدَلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ماهو لهم بالضميرين اللذين هما نكون ونحن دَلَّ ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله ؛ لأنّ من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كان قالوا : إما أن تلق و إما أن نلق ؛ لتكون الجملتان متقابلتين ، فحيث قالوا عن أنفسهم : (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) استدل بهذا القول على رغبتهم فى الإلقاء قبله .

وأما توكيد المتصل بالمتصل فكقوله تعالى فى سورة الكهف : (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) وهذا بخلاف قصة السفينة ، فإنه قال فيها: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير فى الثانية دون الأولى فقال فى الأولى : (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ) وقال فى الثانية : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ) و إنما جىء بذلك للزيادة فى مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة ، والوَسْم بعدم الصبر، وهذا كما لوأتى الإنسانُ مانَهيتَهُ عنه فَلُمْتَه وَعنَّفْتَه ، ثم أتى ذلك مرة ثانية ، أليس أنك تزيد فى لومه وتعنيفه ؟ وكذلك فعل ههنا ؛ فإنه قيل فى الملامة أولا: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ) ثم قيل ثانياً : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ) وهذا موضع يَدِقُّ عن العثور عليه بِبادِرَةِ النظر مالم يُعْطَ التأمل فيه حَقَّهُ .

وأما توكيد المتصل بالمنفصل فنحو قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) فتوكيد الضميرين ههنا فى قوله : (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) أنفى للخوف من قلب موسى ، وأثبت فى نفسه للغلبة والقهر ، ولوقال

لاتخف إنك الأعلى أو فأنت الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفى الخوف مالقوله : (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) .

وفى هذه الكلمات الثلاث وهى قوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) ست فوائد :

الأولى : « إنَّ » المشددة التى من شأنها الإثبات لما يأتى بعدها ، كقولك: زيد قائم ، ثم تقول : إنَّ زيداً قائم ، ففى قولك إنَّ زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد ماليس فى قولك زيد قائم .

الثانية : تكرير الضمير ، فى قوله (إنك أنت) ولواقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة فى التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره .

الثالثة : لام التعريف فى قوله (الأعلى) ولم يقل أعلى ولا عال ؛ لأنه لوقال ذلك لكان قد نكره ، وكان صالحا لكل واحد من جنسه ، كقولك : رجل ؛ فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال ، وإذا قلت «الرجل» فقد خَصَّصْته من بين الرجال بالتعريف ، وجعلته علما فيهم ، وكذلك جاء قوله تعالى : (إنك أنت الأعلى) أى : دون غيرك .

الرابعة : لفظ أفْعَل الذى من شأنه التفضيل ، ولم يقل العالى .

الخامسة : إثبات الغلبة له من العلو ؛ لأن الغرض من قوله (الأعلى) أى الأغلب ، إلا أن فى الأعلى زيادة ، وهى الغلبة من عال .

السادسة : الاستئناف ، وهوقوله تعالى : (لَاتَخَفْ إنك أنت الأعلى) ولم يقل لأنك أنت الأعلى ؛ لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عالياً ، وإنما نفى الخوف عنه أولا بقوله : (لاتخف) ثم استأنف الكلام فقال: (إنك أنت الأعلى) فكان ذلك أبْلَغَ فى إيقان موسى عليه السلام بالغلبة والاستعلاء ، وأثْبَتَ لذلك فى نفسه .

وربما وقع لبعض الأغمارأن يعترض على ماذكرناه فى توكيد أحد الضميرين

بالآخر فيقول: لو كان توكيدهما أبلغ من الاقتصار على أحدهما لو رد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه ، حيث هو أولى بما هو أبلغ وأوكد من القول ، وقد رأينا فى القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى ، وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر ، كقوله عز اسمه : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ولم يقل إنك أنت على كل شىء قدير ، فما الموجب لذلك إن كان توكيد أحد الضميرين بالآخر أبلغ من الاقتصار على أحدهما ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : قد قدّمنا القول فى أول هذا النوع أنه إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً فصاحب الكلام مُخَيَّرٌ فى توكيد أحد الضميرين بالآخر ؛ فإن أكَّدَ فقد أتى بفضْل بيانٍ ، وإن لم يؤكد فلأنّ ذلك المعنى ثابت لا يفتقر فى تقريره إلى زيادة تأكيد ، كهذه الآية المشار إليها ، وهى قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ) فإن العلم بأن الله على كل شىء قدير لا يفتقر إلى تأكيد يقرره ، وقد ورد ما يجرى مجرى هذه الآية مؤكداً ، كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) فوكد فى هذه الآية ولم يوكد فى الآية الأخرى ، وقد عرفتك الطريق فى ذلك ، وأما إذا كان المعنى المقصود غير معلوم ؛ وهو مما يشك فيه ؛ فالأَوْلَى أن يؤكد بالضميرين فى الدلالة عليه ، كقوله تعالى : (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) فإن موسى لم يكن متيقناً أنه غالبٌ للسَّحَرَة ؛ فلذلك وكد خطابه بالضميرين ؛ ليكون أبلغ فى تقرير ذلك فى نفسه .

وأما توكيد المنفصل بمنفصل مثله فكقول أبي تمام[١] :

لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ   خَفَّ الْهَوَى وَتَوَلَّتِ الْأَوْطَارُ

فقوله « لاأنت أنت ولا الديار ديار » من المليح النادر فى هـذا الموضع ؛ لأنه هو هو والديار الديار ، وإنما البواعث التى كانت تبعث على قضاء الأوطار زالت ، فبقى ذلك الرجل وليس هو هو على الحقيقة ولا الديار فى عينه من الحسن تلك الديار ، وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي[٢] :

قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   وَجَـــدُّكَ بِشْرٌ الْمَلِكُ الْهُمَامُ[٣]

فقوله « أنت أنت » من توكيد الضميرين المشار إليهما ، وفائدته المبالغة فى مدحه ، ولو مدحه بما شاء الله لما سدَّ مسدَّ قوله « أنت أنت » أى : أنك المشار إليه بالفضل دون غيرك ، وأما قوله « وأنت منهم » بخارج عن هذا الباب ، وهو كلام مستأنف لايتعلق بتوكيد الضميرين ، كأنه قال : أنت الموصوف بكذا وكذا ، وأنت من هذا القبيل ، يريد بذلك مَدْحَ قبيله به .

وهذا البيت لم أمثل به اختياراً له واستجادة ، وإنما مثلت به ليعلم مكان توكيد المنفصل بالمنفصل ، وإلا فالبيت ليس من المرضى ، لأن سبكه سبك عار من الحسن ، وفيه تقديم وتأخير[٣] .

---

(١) هذا البيت مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد الثغرى ، و بعده قوله :

كَانَتْ مُجَاوَرَةُ الطُّلُولِ وَأَهْلِهَا   زَمَناً عِذَابَ الْوِرْدِ وَالْإِصْدَارِ

وانظر الديوان (ص ١٤٤ بيروت) .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن على العجلى ، وأولها قوله :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ   وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

(٣) كان من حقه أن يقول : قبيل أنت منهم وأنت أنت ، يريد أنت على شرف قدرك وعراقة مجدك منهم ، وإذا كنت منهم و بشر جدك فقد كفاهم ذلك فخرا وشرفا ؛ فهم يفخرون بك و بنسبك .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج أن عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهبولة : ياخير الفتيان ، اردد علىّ ما أخذته من إبلى ، فَرَدَّها عليه وفيها فحلها ، فنازعه الفحل إلى الإبل ، فصرعه عمرو ، فقال له زياد : لو صرعتم يا بنى شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لـكنتم أنتم أنتم ، فقال عمرو له : لقد أعطيت قليلا ، وسُمْتَ جليلا ، وجررت على نفسك ويلاً طويلا ، فقوله « لـكنتم أنتم أنتم » أى : أنتم الأشداء ، أو الشجعان ، أو ذوو النجدة والبأس ، أو ماجرى هـذا المجرى ، إلا أن فى « أنتم » الثانية تخصيصاً لهم بهذه الصفة دون غيرهم ، كأنه قال : لـكنتم أنتم الشجعان دون غيركم ، ولو مدحهم بأى شىء مدحهم [به] من وصف البأس والشدة والشجاعة لما بلغ هذه الـكلمة ، أعنى « أنتم » الثانية ، وهذا موضع من علم البيان تتكاثر محاسنه فاعرفه .

النوع السادس

فى عطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده

وهذا إنمـا يعمد إليه لفائدة ، وهى تعظيم شأن الأمر الذى أظهر عنده الاسم المضمر أولاً ، ومثال ذلك قول القائل : ولَمَّا تلاقينا وبنو تميم أقبلوا نحونا يركضون فرأينا منهم أسوداً شكلا تسابق الأسـنة إلى الورود ، ولا ترتد على أعقابها إذا ارتدت أمثالها من الأسود ، وتناجد بنو تميم علينا بحملة ، فلذْنا بالفرار ، واستبقنا إلى تولية الأدبار ؛ فإنه إنمـا قيل « وتناجد بنو تميم » مصرحاً باسمهم ولم يقل وتناجدوا كما قيل « أقبلوا » للدلالة على التعجب من إقدامهم عند الحملة ، وثباتهم عند الصَّدمة ، لاسيا وقد أردف ذلك بقوله « لذنا بالفرار ، واسْتَبَقْنَا إلى تولية الأدبار » كأنه قال : وتناجد أولئك الفرسان المشاهير والـكماة المناكير ، وحملوا علينا حملة واحدة فولينا مدبرين منهزمين .

ومما جاء من ذلك قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ

ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ) ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى فى قوله : (ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) مع إيقاعه مبتدأ فى قوله: (كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ) وقد كان القياس أن يقول كيف يبدئ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة ، والفائدة فى ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة ، وكان صدر الكلام واقعاً معهم فى الإبداء ، وقررهم أن ذلك من الله ؛ احْتَجَّ عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، و إذا كان الله الذى لايعجزه شىء هو الذى لايعجزه الإبداء ، فوجب أن لاتعجزه الإعادة ، فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذى هو الإعادة أبرز اسمه تعالى ، وأوقعه مبتدأ ثانياً .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) ألا ترى أنه قال أولاً :(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) فذكر مضمراً تقدم الكلام فيه ، ثم عطف المظهر الذى هو له وهو قوله :(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وكان العطف لو أضمر كما أضمر الأول لقيل ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنوداً لم تروها ، وفائدة الإظهار ههنا للمعطوف بعد إضماره أولا التَّنْوِيهُ بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر المؤمنين ، أو لأن الأمر عظيم ، وهو الانتصار بعد الفرار ، فأى الأمرين قدّر كان لإظهار المعطوف مناسباً ، وهكذا يكون عطف المظهر على ضميره ؛ فإنه يستند إلى فائدة يهمّ ذكرها ؛ فإن لم يكن [1] هناك مثل هذه الفائدة و إلا فلا يحسن الإظهار بعد الإضمار .

(١) كذا ، ولعل أصل العبارة «فان تكن هناك مثل هذه الفائدة و إلا – إلخ» بإسقاط « لم » و يكون جواب إن محذوفا ، أى: فإن تكن هناك مثل هذه الفائدة حسن الإظهار و إلا فلا يحسن .

وكذلك جاء قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ) فإنه إنما قال: (وقال الذين كفروا) ولم يقل وقالوا كالذى قبله للدلالة على صدور ذلك عن إنكار عظيم ، وغضب شديد ، وتعجب من كفرهم بليغ ، لاسيما وقد أنضاف إليه قوله : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم) وما فيه من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وما فى ذلك من المُبَادَهَة ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجَرَاءتهم على الله ومُكابرتهم لمثل ذلك الحقّ المبين قبل أن يتدبَّروه إنْ هذا إلا سحر مبين .

وعلى نحو من ذلك ورد قوله تعالى : (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) وكان القياس أن يقال : وقالوا هـذا ساحر كذاب ، عطفاً على « عجبوا » وإنما أتى باسم الكافرين مظهراً بعد إضماره للإشعار بتعظيم ما اجْتَرءوا عليه من القول فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أو لأن هذا القول كان أهمّ عندهم ، وأرسخ فى نفوسهم ؛ فصرح باسم قائله دِلالةً على ما كان فى أنفسهم منه .

النوع السابع

فى التفسير بعد الإبهام

اعلم أن هذا النوع لا يُعْمَدَ إلى استعماله إلا لضرب من المبالغة ، فإذا جىء به فى كلام فإنما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم و إعظامه ؛ لأنه هو الذى يطرق السمع أولاً فيذهب بالسامع كلَّ مَذْهَب ؛ كقوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) ففسر ذلك الأمر بقوله : (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفى إبهامه أولا وتفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر ، وتعظيم لشأنه ؛ فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع لما كان بهذه المكانة من الفخامة ، فإن الإبهام أولاً يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما قرَعَ سمعه ، وتَشَوُّفٍ إلى معرفته والاطلاع على كُنْهه .

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى :(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) ففسر (مايوحى) بقوله (أن اقذفيه) وهذا كالأول فى إبهامه أولا وتفسيره ثانيا .

ومثل هذا ورد قوله تعالى فى سورة أم الكتاب : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فإنه إنما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم لما فى الأول من التنبيه والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين ؛ فدل عليه بأبلغ وجه ، كما تقول : هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل؛ لأنك تثبت ذكره مجملا ومفصلا ، فجعلته علما فى الكرم والفضل ؛ كأنك قلت : مَنْ أراد رجلا جامعاً للخصْلَتين جميعا فعليه بفلان .

فان قيل : فما الفرق بين عطف المظهر على ضميره و بين التفسير بعد الإبهام فإن المضمر كالمبهم ؟

فالجواب عن ذلك أنى أقول : إنْ كان سؤالك عن فائدتهما فإنهما فى الفائدة سواء ، وذلك أنهما إنما يُرادانِ لتعظيم الحال ، والإعلام بفخامة شأنهما ، وإن كان سؤالك عن الفرق بينهما فى العبارة فإنى أقول : المضمر يأتى بعد مظهر تقدم ذكره أولا ، ثم يعطف المظهر على ضميره : أى على ضمير نفسه ، كالمثال الذى ضربناه فى بنى تميم ، وأما التفسير بعد الإبهام فإن المبهم يقدّم أولا ، وهو أن يذكر شىء يقع عليه محتملات كثيرة ، ثم يفسر بإيقاعه على واحد منها ، وليس كذلك عطف المظهر على ضميره .

ومما جاء من التفسير بعد الإبهام قوله تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) ألا ترى كيف قال : (أهدكم سبيل الرشاد) فأبهم سبيل الرشاد ولم يبين أى سبيل هو ، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها ، ثم ثنّى ذلك بتعظيم الآخرة والإطْلاع على حقيقتها ، ثم ثلّث بذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ؛ ليُثبِّط عما يُتلف ، ويُنشِّط لما يُزْلِف ، كأنه قال : سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، والامتناع من الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها ، والمسارعةُ إلى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ) فإنه إنما قال : (القواعد من البيت) ولم يقل قواعد البيت لما فى إبهام القواعد أولاً وتبيينها بعد ذلك من تفخيم حال المبين ماليس فى الإضافة .

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ أَسْبَابَ ٱلسَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ) فإنه لما أراد

تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات أبهمها أوّلاً ثم فسرها ثانياً ، ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوّفة إليه ؛ ليعطيه السامع حقه من التعجُّب ، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه بعد ذلك .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)فإنه قال أولاً : (أعظكم بواحدة) فأبهم الواحدة ، ثم فسرها بقوله : (أَنْ تَقُوموا لله مثنى وفرادى وأن تتفكروا) .

وهذا فى القرآن الكريم كثير الاستعمال .

وأما الإبهام من غير تفسير فكثير شائع فى القرآن الكريم أيضاً ، كقوله تعالى : (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ) وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) أى : للطريقة أو الحالة أو المِلَّة التى هى أقومها وأسَدُّها ، وأى ذلك قدرت لم تجد له مع الإفصاح ذَوْقَ البلاغة التى تجده مع الإبهام ، وذلك لذهاب الوهم فيه كلَّ مَذْهَبٍ ، وإيقاعه على محتملات كثيرة .

وهذا كقول القائل : لو رأيت عليا بين الصفين ، فإنه لو وصفه مَهْمَا وصف من نجدة وشجاعة وثبات وإقدام وأطال القول فى ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى إليه الوهم مع الإبهام ، وهذا للعارف برموز هذه الصناعة وأسرارها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله تعالى : (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) وأبلغ من ذلك قوله تعالى : (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) فإنه قال فى تلك الآية : (فغشيهم من اليم ماغشيهم) فذكر اليم ، وهو البحر ؛ فصار الذى غشيهم إنما هو منه خاصة ، وقال فى هذه الآية : (فغشَّاها ماغشى) فأبهم الأمر الذى غشَّاها به ، وجعله عاما ، وذلك أبلغ ؛ لأن السامع يذهب وَهْمُه فيه كل مذهب .

وأما ماجاء من ذلك شعراً فكقول البحترى (١) :

بَعِيدُ مَقِيلِ الصَّدْرِ لاَ يُدْرِكُ الَّتِى يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَادِعُ (٢)

فقوله « التى يحاولها » من الإبهام المقدم ذكره فى الآية .

ومما ينتظم بذلك قول الشاعر فى أبيات الحماسة (٣) :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعَدِ

فقوله « صبا ما صبا » من الإبهام الذى لو قدرت ماقدرت فى تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الإبهام .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وأولها قوله :

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) كذا ورد هذا البيت فى ب ، ج ؛ والذى فى الديوان (٢ – ٧٧ مصر) :

مُبِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لاَ يُدْرِكُ الَّذِى يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَادِعُ

والذى نعتقده أن مافى الديوان وما هنا قد عراهما التحريف ، وأن صواب الإنشاد :

بَعِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لاَ يُدْرِكُ الَّتِى يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَارِعُ

وأصل نظام البيت لايدرك الأريب الخادع التى يحاولها منه ؛ يصفه بأنه لايطلع على سره أحدا ولا يصل إلى غوره إنسان ، وأقرأ ماقبل البيت وما بعده تدرك تمام هذا المعنى :

تَذُودُ الدَّنَايَا عَنْهُ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ وَعَزْمٌ كَحَدِّ الْهُنْدُوَانِى قَاطِعُ

بَعِيدُ مَقِيلِ السِّرِّ لاَ يُدْرِكُ الَّتِى يُحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَرِيبُ الْمُخَادِعُ

وَلاَ يَعْلَمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ فَرْطِ عَزْمِهِ مَتَى هُوَ مَصْبُوبٌ عَلَيْهِمْ فَوَاقِعُ

(٣) من أبيات لدريد بن الصمة اختارها أبو تمام فى ديوان الحماسة ، وأولها قوله :

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِى السَّوْدَاءِ وَالْقَوْمُ شُهَّدِى

انظر شرح التبريزى (٢ – ٣٠٤) .

وعليه ورد قول أبي نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ ... وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّحْظِ حِينَ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ ... فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ

فقوله « وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه » من هذا النمط المشار إليه ، وهو من المليح النادر .

ومما يجرى على هذا النهج قول الآخر فى وصف الخمر :

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا ... وَفِى الزُّجَاجَةِ بَاقٍ يطْلُبُ الْبَاقِى

والكلام على هذا البيت كالكلام على البيت الذى قبله .

ومثله ورد قول بعض المتأخرين : فؤاد فيه ما فيه .

وعلى هذا ورد قولى فى فصل من تقليد لبعض الوزراء ، فقلت : وأنت مؤهل لواحدة متخلق لها غرر الجياد ، وتناديها العلياء بلسان الإحماد ، وتفخر بها سمر الأقلام على سُمْر الصِّعاد ، فابسط يدك لأخذ كتابها ، واسْمَعْ لطيب ذكرها بعد سعيك فى طِلاَبها ، واعلم أن الخُطّاب إليها كثير لكنها صَدَّت بك عن خُطَّابها ، ولقد مضى عليها زمن وهى نفور حتى استقادها الآن تأنيسُك ، ولم تسبق الأقدار باسمك إلا لتكون سُلَيْمَانَهَا وهى بَلْقِيسُك .

وهذا الوزير كان اسمه سليمان ؛ فسقت المعنى إليه ، فجاء كما تراه من الحسن واللطافة .

وأما قولى « وأنت مؤهل لواحدة » فإنه من الإبهام من غير تفسير ، وذلك بخلاف ماورد فى الآية المقدم ذكرها ؛ لأن تلك من التفسير بعد الإبهام .

ومما ينتظم في هذا السلك الاستثناء العددى ، وهو ضرب من المبالغة لطيف المأخذ ، وفائدته أنَّ أول مايطرق سَمْعَ المخاطب ذِكْرُ العقد من العدد، فيكثر موقع ذلك عنده ، وهو شبيه بما ذكرناه من الإبهام أولاً ثم التفسير بعده ثانياً ، وذلك

كقول القائل : أعطيته مائة إلا عشرة ، أو أعطيته ألفاً إلا مائة ، فإن ذلك أبلغ من أن لو قال : أعطيته تسعين ، أو تسعمائة .

وعليه ورد قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً ؛ لفائدة حسنة ، وهى ذكر ما ابتلى به نوح من أمته ، وما كابده من طول المصابرة ؛ ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من أمته ، وتثبيتاً له ؛ فإن ذكر رأس العدد الذى هو منتهى العقود وأعظمها أوْقَعُ وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وما لاقاه من قومه .

النوع الثامن

فى استعمال العام فى النفى والخاص فى الإثبات

اعلم أنه إذا كان الشيئان أحدهما خاصًّا والآخر عامًّا فإن استعمال العام فى حالة النفى أبلغ من استعماله فى حالة الإثبات ، وكذلك استعمال الخاص فى حالة الإثبات أبلغ من استعماله فى حالة النفى .

ومثال ذلك الإنسانية والحيوانية فإن إثبات الإنسانية يوجب إثبات الحيوانية ، ولا يوجب نَفْيُهَا نَفْىَ الحيوانية ، وكذلك نَفْىُ الحيوانية يوجب نفىَ الإنسانية ، ولا يوجب إثباتُهَا إثباتَ الإنسانية .

ومما ينتظم بذلك الأسماء المفردة الواقعة على الجنس التى يكون بينها و بين واحدها تاء التأنيث ؛ فإنه متى أريد النفى كان استعمال واحدها أبلغ ، ومتى أريد الإثبات كان استعمالها أبلغ .

وكذلك يتصل بهذا النوع الصفتان الواردتان على شىء واحد ؛ فإنه إذا لزم

من وجود إحداهما وجود الأخرى اكتفى بها فى الذكر ، ولم يحتج إلى ذكر الأخرى ؛ لأنه يجىء ضمنا وتبعا ، أو أن يبدأ بها فى الذكر أولا ثم تجىء الأخرى بعدها ، وأما الصفات المتعدّدة فإنه ينبغى أن يبدأ فى الذكر بالأدنى مرتبةً ثم بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهى إلى آخرها ، هذا فى مقام المدح ، فإن كان فى مقام الذم عكست القضية .

فالأوّل ـ وهو الخاص والعام ـ نحو قوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ) ولم يقل ذهب بضوئهم موازناً لقوله: (فلما أضاءت) لأن ذكر النور فى حالة النفى أبلغ ، من حيث إن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة ، فلو قال ذهب الله بضوئهم لكان المعنى يعطى ذهاب تلك الزيادة وبقاء مايسمى نوراً ، لأن الإضاءة هى فرط الإنارة ، قال الله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا) فكل ضوء نور ، وليس كل نور ضوءا ، فالغرض من قوله تعالى: (ذهب الله بنورهم) إنما هو إزالة النور عنهم أصلا ، فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء ، وكذلك أيضاً قوله تعالى: (ذهب الله بنورهم) ولم يقل أذهب نورهم ؛ لأن كل من ذهب بشىء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهب شيئاً فقد ذهب به ؛ لأن الذهاب بالشىء هو استصحاب له ومضىٌّ به ، وفى ذلك نوع احتجار بالمذهوب به وإمساك له عن الرجوع إلى حالته والعَوْد إلى مكانه ، وليس كذلك الإذهاب للشىء ؛ لزوال معنى الاحتجار عنه .

ومما يحمل على ذلك الأوصاف الخاصة إذا وقعت على شيئين ، وكان يلزم من وصف أحدهما وصف الآخر ، ولا يلزم عكس ذلك ، ومثاله قوله تعالى : (سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ) فإنه إنما خصّ العرض بالذكر دون الطول للمعنى الذى أشرنا إليه ، والمراد بذلك أنه إذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟

وهذا فى حالة الإثبات ؛ ولو أريد النفى لكان له أسلوب غير ما ذكرناه ، وهو أنه كان يخص به الطول دون العرض .

وأما الأسماء المفردة الواقعة على الجنس فنحو قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فإنه إنما قال: (ليس بى ضلالة) ولم يقل ليس بى ضلال كما قالوا لأن نفى الضلالة أبلغ من نفى الضلال عنه، كما لو قيل: ألك تمر؟ فقلت فى الجواب: مالى تمرة، وذلك أنفى للتمر، ولو قلت «مالى تمرة» لما كان يؤدى من المعنى ما أداه القول الأول.

وفى هذا الموضع دقة تحتاج إلى فضل تمام، فينبغى لصاحب هذه الصناعة مراعاته والعناية به.

فان قيل: لافرق بين الضلالة والضلال، وكلاهما مصدر قولنا ضَلَّ يَضِلُّ ضَلَالاً وضَلَّ يَضِلُ ضَلَالَة، كما يقال: لَذَّ يَلَذ [لَذاذًا و] لَذاذة.

فالجواب عن ذلك أن الضلالة تكون مصدراً كما قلت، وتكون عبارة عن المرة الواحدة، تقول: ضل يضل ضلالةً: أى مرة واحدة، كما تقول: ضرب يضرب ضَرْبَةً، وقام يقوم قَوْمَة، وأكل يأكل أَكْلَة، والمراد بالضلالة فى هذه الآية إنما هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال؛ فقد نفى ما فوقها من المرتين والمرار الكثيرة.

وأما الصفتان الواردتان على شىء واحد فكقول الأشتر النخعى[1]:

خَلَّفْتُ وَفْرِى وانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى وَلَقِيتُ أَضْيَافِى بِوَجْهِ عَبُوسِ[2]

(١) هو من شعر ديوان الحماسة، وانظر شرح التبريزى (١ – ١٤٣).

(٢) وقع فى ب، ج «حلقت وفدى وانحرفت على العلى» وهو تصحيف شنيع، والذى فى ديوان الحماسة:

* بَقَّيْتُ وَفْرِى وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى *

والوفر: المال، يدعو على نفسه بأن يموت ويترك ماله؛ والعبوس – بفتح العين – وصف من العبوس بضمها، وهو الكلوح عن غضب، ومن أقبح القبائح عند العرب أن يلقى أحدهم ضيفه عابسا؛ فهو يدعو على نفسه بأن يرتكب هذه المنقصة إن لم يفعل ماذكره فى البيت الثانى.

إنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى ابْنِ حَرْبٍ غَارَةً ... لَمْ تَخْلُ يَوْمًا مِنْ نِهَابِ نُفُوسِ
خَيْــلاً كَأَمْثَالِ السَّعَالِي شُزَّبًا ... تَعْدُو بِبِيضٍ فِي الْكَرِيهَةِ شُوسِ (١)
حَمِيَ الْحَدِيدُ عَلَيْهِمُو فَكَأَنَّهُ ... لَمَعَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ (٢)

ألا ترى أنه رقى فى التشبيه من الأدنى إلى الأعلى فقال « لمعان برق أوشعاع شموس » ؟ لأن لَمَعَانَ البرق دون شعاع الشموس .

ومما ورد من ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى : (مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا) فإن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة ، وعلى القياس المشار إليه أولا فينبغى أن يكون لايغادر كبيرة ولا صغيرة لأنه إذا لم يغادر صغيرة فمن الأولى ألاَّ يغادر كبيرة ، وأما إذا لم يغادر كبيرة فإنه يجوز أن يغادر صغيرة ؛ لأنه إذا لم يَعْفُ عن الصغيرة فيقضى القياس أنه لايعفو عن الكبيرة ، وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة ، غير أن القرآن الكريم أحق أن يتبع ، وأجدر بأن يقاس عليه ، لاعلى غيره ، والذى ورد فيه من هذه الآية ناقض لما تقدم ذكره .

وكذلك ورد قوله تعالى : (فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا) لأن التأفيف أدنى درجة ، وقد تقدم قولى فى أول هـذا النوع أنه إذا جاءت صفتان يلزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يكتفى بذكرها دون الأخرى ؛ لأن الأخرى تجىء ضمنا وتبعا ، وأن يبدأ بها فى الذكر ثم تجىء الأخرى بعدها ، وعلى هذا فيقال أولا فلا تنهرهما ولا تقل لهما أف ، لكن إذا لم يقل لهما أف أُمتنع أن

(١) وقع فى ب ، ج « خيل كأمثال السعالى شرما » وهو تحريف ، وتصحيحه عن ديوان الحماسة . والشزب — بضم الشين وتشديد الزاى مفتوحة — الضمر . والشوس : جمع أشوس ، وهو الذى ينظر نظرة الغاضب المتكبر .

(٢) فى الحماسة :

* وَمَضَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ *

بنهرهما ، وقد كان هذا هو المذهب عندى حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بخلافه ، وحينئذ عُدْتُ عما كنت أراه وأقول به .

وأما الصفات المتعددة الواردة على شىء واحد فكقول أبى عُبادة البحترى فى وصف نحول الرِّكاب[١] :

يَتَرَقْرَقْنَ كَالسَّرَابِ وَقَدْ خُضْـــنَ غِمَاراً مِنَ السَّرَابِ الْجَارِى
كَالْقِسِىِّ الْمُعَطَّفَاتِ بَلِ الْأَسْــهُمِ مَــبْرِيَّةً بَلِ الْأَوْتَارِ

ألا ترى أنه رقى فى تشبيه نحولها من الأدنى إلى الأعلى ؛ فشبهها أولاً بالقسىّ ، ثم بالأسهم المبرية ، وتلك أبلغ فى النحول ، ثم بالأوتار ، وهى أبلغ فى النحول من الأسهم ، وكذلك ينبغى أن يكون الاستعمال فى مثل هذا الباب .

وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك ، فمن جملتهم أبو الطيب المتنبى فى قوله[٢] :

يَا بَدْرُ يَا بَحْرُ يَا غَمَامَةُ يَا لَيْثَ الشَّرَى يَا حِمَامُ يَا رَجُلُ[٣]

وينبغى أن يبدأ فيه بالأدنى فالأدنى ، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل إلى محل أدنى منه ، فأما قوله « يابدر » فإنه اسم الممدوح ، والابتداء به أولى ، ثم بعده فيجب أن يقول : يارجل ، ياليث ، ياغمامة ، يابحر ، ياحمام ؛ لأن الليث أعظم من الرجل ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر ، وهـذا مقام مدح فيجب أن يرقى

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد ، وأولها قوله :

أَبُكَاءٌ فِى الدَّارِ بَعْدَ الدَّارِ وَسُــلُوًّا بِزَيْنَبٍ عَنْ نَوَارِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار وقد فصد لعلة ، وأولها قوله :

أَبْعَدُ نَأْىِ الْمَلِيحَـةِ الْبَخَلُ فِى الْبُعْدِ مَالاَ تُـكَلَّفُ الْإِبِلُ

(٣) يقول : يابدر أنت فى جودك بحر وسحاب ، وفى إقدامك وشجاعتك ليث ، وفى تمكنك من قتل الأعداء موت ، وقد جمعت كل هذه الصفات وأنت مع ذلك رجل . والشرى : مكان تنسب إليه الأسود . والحمام ـ بكسر الحاء المهملة ـ الموت .

فيه من منزلة إلى منزلة حتى ينتهى إلى المنزلة العليا آخراً[١] ، ولو كان مقام ذم لعكس القضية.

وعلى مثله ورد قول أبى تمام يفتخر[٢] :

سَمَا بِيَ أَوْسٌ فِي الْفَخَارِ وَحَاتِمٌ   وَزَيْدُ الْقَنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَرَافِعُ[٣]

نُجُومٌ طَوَالِعٌ جِبَالٌ فَوَارِعٌ   غُيُوثٌ هَوَامِعٌ سُيُولٌ دَوَافِعُ[٤]

فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم ، ولو قدّم ما أخر لما اختل النظم[٥] بأن قال :

سيول دوافع غيوث هوامع   جبال فوارع نجوم طوالع

وهذا عندى أشد ملامة من المتنبى ، لأن المتنبى لا يمكنه تقديم ألفاظ بيته وتأخيرها ، وأبو تمام متمكن من ذلك ، وما أعلم كيف ذهب عليه هذا الموضع مع معرفته بالمعانى .

---

(١) لا نسلم للمؤلف هذا الاعتراض ؛ لأن الذى ذكره إنما يتجه لو كان يشبهه بشيئين فى شىء واحد ؛ أما وهو يريد بكل واحد لا يتلاقى مع الباقى كما بيناه فى شرح البيت فهو بالخيار فى أن يقدم أيها شاء .

(٢) من قصيدة له يفتخر فيها و يصف قومه ، وأولها قوله :

أَلَا صَنَعَ الْبَيْنُ الَّذِى هُوَ صَانِعُ   فَإِنْ تَكُ مِجْزَاعاً فَمَا الْبَيْنُ جَازِعُ

وانظر الديوان (٤٧٧ بيروت) :

(٣) رواية الديوان هكذا .

سَمَا بِيَ أَوْسٌ فِي السَّمَاحِ وَحَاتِمٌ   وَزَيْدُ الْقَنَا وَالْأَثْرَمَانِ وَنَافِعُ

(٤) وقع فى الديوان « طواليع » و « هواميع » بزيادة ياء الإشباع ، وبين البيتين بيت وهو قوله :

وَكَانَ إِيَاسٌ مَا إِيَاسٌ ، وَعَارِفٌ   وَحَارِثَةٌ أَوْفَى الْوَرَى وَالْأَصَابِعُ

(٥) على رواية الديوان لا يستطيع التقديم بالصورة التى ذكرها المؤلف .

النوع التاسع

فى التقـديم والتأخير

وهذا باب طويل عريض ، يشتمل على أسرار دقيقة ، منها ما استخرجته أنا ، ومنها ماوجدته فى أقوال علماء البيان ، وسأورد ذلك مبيناً

وهو ضربان : الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعانى ، ولوأخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أخر لما تغير المعنى .

فأما الضرب الأول فإنه ينقسم إلى قسمين : أحدهما يكون التقديم فيه هو الأبلغ ؛ والآخر يكون التأخير فيه هو الأبلغ .

فأما القسم الذى يكون التقديم فيه هو الأبلغ فكتقديم المفعول على الفعل ، وتقديم الخبر على المبتدإ ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل .

فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل ، كقولك : زَيْداً ضَرَبْتُ ، وضربت زيداً ، فإن فى قولك « زيداً ضربت » تخصيصاً له بالضرب دون غيره ، وذلك بخلاف قولك « ضربت زيداً » ؛ لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار فى إيقاعه على أىّ مفعول شئت ، بأن تقول : ضربت خالداً ، أو بكراً ، أو غيرهما ، وإذا أخَّرْته لزم الاختصاص للمفعول .

وكذلك تقديم خبر المبتدإ عليه ، كقولك : زيد قائم ، وقائم زيد ؛ فقولك « قائم زيد » قد أثبتَّ له القيام دون غيره ، وقولك « زيد قائم » أنت بالخيار فى إثبات القيام له ونفيه عنه ؛ بأن تقول : ضارب ، أو جالس ، أو غير ذلك ،

وهكذا يجرى الحكم فى تقديم الظرف ، كقولك : إن إلىَّ مصيرَ هذا الأمر ، وقولك : إنَّ مصير هذا الأمر إلى ؛ فإن تقديم الظرف دلَّ على أن مصير الأمر ليس إلا إليك ، وذلك بخلاف قولك : إن مصير هذا الأمر إلى ؛ إذ

يحتمل إيقاع الكلام بعد الظرف على غيرك؛ فيقال: إلى زيد، أو عمرو، أو غيرهما.

وكذلك يجرى الأمر فى الحال والاستثناء.

وقال علماء البيان ــ ومنهم الزمخشرى رحمه الله ــ: إن تقديم هذه الصورة المذكورة إنما هو للاختصاص، وليس كذلك، والذى عندى فيه أن يستعمل على وجهين: أحدهما الاختصاص، والآخر مراعاة نظم الكلام، وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم، و إذا أخر المقدَّمُ ذهب ذلك الحسن، وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص.

فأما الأول الذى هو الاختصاص فنحو قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فإنه إنما قيل (بل الله فاعبد) ولم يقل «بل اعبد الله» لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره، ولو قال «بل اعبد» لجاز إيقاع الفعل على أى مفعول شاء.

وأما الوجه الثانى الذى يختص بنظم الكلام فنحو قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن التقديم فى هذا الموضع قصد به الاختصاص، وليس كذلك؛ فإنه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص، وإنما قدم لمكان نظم الكلام؛ لأنه لو قال نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله: (إياك نعبد و إياك نستعين) ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فجاء بعد ذلك قوله: (إياك نعبد و إياك نستعين) وذاك لمراعاة حسن النظم السَّجْعِيِّ الذى هو على حرف النونِ، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن، وهذا غير خافٍ على أحد من الناس، فضلا عن أرباب علم البيان.

وعلى نحو منه ورد قوله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى) وتقدير الكلام فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، وإنما قدم المفعول على الفاعل وفَصَل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصدًا لتحسين النظم ، وعلى هذا فليس كل تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص ؛ فبطل إذًا ما ذهب إليه الزمخشرى وغيره .

ومما ورد من هذا الباب قوله تعالى : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) فإن تقديم الجحيم على التَّصْلِية وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل إلا أنه لم يكن ههنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السجعية ، ولا مِرَاء فى أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم .

فإن قيل : إنما قدمت الجحيم للاختصاص ؛ لأنها نار عظيمة ، ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيداً ، وزيداً ضربت ، وقد تقدم الكلام على ذلك .

فالجواب عن ذلك أن الدَّرْكَ الأسفل أعظم من الجحيم ؛ فكان ينبغى أن يخص بالذكر دون الجحيم ، على ما ذهب إليه ؛ لأنه أعظم ، وهذا لا يذهب إليه إلا مَنْ هو بِنَجْوَةٍ عن رموز الفصاحة والبلاغة ، ولفظة الجحيم ههنا فى هذه الآية أولى بالاستعمال من غيرها ؛ لأنها جاءت ملائمة لنظم الكلام ، ألا ترى أن من أسماء النار السعير ولظى وجهنم ، ولو وضع بعض هذه الأسماء مكان الجحيم لما كان له من الطلاوة والحسن ما للجحيم ، والمقصود بذكر الجحيم إنما هو النار : أى صَلُّوه النار ، وهكذا يقال فى (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) فإنه لم يقدم السلسلة على السَّلْكِ للاختصاص ، وإنما قدمت لمكان نظم الكلام ، ولا شك أن هذا النظم أحسن من أن لو قيل ثم اسلكوه فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ، والكلام على هذا كالكلام على الذى قبله ، وله

فى القرآن نظائر كثيرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) فقوله : (والقمر قدرناه منازل) ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ؛ فإنه قال : (اللَّيْلُ نسلخ منه النهار) ثم قال : (والشمس تجرى) فاقتضى حسن النظم أن يقول : (والقمر قدرناه) ليكون الجميع على نَسَقٍ واحد فى النظم ، ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة فى الحسن ، وعليه ورد قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعى .

وأما تقديم خبر المبتدإ عليه فقد تقدمت صورته ، كقولك : زيد قائم ، وقائم زيد ؛ فما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ) فإنه إنما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم لأن فى تقديم الخبر الذى هو مانعتهم على المبتدإ الذى هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم فى حصانتها ، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم ، وفى تصويب ضميرهم اسماً لأنَّ وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عِزَّة وامتناع لايبالى معها بقصد قاصد ولا تعرض متعرض ، وليس شىء من ذلك فى قولك : وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله .

ومن تقـديم خبر المبتدإ قوله تعالى : (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ[1]) فإنه إنما قدم خبر المبتدإ عليه فى قوله : (أراغب أنت) ولم

(١) جمهور النحاة فى هذه الآية على أن « أنت » فاعل براغب ، وليس مبتدأ مؤخرا ؛ لما يلزم على كونه مبتدأ من الفصل بين العامل الذى هو «راغب» والمعمول الذى هو «عن آلهتى» بأجنبى وهو «أنت» ؛ فإنك تعلم أن الخبر غير عامل فى المبتدإ

يقل أأنت راغب لأنه كان أهمّ عندهم ، وهو به شديد العناية ، وفى ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغى أن يرغب عنها ، وهذا بخلاف مالو قال أأنت راغب عن آلهتى .

ومن غامض هذا الموضع قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فإنه إنما قال ذلك ولم يقل فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين : أحدهما تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها ؛ أما الأول فلو قال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع شاخصة غيره ، فيقول : حائرة ، أو مطموسة ، أو غير ذلك ، فلما قدم الضمير اختصّ الشخوص بالأبصار دون غيرها ، وأما الثانى فإنه لما أراد أن الشخوص خاصّ بهم دون غيرهم دلّ عليه بتقديم الضمير أوّلا ثم بصاحبه ثانياً ، كأنه قال : فإذا هم شاخصون دون غيرهم ، ولولا أنه أراد هذين الأمرين المشار إليهما لقال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة ؛ لأنه أخصر بحذف الضمير من الكلام .

ومن هذا النوع قول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر ؛ فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ » وتقدير الكلام : هو الذى ماؤه طهور وميتته حلّ ؛ لأن الألف واللام ههنا بمعنى الذى .

وأما تقديم الظرف ، فإنه إذا كان الكلام مقصودا به الإثبات فإن تقديمه أولى من تأخيره ، وفائدته إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره ، فإذا أريد بالكلام النفى فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره ، وكلا هذين الأمرين له موضع يختص به .

على ماهو الراجح من أقوال النحاة . فإما أن يكون المؤلف جاريا فى هذا على رأى أهل الكوفة الذين يرون أن المبتدأ والخبر ترافعا ؛ و إما أن يكون قصده إلى المبتدإ والخبر ولو بحسب المعنى .

فأما تقديمه فى النفى فإنه يقصد به تفضيل المنفى عنه على غيره .

وأما تأخيره فإنه يقصد به النفى أصلاً من غير تفضيل .

فأما الأول ـ وهو تقديم الظرف فى الإثبات ـ فكقولك فى الصورة المقدمة : إنَّ إلىَّ مصير هذا الأمر ، ولو أخرت الظرف فقلت : إن مصير هذا الأمر إلى ؛ لم يُعْطِ من المعنى ما أعطاه الأول ، وذلك أن الأول دلّ على أن مصير الأمر ليس إلا إليك ، وذلك بخلاف الثانى ؛ إذ يحتمل أن توقع الكلام بعد الظرف على غيرك ؛ فيقال : إلى زيد، أو عمرو، أو غيرهما ، وعلى نحومنه جاء قوله تعالى : (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) وكذلك جاء قوله تعالى : (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ) فإنه إنما قدم الظرفين ههنا فى قوله (له الملك وله الحمد) ليدلّ بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا بغيره .

وقد استعمل تقديم الظرف فى القرآن كثيراً كقوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) أى : تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديم الظرف ههنا ليس للاختصاص [1] ، و إنما هو كالذى أشرت إليه فى تقديم المفعول، وأنه لم يقدم للاختصاص ، و إنما قدم من أجل نظم الكلام ، لأن قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) أحسن من أن لو قيل : وجوه يومئذ ناضرة ناظرة إلى ربها ، والفرق بين النظمين ظاهر ، وكذلك قوله تعالى : (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) فإن هذا روعى فيه حسن النظم ، لا الاختصاص، فى تقديم الظرف ، وفى القرآن مواضع كثيرة من هذا القبيل يقيسها غير العارف بأسرار الفصاحة على مواضع أخرى وردت للاختصاص وليست كذلك ، فمنها قوله تعالى : (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) وقوله تعالى : (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) و (لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) و (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فإن هذه

(١) كيف وقد فسر المعنى بقوله « أى تنظر إلى ربها دون غيره » فالأحسن أنه مع إفادته الاختصاص قدم للغرض اللفظى الذى أشار إليه .

جميعها لم تقدم الظروف فيها للاختصاص ، وإنما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم الكلام ؛ فاعرف ذلك .

وأما الثانى ـ وهو تأخير الظرف وتقديمه فى النفى ـ فنحو قوله تعالى : (الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) وقوله تعالى : (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ) فإنه إنما أخر الظرف فى الأول لأن القصد فى إيلاء حرفِ النفى الريبَ نفىُ الريبِ عنه ، وإثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أَوْلَاهُ الظرفَ لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد فى قوله تعالى : (لا فيها غول) فتأخير الظرف يقتضى النفى أصلاً من غير تفضيل ، وتقديمه يقتضى تفضيل المنفى عنه ، وهو خمر الجنة ، على غيرها من خمور الدنيا : أى ليس فيها مافى غيرها من الغَوْل ، وهذا مثل قولنا : لاعيب فى الدار ، وقولنا : لا فيها عيب ، فالأول نفى للعيب عن الدار فقط ، والثانى تفضيل لها على غيرها : أى ليس فيها مافى غيرها من العيب ، فاعرف ذلك فإنه من دقائق هذا الباب .

وأما تقديم الحال فكقولك : جاء راكباً زيد ، وهذا بخلاف قولك : جاء زيد راكباً ؛ إذ يحتمل أن يكون ضاحكاً أو ماشياً أو غير ذلك .

وأما الاستثناء فجارٍ هذا المجرى ، نحو قولك : ماقام إلا زيداً أحد ، أو ماقام أحد إلا زيداً ، والكلام على ذلك كالكلام على ماسبق .

وأما القسم الثانى فهو أن يقدم ما الأَوْلَى به التأخير لأن المعنى يختل بذلك ويضطرب ، وهذا هو المعاظلة المعنوية ، وقد قدمنا القول فى المقالة الأولى المختصة بالصناعة اللفظية بأن المعاظلة تنقسم قسمين : أحدهما لفظى ، والآخر معنوى ، أما اللفظى فذكرناه فى بابه ، وأما المعنوى فهذا بابه وموضعه ، وهو كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ، وغير ذلك مما يرد بيانه .

فمن هذا القسم قول بعضهم :

فَقَدْ وَالشكُّ بين لى عناء ... بِوَشْكِ فِراقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فإنه قدم قوله « بوشك فراقهم » وهو معمول « يصيح » و « يصيح » صفة لصرد على صرد ، وذلك قبيح ؛ ألا ترى أنه لايجوز أن يقال : هذا مِنْ موضع كذا رَجُلٌ وَرَدَ اليوم ، وإنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل ؛ فكما لايجوز تقديم الصفة على موصوفها فكذلك لايجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها .

ومن هذا النحو قول الآخر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِها ... كَأَنَّ قَفْراً رُسُومَهَا قَلَما

فإنه قدم خبر كأنَّ عليها وهو قوله « خَطَّ » ؛ وهذا وأمثاله مما لايجوز قياس عليه ، والأصل فى هذا البيت : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خطَّ رُسُومَهَا ، إلا أنه على تلك الحالة الأولى فى الشعر مختل مضطرب .

والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح ، وهذا البيت المشار إليه من أقبحها ؛ لأن معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضاً .

ومما يجرى هذا المجرى قول الفرزدق :

إلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ ... أَبُوهُ وَلاَ كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

وهو يريد : إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، وهذا أقبح من الأول ، وأكثر اختلالا .

وكذلك جاء قوله أيضاً :

وَلَيْسَتْ خُرَاسَانُ الَّتِى كَانَ خَالِدٌ ... بِهَا أَسَدٌ إذْ كَانَ سَيْفاً أَمِيرُهَا

وحديث هذا البيت ظريف ، وذلك أنه ، فيما ذكر ، يمدح خالدبن عبد الله القَسْرِىَّ ، ويهجو أسدا ، وكان أسد وليها بعد خالد ، وكأنه قال : وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها ، وعلى هذا التقدير ففى « كان »

الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قدم بعض ما إذْ مضافة إليه وهو « أسد » عليها ، وفى تقديم المضاف إليه أو شىء منه على المضاف من القبح ما لاخفاء به ، وأيضاً فإن أسداً أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير لايكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير ، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول .

وعلى هذا النحو ورد قول الفرزدق أيضاً :

وَمَا مِثْلُهُ فى النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

ومعنى هذا البيت : وما مثله فى الناس حَىٌّ يقاربه إلا مملَّكاً أبو أمه أبوه ، وعلى هذا المثالُ المصوغُ فى الشعر قد جاء مشوَّهاً كما تراه

وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كثيراً ، كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده ؛ لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نَفْسَهُ تجرى على سجيتها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شىء من هذا التعقيد ، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا الضرب المشار إليه ؛ إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

واعلم أن هذا الضرب من الكلام هو ضد الفصاحة ؛ لأن الفصاحة هى الظهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف .

وأما الضرب الثانى الذى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك فإنه مما لايَحْصُره حَدٌّ ، ولا ينتهى إليه شرح ، وقد أشرنا إلى نبذة منه فى هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها .

فمن ذلك تقديم السبب على المسبب ، كقوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإنه إنما قدّم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القُرْبة والوَسيلة قبل

طاب الحاجة أَنْجَحُ لحصول الطلب ، وأسرع لوقوع الإجابة ، ولو قال إياك نستعين وإياك نعبد لـكان جائزاً إلا أنه لايسدُّ ذلك المسدَّ ، ولا يقع ذلك الموقع ، وهذا لايخفى على المنصف من أرباب هــذه الصناعة ، وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً) فقدّم حياة الأرض و إسقاء الأنعام على إسقاء الناس ، و إن كانوا أشرف محلاً ؛ لأن حياة الأرض هى سبب لحياة الأنعام والناس ، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة فى الذكر ، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها فى الذكر على الناس ؛ لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم ، فقدم سقى ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم .

ومن هذا الضرب تقديم الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) . و إنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته ، وأن معظم الخلق عليه ، ثم أتى بعده بالمقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إليه ، ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل أعنى من المقتصدين ؛ فقدم الأكثر ، و بعده الأوسط ، ثم ذكر الأقل آخرا ، ولوعكست القضية لـكان المعنى أيضاً واقعاً فى موقعه ؛ لأنه يكون قد روعى فيه تقديم الأفضل فالأفضل .

ولنوضح لك فى هذا وأمثاله طريقا تقتفيه ، فنقول : اعلم أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختصا بصفة فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت فى الذكر ، كهذه الآية ؛ فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل ، والظالم لنفسه مختص بصفة الـكثرة ، فقِسْ على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) فإنه إنما قدم الماشى على بطنه لأنه أدل على القدرة من الماشى على رجلين ؛ إذ

هوماش بغيرالآلة المخلوقة للمشى ، ثم ذكر الماشى على رجلين وقدّمه على الماشى على أربع ؛ لأنه أدل على القدرة أيضاً حيث كثرت آلات المشى فى الأربع ، وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب .

فان قيل : قد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع منه ما يخالف هذا الذى ذكرته ، كقوله تعالى فى سورة هود : (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ) ثم قال : (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ) فقدم أهل النار فى الذكر على أهل الجنة ، وهذا مخالف للأصل الذى أصلته فى هذا الموضع .

فالجواب عن ذلك أن هذا الذى أشرت إليه فى سورة هود وما أشبهه له أسرار تحتاج إلى فضل تأمل وإمعان نظر ، حتى تفهم : أما هذا الموضع فإنه لما كان الكلام مسوقا فى ذكر التخويف والتحذير ، وجاء على عقب قصص الأولين وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير ؛ كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه فى المعنى ، وهو ذكر أهل النار ؛ فمن أجل ذلك قدموا فى الذكر على أهل الجنة ، وإذا رأيت فى القرآن شيئاً من هذا القبيل وما يجرى مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين لك مكان الصواب منه .

واعلم أنه إذا كان مطلع الكلام فى معنى من المعانى ثم يجىء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسبا لمطلع الكلام ؛ فأنت بالخيار فى تقديم أيهما شئت ؛ لأنك إن قدمت الأفضل فهو فى موضعه من التقديم ، وإن قدمت المفضول فلأن مطلع الكلام يناسبه ، وذكر الشىء مع ما يناسبه أيضاً وارد فى موضعه .

فمن ذلك قوله تعالى : (وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) فإنه إنما قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن لأنه ذكر البلاء فى آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه للرحمة السابقة عنده ، ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتى هُنَّ من جملة ما لا يشاؤه الإنسان ولا يختاره أهَمَّ ، والأهم واجب التقديم ، وليَلِيَ الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، ولما أخر ذكر الذكور ، وهم أحقاء بالتقديم ، تدارك ذلك بتعريفه إياهم ؛ لأن التعريف تنويه بالذكر ، كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفَوْنَ عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهنّ ، ولكن لمقتض آخر ، فقال (ذكرانا وإناثا) وهذه دقائق لطيفة قَلَّ من يتنبه لها أو يعثر على رموزها .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) فإنه إنما قدم الأرض فى الذكر على السماء ، ومن حقها التأخير ، لأنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله : (وما يعزب) لاءم بينهما ؛ ليلي المعنى المعنى .

فإن قيل : قد جاء تقديم الأرض على السماء فى الذكر فى مواضع كثيرة من القرآن .

قلنا : إذا جاءت مقدمة فى الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه ، وإن خفى ذلك السبب ، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض .

النوع العاشر

فى الحروف العاطفة والجارّة

وهذا موضع لطيف المأخذ ، دقيق المَغْزَى ، وما رأيت أحداً من علماء هذه الصناعة تعرّض إليه ، ولا ذكره ، وما أقول إنهم لم يعرفوه ؛ فإن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى ؛ لأنه مذكور فى كتب العربية جميعها ، ولست أعنى بإيراده ههنا مايذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تُتْبِع [المعطوف] المعطوف عليه فى الإعراب ، ولا أن الحروف الجارة تجرّ ماتدخل عليه ، بل أمْرًا وراء ذلك ، وإن كان المرجع فيه إلى الأصل النحوى ، فأقول :

إن أكثر الناس يَضَعُون هذه الحروف فى غير مواضعها ؛ فيجعلون ماينبغى أن يجرّ بعلى بفى فى حروف الجرّ ، وفى هذه الأشياء دقائق أذكرها لك .

أما حروف العطف فنحو قوله تعالى : (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) فالأول عطفه بالواو التى هى للجمع ، وتقديم الإطعام على الإسقاء والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ، ثم عطف الثانى بالفاء ؛ لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خالٍ من أحدهما ، ثم عطف الثالث بثم ؛ لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ، ولهذا جىء فى عطفه بثم التى هى للتراخى ، ولو قال قائل فى موضع هذه الآية الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين لكان للكلام معنى تام إلا أنه لايكون كمعنى الآية ؛ إذ كل شىء منها قد عطف بما يناسبه ويقع موقع السداد منه .

ومما جاء من هذا الباب قوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) ألا ترى أنه لما قال : (من نطفة خلقه) كيف قال : (فقدّره) ولم

يقل ثم قدّره ؛ لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة وملازماً لها عطفه عليها بالفاء ، وذلك بخلاف قوله : (ثم السبيل يسّره) ؛ لأن بين خلقته وتقديره فى بطن أمه وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزمانا ؛ فلذلك عطفه بثم ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) ؛ لأن بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخياً وفُسْحَة ، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً ، ولذلك عطفهما بثم ، ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخٍ ولا مهلة عطفه بالفاء ، وهذا موضع من علم البيان شريف ، وقلما يتفطن لاستعماله كما ينبغى .

ومما جاء من ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام : (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) وفى هذه الآية دليل على أن حملها به ووضعها إياه كانا متقاربين ؛ لأنه عطف الحمل والانتباذ إلى المكان الذى مضت إليه والمخاض الذى هو الطَّلْق بالفاء ، وهى للفور ، ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثم التى هى للتراخى والمهلة ، ألا ترى أنه قد جاء فى الأخرى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) فلما كان بين تقديره فى البطن وإخراجه منه مُدَّةٌ مُتَرَاخية عطف ذلك بثم ، وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام ، فإنها عطفت بالفاء ، وقد اختلف الناس فى مدة حملها ؛ فقيل : إنه كان كَحَمْلِ غيرها من النساء ، وقيل : لا ، بل كان مدة ثلاثة أيام ، وقيل : أقل ، وقيل : أكثر ، وهذه الآية مُزِيلة للخلاف ؛ لأنها دلت صريحاً على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة ، وربما كان ذلك فى يوم واحد أو أقل ؛ أخذا بما دلت عليه الآية .

ومما ورد من هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) فى الآية المتقدم ذكرها قال: (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) نعطف التقدير على الخلق بالفاء؛ لأنه تابع له، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق، وفى هذه الآية ذكر تفاصيل حاله فى تنقله؛ فبدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثانى الذى هو خلق النسل عطفه بثم؛ لما بينهما من التراخى، وحيث صار إلى التقدير الذى يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى ـ وهو آخر الخلق ـ عطفه بثم.

فإن قيل: إنه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء، وفى أخرى بثم، وهى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ).

فالجواب عن ذلك (١).

واعلم أن فى حروف العطف موضعا تلتبس [فيه] الفاء بالواو، وهو موضع يحتاج فيه إلى فضل تأمل، وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه إلا بالفاء، دون الواو، وقد يجىء من الأفعال ما يلتبس بفعل المطاوعة، ويعطى ظاهره أنه كذلك إلا أن معناه يكون مخالفاً لمعنى فعل المطاوعة فيعطف حينئذ بالواو؛ لا بالفاء، كقوله تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) فقوله: (أغفلنا قلبه)

(١) سقط هذا الجواب من جميع أصول الكتاب التى بين أيدينا. ونريد أن ننبهك إلى شىء، وهو أن الزمن الذى تصير فيه النطفة علقة طويل، ولكن الحالتين متصلتان، فأحيانا ينظر إلى طول الزمان فيعطف بثم، وأحيانا ينظر إلى اتصال الحالين ثانيهما بأولهما من أن غير أن يفصل بينهما بغيرهما فيعطف بالفاء، ومثل هذا «تزوج محمد فولد له»؛ وشىء آخر، وهو أن صيرورة التراب نطفة أمر مستبعد فى ظاهر الحال، ومثل ذلك صيرورة النطفة علقة؛ لاختلاف إحداهما عن الأخرى اختلافا ظاهرا، ولكن صيرورة العلقة مضغة لا غرابة فيه لتقاربهما؛ فلهذا الوجه عطف فى الآية الأولى فى الحالين الأولين بثم، وعطف فيما بعدهما بالفاء، وفى الآية الثانية لوحظت أطوار الخلق وتباعد الأوقات بين كل طورين.

هٰهنا بمعنى صادفناه غافلا ، وليس منقولا عن غَفَل حتى يكون معناه صَدَدْناه ؛ لأنه لو كان كذلك لكان معطوفا عليه بالفاء ، وقيل : فاتبع هواه ، وذلك أنه يكون مطاوعا ، وفعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء ، كقولك : أعطيته فأخذ ، أو دعوته فأجاب ، ولا تقول : أعطيته وأخذ ، ولا دعوته وأجاب ، كما لا يقال : كسرته وانكسر . وكذلك لو كان معنى أغفلنا في الآية صددنا ومنعنا لكان معطوفا عليه بالفاء ، وكان يقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه ، فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه بالواو ؛ فطريقه أنه لما قال : (أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) أن يكون معناه وجدناه غافلا ؛ فقد غفل لا محالة ؛ فكأنه قال : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا واتبع هواه : أى لا تطع من فعل كذا وكذا ، يُعَدِّدُ أفعاله التي توجب ترك طاعته ، فاعرف ذلك .

وأما حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها فى مواضعها ، وقد علم أن « فى » للوعاء ، و « على » للاستعلاء ، كقولهم : زيد فى الدار ، وعمرو على الفرس ، لكن إذا أريد استعمال ذلك فى غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى .

فمما ورد منه قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفى الجر هٰهنا ؛ فإنه إنما خولف بينهما فى الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جوادٍ يَرْكُض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه مُنْغَمِس فى ظلام مُنْخَفض فيه لا يدرى أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله فى الكلام ، وكثيراً ما سمعت إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور ؛ فيقول له : أنت على ضلالك القديم كما أعهدك ، فيأتى بعلى فى موضع فى ، وإن كان هذا جائزا ، إلا أنّ استعمال

«فى» هٰهنا أولى ؛ لما أشرنا إليه ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة يوسف : (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) .

ومن هذا النوع قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فإنه إنما عدل عن اللام إلى « فى » فى الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام ؛ لأن « فى » للوعاء ، فنبه على أنهم أَحِقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشىء فى الوعاء ، وأن يُجْعلوا مَظِنة لها ، وذلك لما فى فك الرقاب وفى الغرم من التخلص ، وتكرير « فى » فى قوله : (وفى سبيل الله) دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين ، وسياق الكلام أن يقال : وفى الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل ، فلما جىء بفى مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين و بين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد فى استحقاق النفقة فيه ، وهذه لطائف ودقائق لاتوجد إلافى هذا الكلام الشريف ، فاعرفها وقس عليها .

النوع الحادى عشر

فى الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية

والفرق بينهما

ولم أذكر هذا الموضع لأن يجرى الأمر فيه على مايجرى مجراه فقط ، بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتشابهه ، ولو كان شبهاً بعيداً .

وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة .

فمن ذلك قولنا : قَامَ زَيْدٌ ، وَإِنَّ زَيْدًا قائم ، فقولنا « قام زيد » معناه

الإخبار عن زيد بالقيام ، وقولنا « إن زيداً قائم » معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً ، إلا أن فى الثانى زيادة ليست فى الأول ، وهى توكيده بإنَّ المشددة التى من شأنها الإثبات لما يأتى بعدها ، وإذا زيد فى خبرها اللام فقيل : إنَّ زيداً لقائم ؛ كان ذلك أكثر توكيداً فى الإخبار بقيامه ، وهذا مثال ينبنى عليه أمثلة كثيرة من غير هذا النوع .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنَّ المشددة لأنهم فى مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا عنه على صِدْقٍ ورغبةٍ ووُفُور نشاطٍ ، فكان ذلك مُتقبّلا منهم ، ورائجاً عند إخوانهم ؛ وأما الذى خاطبوا به المؤمنين ، فإنما قالوه تكلفا وإظهاراً للإيمان خوفاً ومُداجاة ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجا ظاهراً لا باطناً ، ولأنهم ليس لهم فى عقائدهم باعث قوى على النطق فى خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ؛ فلذلك قالوا فى خطاب المؤمنين (آمنا) وفى خطاب إخوانهم (إنا معكم) وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة فى علم الفصاحة والبلاغة .

ومما يجرى هذا المجرى ورود لام التوكيد فى الكلام ، ولا يجىء ذلك إلا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه إذا عبر عن أمرٍ يعِزُّ وجوده أو فعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك .

فمما جاء منه قوله تعالى فى أول سورة المنافقين : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة فى خبر إنّ ، والأولى وردت فى قول المنافقين ، وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق

برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتملقوا له ، و بالغوافى التملق ، وفى باطنهم خلافه، وأما ماورد فى الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه ، واللام فى الثانية لتصديق رسالته ، وفى الثالثة لتكذيب المنافقين فيما كانوا يظهرونه من التصديق الذين هم على خلافه .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فانه إنما جيء باللام ههنا لزيادة التوكيد فى إظهار المحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه ؛ ليبلغوا الغرض من أبيهم فى السماحة بإرساله معهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) ثم قال : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) ألا ترى كيف أدخلت اللام فى آية المطعوم دون آية المشروب ! و إنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا فى العرف والعادة ، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ماإذا جرت المياه العذبة على الأراضى المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق ، وأما المطعوم فإن جعله حُطَاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سَخَطٍ من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد زيادة فى تحقيق أمره وتقريره إيجاده .

ومما يتصل بذلك قوله تعالى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) فاللام فى (لنحن) هى اللام المشار إليها .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) فإن هذه اللام فى قوله : (ليستخلفنهم) و (ليمكنن) و (ليبدلنهم) إنما جاءت لتحقيق الأمر وإثباته فى نفوس المؤمنين ، وأنه كائن لا محالة .

ومما يجرى هذا المجرى فى التوكيد لام الابتداء المحققة لما يأتى بعدها ، كقوله تعالى : (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا) فاللام فى (ليوسف) لام الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها : أى أن زيادة حبه إياهما أمر ثابت لا مراء فيه .

ومن هذا النوع قول بعضهم :

وَالشَّيْبُ إِنْ يَظْهَرْ فَإِنَّ وَرَاءَهُ ... عُمُرًا يَكُونُ خِلَالَهُ مُتَنَفَّسُ
لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّي الْمَشِيبُ قُلَامَةً ... وَلَمَا بَقِي مِنِّي أَلَبُّ وأَكْيَسُ

فقوله « ولما بقى منى » تقديره وما بقى منى ، وإنما أدخل على « ما » هذه اللام قصداً لتأكيد المعنى ؛ لأنه موضع يحتاج إلى التأكيد ، ألا ترى أن قوة العمر فى الشباب ، ولما أراد هذا الشاعر أن يصف المشيب ، وليس مما يوصف وإنما يذم ، أتى باللام لتؤكد ماقصده من الصفة .

وكذلك ورد قول الشاعر من أبيات الحماسة [(١)] :

إِنَّا لَنَصْفَحُ عَنْ مَجَاهِلِ قَوْمِنَا ... وَنُقِيمُ سَالِفَةَ الْعَدُوِّ الْأَصْيَدِ [(٢)]
وَمَتَى نَجِدْ يَوْمًا فَسَادَ عَشِيرَةٍ ... نُصْلِحْ وَإِنْ نَرَ صَالِحًا لَا نُفْسِدِ [(٣)]

---

(١) البيتان لمضرس بن ربعى من أبيات رواها له أبو تمام فى ديوان الحماسة ، وانظر شرح التبريزى (٣ - ١٧٤) .

(٢) السالفة : صفحة العنق، والأصيد : المتكبر ، وصف من الصيد - بفتح الصاد والياء - وهو ميل فى العنق من الكبر .

(٣) رواية الحماسة « ومتى نخف » .

وهذا كثير سائغ فى الكلام ، إلا أنه لايتأتى لمكان العناية بما يعبر به عنه ، ألا ترى إلى قول الشاعر : « إنا لنصفح عن مجاهل قومنا » فإنه لما كان الصفح مما يشقُّ على النفس فعله ؛ لأنه مقابلة الشر بالخير والإساءة بالإحسان ؛ أكَّده باللام، تحقيقاً له . فإن عرى الموضع الذى يؤتى فيه بهذه اللام من هذه الفائدة المشار إليها وما يجرى مجراه ، فإنّ ورود اللام فيه لغير سبب اقتضاه .

وأكثر ماتستعمل هذه اللام فى جواب القسم لتحقيق الأمر المُقْسَم عليه ، وذلك فى الإيجاب ، دون النفى ؛ لأنها لاتستعمل فى النفى ، ألا ترى أنه لايقال : والله لَلَاقُمْتُ ، و إنما يقال : والله لاقمت ، لكن فى الإيجاب تستعمل ، ويكون استعمالها حَسَناً ، كقولك : والله لَأقوم ، فإن أضيف[1] إليها النونان الخفيفة والثقيلة كان ذلك أبلغ فى التأكيد، كقولك : والله لَأَقُومَنَّ ، وعلى ذلك وردت الآية المتقدم ذكرها ، وهى قوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) ؛ وإن لم يكن جواباً لقسم فالنون الواردة بعد اللام زيادة فى التأكيد ، وهما تأكيدان أحدهما مردف بالآخر .

وكذلك فاعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب ، فإذا استعملت فى موضع فإنما يقصد بها التأكيد .

فمما جاء منها قول البحترى فى معاتبة الفتح بن خاقان[2] :

---

(١) النون واجبة فى كل مضارع مثبت يقع جوابا لقسم ؛ إذا اتصل به اللام ؛ فما يفيده ظاهر عبارة المؤلف من جواز اقترانه بالنون وتركه غير مقصود .

(٢) الأبيات من قصيدة له مروية فى ديوانه على أنه يمدح فيها المتوكل على الله ، وأولها قوله :

شَوْقٌ إلَيْكَ تَفِيضُ مِنْهُ الْأَدْمُعُ   وَجَوًى عَلَيْكَ تَضِيقُ عَنْهُ الْأَضْلُعُ

وفى القصيدة نفسها مايؤكد أن الممدوح بها هو المتوكل ، انظر إلى قوله فيها :

شَرَفًا بَنِي الْعَبَّاسِ ؛ إنَّ أَبَاكُمُ   عَمُّ النَّبِيِّ وَعِيصُهُ الْمُتَفَرِّعُ

هَلْ يَجْلُبَنَّ إِلَيَّ عطفكَ مَوْقِفٌ ثَبْتٌ لَدَيْكَ أَقُولُ فِيهِ وَتَسْمَعُ[(١)]
مَازَالَ لِي مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ مَوْئِلٌ آوِي إِلَيْهِ مِنَ الْخُطُوبِ وَمَفْزَعُ
فَعَلَامَ أَنْكَرْتَ الصَّدِيقَ وَأَقْبَلَتْ نَحْوِي جَنَابُ الْكَاشِحِينَ تَطَلَّعُ[(٢)]
وَأَقَامَ يَطْمَعُ فِي تَهَضُّمِ جَانِبِي مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ فِيهِ يَطْمَعُ
إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَعَفْوُكَ أَوْسَعُ

وهذه أبيات حسنة مليحة فى بابها ، يمحى بها حرّ الصدود ، ويستمال بها صَعَر الخدود ، وإنما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها ، والبيت الأول هو المراد ، ألا ترى أنه قال : « هل يَجْلُبَنَّ إلى عطفك موقف[(١)] » فالنون جاءت قصداً للتأكيد ، وهو فى هذا المقام متمنٍّ ، فأحبَّ أن يؤكد هذه الأمنية ، وكل مايجىء من هذا الباب فإنه واقع هذا الموقع ، وإذا استعمل عبثاً لغير فائدة تقتضيه فإنه لايكون استعماله إلا من جاهل بالأسرار المعنوية ، وأما مايمثل به النحاة من قول القائل : والله لأقومَنّ ، فإنه مثال نحوىّ يضرب للجواز ، وإلا فإذا قال القائل : والله لأقومنّ ، وأكده ، كان ذلك لغواً ، لأنه ليس فى قيامه من الأمر العزيز ولا من الأمر العسير مايحتاج معه إلى التأكيد ، بل لو قال : والله لأقومنّ إليك ، مهدِّداً له ، لكان ذلك واقعاً فى موقعه ، فافهم هذا وقس عليه .

إِنَّ الْفَضِيلَةَ لِلَّذِي اسْتَسْقَى بِهِ عُمَرٌ وَشُفِّعَ إِذْ غَدَا يَسْتَشْفِعُ
وَأَرَى الْخِلَافَةَ وَهْيَ أَعْظَمُ رُتْبَةً حَقًّا لَكُمْ وَوِرَاثَةً مَا تُنْزَعُ

وفيها قوله :

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي سَقَتِ الْوَرَى مِنْ رَاحَتَيْهِ غَمَامَةٌ مَا تُقْلِعُ

(١) وقع فى ب ، ج فى أول هذا البيت «هل تحلين» والتصحيح عن الديوان .
(٢) فى الديوان « نحو ركاب الكاشحين تطلع » .

النوع الثانى عشر

فى قوة اللفظ لقوة المعنى

هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جنى فى كتاب « الخصائص » ، إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا ، ولا نبَّه على مانبهت عليه من النكت التى تضمنته ، وهذا يظهر بالوقوف على كلامى وكلامه ، فأقول :

اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بدّ من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أوّلاً ؛ لأن الألفاظ أدلة على المعانى ، وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيد فى الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعانى ، وهذا لا نزاع فيه ؛ لبيانه ، وهذا النوع لا يستعمل إلا فى مقام المبالغة .

فمن ذلك قولهم : خشن واخْشَوْشَنَ ، فمعنى خشن دون معنى اخْشَوْشَنَ ؛ لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو فَعَلَ وافْعَوْعَل ، وكذلك قولهم : أعْشَبَ المكان ، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا : اعْشَوْشَبَ .

ومما ينتظم بهذا السلك قَدَرَ واقْتَدَر ، فمعنى اقتدر أقوى من معنى قَدَرَ ، قال الله تعالى : (فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) فمقتدر ههنا أبلغ من قادر ، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذى لا يَصْدر إلا عن قوّة الغضب ، أو للدلالة على بَسْطة القدرة ، فإن المقتدر أبلغ فى البسطة من القادر ، وذاك أن مقتدراً اسم فاعل من اقتـدر ، وقادر اسم فاعل من قَدَر ، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل .

وعلى هذا ورد قول أبى نواس :

فَعَفَوْتَ عَنِّى عَفْوَ مُقْتَدِرٍ حَلَّتْ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْغَاهَا

أى : عفوت عنى عفو قادر متمكن القدرة لا يردّه شىء عن إمضاء قدرته ؛ وأمثال هذا كثيرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) فإن غفاراً أبلغ فى المغفرة من غافر ، لأن فَعَّالاً يدل على كثرة صدور الفعل ، وفاعلاً لا يدلّ على الكثرة .

وعليه ورد قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) فالتوّاب هو الذى تتكرر منه التوبة مرّة على مرّة ، وهو فعّال ، وذلك أبلغ من التائب الذى هو فاعل ، فالتائب اسم فاعل من تَابَ يَتُوب فهو تائب : أى صدرت منه التوبة مرة واحدة ؛ فإذا قيل : تَوَّابٌ ؛ كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة .

وهذا وما يجرى مجراه إنما يعمد إليه لضرب من التوكيد ، ولا يوجد ذلك إلا فيما فيه معنى الفعلية ؛ كاسم الفاعل والمفعول ، وكالفعل نفسه ، نحو قوله تعالى : (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) فإنّ معنى كُبْكِبوا من الكَبّ ، وهو القلب ، إلا أنه مكرّر المعنى ، وإنما استعمل فى الآية دلالة على شدة العقاب ؛ لأنه موضع يقتضى ذلك .

ولربما نظر بعض الجهال فى هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال : إنها زيادة ، ولكنها زيادة نقص ، لأنه يزاد فى اللفظ حرف ، كقولهم فى الثلاثى فى رجل : رُجَيْل ، وفى الرباعى فى قنديل : قُنَيْدِيل ، فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين ، وهذا ليس من الباب الذى نحن بصدد ذكره ؛ لأنه عارٍ عن معنى الفعلية ، والزيادة فى الألفاظ لا توجب زيادة فى المعانى ، إلا إذا تضمَّنَتْ معنى الفعلية ، لأن الأسماء التى لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها ، ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عَذْب ، وهى ثلاثية ، إلى الرباعى فقلنا : عَذْيَب ، على وزن جعفر ؛ لاستحال معناها ، ولم يكن لها معنى ، وكذلك لو نقلنا لفظة عَسْجَد ، وهى رباعية ،

إلى الخماسى فقلنا : عَسْجَدِد ، على وزن جَحْمَرِش ؛ لاستحال معناها ، وهـذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية ؛ كقادر ومقتدر ؛ فإن قادراً اسم فاعل قَدَر ، وهو ثلاثى ، ومقتدراً اسم فاعل اقتدر ، وهو رباعى ؛ فلذلك كان معنى القدرة فى اقتدر أشد من معنى القدرة فى قدر ، وهذا لا نزاع فيه .

وهذا الباب بجملته لا يقصد به إلا المبالغة فى إيراد المعانى ، وقد يستعمل فى مقام المبالغة فينعكس المعنى فيه إلى ضده ، كما جاء لأبى كرّامٍ (١) التميمى من شعراء الحماسة ، وهو قوله (٢) :

لِلّهِ تَيْمٌ أَىُّ رُمْــحِ طِرَادِ ... لَاقَى الْحِمَامَ وَأَىُّ نَصْلِ جِلَادِ (٣)

وَمِحَشُّ حَرْبٍ مُقْدِمٍ مُتَعَرِّضٍ ... لِلْمَوْتِ غَيْرِ مُكَذِّبٍ حَيَّادِ (٤)

فلفظة « حَيَّاد » قد وردت ههنا ، وإنما أوردها هذا الشاعر وقصد بها المبالغة فى وصف شجاعة هـذا الرجل فانعكس عليه المقصد الذى قصده ، لأن حيادا من حَيَّد فهو حَيَّاد : أى وجد منه الحَيْدُودة مراراً ، كما يقال : قَتَّل فهو قَتَّال : أى وجد منه القتل مراراً ، وإذا كان هذا الرجل غير حَيَّاد كان حائداً : أى وجدت منه الحيدودة مرة واحدة ، وإذا وجدت منه مرة كان ذلك جبنا ، ولم يكن شجاعة ، والأولى أن كان قال : غير مكذب حائد .

---

(١) ويقال : هو أبو كدام ، بالدال ، بزنة كتاب

(٢) رواها أبو تمام فى الحماسة فى باب الرثاء ، وانظر شرح التبريزى (٢ — ٢١٣).

(٣) تيم : رجل من بنى يشكر ، وكان قد بارز أبا كرام ، فقتله ، فأخذ يفخم شأنه لأنه إذا أثنى عليه بالشجاعة والإقدام كان ذلك أعظم لفخره له .

(٤) محش الحرب : موقدها ومثيرها ، وفى الحماسة « غير معرد » والتعريد : ترك القصد وسرعة الانهزام ، ومنه قول الشاعر :

ظَنَنْتُكَ إِنْ شُبَّتْ لَظَى الْحَرْبِ صَالِيًا ... فَعَرَّدْتَ فِيمَنْ كَانَ عَنْهَا مُعَرِّدَا

ووقع هنا فى ب ، ج « جياد » بالجيم ، وهو تصحيف ، وصوابه « حياد » بالحاء المهملة من حاد يحيد ، إذا مال ونكص ، ووقع على الصواب فى الحماسة .

وينبغى أن يعلم أنه إذا وردت لفظة من الألفاظ ويجوز حملها على التضعيف الذى هو طريق المبالغة وحملها على غـيره أن يُنْظَر فيها ؛ فإن اقتضى حملها على المبالغة فهو الوجه .

فمن ذلك قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

* مُنَى النَّفْسِ فِى أَسْمَاءَ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا (١) *

وهى قصيدة مدح بها الخليفة المتوكل رحمه الله ، وذكر فيها حديث الصلح بين بنى تغلب ؛ فمما جاء فيها قوله :

رَفَعْتَ بِضَبْعَىْ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ ... وَقَدْ يَئِسَتْ أَنْ يَسْتَقِلَّ صَرِيعُهَا
فَكُنْتَ أَمِينَ اللهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا ... وَمَوْلَاكَ فَتْحٌ يَوْمَ ذَاكَ شَفِيعُهَا
تَأَلَّفْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَاشَرَّدَتْ بِهِمْ ... حَفَائِظُ أَخْلَاقٍ بَطِىءٍ رُجُوعُهَا
فَأَبْصَرَ غَاوِيهَا الْمَحَجَّةَ فَاهْتَدَى ... وَأَقْصَرَ غَالِيهَا وَدَانَى شَسُوعُهَا

فقوله « تألفتهم من بعد ماشردت بهم » يجوز أن تخفف لفظة « شردت » ويجوز أن تثقل ، والتثقيل هو الوجه ؛ لأنه فى مقام الإصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا ، وتباينت قلوبهم وآراؤهم ، وكل مايجىء من الألفاظ على هذا النحو فينبغى أن يجرى هذا المجرى .

وههنا نكتة لابد من التنبيه عليها ، وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لاتستقيم إلا فى نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها ، كنقل الثلاثى إلى الرباعى ، وإلا فإذا كانت صيغة الرباعى مثلا موضوعة لمعنى فإنه لايراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثل تلك الصيغة ، ألا ترى أنه إذا قيل فى الثلاثى قَتَل ثم نقل إلى الرباعى فقيل قَتَّل – بتشديد التاء – فإن الفائدة من هذا النقل هى التكثير : أى أن القتل

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه قوله :

* بِهَا وَجْدُهَا مِنْ غَادَةٍ وَوَلُوعُهَا *

وجد منه كثيراً ، وهـذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردت من غير نقل لم تـكن دالة على التكثير ، كقوله تعالى : (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) فإن كلّم على وزن قتّل ، ولم يرد به التكثير ، بل أريد به أنه خاطبه ، سواء كان خطابه إياه طويلا أو قصيراً ، قليلا أو كثيراً ، وهذه اللفظة رباعية ، وليس لها ثلاثى نقلت عنه إلى الرباعى ، لـكن قد وردت بعينها ولها ثلاثى ورباعى فكان الرباعى أكثر وأقوى فيما دل عليه من المعنى ؛ وذاك أن تـكون كَلَّمَ من الجرح : أى جرّح ، ولها ثلاثى وهو كَلَمَ مخففا : أى جَرَح ؛ فإذا وردت مخففة دلت على الجراحة مرة واحدة ، وإذا وردت مثقلة دلت على التكثير .

وكذلك ورد قوله تعالى : (ورَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً) فإن لفظة « رتّل » على وزن لفظة قتّل ، ومع هـذا ليست دالة على كثرة القراءة ، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر ، وسبب ذلك أن هـذه اللفظة لاثلاثى لها حتى تنقل عنه إلى رباعى ، وإنما هى رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة ؛ وعلى هذا فلا يستقيم معنى الـكثرة والقوة فى اللفظ والمعنى إلابالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه ، فاعرف ذلك .

ومن ههنا شذ الصواب عمن شذ عنه فى عالم وعليم ؛ فإن جمهور علماء العربية يذهبون إلى أن عليما أبلغ فى معنى العلم من عالم ، وقد تأمّلْت ذلك وأنعمت نظرى فيه ، فحصل عندى شك فى الذى ذهبوا إليه ، والذى أوجب ذلك الشك هو أنّ عالما وعليما على عدة واحدة ؛ إذ كل منهما أربعة أحرف ، وليس بينهما زيادة ينقل فيها الأدنى إلى الأعلى ، والذى يوجبه النظر أن يكون الأمر على عكس ماذكروه ، وذاك أن يكون عالم أبلغ من عليم ، وسببه أن عالما اسم فاعل من علم ، وهومتعد ، وأن عليما اسم فاعل من علم ، إلاأنه أشبه وزن الفعل القاصر ، نحوشرُف فهو شريف ، وكرُمَ فهو كريم ، وعَظُم فهو عظيم ؛ فهذا الوزن لايكون إلا فى الفعل القاصر ؛ فلما أشبهه عليم انحط عن رتبة عالم الذى هو متعد ؛ ألا ترى أن فعِل

ـ بفتح الفاء وكسر العين ـ يكون متعديا نحو عَلِمَ وحَمِد ، ويكون قاصراً غير متعد نحو غَضِب وشَبِع ، وأما فَعُل ـ بفتح الفاء وضم العين ـ فإنه لايكون إلا قاصراً غيرمتعد ، ولما كان فَعِل ـ بفتح الفاء وكسر العين ـ متردداً بين المتعدى والقاصر ، وكان فَعُل ـ بفتح الفاء وضم العين ـ قاصراً غير متعد ؛ صار القاصر أضعف مما يدور بين المتعدى والقاصر ، وحيث كان الأمر كذلك ، وأشبه وزن المتعدى وزن القاصر ؛ حَطَّ ذلك من درجته ، وجعله فى الرتبة دون المتعدى الذى ليس بقاصر ، هذا هو الذى أوجب لى التشكيك فيما ذهب إليه غيرى من علماء العربية ، ولربما كان ماذهبوا إليه لأمر خفى عنى ولم أطلع عليه .

النوع الثالث عشر

فى عكس الظاهر

وهو نفى الشىء بإثباته ، وهو من مستطرفات علم البيان ، وذاك أنك تذكر كلاماً يدلّ ظاهره أنه نفى لصفة موصوف ، وهو نفى للموصوف أصلاً .

فمما جاء منه قول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى وصف مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاَ تُنْثَى فَلَتَاتُه »[1] أى لاتذاع سقطاته ، فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثَمَّ فَلَتَات غير أنها لاتذاع ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لم يكن ثَمَّ فلتات فتنثى ، وهذا من أغرب ماتوسعت فيه اللغة العربية ، وقد ورد فى الشعر

(١) فى النهاية : «وفى الحديث فى صفة مجلسه عليه الصلاة والسلام : لاتُنْثَى فَلَتَاتُهُ ، أى لاتشاع ولا تذاع ، يقال : نَثَوْتُ الحديث أَنْثُوهُ نَثْواً ، والنَّثَا فى الكلام يطلق على القبيح والحسن ، يقال : ما أقبح نثاه ، وما أحسنه ، والفلتات : جمع فلتة ، وهى الزلة ، أراد أنه لم يكن لمجلسه فلتات فتنثى » اهـ .

كقول بعضهم :

* وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[(١)] *

فإن ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك ضبٌّ ولـكنه غير منجحر ، وليس كذلك ، بل المعنى أنه لم يكن هناك ضبٌّ أصلاً .

وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال ، وسبب ذلك أن الفَهْم يكاد يأباه ، ولا يقبله إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه ، وما كان عارياً عن قرينة فإنه لايفهم منه ما أراد قائله .

وسأوضح ذلك فأقول : أما قولنا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاَ تُنْثَى فلتاته » فإن مفهوم هذا اللفظ أنه كان هناك فلتات إلا أنها تُطْوى ولا تنشر ، وتكتم ولا تذاع ، ولا يفهم منه أنه لم يكن هناك فلتات إلا بقرينة خارجة عن اللفظ ، وهى أنه قد ثبت فى النفوس ، وتقرر عند العقول ، أن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنَزَّه عن فلتات تكون به ، وهو أكرم من ذلك وأوقر ؛ فلما قيل : « إنه لا تنثى فلتاته » فهمنا منه أنه لم يكن هناك فلتات أصلاً ، وأما قول القائل :

* وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[(١)] *

فإنه لا قرينة تخصصه حتى يفهم منه مافهم من الأوّل ، بل المفهوم أنه كان هناك ضبٌّ ولـكنه غير منجحر .

ولقد مكثت زماناً أطوف على أقوال الشعراء قصداً للظفر بأمثلة من الشعر جرية هذا المجرى فلم أجد إلا بيتاً لامرئ القيس[(٢)] ، وهو :

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن أحمر من كلة يصف فيها فلاة ، وصدره قوله :

* لاَ تُفْزِعُ الأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا *

ووقع فى ب ، ج « ينحجر » بتقديم الحاء المهملة ، والصواب تقديم الجيم .

(٢) من قصيدة له مطلعها :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدبِ   لِنَقْضِيَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

عَلَى لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدَى لِمَنَـــارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ الدِّيَافِيُّ جَرْجَرَا (١)

فقوله « لايهتدى لمناره » أى : أن له مناراً إلا أنه لايهتدى به ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لا منار له يهتدى به .

ولى أنا فى هذا بيت من الشعر ، وهو :

أَدْنَيْنَ جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَنْ يُرَى لِذُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ

وظاهر هذا الكلام أن هؤلاء النساء يَمْشِينَ هَوْناً لحيائهن فلا يظهر لذيولهن غبار على الطريق ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنهن لايَمْشِين على الطريق أصلا : أى أنهنّ مُخَبَّآت لايَخْرُجْن من بيوتهن؛ فلا يكون إذاً لذيولهن على الطريق غبار ، وهذا حسن رائق ، وهو أظهر بياناً من قوله :

* وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ *

فمن استعمل هـذا النوع من الكلام فليستعمله هكذا ، وإلا فَلْيَدَعْ ، على أن الإكثار من استعماله عَسِر؛ لأنه لايظهر المعنى فيه .

---

(١) اللاحب : الطريق الواضح ، والمنار : اسم جنس جمعى ، واحده منارة ، وسافه ـ بالفاء ـ شمه ، ووقع فى ج ، ب « ساقه » بالقاف ، وهو تحريف ، والعود ـ بفتح العين المهملة وسكون الواو ـ البعير الهرم ، والديافى ـ بكسر الدال المهملة بعدها ياء ـ المنسوب إلى دياف ، وهى قرية بالشام ، ويقال : بالجزيرة ، ووقع فى ب ، ج ، « النياطى » وجرجر : ردد صوته .

النوع الرابع عشر

فى الاستدراج

وهذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو مُخادَعات الأقوال التى تقوم مَقَام مُخادعات الأفعال؛ والكلام فيه وإن تضمن بلاغةً فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ماتضمنه من النكت الدقيقة فى استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعانى اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها، والكلام فى مثل هذا ينبغى أن يكون قصيراً فى خلابه، لا قصيراً فى خطابه، فإذا لم يتصرّف الكاتب فى استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا[1] فليس بكاتب، ولا شبيه له إلا صاحب الجَدَل؛ فكما أن ذاك يَتَصرّف فى المغالطات القِياسية فكذلك هذا يتصرف فى المغالطات الخطابية.

وقد ذكرت فى هذا النوع ما يُتَعلّم منه سلوك هذه الطريق.

فمن ذلك قوله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ ٱللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) ألا ترى ما أحسن مَاخَذ هذا الكلام وألطفه؛ فإنه أخَذَهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم؛ فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعداه، أو يكون صادقاً [وإنْ يَكنْ صادقاً] يصبكم بعض الذى يَعِدكم إن تعرضتم له، وفى هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول: إنما قال (يُصِبْكم بعض الذى يعدكم)

(١) كذا. ونرى الصواب حذف كلمة «وإلا».

وقد علم أنه نبيٌّ صادق وأن كلَّ ما يعدهم به لابد وأن يصيبهم ، لا بعضه ؛ لأنه احتاج فى مُقاولة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة فى القول ، ويأتيهم من جهة المناصحة ؛ ليكون أدعى إلى سكونهم إليه ؛ فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم إياه ، فقال : (وإنْ يَكُ صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) وهو كلام المنصف فى مقابلة غير المشتطّ ، وذلك أنه حين فَرَضَهُ صادقاً فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يَعِدُ به ، لكنه أردف بقوله : (يصبكم بعض الذى يعدكم) لِيَهْضِمَهُ بعضَ حقه فى ظاهر الكلام ، فَيُرِيهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً ، فضلاً عن أن يتعصَّب له ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل ؛ كأنه بَرْطَلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه ؛ لئلا ينفروا منه ، وكذلك قوله فى آخر الآية : (إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) أى : هو على الهدى ، ولو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة ، ولا عَضَّده بالبينات ، وفى هذا الكلام من خِداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به ، وقد تضمن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حقّ التأمل أعطيته حقه من الوصف .

ومما يجرى على هذا الأسلوب قوله تعالى : (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا إذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) هذا كلام يَهُزُّ أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ، وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن يَنْصَح أباه ويَعِظهُ ويُنْقِذه مما كان متورِّطاً فيه من الخطأ العظيم الذى عَصَى به أمر العقل ؛ رَتَّبَ الكلام معه فى أحسن نظام ، مع استعمال

المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن ، مُسْتَنْصِحاً فى ذلك بنصيحة ربه ، وذاك أنه طلب منه أولا العلَّة فى خطيئته طلبَ مُنبِّهٍ على تماديه مُوقِظٍ من غفلته ؛ لأن المعبود لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب إلا أنه بعضُ الخلق يَسْتَخِفُّ عقلَ مَنْ أهّله للعبادة ووَصَفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبيين ، فكيف بمن جعل المعبودَ جماداً لايسمع ولا يبصر ، يعنى به الصنم ، ثم ثَنَّى ذلك بدعوته إلى الحق مُتَرَفِّقًا به ، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المطلق ، ولا نفسَهُ بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إنَّ معى لَطَائِفَةً من العلم وشيئاً منه ، وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق ، فلا تستنكف ؛ وَهَبْ أنى وإياك فى مسير ، وعندى معرفة بهداية الطريق دونك ، فاتَّبعنى أُنْجِكَ من أن تضل ، ثم ثَلَّث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه ، فقال : إن الشيطان الذى استعصى على ربك وهو عَدُوُّك وعدو أبيك آدم هو الذى وَرَّطَك فى هذه الورطة ، وألقاك فى هذه الضلالة ، وإنما ألغى إبراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته فى نصيحة أبيه لأنه لإمْعَانِه فى الإخلاص لم يذكر من جنايتى الشيطان إلا التى تختصّ بالله ، وهى عصيانه واستكباره ، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته ، ثم رَبَّع ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة ، فلم يُصَرِّح بأن العقاب لاحِقٌ به ، ولكنه قال : (إنى أخاف أن يمسك عذاب) فنكر العذاب ملاطَفَةً لأبيه ، وصدَّر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله : (يا أبتِ) توسُّلاً إليه واستعطافاً ، وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه ، فإنه قال : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ) فأقبل عليه بفظاظة الكفر ، وغلظ العناد ، فناداه باسمه ، ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يابنىّ وقَدَّم الخبر على المبتدأ فى قوله : (أَرَاغِبٌ أَنْتَ) لأنه كان أهَمَّ عنده ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس ، لا سيما فى مخاطبات

الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار ، والرد عليهم ، وفى هذين المثالين المذكورين ههنا كفاية ومَقْنَع .

وبلغنى حديث تفاوض فيه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ومعاوية بن أبى سفيان فى أمر ولده يزيد ، وذاك أن معاوية قال للحسين : أما أُمُّكَ فاطمة فإنها خير من أمه ، وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب ، وأما حُبِّى يزيدَ فإنى لو أعطيت به مثلك مِلْء الغُوطَة لما رضيت ، وأما أبوك وأبوه فإنهما تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك ؛ وهذا كلام من معاوية كلما أمررته بفكرى عجبتُ من سَدَاده ، فَضْلاً عن بلاغته وفصاحته ، فإن معاوية عَلِمَ ما لعلى رضى الله عنه من السَّبْق إلى الإسلام والأثر فيه ، وما عنده من فضيلة العلم ؛ فلم يعرض فى المنافرة إلى شىء من ذلك ، ولم يقل أيضاً : إن الله أعطانى الدنيا ونزعها منكم ؛ لأن هذا لا فضل فيه ؛ إذ الدنيا ينالها البر والفاجر ، وإنما صانعَ عن ذلك كله بقوله : « إن أباك وأباه تحاكما إلى الله فحكم لأبيه على أبيك » وهذا قول إيهامى يُوهِم شبهة من الحق ، وإذا شاء من شاء أن ينافر خصمه ويستدرجه إلى الصمت عن الجواب فليقل هكذا .

النوع الخامس عشر

فى الإيجاز

وهو حذف زيادات الألفاظ ؛ وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فُرْسان البلاغة من سَبَقَ إلى غايتها وما صَلَّى ، وضَرَبَ فى أعلى درجاتها بالقِدْحِ المُعَلَّى ، وذلك لعلو مكانه ، وتعذر إمكانه .

والنظر فيه إنما هو إلى المعانى لا إلى الألفاظ ، ولست أعنى بذلك أن تهمل

الألفاظ بحيث تعرى عن أوصافها الحسنة ، بل أعنى أن مَدَار النظر فى هذا النوع إنما يختصّ بالمعانى ؛ فَرُبَّ لفظٍ قليل يدل على معنى كثير ، وربّ لفظ كثير يدل على معنى قليل ، ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ؛ فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعانى يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ، ولهذا سَمَّى النبىّ صلى الله عليه وسلم الفاتحة أم الكتاب ، وإذا نظرنا إلى مجموعها وَجَدْناه يسيرا ، وليست من الكثرة إلى غاية تكون بها أم البقرة وآل عمران وغيرهما من السور الطوال ؛ فعلمنا حينئذ أن ذلك الأمر يرجع إلى معانيها ،

والكلام فى هذا الموضع يخرج بنا إلى غير مانحن بصدده ؛ لأنه يحتاج فيه إلى ذكر المراد بالقرآن الكريم وما يشتمل عليه سوره وآياته إلى حصر أقسام معانيه ، لكنا نشير فى ذلك إشارة خفيفة ؛ فنقول :

المراد بالقرآن هو دعوة العباد إلى الله تعالى ، ولذلك انحصرت سوره وآياته فى ستة أقسام : ثلاثة منها هى الأصول ، وثلاثة هى الفروع .

أما الأصول فالأول منها : تعريفُ المدعوّ إليه ، وهو الله تعالى ، ويشتمل هذا الأصل على ذِكْرِ ذاته وصفاته وأفعاله ؛ والأصل الثانى : تعريف الصراط المستقيم الذى تجب مُلَازمته فى السلوك إلى الله تعالى ، ويشتمل هذا الأصل على التبَتُّلِ بعبادة الله بأفعال القلب وأفعال الجوارح ؛ والأصل الثالث : تعريف الحال بعد الوصول إلى الله تعالى ، أعنى بعد الموت ، ويشتمل هذا الأصل على تفصيل أحوال الدار الآخرة من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب ، وأشباه ذلك ؛ فهذه الأصول الثلاثة .

وأما الفروع فالأول منها : تعريف أحوال المجيبين للدعوة ، ولطائف صنع الله بهم من النُّصْرَة والإدَالة ، وتعريف أحوال المخالفين للدعوة والمحادِّينَ لها ، وكيفية صُنْع الله فى التَّدْمير عليهم والتنكير بهم ، والفرع الثانى : ذكر مُجادلة

الخصوم ومحاجّتهم ، وحملهم بالمجادلة والمحاجّة على طريق الحق ، وهؤلاء هم اليهود والنصارى ومن يجرى مجراهم من أرباب الشرائع ، والفلاسفة والملحدة من غير أرباب الشرائع ؛ والفرع الثالث : تعريف عِمارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والأهْبَة للاستعداد ، وذاك قياس الشريعة ، وتبيين الحكمة فى أوامرها التى تتعلق بأفعال أهل التكليف .

فهذه الأقسام الستة المشار إليها هى التى تدور معانى القرآن عليها ولا تتعداها وههنا تقسيم آخر يطول الخطب فيه ، ولا حاجة إلى ذكره .

وإذا نظرنا إلى سورة الفاتحة وتأمّلنا مافيها من المعانى وجدناها مشتملة على أربعة أقسام من الستة المذكورة ، ولذلك سماها النبى صلى الله عليه وسلم « أم الكتاب » كما أنه قال : « إن سورة الإخلاص تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن » وإذا نظرنا فى الأقسام الستة وجدنا سورة الإخلاص بمنزلة ثلث القرآن ، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: « آية الكرسى سيدة آى القرآن » ويروى أنه سأل أُبَىَّ بن كعب رضى الله عنه فقال : « أى آيةٍ مَعَكَ فِى كِتَابِ اللهِ أعْظَم ؟ » فقال : الله لا إله إلا هو الحى القيوم ؛ فضرب فى صدره ، وقال : « لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبَا المُنْذِرِ » وكل هذا يرجع إلى المعانى لا إلى الألفاظ ، فاعرف ذلك وبينه لرموزه وأسراره .

واعلم أن جماعة من مُدّعى علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم قسمين : فمنه مايحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات، ومنه مايحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التى تقرأ فى مَلَإٍ من عوامّ الناس ؛ فإن الكلام إذا طال فى مثل ذلك أثرعندهم وأفهمهم ، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم حتى يقال فى ذكر الحرب : التقى الجمعان ، وتطاعن الفريقان ، واشتد القتال ، وحمى النضال ، وما جرى هذا المجرى .

والمذهب عندى فى ذلك ما أذكره ، وهو أن فَهْمَ العامة ليس شرطا معتبرا فى اختيار الكلام ؛ لأنه لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل فى الكلام

الألفاظ العامية المبتذلة عندهم ؛ ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم ؛ لأن العلة فى اختيار تطويل الكلام إذا كانت فهم العامة إياه فكذلك تجعل تلك العلة بعينها فى اختيار المبتذل من الكلام ؛ فإنه لا خلاف فى أن العامة إلى فهمه أقربُ من فَهْم مايقلّ ابتذالهم إياه ، وهذا شىء مدفوع ، وأما الذى يجب تَوَخِّيه واعتماده فهوأن يُسْلَك المذهب القويم فى تركيب الألفاظ على المعانى ، بحيث لا تزيد هذه على هذه ، مع الإيضاح والإبانة ، وليس على مُسْتَعْمِل ذلك أن يَفْهم العامة كلامه ؛ فإن نور الشمس إذا لم يَرَه الأعمى لايكون ذلك نقصاً فى استنارته ، وإنما النقص فى بصر الأعمى حيث لم يستطع النظر إليه :

عَلَىَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَىَّ بِأَنْ لاَ تَفْهَمَ الْبَقَرُ

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فلنرجع إلى ماهو غرضنا ومهمنا من الكلام على الإيجاز ، وحدّه ، وأقسامه ، ونوضح ذلك إيضاحا جليا ، والله الموفق للصواب .

فنقول : حدُّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه ، والتطويل هو ضد ذلك ، وهو أن يَدُلَّ على المعنى بلفظ يكفيك بعضه فى الدلالة عليه ، كقول الْعُجَيْر السَّلُولى من أبيات الحماسة (١) :

طُلُوعُ الثَّنَايَا بِالْمَطَايَا وَسَابِقٌ ... إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ (٢)

فصدر هذا البيت فيه تطويل لاحاجة إليه ، وعجزه من محاسن الكلام

---

(١) من كلمة له رواها أبو تمام فى حماسته وأولها قوله :

إِنَّ ابْنَ عَمِّى لاَبْنُ زَيْدٍ ؛ وَإِنَّهُ ... لَبَلاَّلُ أَيْدِى جِلَّةِ الشَّوْلِ بِالدَّمِ

(انظر شرح التبريزى : ٤ – ١٦١) .

(٢) « طلوع الثنايا » أراد أنه يسمو إلى المكارم لأنه بعيد الهمة « يبتدرها » يخف إليها ويسبق غيره إلى بلوغها « يقدم » يجعل له السبق والغلب على أقرانه .

المتواصفة ، وموضع التطويل من صدره أنه قال : « طُلُوعِ الثنايا بالمطايا » فإن لفظة المطايا فضلة لا حاجة إليها ، وبيان ذلك أنه لا يخلو الأمر فيها من وجهين : إما أن يريد أنه سابق الهمة إلى معالى الأمور ، كما قال الحجاج على المنبر عند وصوله العراق :

* أنا ابْنُ جلا وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا *

أى : أنا الرجل المشهور السابق إلى معالى الأمور ؛ فإن أراد الْمُجِير بقوله « طلوع الثنايا » ما أشرت إليه فذكر المطايا يفسد ذلك المعنى ؛ لأن معالى الأمور لا يُرْقَى إليها بالمطايا ، وإن أراد الوجه الآخر ، وهو أنه كثير الأسفار ؛ فاختصاصه الثنايا بالذكر دون الأرض من المفاوز وغيرها لا فائدة فيه ، وعلى كلا الوجهين فإن ذكر المطايا فضلة لا حاجة إليه ، وهو تطويل بارد غَثّ .

فقِسْ على هذا المثال ما يجرى مجراه من التطويلات التى إذا أسقطت من الكلام بقى على حاله لم يتغير شىء .

وكذلك يجرى الأمر فى ألفاظ يُوصَل بها الكلام ؛ فتارةً تجىء لفائدة ، وذلك قليل ، وتارةً تجىء لغير فائدة ، وذلك كثير ؛ وأكثر ما ترد فى الأشعار ليوزن بها الأبيات الشعرية ، وذلك نحو قولهم : لعمرى ، ولعمرك ، ونحو أَصْبَحَ وأَمْسَى وظَلّ وأَضْحَى وبات ، وأشباه ذلك ، ونحو ياصاحبى وياخليلى ، وما يجرى هذا المجرى .

فما جاء منه قول أبى تمام (١) :

أَقَرُّوا لَعَمْرِى لِحُكْمِ السُّيُوفِ وَكَانَتْ أَحَقَّ بِفَصْلِ الْقَضَاء (٢)

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

نَعَاء إلَى كُلِّ حَيٍّ نَعَـــاء فَتَى الْعَرَبِ اُخْتَطَّ رَبْعَ الْفَنَاء

(٢) فى الديوان « أقروا لعمرى بحكم السيوف » .

فإن قوله « لعمرى » زيادة لاحاجة للمعنى إليها ، وهى حشو فى هـذا البيت ، لافائدة فيه إلا إصلاح الوزن لاغير ، ألاترى أنها من باب القَسَم ، وإنما يرد القسم فى موضع يؤكد به المعنى المراد ، إمَّا لأنه مما يشك فيه أومما يعِزّ وجوده ، أو ماجرى هذا المجرى ، وهذا البيت الشعرى لايفتقر معناه إلى توكيد قسمىّ ؛ إذ لا شك فى أن السيوف حاكمة ، وأن كل أحد يقِرّ لحكمها ، ويذعن لطاعتها.

وكذلك قوله أيضاً [(١)] :

إذَا أنَا لَمْ أُلَمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ ... بُلِيتُ بِهِ الْغَـدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ

فقوله « الْغَـدَاةَ » زيادة لاحاجة للمعنى إليها ؛ لأنه يتم بدونها ؛ لأن عثرات الدهر لم تنله الغداة ولا العشى ، وإنما نالته ، ونيلها إياه لابد وأن يقع فى زمن من الأزمنة كائنا ما كان ، ولا حاجة إلى تعيينه بالذكر

وعلى هذا ورد قول البحترى [(٢)] :

مَا أَحْسَنَ الْأَيَّامَ إلاَّ أَنَّهَـا ... يَا صَاحِبَىَّ إذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ [(٣)]

فقوله « ياصاحبى » زيادة لاحاجة بالمعنى إليها ؛ إلا أنها وردت لتصحيح الوزن لاغير .

وهذه الألفاظ التى ترد فى الأبيات الشعرية لتصحيح الوزن لاعيب فيها ، لأنا لوعبناها على الشعراء لحجَّرنا عليهم وضيقنا ، والوزن يضطر فى بعض الأحوال إلى مثل ذلك ، لكن إذا وردت فى الكلام المنثور فإنها إن وردت حشوا ولم ترد لفائدة كانت عَيْبا .

---

(١) من قصيدة له يشكو فيها دهره ، وأولها قوله :

صَرِيعُ هَوًى تُغَادِيهِ الْهُمُومُ ... بِنَيْسَابُورَ لَيْسَ لَهُ حَمِيمُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها يوسف بن محمد ، وأولها قوله :

بَيْنَ الشَّقِيقَةِ فَاللِّوَى فَالْأَجْرَعِ ... دِمَنٌ حُبِسْنَ عَلَى الرِّيَاحِ الْأَرْبَعِ

(٣) فى الديوان « ما أحسن الأيام لولا أنها » .

وقد ترد فى الأبيات الشعرية ويكون ورودها لفائدة وذلك هو الأحسن ، كقول البحترى (١) :

قَوْمٌ أَهَانُوا الْوَفْرَ حَتَّى أَصْبَحُوا أَوْلَى الْأَنَامِ بِكُلِّ عِرْضٍ وَافِرِ (٢)

فقوله « أصبحوا » بمعنى صاروا : أى أنهم صاروا أولى الناس بالأعراض الوافرة ، وهذه اللفظة لم ترد فى هذا البيت حشواً كما وردت فى بيتى أبى تمام المقدم ذكرهما

وسأزيد هذا الموضع بياناً بمثال أضربه للتطويل ، حتى يستدل به على أمثاله وأشباهه ، والمثال الذى أضربه هو حكاية أوردت بمحضر منى ، وذلك أنه جلس إلىّ فى بعض الأيام جماعة من الإخوان ، وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث ، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم ، فذكر كل من الجماعة شيئاً ، فقال شخص منهم : إنى كنت بالجزيرة العمرية فى زمن الملك فلان ، وكنت إذ ذاك صبياً صغيراً ، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية ، وصعدنا إلى سطح طاحون لبنى فلان ، وأخذنا نلعب على السطح ، فوقع صبى منا إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون ، نخفنا أن يكون آذاه ، فأسرعنا النزول إليه ، فوجدناه قد وطئه البغل ؛ فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيراً منها ؛ فقال له شخص من الحاضرين : والله إن هذا عىّ فاحش ، وتطويل كثير لا حاجة إليه ؛ فإنك بصدد أن تذكر أنك كنت صبياً تلعب مع الصبيان على سطح طاحون ، فوقع صبي منكم إلى أرض الطاحون ،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الله بن طاهر ، وأولها قوله :

لَا زَالَ مُحْتَفِلُ الْغَمَامِ الْبَاكِرِ يَهْمِى عَلَى حُجُرَاتِ أَعْلَى الْحَاجِرِ

(٢) قبل هذا البيت قوله :

كَشَفَتْ لَنَا سِيَرُ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَمْرِ نَاهٍ بِالسَّدَادِ وَآمِرِ
لَا يَقْتَفِى أَثَرَ الْغَرِيبِ وَلَا يَرَى قَلَقَ الْمَطِىِّ عَلَى الطَّرِيقِ الْجَائِرِ
مُتَقَيِّلٌ شَرَفَ الْحُسَيْنِ وَمُصْعَبٍ وَفَعَالَ عَبْدِ اللهِ بَعْدُ وَطَاهِرِ

فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ، ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو فى بلد لانعرفه ، ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب لم يكن ذلك قدحا فى غرابتها ، وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان ، وكان زمن الملك فلان ؛ فإن مثل هذا كله تطويل لاحاجة إليه ، والمعنى المقصود يفهم بدونه .

فاعلم أيها الناظر فى كتابى هذا أن التطويل هو زيادات الألفاظ فى الدلالة على المعانى ، ومهما أمكنك حذف شىء من اللفظ فى الدلالة على معنى من المعانى فإن ذلك اللفظ هو التطويل بعينه .

وأما الإيجاز فقد عرفتك أنه دلالة اللفظ على المعنى ، من غير أن يزيد عليه .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما : الإيجاز بالحذف ، وهو مايحذف منه المفرد ، والجملة ؛ لدلالة فَحْوَى الكلام على المحذوف ، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه ؛ والقسم الآخر : مالايحذف منه شىء ، وهو ضربان : أحدهما : ماساوى لفظه معناه ، ويسمى التقدير ، والآخر مازاد معناه على لفظه ، ويسمى القصر .

واعلم أن القسم الأول الذى هو الإيجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفة فى استخراجه ؛ لمكان المحذوف منه .

وأما القسم الثانى فإن التنبه له عسر ؛ لأنه يحتاج إلى فَضْل تأمل ، وطول فكرة ؛ لخفاء مايستدل عليه ، ولا يستنبط ذلك إلا من رَسَتْ قَدَمُهُ فى ممارسة علم البيان ، وصار له خليقةً وملكة ، ولم أجد أحداً عَلَّمَ هذين القسمين بعلامة ، ولا قَيَّدَهما بقيد ، وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتى من هذا الباب عند تفصيل أمثلتهما فليؤخذ من هناك .

فإن قيل : إن هـذا التقسيم الذى قسمته فى المحذوف وغير المحذوف ليس بصحيح ؛ لأن المعانى ليست أَجْسَاماً كالألفاظ حتى يصحّ التقدير بينهما ، ثم لو سلمت جواز التقدير فى المُساواة لم أُسَلِّم جواز الزيادة ، فليس لقائل أن يقول :

هذا المعنى زائد على هذا اللفظ ؛ لأنه إن قال ذلك قيل : فمن أين فهمت تلك الزيادة الخارجة عن اللفظ ، وقد علم أن الألفاظ إنما وضعت للدلالة على إفهام المعانى ؟ فإن قال : إنها فُهِمَتْ من شىء خارج عن اللفظ ، قيل له : فتلك الزيادة بإزاء ذلك الشىء الخارج عن اللفظ ، والباقى مساوٍ للفظ ، وإن قال : إنها فهمت من اللفظ ، قيل : فكيف تفهم منه وهى زائدة عليه ؟ فإن قال : إنها فهمت من تركيبه ؛ لأن التركيب أمر زائد على اللفظ ، قيل : الألفاظ تدلّ بانفرادها على معنى ، وبتركيبها على معنى آخر ، واللفظ المركب يدلّ على معنى مركب ، واللفظ المفرد يدلّ على معنى مفرد ، وتلك الزيادة إن أريد بها زيادة معنى المركب على المركب فلا يخلو : إما أن تكون تلك الزيادة مفهومة من دلالة اللفظ المركب عليها ، أو من دلالة شىء خارج ؛ فإن كانت مفهومة من دلالته عليها لم تكن زائدة عليه ؛ إذ لو كانت زائدة عليه لما دلّ عليها ، وإن كانت مفهومة من دلالة الشىء الخارج عنه فهى بإزاء ذلك الشىء الخارج ، والباقى مساوٍ للباقى .

فالجواب عن ذلك أن نقول : هذا الذى ذكره كلام شبيه بالسفسطة ، وهو باطل من وجهين : أحدهما : أن المعانى إذا كانت لا تزيد على الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعانى ؛ لأنهما متلازمان على قياسك ، ونحن نرى معنى قد دلّ عليه بألفاظ ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شىء لاينقص ذلك المعنى ، بل يبقى على حاله ، والوجه الآخر : أن الإيجاز بالحذف أقوى دليلاً على زيادة المعانى على الألفاظ ؛ لأنا نرى اللفظ يدلّ على معنى لم يتضمنه ، وفهم ذلك المعنى ضرورة لابد منه ، فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه .

فإن قيل : إن المعنى الزائد على اللفظ المحذوف لابد له من تقدير لفظ آخر يدل عليه ، وتلك الزيادة بإزاء ذلك اللفظ المقدر .

قلت فى الجواب عن ذلك : هذا لاينقض ماذهبت إليه من زيادة المعنى

على اللفظ ؛ لأن المعنى ظاهر ، واللفظ الدال عليه مضمر ، وإذا كان مضمراً فلا ينطق به ، وإذا لم ينطق به فكأنه لم يكن ، وحينئذ يبقى المعنى موجوداً ، واللفظ الدال عليه غير موجود ، وكذلك كل مايعلم من المعانى بمفهوم الخطاب ؛ ألا ترى أنك إذا قلت لمن دخل عليك : أهلاً وسهلاً ، علم أن الأهل والسهل منصوبان بعامل محذوف تقديره وَجَدْتَ أَهْلاً وَلَقِيتَ سَهْلاً ، إلا أن لفظتى وجدت ولقيت محذوفتان ، والمعنى الذى دَلاَّ عليه باقٍ ، فصار المعنى حينئذ مفهوماً مع حذفهما ، فهو إذاً زائد لا محالة ، وكذلك جميع المحذوفات على اختلافها وتَشَعُّب مقاصدها ، وهذا لا نزاع فيه ؛ لبيانه ووضوحه .

وقد سنح لى فى زيادة المعنى على اللفظ فى غير المحذوفات دليل أنا ذاكره ، وهو أنا نجد من الكلام مايدل على معنيين وثلاثة ، واللفظ واحد ، والمعانى التى تحته متعددة .

فأما الذى يدل على معنيين فالكنايات جميعها ، كالذى ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم أنهم كانوا إذا خرجوا من عنده لايتفرقون إلا عن ذَوَاقٍ ، وهذا يدلّ على معنيين: أحدهما : إطعام الطعام : أى أنهم لايخرجون من عنده حتى يَطْعَمُوا ، الآخر : أنهم لايتفرقون إلا عن استفادة علم وأدب يقوم لأنفسهم مقام الطعام لأجسامهم .

وأما الذى يدل على ثلاثة معانٍ فكقول أبى الطيب المتنبى[(١)] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

فهذا يدلّ على ثلاثة معانٍ : الأول : أنه يحسُد من أنعم عليه ، الثانى : ضد الأول ،

(١) من قصيدة له يمدح فيها كافورا ، وأولها قوله :

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، والشَّوْقُ أَغْلَبُ ... وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، والْهَجْرُ أَعْجَبُ

وقد مضى أول الكتاب ذكر هذا البيت ، وذكر المؤلف مثل ماذكر هنا (انظر ص ٣٤ من الجزء الأول) .

الثالث : أنه يحسد كل ربِّ نعمة كائناً من كان : أى يحسد من بات فى نعماء نفسِهِ يتقلب .

وهذا وأمثاله من أدلّ الدليل على زيادة المعنى على اللفظ ، وهو شىء استخرجته ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق .

وحيث فرغنا من الكلام على هذا الموضع فلنتبعه بذكر أقسام الإيجاز المشار إليها أولاً وما ينصرف إليه ؛ فنقول : أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، وذاك أنك ترى فيه ترْكَ الذكر أفصح من الذكر ، والصَّمْتَ عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدُك أنطَقَ ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكونُ مبيناً إذا لم تبين ، وهذه جملة تنكرها حتى تَخْبُرُ ، وتدفعها حتى تَنْظُرُ .

والأصل فى المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون فى الكلام مايدلّ على المحذوف ؛ فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لايجوز بوجه ، ولا سبب ، ومِنْ شَرْط المحذوف فى حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شىء غثّ لايناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن ؛ وقد يظهر المحذوف بالإعراب كقولنا : أهلاً وسهلاً ، فإن نصب الأهل والسهل يدلّ على ناصب محذوف ، وليس لهذا من الحسن ما للذى لايظهر بالإعراب ، وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى ، كقولنا : فلان يَحُلّ ويَعْقِد ؛ فإن ذلك لايظهر المحذوف فيه بالإعراب ، وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى : أى أنه يحلّ الأمور ويعقدها ، والذى يظهر بالإعراب يقع فى المفردات من المحذوفات كثيرا ، والذى لايظهر بالإعراب يقع فى الجمل من المحذوفات كثيراً .

وسأذكر فى كتابى هذا ماوصل إلىّ علمه ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما : حذف الجمل ، والآخر : حذف المفردات ، وقد يرد كلام فى بعض المواضع ويكون مشتملا على القسمين معاً .

فأما القسم الأول ، وهو الذى تحذف منه الجمل ؛ فانه ينقسم إلى قسمين أيضاً : أحدهما : حذف الجمل المفيدة التى تستقل بنفسها كلاما ، وهذا أحسن المحذوفات جميعها ، وأدلها على الاختصار ، ولاتكاد تجده إلا فى كتاب الله تعالى؛ والقسم الآخر : حذف الجمل غير المفيدة ، وقد وردا ههنا مختلطين ، وجملتهما أربعة أضرب :

الضرب الأول : حذف السؤال المقدر ، ويسمى الاستئناف ، ويأتى على وجهين :

الوجه الأول : إعادة الأسماء والصفات ، وهذا يجىء تارة باعادة اسم مَنْ تقدم الحديث عنه ، كقولك : أَحْسَنْتُ إلى زيدٍ زَيْدٌ حقيق بالإحسان ، وتارة يجىء باعادة صفته ، كقولك : أحسنت إلى زيد صديقُكَ القديم أهلٌ لذلك منك ؛ وهو أحسن من الأول وأبلغ ؛ لانطوائه على بيان الموجب للإحسان وتخصيصه .

فممّا ورد من ذلك قوله تعالى : (الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) والاستئناف واقع فى هذا الكلام على (أولئك) لأنه لما قال (الم ذلك الكتاب) إلى قوله (بالآخرة هم يوقنون) اتجه لسائل أن يقول : مابال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب بأنّ أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا .

الوجه الثانى : الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات ، وذلك كقوله تعالى : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) فمخرج هذا القول مخرج الاستئناف ؛ لأن ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، وكأن قائلا قال : كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخى لوجهه بروحه ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ؛ ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول لا إلى المقول له مع كونه معلوما ، وكذلك قوله تعالى (ياليت قومى يعلمون) مرتَّب على تقدير سؤال سائل عما وجد

ومن هذا النحو قوله عز وجل : (يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) والفرق بين إثبات الفاء فى سوف كقوله تعالى : (قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) وبين حذف الفاء ههنا فى هذه الآية أن إثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، وحذفها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستئناف ؛ للتفنن فى البلاغة ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ؛ وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه ، فاعرفه إن شاء الله تعالى .

الضرب الثانى : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب :

فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ولكنا أوحيناه إليك ، فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفَتْرة ، ودل به على المسبب الذى هو الوحى ، على عادة اختصارات القرآن ؛ لأن تقدير الكلام :

ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى موسى إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول على آخرهم ـ وهو القرن الذى أنت فيهم ـ العمر : أى أمَدُ انقطاع الوحى ، فاندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك ، وعرفناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ؛ فالمحذوف إذًا جملة مفيدة ، وهى جملة مطولة دل السبب فيها على المسبب

وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضاً : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَاأَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) فان فى هذا الكلام محذوفا لولاه لما فهم ، لأنه قال : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) وهذا لا بدله من محذوف حتى يستقيم نظم الكلام ، وتقديره : ولكن عرفناك ذلك وأوحيناه إليك رحمة من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك ؛ فذكر الرحمة التى هى سبب إرساله إلى الناس ، ودل بها على المسبب الذى هو الإرسال .

وأما حذف الجملة غير المفيدة من هذا الضرب فنحو قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام : (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) فقوله (ولنجعله آية للناس) تعليل مُعَلَّله محذوف : أى وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس ، فذكر السبب الذى صدر الفعل من أجله ، وهو جعله آية للناس ، ودل به على المسبب الذى هو الفعل .

ومما ورد من ذلك فى الأخبار النبوية قصة الزبير بن العوام رضى الله عنه والرجل الأنصارى الذى خاصمه فى شراج الحرة التى يسقى منها النخل ، فلما حَضَرا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير : « اسْقِ ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ » فغضب الأنصارى ، وقال : يارسول الله ؛ أَنْ كان ابْنَ عمتك ؛ فتلوَّن وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجُدُرِ » وفى هذا الكلام محذوف تقديره : أن كان ابن عمتك حكمت

له ، أو قضيت له ، أو ماجرى هذا المجرى ، فذكر السبب الذى هو كونه ابن عمته، ودل به على المسبب الذى هو الحكم أو القضاء ؛ لدلالة الكلام عليه .

وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) أى : إذا أردت قراءة القرآن ، فاكتفى بالمسبب الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الإرادة ، والدليل على ذلك أنَّ الاستعاذة قبل القراءة ، والذى دلَّت عليه أنها بعد القراءة ، كقول القائل : إذا ضربت زيداً فاجلس ؛ فإن الجلوس إنما يكون بعد الضرب ، لاقبله ، وهذا أولى من تأول من ذهب إلى أنه أراد فإذا تعوذت فاقرأ ، فإن ذلك قلبلاضرورة تدعو إليه ، وأيضاً فليس كل مستعيذ واجبة عليه القراءة .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) والوضوء إنما يكون قبل الصلاة ، لا عند القيام إليها ؛ لأن القيام إليها هو مباشرة لأفعالها من الركوع والسجود والقراءة وغير ذلك ، وهذا إنما يكون بعد الوضوء ، وتأويل الآية إذا أردت القيام إلى الصلاة فاغسل ، فاكتفى بالمسبب عن السبب.

وكذلك ورد قول النبى صلى الله عليه وسلم : «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلْيَتَوَضَّأْ » أى : إذا أراد القيام إلى الصلاة ، وإنما يعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأن الفعل مسبب عن الإرادة ، وهو مع القصد إليه موجود ، فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة .

ومن ذلك قوله تعالى : (فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) أى : فضرب فانفجرت منه ، فاكتفى بالمسبب الذى هو الانفجار عن السبب الذى هو الضرب .

الضرب الثالث : وهو الإضمار على شريطة التفسير ، وهو أن يحذف من صدر الكلام مايؤتى به فى آخره ؛ فيكون الآخر دليلا على الأول .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أوجه :

الأول : أن يأتى على طريق الاستفهام ، فتذكر الجملة الأولى دون الثانية ، كقوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) تقدير الآية : أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه ، ويدل على المحذوف قوله : (فويل للقاسية قلوبهم) .

الوجه الثانى : يرد على حدّ النفى والإثبات ، كقوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا) تقديره : لايستوى منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقاتل ومَنْ أنفق من بعده وقاتل ، ويدل على المحذوف قوله : (أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) .

الوجه الثالث : أن يرد على غير هذين الوجهين؛ فلا يكون استفهاماً ، ولا نفياً وإثباتاً ، وذلك كقول أبى تمام(١) :

يَتَجَنَّبُ الآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

وهذا البيت تختلف نسخ ديوانه فى إثباته ؛ فمنها مايجىء فيه :

يَتَجَنَّبُ الْأَيَّامَ خِيفَةَ غَيِّهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

وليس بشىء ؛ لأن المعنى لايصح به ، وكنت سُئلت عن معناه ، وقيل : كيف ينطبق عجز البيت على صدره ، وإذا تجنب الآثام وخافها فكيف تكون حسناته آثاماً ؟ فأفكرت فيه وأنعمت نظرى فسنح لى فى القرآن الكريم آية مثله ، وهى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) وفى صدر البيت

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المأمون العباسى ، وأولها قوله :

دِمَنٌ أَلَمَّ بِهَا فَقَالَ سَلَامُ كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلْمَامُ

انظر الديوان (٢٧٩ بيروت) .

إضمار مُفَسَّر فى عجزه ، وتقديره أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة ، فكأنما حسناته آثام ، وهو على طباق الآية سواء .

ومن الإضمار على شريطة التفسير قول أبى نواس :

سُـنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

فحذف لفظ الاستكانة من الأول ، وذكره فى الثانى : أى سنة العشاق واحدة ، وهى الاستكانة ، فإذا أحببت فاستكن ، ومن الناس من يقول : « فإذا أحببت فاسْتَنِنِ » وهذا لامعنى له ؛ لأنه إذا لم يبين سنة العشاق ماهى فبأى شىء يستن المستن منها ؛ لكنه ذكر السنة فى صدر البيت من غير بيان ثم بينها فى عجزه .

الضرب الرابع : ما ليس بسبب ولا مسبب ، ولا إضمار على شريطة التفسير ، ولا استئناف .

فأما ماحذف فيه من الجمل المفيدة ، فكقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ، وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ) قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها : فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بمقالة يوسف ، فعجبوا لها ، أو فصدقوه عليها ، وقال الملك ائتونى به ، والمحذوف إذا كان كذلك دلّ عليه الكلام دلالة ظاهرة ؛ لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف ؛ لدلالة الحاشيتين عليه .

وكذلك ورد قوله تعالى فى هذه السورة أيضاً : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ

هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) قد حذف أيضاً من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها : ثم إنهم تجهّزوا وساروا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه .

وقد ورد هذا الضرب فى القرآن الكريم كثيراً ، كقوله تعالى فى سورة القصص : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) فى هذا محذوف ، وهو جواب الاستفهام ؛ لأنها لما قالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) احتاج إلى جواب لينتظم بما بعده من ردّه إلى أمه ، والجواب : فقالوا نعم ، فدلّتهم على امرأة ، فجىء بها وهى أمه ولم يعلموا بمكانها ، فأرضعته ، وهذه الجملة الثانية ــ أعنى قوله تعالى: (فرددناه إلى أمه) ــ تدلّ على المحذوف ؛ لأنّ ردّه إلى أمه لم يكن إلا بعد ردّ الجواب على أخته ، ودلالتها إياهم على امرأة ترضعه ، ويكفى هذا الموضع وحده لمن يتبصر فى مواقع المحذوفات وكيفيتها .

ومما يجرى على هذا المنهج قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وقصة الهدهد فى إرساله بالكتاب إلى بلقيس (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) وفى هذا محذوف ، تقديره : فأخذ الكتاب وذهب به ، فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت يا أيها الملأ .

ومن حذف الجمل المفيدة مايعسر تقدير المحذوف منه ، بخلاف ماتقدم ، ألا ترى أنّ الآيات المذكورة كلها إذا تأملها المتأمل وجد معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التى حذفت منها ، ثم إذا قدر تلك المحذوفات سهل تقديرها ببديهة النظر ، والذى أذكره الآن ليس كذلك ، بل إذا تأمله المتأمل وجده غير متصل المعنى ، وإذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَمَا يَنْظُرُ هؤُلاءِ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ، وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ ، اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إنَّهُ أَوَّابٌ) فهذا الكلام إذا تأمله المتأمل لم يجده متصل المعنى ، ولم يتبين له مجيء ذكر داود عليه السلام رَادِفًا لقوله تعالى : (اصبر على مايقولون) وإذا أراد أن يقدر ههنا محذوفاً يوصل به المعنى عسر عليه ، وتقديره يحتمل وجهين : أحدهما : أنه قال : (اصبر على مايقولون) وخوّفهم أمر معصية الله وعَظِّمْهَا فى عيونهم بذكر قصة داود الذى كان نبيًّا من الأنبياء وقد آتاه الله ما آتاه من النبوة والملك العظيم ، ثم لما زلّ زلّة قوبل بكذا وكذا ، فما الظن بكم أنتم مع كفركم ؟ الوجه الآخر : أنه قال : (اصبر على مايقولون) واحفظ نفسك أن تزلّ فى شيء مما كُلِّفْتَهُ من مصابرتهم واحتمال أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلة فلقى من توبيخ الله مالقى ؛ فهذا الكلام كما تراه يحتاج إلى تقدير حتى يتصل بعضه ببعض ، وهو من أغمض ما يأتى من المحذوفات ، وبه يتنبه على مواضع أخرى غامضة .

وأما ماورد من هذا الضرب فى حذف الجمل التى ليست بمفيدة فنحو قوله تعالى : (يَا زَكَرِيَّا إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا) هذا الكلام قد حذف منه جملة دلّ عليها صدره ، وهو البشرى بالغلام ، وتقديرها : ولما جاءه الغلام ونشأ وترعرع قلنا له : يايحيى خذ الكتاب بقوة ، فالجملة المحذوفة ليست من الجمل المفيدة .

وعلى هذا النهج ورد قوله تعالى: (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِى أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى) وقد حذف من هذا الكلام جملة ، إلا أنها غير مفيدة ، وتقديرها : فلما رجع موسى ورآهم على تلك الحال من عبادة العجل قال لأخيه هٰرون : ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى .

وكذلك ورد قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام من سورة النمل : (قَالَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) وفى هذا محذوف ، تقديره : فلما جاء به قال نكروا لها عرشها ؛ لأن تنكيره لم يكن إلا بعد أن جىء به إليه ، وقد أغنى عن المحذوف صدر الكلام وآخره ، وكان ذلك دليلا عليه .

ومما ورد على ذلك شعراً قول أبى الطيب المتنبى [1] :

لَا أُبْغِضُ الْعِيسَ لٰكِنِّى وَقَيْتُ بِهَا ... قَلْبِى مِنَ الْهَمِّ أَوْ جِسْمِى مِنَ السَّقَمِ

وهذا البيت فيه محذوف ، تقديره : لا أبغض العيس لإنضائى إياها فى الأسفار ،

(١) من قصيدة له يذكر مسيره من مصر ويرثى فيها فاتكا ، وأولها قوله :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِى الظُّلَمِ ... وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمِ

ولكنى وقيت بها كذا وكذا ؛ فالثانى دليل على حذف الأول .

وهذا موضع يحتاج فى استخراجه واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر .

ومما يتصل بهذا الضرب حذف مايجيء بعد أَفْعَلَ ؛ كقولنا « الله أكبر » فإنّ هذا يحتاج إلى تمام : أى أكبر من كل كبير ، أو أكبر من كل شيء يتوهم كبيرا ، أو ماجرى هذا المجرى ، ومثله يرد قولهم : زيد أحسن وجها ، وأكرم خلقاً ، تقديره : أحسن وجهاً من غيره ، وأكرم خلقاً من غيره ، أو مايسدّ هذا المسد من الكلام .

وعليه ورد قول البحترى[1] :

اللهُ أَعْطَاكَ المَحَبَّـةَ فِى الْوَرَى   وَحَبَاكَ بِالْفَضْلِ الَّذِى لاَ يُنْكَرُ

وَلأَنْتَ أَمْلأُ فِى الْعُيُونِ لَدَيْهِمِ   وَأَجَلُّ قَدْرًا فِى الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ

أى : أنت أملأ فى العيون من غيرك .

أما القسم الثانى المشتمل على حذف المفردات فإنه يتصرف على أربعة عشر ضرباً :

الأول : حذف الفاعل ، والاكتفاء فى الدلالة عليه بذكر الفعل ، كقول العرب : أَرْسَلَتْ ، وهم يريدون جاء المطر ؛ ولايذكرون السماء ، ومنه قول حاتم :

أَمَاوِىَّ ؛ مَا يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

يريد النفس ، ولم يجر لها ذكر .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) والضمير فى (بَلَغَتْ) للنفس ، ولم يجر لها ذكر .

وقد نص عثمان بن جنى رحمه الله تعالى على عدم الجواز فى حذف الفاعل ،

---

(١) البيتان آخر قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله ويهنئه بالصوم ، ويذكر خروجه يوم الفطر ، وأولها قوله :

أُخْفِى هَوًى لَكِ فِى الضُّلُوعِ وَأُظْهِرُ   وَأُلاَمُ فِى كَمَدٍ عَلَيْكِ وَأُعْذَرُ

وهذه الآية وهذا البيت الشعرى وهذه الكلمة الواردة عن العرب على خلاف (١) ماذهب إليه ، إلا أن حذف الفاعل لايجوز على الإطلاق ، بل يجوز فيما هذا سبيله ؛ وذاك أنه لايكون إلا فيما دل الكلام عليه ، ألاترى أن التى تبلغ التراقى إنما هى النفس ، وذلك عند الموت ، فعلم حينئذ أن النفس هى المرادة ، وإن كان الكلام خالياً عن ذكرها ، وكذلك قول حاتم «حشرجت» فإن الحشرجة إنما تكون عند الموت .

وأما قول العرب « أرسلت » وهم يريدون أَرْسَلَت السماء فان هذا يقولونه نظرا إلى الحال ، وقد شاع فيما بينهم أن هذه كلمة تقال عند مجىء المطر ، ولم ترد فى شىء من أشعارهم ، ولا فى كلامهم المنثور ، وإنما يقولها بعضهم لبعض إذا جاء المطر ، فالفرق بينها و بين «حشرجت» و بين (بلغت التراقى) ظاهر ، وذاك أنّ « حشرجت » و (بلغت التراقى) يفهم منها أن النفس التى حشرجت ، وأنها هى التى بلغت التراقى ، وأما « أرسلت » فلولا شاهد الحال و إلا لم يجز أن تكون دالة على مجىء المطر ، ولو قيل فى معرض الاستسقاء : إنا خرجنا نسأل الله فلم نزلْ

(١) أخطأ المؤلف رحمه الله فى فهم كلام أبى الفتح وكلام غيره من نحاة البصريين، ولم يفرق بين الإضمار والحذف ؛ ونحا منحاة أهل الكوفة الذين جعلوا هذه الأمثلة ونحوها من باب حذف الفاعل ، ولولا أن الكتاب ليس موضعا لهذه المجادلات لأوفيتك هذه المسألة بحثا حتى تعلم علم اليقين أن أبا الفتح عثمان بن جنى معترف بأن الضمير فى الآية عائد إلى النفس وأنها لم يتقدم لها مرجع وأن الضمير فى بيت حاتم راجع إلى النفس أيضا وأنها لم يتقدم ذكرها ، ومثلهما قول الله تعالى : (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) فإن فاعل « توارت » يعود إلى الشمس ولم يتقدم لها ذكر ، وغاية ما فى الأمر أن مرجع ضمير الغائب قد لايكون مذكورا فى الكلام متقدما ولا متأخرا ولامدلولا عليه بشىء فى الكلام ، وإنما يكون مفهوما من قرائن الحال ، ومن قرائن الحال انحصار الفاعل فى شىء معين بسبب فعله ، كالنفس بالنظر لبلوغ التراقى والحشرجة ، وهلم جرا .

حتى أرسلت ؛ لفهم من ذلك أن التى أرسلت هى السماء ، ولا بد فى الكلام من دليل على المحذوف ، وإلا كان لغواً لايلتفت إليه .

الضرب الثانى : حذف الفعل وجوابه ؛ اعلم أن حذف الفعل ينقسم قسمين : أحدهما يظهر بدلالة المفعول عليه ، كقولهم فى المثل : أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ ، فنصب « أهلك والليل » يدل على محذوف ناصب ، تقديره : الْحَقْ أَهْلَكَ وَبَادِرِ اللَّيْلَ ، وهذا مثل يضرب فى التحذير ؛ وعليه ورد قوله تعالى : (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا) .

ومما ورد منه فى الأخبار النبوية أن جابرا تزوج فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماتزوجت ؟ قال : ثيباً ؛ فقال له: « فَهَلاَّ جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ » يريد فهلا تزوجت جارية ، فحذف الفعل لدلالة الكلام عليه .

ومما ورد منه شعراً قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الكافية التى يمتدح بها عضد الدولة أبا شجاع بن بويه ، ومطلعها :

* فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا[1] *

وسأذكر الموضع الذى حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض ، وهى من محاسن مايؤتى به فى معنى الوداع ، ولم يأت لغيره مثلها ، وهى :

إِذَا التَّوْدِيعُ أَعْرَضَ قَالَ قَلْبِي ... عَلَيْكَ الصَّمْتَ لاَ صَاحَبْتَ فَاكَا
وَلَوْلاَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا تَمَنَّى ... مُعَاوَدَةٌ لَقُلْتُ وَلاَ مُنَاكَا
قَدِ اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ ... وَأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا
فَأَسْتُرُ مِنْكَ نَجْوَانَا وَأُخْفِي ... هُمُوماً قَدْ أَطَلْتُ لَهَا الْعِرَاكَا

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* فَلاَ مَلِكٌ إِذًا إِلاَّ فَدَاكَا *

إِذَا عَاصَيْتُهَا كَانَتْ شِـــدَادًا وَإِنْ طَاوَعْتُهَا كَانَتْ رِكَاكَا
وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قُدُومِى : ذَا بِذَاكَا
وَمِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إِذَا أَنَخْنَا يُقَبِّلُ رَحْلَ تُرْوَكَ وَالْوِرَاكَا(١)
يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطِّيبَ بَعْدِى وَقَدْ عَبِقَ الْعَبِيرُ بِهِ وَصَاكَا(٢)
يُحَدِّثُ مُقْلَتَيْهِ النَّوْمُ عَـــنِّى فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَنْ نَدَاكَا
وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُـــلْمٍ إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَـــهُ ابْتِشَاكَا(٣)
وَلاَ إِلاَّ بِأَنْ يُصْغِى وَأَحْكِى فَلَيْتَكَ لاَ يُتَيِّمُهُ هَوَاكَا

فقوله « ولامُنا كا » فيه محذوف ، تقديره : ولا صاحبت منا كا ، وكذلك قوله « ولا إلا بأن يصغى وأحكى » فإن فيه محذوفاً ، تقديره : ولا أرضى إلا بأن يصغى وأحكى.

وأما القسم الآخر ؛ فإنه لايظهرفيه قسم الفعل ؛ لأنه لايكون هناك منصوب يدل عليه ، وإنما يظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام.

فماجاء منه قوله تعالى (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فقوله (لقد جئتمونا) يحتاج إلى إضمار فعل : أى فقيل لهم لقد جئتمونا ، أو فقلنا لهم .

وقد استعمل هذا فى القرآن الكريم فى غير موضع ؛ كقوله تعالى : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) فقوله :

---

(١) تروك ـ بضم فسكون ففتح ـ اسم ناقة كان أهداها له عضد الدولة .

(٢) فى الأصول « وقد علق العبير » ولها وجه لكنه ضعيف ، وما أثبتناه عن الديوان . وصاك الشىء بالشىء : لصق به . قال الأعشى :

وَمِثْلُكِ مُعْجَبَةٌ بِالشَّبَابِ وَصَاكَ الْعَبِيرُ بِأَجْلَادِهَا

(٣) الابتشاك ومثله التبشك : الكذب .

(أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) يحتاج إلى تقدير الفعل المضمر .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) فقوله : (وإن جاهداك) لابد له من إضمار القول : أى وقلنا له إن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما .

ومن هذا الضرب إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، كقوله تعالى: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ) وهو لأمركم وحده ، وإنما المراد أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم ؛ لأن معنى أجمعوا من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه ، وقد قرأ أبىّ رضى الله عنه (فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم) وهذا دليل على ماأشرت إليه ، وكذلك هو مثبت فى مصحف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

ومن حذف الفعل باب يسمى باب إقامة المصدر مقام الفعل ؛ وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد ، كقوله تعالى : (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) قوله : (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا ؛ فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، وفى ذلك اختصار مع إعطاء معنى التوكيد المصدرى .

وأما حذف جواب الفعل فإنه لا يكون فى الأمر المحتوم ، كقوله تعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) فجزم يخوضوا ويلعبوا لأنهما جواب أمر (فذرهم) وحذف الجواب فى هذا لايدخل فى باب الإيجاز ؛ لأنا إذا قلنا ذرهم أى اتركهم لايحتاج ذلك إلى جواب ، وكذلك مايجرى مجراه ، وإنما يكون الجواب بالفاء فى ماض ، كقولنا : قلت له اذهب فذهب ، وحينئذ يظهر الجواب المحذوف ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً) ألا ترى كيف حذف جواب الأمر فى هذه الآية ؛ فإن تقديره فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا

بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم تدميراً ، فذكر حاشيتى القصة أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة بطولها ، أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم .

ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) فجواب الأمر من هذا الكلام محذوف ، تقديره : فأرسله معهم ، ويدلنا على ذلك ماجاء بعده من قوله : (فلما ذهبوا به) كما حذف أيضاً فى قوله عزّ وجلّ : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) الآية ، فجواب الأمر من هذا الموضع محذوف ، وتقديره : فأرسلوه إلى يوسف ، فأتاه ، فقال له : يوسف أيها الصديق ؛ وكذلك قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) الآية ؛ ففى هذا الكلام حذف واختصار استغنى عنه بدلالة الحال عليه ، وتقديره : فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك بالنسوة ، وقال لهنّ : ماخطبكنّ .

وهكذا ورد قوله تعالى : (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) وقد حذف جواب الأمر ههنا ، وتقديره : فأتَوْهُ به ، فلما كلمه ، وفى سورة يوسف عليه السلام محذوفات كثيرة من أولها إلى آخرها .

فانظر أيها المتأمل إلى هـذه المحذوفات المذكورة ههنا التى كأنها لم تحذف من هذا الكلام ؛ لظهور معناها و بيانه ، ودلالة الحال عليه ، وعلى نحو من ذلك ينبغى أن تكون محذوفات الكلام .

الضرب الثالث : حذف المفعول به ، وذلك مما نحن بصدده أخص ؛ فإن اللطائف فيه أكثر وأعجب ، كقولنا : فلان يَحُلّ ويعقِد ، ويُبْرِم ويَنْقُض ، ويضر وينفع ، والأصل فى ذلك على إثبات المعنى المقصود فى نفسك للشيء على الإطلاق .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) .

ومن بديع ذلك قوله عزّ وجلّ : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) فإن فى هاتين الآيتين قد حذف المفعول به فى أربعة أماكن ؛ إذ المعنى وجد أمةً من الناس يسقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان مواشيهما ، وقالتا لانسقى مواشينا ، فسقى لهما مواشيهما ؛ لأن الغرض[1] أن يعلم أنه كان من الناس سقى ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لايكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى ؛ فأما كون المسقى غنماً أو إبلاً أو غير ذلك فخارج عن الغرض .

وقد ورد فى الشعر من هذا النوع قول البُعَيث بن حريث من أبيات الحماسة[2] :

(١) هذه علة الحذف .

(٢) من كلة له اختارها أبو تمام فى باب الحماسة ، وأولها قوله :

خَيَالٌ لِأُمِّ السَّلْسَبِيلِ وَدُونَهَا   مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْبَرِيدِ الْمُذَبْذَبِ

انظر شرح التبريزى (١ - ٣٥١) .

دَعَانِي يَزِيدُ بَعْدَ مَاسَاءَ ظَنُّهُ وَعَبْسٌ وَقَدْ كَانَا عَلَى جَدِّ مَنْكِبِ
وَقَدْ عَلِمَا أَنَّ العَشِيرَةَ كُلَّهَا سِوَى مَحْضَرِى مِنْ حَاضِرِينَ وَغُيَّبِ

فالمفعول الثانى من « علما » محذوف ؛ لأن قوله : « أن العشيرة » فى موضع مفعول علما الأول ، وتقدير الكلام : قد علما أن العشيرة سوى محضرى من حاضرين وغيب لاغناء عندهم ، أو سواءٌ حضورُهم وغيبتهم ، أو ماجرى هذا المجرى .

ومن هذا الضرب أيضاً حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والإرادة ، كقوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) فمفعول شاء ههنا محذوف ، وتقديره ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى) .

ومما جاء على مثال ذلك شعراً قول البحترى [١] :

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا ، وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

الأصل فى ذلك : لوشئت ألاَّ تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ؛ فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه فى الثانى .

وقد تقدم أن من الواجب فى حكم البلاغة ألاَّ تنطق بالمحذوف ولاتظهره إلى اللفظ ، ولو أظهرت لصرت إلى كلام غث .

ومجىء المشيئة بعد «لو» و بعد حروف الجزاء هكذا موقوفةً غير مُعَدَّاة إلى شىء كثيرٌ شائع بين البلغاء ، ولقد تكاثر هذا الحذف فى « شاء » و « أراد » حتى إنهم لايكادون يبرزون المفعول ، إلا فى الشىء المستغرب ، كقوله تعالى : (لَوْ أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) .

---

(١) من كلمة له يمدح فيها الخضر بن أحمد الثعلبى ، وأولها قوله :

عَجَباً لِطَيْفِ خَيَالِكِ الْمُتَعَاهِدِ وَلِوَصْلِكِ الْمُتَقَارِبِ الْمُتَبَاعِدِ

وعلى هذا الأسلوب جاء قول الشاعر[١] :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِى دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَٰكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوسَعُ

فلو كان على حد قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) لوجب أن يقول : ولو شئت لبكيت دما ، ولكنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه ؛ لأنه أليق فى هذا الموضع ، وسبب ذلك أنه كان بدعاً عجيباً أن يشاء الإنسان أن يبكى دماً ؛ فلما كان مفعول المشيئة مما يستعظم و يستغرب كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر .

الضرب الرابع : وهو حذف المضاف والمضاف إليه ، وإقامة كل واحد منهما مقام الآخر ، وذلك باب عريض طويل شائع فى كلام العرب ، وإن كان أبو الحسن الأخفش رحمه الله لايرى القياس عليه .

فأما حذف المضاف فكقوله تعالى : (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) فحذف المضاف إلى يأجوج ومأجوج ، وهو سدُّها ، كما حذف المضاف إلى القرية فى قوله تعالى : (وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ) أى : أهل القرية .

ومن ذلك أيضاً قوله عزّ وجلّ : (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) أى : خصلة من اتقى ، وإن شئت كان تقديره ولكن ذا البر من اتقى ، والأولى أولى ؛ لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع ، والخبر أولى بذلك من المبتدأ ؛ لأن الاتساع بحذف الأعجاز أولى منه بحذف الصدور .

وقد حذف المضاف مكرراً فى قوله تعالى: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) أى : من أثر حافر فرس الرسول ؛ وهذا الضرب أكثر اتساعاً من غيره .

ومما جاء منه شعراً قول بعضهم من شعراء الحماسة[٢] :

(١) هو للخزيمى يرثى أبا الهيذام من كلمة أولها قوله :

قَضَى وَطَراً مِنْكَ الْحَبِيبُ الْمُوَدِّعُ وَحَلَّ الَّذِى لاَ يُسْتَطَاعُ فَيُدْفَعُ

(٢) نسبهما أبو هلال لجثامة بن قيس أخى بلعاء بن قيس ، وانظر شرح التبريزى (٤ - ١٧٥) .

إذَا لاَقَيْتِ قَوْمِى فاسْأَلِيهِمْ كَفَى قَوْمًا بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرًا[١]

هَلَ اعْفُو عَنْ أُصُولِ الْحَقِّ فِيهِمْ إِذَا عَسُرَتْ وَأَقْتَطِعُ الصُّدُورَا

أراد أنه يقتطع ما فى الصدور من الضغائن والأوغام : أى يزيل ذلك بإحسانه من عفو وغيره ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

وأما حذف المضاف إليه فإنه قليل الاستعمال ؛ فما جاء منه قوله تعالى : (لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) أى : من قبل ذلك ومن بعده .

وربما أدخل فى هذا الموضع ما ليس منه ، كقوله تعالى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) قيل : أراد ظهر الأرض ، فحذف المضاف إليه ، وليس كذلك ؛ فإن الهاء والألف قائمة مقام الأرض ، ألا ترى أن قوله : (ظهرها) يريد الأرض ؛ لأنه ضمير راجع إليها .

وكذلك ورد قول جرير[٢] :

إذا أَخَذَتْ قَيْسٌ عَلَيْكَ وَخِنْدِفٌ بِأَقْطَارِهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ أَيْنَ تَسْرَحُ[٣]

وهذا لا يسمى إيجازاً ، وإنما هو تعويض[٤] بالضمير عن الضمير .

الضرب الخامس : وهو حذف الموصوف والصفة ، وإقامة كل منهما مقام الآخر ، ولا يكون اطراده فى كل موضع ، وأكثره يجىء فى الشعر ، وإنما كانت كثرته فى الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس فى اطراده .

---

(١) رواية الحماسة « كفى قومى بصاحبهم خبيرا » .

(٢) من قصيدة له أولها :

أَجَدَّ رَوَاحُ الْقَوْمِ أَمْ لَا تَرَوُّحُ نَعَمْ كُلُّ مَنْ يُعْنَى بِجُمْلٍ مُتَرَّحُ

(٣) وقع فى ب ، ج « بأنظارها » وهو تحريف ، وصوابه من الديوان والنقائض .

(٤) فى ب ، ج « تعريض » بالراء المهملة ، وهو تحريف ، والتصويب عن ا .

فمما جاء منه فى الشعر قول البحترى من أبيات فى صفة إيوان كسرى(١) ؛ فقال فى ذكر التصاوير التى فى الإيوان ، وذلك أن الفُرْسَ كانت تحارِبُ الروم فَصَوَّرُوا صورةَ مدينة أنْطاكية فى الإيوان وحرب الروم والفرس عليها ؛ فمما ذكره فى ذلك قوله :

وَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا ... كِيَّةَ ارْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ
وَالْمَنَايَا مَوَاثِلٌ وَأَنُوشِرْ ... وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ(٢)
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْـ ... ـفَرَ يَخْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ

فقوله « على أصفر » أى : على فرس أصفر ، وهذا مفهوم من قرينة الحال ؛ لأنه لما قال « على أصفر » علم بذلك أنه أراد فرساً أصفر .

والصفة تأتى فى الكلام على ضربين : إما للتأكيد والتخصيص ، وإما للمدح والذم ، وكلاهما من مقامات الإسهاب والتطويل ، لا من مقامات الإيجاز والاختصار ، وإذا كان الأمر كذلك لم يلق الحذف به ، هذا ، مع ماينضاف إليه من الالتباس وضد البيان ، ألا ترى أنك إذا قلت : مررت بطويل ، لم يبن من هذا اللفظ الممرور به إنسان هو أم رُمْح أم ثوْب أم غير ذلك ، وإذا كان الأمر على هذا فحذف الموصوف إنما هو شىء قام الدليل عليه أو شهدت به الحال ، وإذا استبهم كان حذفه غير لائق .

(١) من قصيدته التى مطلعها قوله :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

(٢) وقع هذا البيت فى ب ، ج محرفا تحريفا شنيعا ، ونحن نثبته لك على صورته الصحيحة ، ونذكر لك ههنا صورته فيهما لتعرف مقدار الفساد الذى أصابه ، فقد ورد على هذه الصورة :

والمنـــايا موائلٌ وأنو شِرْ ... وان يرمى الصفوف تحت الدرس

والدرفس : اسم راية أنوشروان .

ومما يؤكد عندك ضعف حذفه أنك تجد من الصفات ما لايمكن حذف موصوفه ، وذاك أن تكون الصفة جملة ، نحو : مررت برَجُلٍ قام أبوه ، ولقيت غلاماً وَجْهُهُ حسن ، ألا تراك لو قلت : مررت بقام أبوه ، ولقيت وجهه حسن ؛ لم يجز .

وقد ورد حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فى غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى : (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) فإنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ، ولم تكن عمياء ، وإنما يريد آية مبصرة ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه .

ولقد تأملت حذف الموصوف فى مواضع كثيرة فوجدت أكثر وقوعه فى النداء وفى المصدر ؛ أما النداء فكقولهم : ياأيُّهَا الظَّرِيف ، تقديره : ياأيها الرجل الظريف ، وعليه ورد قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) تقديره : ياأيها الرجل الساحر ، وكذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تقديره : ياأيها القوم الذين آمنوا ، وأما المصدر فكقوله تعالى : (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا) تقديره : ومن تاب وعمل عملاً صالحاً .

وقد أقيمت الصفة الشبيهة بالجملة مقام الموصوف المبتدأ فى قوله تعالى : (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ) أى : قوم دون ذلك .

وأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، فإنه أقلُّ وجوداً من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، ولا يكاد يقع فى الكلام إلا نادراً ؛ لمكان استبهامه .

فمن ذلك ماحكاه سيبويه رحمه الله من قولهم : سِيرَ عَلَيْهِ لَيْلٌ ، وهم يريدون ليل طويل ، وإنما حذفت الصفة فى هذا الموضع لما دلّ من الحال عليه ، وذلك أنه يحسن فى كلام القائل لذلك من التطريح والتطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل ، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته ، وهو أن يكون

فى مدح إنسان والثناء عليه فتقول : « كان والله رجلاً » أى رجلاً فاضلاً ، أو شجاعاً، أو كريماً ، أو ماجرى هذا المجرى من الصفات ، وكذلك تقول : «سألناه فوجدناه إنساناً » أى إنساناً سَمْحاً ، أو جواداً ، أو ما أشبهه ، فعلى هذا ونحوه تحذف الصفة ، فأما إن عَرِيَت عن الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز .

وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ إلا فى صفة تقدمها مايدل عليها ، أو تأخر عنها ، أو فهم ذلك من شىء خارج عنها :

أما الصفة التى تقدمها ما يدل عليها فقوله تعالى : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) فحذف الصفة : أى كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً ، ويدلّ على المحذوف قوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) فإن عَيْبَهُ إياها لم يخرجها عن كونها سفينة ، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب ، فحذفت الصفة ههنا ؛ لأنه تقدمها مايدلّ عليها .

وأما التى تأخر عنها مايدلّ عليها فقول بعض شعراء الحماسة (١) :

كُلُّ امْرِئٍ سَتَئِيمُ مِنْــــهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَئِيمُ (٢)

فإنه أراد كل امرىء متزوّج ؛ إذ دلّ عليه مابعده من قوله : « ستئيم منه أو منها يئيم » إذ لا تئيم هى إلا من زوج ولا يئيم هو إلا من زوجة ، فجاء بعد الموصوف

---

(١) هو يزيد بن الحكم الثقفى ، والكلمة التى منها هذا البيت يعظ فيها ابنه بدرا ، وأولها قوله :

يَا بَدْرُ وَالْأَمْثَالُ يَضْــــرِبُهَا لِذِى اللُّبِّ الْحَكِيمُ

(٢) وقع فى ج ، ب « ستئيم » بالنون فى كل موضع ذكرت فيه هذه الكلمة وهو تحريف شنيع ، والتصحيح عن ديوان الحماسة وشرحه (انظر شرح التبريزى : ٣ ــ ١٨٣) . وتقول : آمت المرأة تئيم أَيْماً وَأَيْمَةً وأُيُوماً ؛ إذا مات زوجها .

مادلّ عليه ، ولولا ذلك لما صح معنى البيت ؛ إذ ليس كل امرىء يئيم من عرس إلا إذا كان متزوّجاً .

وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شىء خارج عن الكلام فقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لَا صَلَاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إلاَّ فِى المَسْجِدِ » فإنه قد علم جواز صلاة جار المسجد فى غير المسجد من غير هذا الحديث ؛ فعلم حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال ، وهذا شىء لم يعلم من نفس اللفظ ، وإنما علم من شىء خارج عنه .

الضرب السادس : وهو حذف الشرط وجوابه .

فأما حذف الشرط فنحو قوله تعالى : (يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ) فالفاء فى قوله تعالى : (فاعبدون) جواب شرط محذوف ، لأن المعنى إن أرضى واسعة فإن لم تُخْلِصُوا لى العبادة فى أرض فأخلصوها فى غيرها ، ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ) أى : فَحَلَقَ فعليه فدية .

وكذلك قولهم : الناس مَجْزِيُّونَ بأعمالهم : إنْ خَيْرًا فخيرا ، وإن شرًّا فشرا : أى إن فعلَ المرء خيراً جُزِى خيرا ، وإن فَعَلَ شرًّا جُزِى شرا .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : (وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) تقدير ذلك : فأفطر فعدة من أيام أخر ؛ ولهذا ذهب داود الظاهرى إلى الأخذ بظاهر الآية ، ولم ينظر إلى حذف الشرط ؛ فأوجب القضاء على المريض والمسافر ، سواء أفطر أم لم يفطر .

ومن حذف الشرط قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ

لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) اعلم أن هذه الفاء التى فى قول الشاعر : « فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا[1] » وحقيقتها أنها فى جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام ، كأنه قال : إن صحّ ماقلتم إن خراسان أقصى مايراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص ، وكذلك هذه الآية ، يقول : إن كنتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث : أى قد تبين بطلان قولكم .

وأما حذف جواب الشرط فكقوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) فإن جواب الشرط ههنا محذوفٌ تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

الضرب السابع ؛ وهو حذف القسم وجوابه :

فأما حذف القسم فنحو قولك « لَأَفْعَلَنَّ » أى والله لأفعلن ، أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها .

وأما حذف جوابه فكقوله تعالى : (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) فجواب القسم ههنا محذوف ، تقديره : لَيُعَذَّبُنَّ ، أو نحوه ، ويدل على ذلك مابعده من قوله: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) إلى قوله : (سَوْطَ عذاب) .

---

(١) يشير إلى قول الشاعر :

قَالُوا خُرَاسانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ ، فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا

ومما ينتظم فى هذا السلك قوله تعالى : (ق وَالقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) فإن معناه ق والقرآن المجيد لتبعَثُنّ ، والشاهد على ذلك مابعده من ذكر البعث فى قوله : (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد) .

وقد ورد هذا الضرب فى القرآن كثيراً ؛ كقوله تعالى فى سورة النازعات : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) فجواب القسم ههنا محذوفٌ ، تقديره : لَتُبْعَثُنّ أو لَتُحْشَرُنّ ، ويدل على ذلك ما أتى من بعده من ذكر القيامة فى قوله: (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وكذلك إلى آخر السورة .

الضرب الثامن : وهو حذفُ « لو » وجوابها ؛ وذاك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها .

فأما حذف « لو » فكقوله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) تقديره ذلك إذا لوكان معه آلهة لذهب كل إلٰه بما خلق .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) تقديره : إذا لوفعلت ذلك لارتاب المبطلون ، وهذا من أحسن المحذوفات .

ومما جاء من ذلك شعراً قول بعضهم فى صدر الحماسة(١) :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا
إِذًا لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عِنْدَ الْحَفِيظَةِ إِنْ ذُو لُوثَةٍ لَانَا

(١) هو قريط بن أنيف (بزنة التصغير فيهما) أحد بنى العنبر .

فلو فى البيت الثانى محذوفة ؛ لأنها فى البيت الأول قد استوفت جوابها بقوله: «لم تستبح إبلى» ثم حذفها فى الثانى ، وتقدير حذفها إذا لو كنت منهم لقام بنصرى معشر خشن ، وإذا لو كانوا قومى لقام بنصرى معشر خشن .

وأما حذف جواب « لو » فإنه كثير شائع ، وذلك كقولك : لو زُرْتَنَا ، لو أَلْمَمْتَ بنا ، معناه لأحسنا إليك ، أو لأكرمناك ، أو ماجرى هذا المجرى .

ومما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) ؛ فإن جواب « لو » ههنا محذوف ، تقديره : لرأيت أمراً عظيما ، وحالا هائلة ، أو غير ذلك مما جرى مجراه .

ومما جاء على نحو من هذا قوله عز وجل : (وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) تقديره لو يعلمون الوقت الّذى يستعجلونه ، وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ولا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون ناصراً ينصرهم ؛ لَمَا كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الّذى هوّنه عليهم .

ومما يجرى على هذا النهج قوله تعالى : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) فجواب لو فى هذا الموضع محذوفٌ ، كما حذف فى قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) أى : لوأن لى بكم قوة لدفعتكم ، أو منعتكم ، أو ما أشبهه ، وكذلك قوله: (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) لكان هذا القرآن .

وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة وأوضحها ؛ لعلم المخاطب به ؛ لأن قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) يتسارع الفهم [فيه] إلى أن الكلام يحتاج إلى جواب .

ومما جاء منه شعراً قول أبى تمام فى قصيدته البائية التى يمدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورية(١) .

لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنَتْ   لَهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضُبِ(٢)

فإن هذا محذوف الجواب ، تقديره : لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أُهْبَة الحذار ، أو غير ذلك .

واعلم أن حذف هذا الجواب لايسوغ فى أى موضع كان من الكلام ، وإنما يحذف مادلّ عليه مكان المحذوف ، ألا ترى أنه قد ورد فى القرآن الكريم غير محذوف ، كقوله تعالى : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) وهذا ليس كالذى تقدم من الآيات ؛ لأن تلك علم مكان المحذوف منها ، وهذه الآية لو حذف الجواب فيها لم يعلم مكانه ؛ لأنه يحتمل وجوها ، منها أن يقال : لَمَا آمنوا ، أو لَطَلَبُوا ما وراء ذلك ، وقد تقدم القول فى أول باب الإيجاز أنه لابد من دلالة الكلام على المحذوف .

الضرب التاسع : وهو حذف جواب « لولا »

فمن ذلك قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) فجواب

---

(١) أول هذه القصيدة قوله :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ   فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

(٢) فى الديوان « كمنت له المنية » .

« لولا » ههنا محذوف ، تقديره : لَمَا أنزل عليكم هذا الحكم بطريق التلاعن وستر عليكم هذه الفاحشة بسببه

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ تقديره : ولولا فضل ٱلله عليكم ورحمته لعجَّل لكم العذاب ، أو فعل بكم كذا وكذا .

الضرب العاشر : وهو حذف جواب « لَمَّـا » وجواب « أمَّا » .

فأما حذف جواب « لما » فكقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن جواب « لما » ههنا محذوف ، وتقديره : فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حُلوله ، وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه المِحْنة من عظائم الوصف دنيا وآخرة ، وقوله « إنا كذلك نجزى المحسنين » تعليل لِتَخْوِيل ماخوّلهما من الفرح والسرور بعد تلك الشدة العظيمة .

وأما حذف جواب «أما» فنحو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

الضرب الحادى عشر : وهو حذف جواب « إذا »

فما جاء منه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ألا ترى كيف حذف الجواب عن « إذا » فى هذا الكلام ، وهو مدلول عليه بقوله : ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ كأنه قال : و إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ، ثم قال : ودأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة .

الضرب الثانى عشر : حذف المبتدأ والخبر .

أما حذف المبتدأ فلا يكون إلا مفرداً ، والأحسن هو حذف الخبر ؛ لأن منه مايأتى جملة ؛ كقوله تعالى : (وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) وههنا قدحذف خبرالمبتدأ ، وهو جملة من مبتدإ وخبر ، وتقديرها : واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر (١) .

ومما ورد منه شعراً قول أبى عُبادة البحترى (٢) :

كُلُّ عُذرٍ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَلَٰكِنْ ... أَعْوَزَ الْعُذْرُ مِنْ بَيَاضِ الْعِذَارِ

وهذا قد حذف منه خبر المبتدإ ، إلا أنه مفرد غير جملة ، وتقديره . كل عذر من كل ذنب مقبول ، أو مسموع ، أو ماجرى هذا المجرى

الضرب الثالث عشر : وهو حذف «لا» من الكلام ، وهى مرادة .

وذلك كقوله تعالى : (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ) يريد به لاتفتؤ : فحذفت «لا» من الكلام وهى مرادة .

وعلى هذا جاء قول امرىء القيس (٣) :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِى لَدَيْكِ وَأَوْصَالِى

---

(١) لايلزم هذا التقدير حتى يكون من حذف الجملة ، بل يجوز أن يكون التقدير : واللائى لم يحضن كذلك ؛ فيكون من حذف الجار والمجرور ، أو يكون التقدير : واللائى لم يحضن مثلهن ؛ فيكون من حذف اسم مفرد.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر بن حميد و يستوهبه غلاما ، وأولها قوله :

أَبُكَاءٌ فِى الدَّارِ بَعْدَ الدَّارِ ... وَسُلُوًّا بِزَيْنَبٍ عَنْ نَوَارِ

وانظر الديوان (٢ - ٢٤ مصر) .

(٣) من قصيدة له مطلعها قوله :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى ... وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

أى : لا أبرح قاعدا ، فحذفت «لا» فى هذا الموضع وهى مرادة .

ومما جاء منه قول أبى مِحْجَنٍ الثقفى لما نهاه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عن شرب الخمر ، وهو إذ ذاك فى قتال الفرس بالقادسية (١) :

رَأَيْتُ الْخَمْرَ صَالِحَةً وَفِيهَا ... مَنَاقِبُ تُهْلِكُ الرَّجُلَ الْحَلِيمَا

فَلَا وَاللهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِى ... وَلَا أَسْقِى بِهَا أَبَدًا نَدِيمَا

يريد « لا أشربها » ؛ فحذف «لا» من الكلام وهى مفهومة منه .

الضرب الرابع عشر : وهو حذف الواو من الكلام وإثباتها .

وأحسن حذوفها فى المعطوف والمعطوف عليه ، وإذا لم يذكر الحرف المعطوف به كان ذلك بلاغة وإيجازا ، كقول أنس بن مالك رضى الله عنه : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يَنَامُونَ ثم يُصَلُّون ولا يَتَوَضَّئُون ، أو قال : ثم يصلون لَا يَتَوَضَّئُونَ ، فقوله « لايتوضئون » ـ بحذف الواو ـ أبلغ فى تحقيق عدم الوضوء من قوله «ولايتوضئون» بإثباتها ؛ كأنه جعل ذلك حالةً لهم لازمة : أى أنها داخلة فى الجملة ، وليست جملة خارجة عن الأولى ؛ لأن واو العطف تؤذن بانفراد المعطوف عن المعطوف عليه ، وإذا حذفت فى مثل هذا الموضع صار المعطوف والمعطوف عليه جمله واحدة .

وقد جاء مثل ذلك فى القرآن الكريم ، وذلك أنه يذكر جمل من القول كل واحدة منها مستقلة بنفسها ، ثم تسرد سرداً بغير عاطف ، كقوله تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) تقدير هذا الكلام : لايألونكم خبالا ووَدُّوا ماعنتم وقد بدت البغضاء من أفواههم ، فلما

(١) لم أجد هذين البيتين فى ديوان أبى محجن الثقفى الذى رواه وشرحه أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى صاحب الصناعتين وهو مطبوع فى ليدن (عام ١٣٠٣ من الهجرة) .

حذفت الواو جاء الكلام أوجز ، وأحسن طلاوة ، وأبلغ تأليفاً ونظما ، وأمثاله فى القرآن الكريم كثير .

واعلم أنه قد حذفت الواو وأثبتت فى مواضع ؛ فأما إثباتها فنحو قوله تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) ،وأما حذفها فنحو قوله تعالى: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ) .

وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو وإثباتها فى كل موضع ، وإنما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين .

ولنبين لك فى ذلك رسْماً تَتَبَّعه ، فنقول : اعلم أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد « إلاّ » يجوز إثبات الواو فى خبره وحذفها ، كقولك : ما رأيت رجلا إلا وعليه ثياب ، وإن شئت قلت : إلا عليه ثياب ، بغير واو ؛ فإن كان الذى يقع على النكرة ناقصاً فلا يكون إلا بحذف الواو ، نحو قولك : ما أظن درهماً إلا هو كافيك ، ولا يجوز إلا وهو كافيك ، بالواو ؛ لأن الظن يحتاج إلى شيئين ، فلا يعترض فيه بالواو ؛ لأنه يصير كالمكتفى من الأفعال باسم واحد ، وكذلك جواب ظَنَنْتُ وكَانَ وإنّ وأشباهها ، فخطأ أن تقول : إن رجلا وهو قائم ، ونحو ذلك ، ويجوز هذا فى «ليس» خاصة ، تقول : ليس أحد إلا وهو قائم ؛ لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة[1] ألا ترى أنك تقول : ليس أحد ، وما من أحد ، فجاز فيها إثبات الواو ، ولم يجز فى أظن ؛ لأنك لا تقول : ما أظن أحداً ، فأما أصبح وأمسى ورأى فإن الواو فيهن أسهل ؛ لأنهن توأم فى حال[2] ، وكان وأظن ونحوهما بنين على النقص ، إلا إذا كانت تامة ، وكذلك « لا » فى التنزيه وغيرها ، نحو : لا رجل ، وما من رجل ؛ فيجوز إثبات الواو فيها وحذفها .

(١) فى جميع الأصول « بليس و بحرف نكرة » ونرى أنه لابد من زيادة الواو حتى تصير العبارة «يتوهم تمامه بليس و بحرف ونكرة» والمعنى أن الكلام قد يتوهم تمامه بليس ونكرة نحو ليس أحد ، و بحرف ونكرة نحو ما من أحد .

(٢) يريد أخوات الحال ؛ إذ يقرب معناهن من معنى الحال ، وهو «فى حال كذا»

واعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئا لا يجوز القياس عليه، كقول بعضهم (١) :

كَأَنَّ إبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكِتَّانِ مَلْثُومُ (٢)

فقوله « بِسَبَا الكتان » يريد بسبائب الكتان (٣) ، وكذلك قول الآخر :

يُذْرِينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لِجُنُوبِهَا فَكَأَنَّمَا تُذْكِي سَنَابِكُهَا الْحُبَا (٤)

---

(١) هو علقمة بن عبدة ، من قصيدة طويلة أولها قوله :

هَلْ مَاعَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ أَمْ حَبْلُهَا إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مَصْرُومُ

(٢) شبه الإبريق بظبي فى طول عنقه و إشرافه ، وجعله على شرف وهو المكان العالى المشرف لأن ذلك مما يزيد فى طول عنقه للناظر ، ومفدم ــ بالفاء ــ جعل الفدام ــ بزنة كتاب ــ على فيه ، والفدام : خرقة تجعل فى فم الإبريق ، ووقع فى الأصول « مقدم » بالقاف ، وهو تحريف .

(٣) سبائب الكتاب : جمع سبيبة ، وهى الشقة مطلقا ، وقيل : هى الشقة البيضاء ، ومثل الحذف فى هذا البيت قول لبيد :

دَرَسَ الْمَنَا بِمُتَالِعٍ فَأَبَانِ وَتَقَادَمَتْ بِالْحَبْسِ فَالسُّوبَانِ

(٤) وقع هذا البيت فى ا ، ب ، ج على صورة من التحريف الغريب ، وهى :

بَدْرُ بْنُ جَنْدَلَ حائر لجنوبها فكأنما تذكى سنابكها الحبا

والصواب ما أثبتناه ، وهو فى اللسان (ح ب ح ب) ويذرين : مضارع أذرى مسندا إلى نون النسوة والمراد بها الخيل ، والجندل : الصخر ، والحائر ــ بالراء المهملة ، وأراد الحباحب وهو رجل من بنى محارب بن خصفة ، وكان لا يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا ترى ، فضرب بناره المثل ؛ لأنه كان لا يوقد إلا نارا ضعيفة مخافة الضيفان ، فقالوا : نار الحباحب ، لما تثيره الخيل بحوافرها ، وربما جعلوا الحباحب اسما لتلك النار ، كما قال الكسعى :

مَابَالُ سَهْمِي يُوقِدُ الْحُبَاحِبَا قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَائِبَا

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن ، وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله .

وأما القسم الثانى من الإيجاز فهو مالا يحذف منه شىء ، وذلك ضربان : أحدهما : ماساوى لفظه معناه ، ويسمى التقدير ، والآخر : مازاد معناه على لفظه ، ويسمى الإيجاز بالقصر .

فأما الإيجاز بالتقدير فإنه الذى يمكن التعبير عن معناه بمثل ألفاظه وفى عدتها .

وأما الإيجاز بالقصر فإنه ينقسم قسمين : أحدهما : مادل لفظه على محتملات متعددة ، وهذا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها ، والآخر : ما يدل لفظه على محتملات متعددة ، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفى عدتها ، لا ، بل يستحيل ذلك .

ولنورد الآن الضرب الأول الذى هو الإيجاز بالتقدير ؛ فمما جاء منه قوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) فقوله (قتل الإنسان) دعاء عليه ، وقوله (ما أكفره) تعجب من إفراطه فى كفران نعمة الله عليه ، ولا نرى أسلوبا أغلظ من هـذا الدعاء والتعجب ، ولا أخشن مسًّا ، ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قِصر متنه ، ثم إنه أخذ فى صفة حاله من ابتداء حدوثه إلى منتهى زمانه ، فقال (من أى شىء خلقه) ثم بين الشىء الذى خلق منه بقوله (من نطفة خلقه فقدره) أى : هيأه لما يصلح له (ثم السبيل يسره) أى : سَهَّل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه ، أو السبيل الذى يختار سلوكه من طريق الخير والشر ، والأول أولى ؛ لأنه

ويقال : الحباحب : طائر أطول من الذباب فى دقة يطير فيما بين المغرب والعشاء كأنه شرارة .. ومعنى البيت الذى نحن بصدد شرحه أن هذه الخيل تذرى الحصا فى جريها فتصيب به جنوبها .

تال لخلقته وتقديره ، ثم بعد ذلك يكون تيسير سبيله لما يختاره من طريق الخير والشر (ثم أماته فأقبره) أى : جعله ذا قبر يُوارَى فيه (ثم إذا شاء أنشره) أى : أحياه (كلا) ردع للإنسان عما هو عليه (لما يقض ما أمره) أى : لم يقض مع تطاوُل زمانه ما أمره الله به ، يعنى أن إنسانا لم يخل من تقصير قط ، ألا ترى إلى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك ، لأنك كنت تذهب بجزء من معناه ، والإيجاز : هو ألاّ يمكنك أن تسقط شيئا من ألفاظه .

والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة ، كقوله تعالى : (فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ) فقوله (فله ماسلف) من جوامع الكلم ، ومعناه أن خطاياه الماضية قد غفرت له وتاب الله عليه فيها ، إلا أن قوله (فله ماسلف) أبلغ : أى أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنما هو له ، وكذلك ورد قوله تعالى (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) فعليه كفره كلمة جامعة تغنى عن ذكر ضروب من العذاب ؛ لأن من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئة .

وعلى نحو من هـذا جاء قوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فهذه الآية من جوامع الآيات الواردة فى القرآن الكريم ؛ وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابن أخى ، أعِدْ ، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم قراءتها عليه ، فقال له : إنّ له لَحَلاوة ، وَإنّ عليه لَطَلاوة ، وإنّ أعلاه لَمُثْمِر ، وإن أسفله لَمُغْدِق ، وما هو بقول البشر .

ومن هذا النحو قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ

بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) وهـذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التى دلّت على تخويف و إرهاب ترقّ له القلوب ، وتَقْشَعِرّ منه الجلود ، وهى مشتملة مع قصرها على حال الإنسان منذ خلقه إلى حين حشره وحشر غيره من الناس ، وتصوير ذلك الأمر الفظيع فى أسهل لفظ وأقربه ، وما مررت عليها إلا جَدَّدَتْ لى موعظةً ، وأحدثت عندى إيقاظاً .

ومن هذا الضرب ماورد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى دعائه لأبى سلمة عند موته فقال : « اللّهمّ ارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمُهْتَدِينَ ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ لَنَا وَلَهُ يَارَبَّ الْعَالَمِينَ » وهذا دعاء جامع بين الإيجاز و بين مناسبة الحال التى وقع فيها ؛ فأوله مفتتح بالمهمّ الذى يفتقر إليه المدعوّ له فى تلك الحال ، وهو رفع درجته فى الآخرة ، وثانيه مردف بالمهم الذى يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا ، وثالثه مختتم بالجمع بين الداعى والمدعو له ، وهذا من الإيجاز البليغ الذى هو طباق ماقصد له ، وكلام النبىّ صلى الله عليه وسلم كله هكذا كما قال : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » .

وكذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؛ فإنه قال : « هٰذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ » وهو شبيه بقوله تعالى : (فله ماسلف) .

ولما جرح عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجراحة التى مات بها اجتمع إليه الناس ، فجاءه شابٌّ من الأنصار ، وقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله ، لَكَ مِنْ صُحْبة رسول الله وقدم فى الإسلام ماعلمت ، ووليت فعدلت ، ثم شهادة .

وهذا كلام سديد قدحوى المعنى المقصود ، وأتى به فى أوجز لفظ وأحسنه ، ومع مافيه من الإيجاز فإنه مستغرب ، وسبب استغرابه أنه جعل المَساءة بُشْرَى ،

وأخرجها مُخْرَج المسرة ، وتلطف فى ذلك فأبلغ ، ولو أراد الكاتب البليغ والخطيب المِصْقَع أن يأتى بذلك على هذا الوجه لأعوزه .

ومن هذا النمط ما كتبه طاهر بن الحسين إلى المأمون عند لقائه عيسى بن مَاهَان وهَزْمه إياه وقتله ، فكتب إليه : كتابى إلى أمير المؤمنين ورأسُ عيسى ابن مَاهَانَ بين يدىّ ، وخاتمه فى يدى ، وعسكره مصرف تحت أمرى ، والسلام .

وهذا من الكتب المختصرة التى حوَتِ الغرضَ المطوّل ، وما يكتب فى هذا المقام مثله .

ولما أرسل المهلب بن أبى صفرة أبا الحسن المدائنى إلى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الأزارقة كلمه كلاماً مُوجَزاً كالذى نحن بصدد ذكره ههنا ، وذاك أن الحجاج سأله فقال : كيف تركت المهلب ؟ فقال : أدرك ما أمّل ، وأمِنَ ممّا خاف ؛ فقال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : كيف جنده له ؟ قال : أولاد بَرَرَة ؛ قال : كيف رِضاهم عنه ؟ قال : وَسِعَهُم بفضله ، وأغْنَاهم بعَدْله ؛ قال : كيف تَصْنَعُون إذا لقيتم العدوّ ؟ قال : نلقاهم بجدنا ، ويلقوننا بجدهم ، قال : كذلك الجد إذا لقى الجد ؛ قال : فأخبرنى عن بنى المهلب ؛ قال : هم أحْلاَسُ القتال بالليل ، حُماة السرج بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال : هم كحلقة مَضْرُوبة لايُعْرَفُ طرَفاها ؛ فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله هو الكلام الفَصْل الذى ليس بمصنوع .

وقد ورد فى الأخبار النبوية من هذا الضرب شىء كثير ، وسأورد منه أمثلة يسيرة .

فمن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْحَلاَلُ بَيِّنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ » وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعانى الكثيرة ، وذاك أنه يشتمل على جلّ الأحكام الشرعية ؛ فإن الحلال والحرام إما أن يكون

الحكم فيهما بيناً لا خلاف فيه بين العلماء ، و إما أن يكون خافياً يتجاذبه وُجُوه التأويلات ؛ فكل منهم يذهب فيه مذهباً .

وكذلك جاء قوله صلى الله عليه وسلم : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ أمْرِئٍ مَانَوَى » فإن هذا الحديث أيضاً من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُضْعِفُ أَمِيرُ الرَّكْبِ » وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « سيروا بسير أضعفكم » إلا أن الأول أحسن ؛ لأنه أبلغ معنى فإن الأمير واجب الحكم فهو يُتَّبَع ، وإذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له فى سيرهم ونزولهم ، وهذا المعنى لا يوجد فى قوله : « سيروا بسير أضعفكم » .

وأحسن من هـذا كله ماورد عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته : « مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » فقوله : « تعبد الله كأنك تراه » من جوامع الكلم ؛ لأنه ينوب مناب كلام كثير ، كأنه قال : تعبد الله مخلصاً فى نيتك ، واقفاً عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع ، آخذاً أُهْبَة الحذر ، وأشباه ذلك ؛ لأن العبد إذا خدم مولاه ناظراً إليه استقصى فى آداب الخدمة بكل مايجد إليه السبيل وما ينتهى إليه الطَّوْق .

ومما أطربنى من ذلك حديث الحديبية ، وهو أنه جاء بُدَيْلُ بن ورْقاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إنى تركتُ كَعْبَ بن لؤى بن عامر بن لؤى معهم العُوذُ المَطافِيلُ ، وهم مُقاتِلُوك وصادُّوك عن البيت ؛ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الْحَرْبُ ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً وَيَدَعُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرْ عَلَيْهِمْ وَأَحَبُّوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ وَإِلَّا كَانُوا قد جموا ، وَإِنْ أَبَوْا فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِى

هٰذَا حَتَّى تَنفَرِدَ سَالِفَتِي هٰذِهِ وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ » وهذا الحديث من جوامع الكلم ، وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لاينتهى إليها وصف الواصف .

وأما ماورد من ذلك شعراً فقول النابغة (١) :

وَإِنَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وتخصيصه الليل دون النهار مما يُسْأَلُ عنه .

وكذلك قوله (٢) :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول الأعشى فى اعتذاره إلى أَوْسِ بن لام عن هجائه إياه (٣) :

وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي لَنَادِمٌ وَإِنِّي إِلَى أَوْسِ بْنِ لَامٍ لَتَائِبُ
وَإِنِّي إِلَى أَوْسٍ لِيَقْبَلَ عِذْرَتِي وَيَصْفَحَ عَنِّي مَا حَيِيتُ لَرَاغِبُ
فَهَبْ لِي حَيَاتِي فَالْحَيَاةُ لِقَائِمٍ بِشُكْرِكَ فِيهَا خَيْرُ مَا أَنْتَ وَاهِبُ
سَأَمْحُو بِمَدْحٍ فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

وهذا من المعانى الشريفة فى الألفاظ الخفيفة ، وهو من طنانات الأعشى المشهورة وعلى نحو منه جاء قول الفرزدق (٤) :

---

(١) من قصيدة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ، وأولها قوله :

عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَى فَالْفَوَارِعُ فَشَطَّا أَرِيكٍ فَالتِّلَاعُ الدَّوَافِعُ

(٢) من كلمة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر أيضا ، وأولها قوله :

أَتَانِي ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! ـ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

(٣) هذه الأبيات مذكورة فى زيادات ديوان الأعشى ، وليس معها شىء .

(٤) من قصيدة له أولها :

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِي وَأَهْلِهِ وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيَّثْ مَقَاوِلُهْ

وهى إحدى مناقضاته لجرير .

صَبَحْنَاهُمُ الشُّعْثَ الْجِيَادَ كَأَنَّهَا   قَطًا هَيَّجَتْهُ يَوْمَ رِيحٍ أَجَادِلُهْ (١)
إِلَى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بَنَاتِهِمْ   بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ كَثِيرٍ صَوَاهِلُهْ (٢)
إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْكَحَتْنَا رِمَاحُنَا   مِنَ الْقَوْمِ أَبْكَارًا كِرَامًا عَقَائِلُهْ
وَإِنَّا لَمَنَّاعُونَ تَحْتَ لِوَائِنَا   حِمَانَا إِذَا مَا عَادَ بِالسَّيْفِ حَامِلُهْ

وهذا من محاسن ما يجيء فى هذا الباب .

ومما يجرى هذا المجرى قول جرير (٣) :

تَمَنَّى رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ مَنِيَّتِي   وَمَا ذَادَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ ذَائِدٌ مِثْلِي (٤)
فَلَوْ شَاءَ قَوْمِي كَانَ حِلْمِيَ فِيهِمُ   وَكَانَ عَلَى جُهَّالِ أَعْدَائِهِمْ جَهْلِي (٥)

---

(١) رواية النقائض :

صَبَحْنَاهُمُ الْجُرْدَ الْجِيَادَ كَأَنَّهَا   قَطًا أَفْزَعَتْهُ يَوْمَ طَلٍّ أَجَادِلُهْ

(٢) رواية النقائض :

إِلَى كل حَيٍّ قَدْ خَطَبْنَا بَنَاتِهِمْ   بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ جَمٍّ صَوَاهِلُهْ

والمراد بالأرعن الجيش ، وهذا البيت متصل بما بعده فى النقائض ولكن بينه و بين الذى قبله فى رواية النقائض أبيات كثيرة .

(٣) من قصيدة له يهجو فيها البعيث والفرزدق ، وأولها قوله :

عُوجِي عَلَيْنَا وَارْبَعِي رَبَّةَ الْبَغْلِ   وَلاَ تَقْتُلِينِي لاَ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي

(٤) رواية النقائض والديوان :

* تَمَنَّى رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ لِيَ الرَّدَى *

(٥) فى ا ، ب ، ح :

* وَكَانَ عَلَى جُهَّالِ أَعْدَائِهِمْ مِثْلِي *

وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان والنقائض . هذا ، و بين البيتين بيت آخر ؛ وهو قوله :

كَأَنَّهُمُ لاَ يَعْلَمُونَ مَوَاطِنِي   وَقَدْ عَلِمُوا أَنِّي أَنَا السَّابِقُ الْمُبْلِي

وكذلك ورد قوله متغزلاً ، وهو من محاسن أقواله[١] :

سَرَتِ الْهُمُومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَامِ ... وَأَخُو الْهُمُومِ يَرُومُ كُلَّ مَرَامِ
ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى ... وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ
وَلَقَدْ أَرَاكِ وَأَنْتِ جَامِعَةُ الْهَوَى ... أَثْنِي بِعَهْدِكِ خَيْرَ دَارِ مُقَامِ
طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ فَلَيْسَ ذَا ... حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامِ
تُجْرِي السِّوَاكَ عَلَى أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمَامِ
لَوْ كَانَ عَهْدُكِ كَالَّذِي حَدَّثْتِنَا ... لَوَصَلْتِ ذَاكِ فَكَانَ خَيْرَ ذِمَامِ
وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْجَدِيدُ إِلَى بِلًى ... فِي مَوْكِبٍ طُرُفِ الْحَدِيثِ كِرَامِ[٢]
لَوْلَا مُرَاقَبَةُ الْعُيُونِ أَرَيْتِنَا ... حَدَقَ الْمَهَا وَسَوَالِفَ الْآرَامِ[٣]
وَإِذَا صَرَفْنَ عُيُونَهُنَّ بِنَظْرَةٍ ... نَفَذَتْ نَوَافِذُهَا بِغَيْرِ سِهَامِ[٤]
هَلْ تَنْفَعَنَّكَ إِنْ قَتَلْنَ مُرَقِّشاً ... أَوْ مَا فَعَلْنَ بِعُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ

وحلاوة هذا الكلام أحسن من إيجازه ، ولقد أعوز غيره أن يأتى بمثله حتى أقرّ بإعوازه .

ومن باب الإيجاز الذى يسمى التقدير قول على بن جبلة :

وَمَا لِامْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ ... وَلَوْ حَمَلَتْهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ

---

(١) هذه قصيدة من نقائضه للفرزدق ، والأبيات التى ذكرها المؤلف ههنا ليست متصلة فى أصل النقائض .

(٢) يروى : * فِي فِتْيَةٍ طُرُفِ الْحَدِيثِ كِرَامِ *

ويروى : * فِي فِتْيَةٍ طَرْفَى الْحَدِيثِ كِرَامِ *

وطرف وطرفى : كلاهما جمع طريف مثل مريض ومرضى ومثل نذير ونذر ، وهو قليل .

(٣) فى النقائض « أرينا » بنون جماعة الإناث ، وفيها « مقل المها » .

(٤) هذا البيت والذى بعده ليسا فى رواية النقائض .

بَلَى هَارِبٌ مَا يَهْتَدِى لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

فهذا هو الكلام الذى ألفاظه وِفَاقُ معانيه ؛ فإنه قد اشتمل على مدح رجل بشُمول ملكه وعموم سلطانه ، وأنه لا مَهْرَب عنه لمن يحاوله ، وإن صعد السماء ، ثم ذكر جميع المَهَارب فى المشارق والمغارب ، وأشار إلى أنه يبلغ الظلام والضياء ، وذلك مما لم تزد عبارته على المعنى المندرج تحته ، ولا قصرت عنه .

ومن هذا الضرب قول أبى نواس(١) ، وهو من نادر ما يأتى فى هذا الموضع :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِىٌّ وَيَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِى فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّى عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِى عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِى جَنَبَاتِهَا مَهًا تَدَّرِيهَا بِالْقِسِىِّ الْفَوَارِسُ(٢)

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ومما انتهى إلىّ من أخبار ابن المزرع قال : سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضل هذه الأبيات التى لأبى نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال فقال : والله يا أبا عثمان إن هذا لهو الشعر ، ولو نقر لطن ، فقلت له : ويحك ! ! ماتفارق

---

(١) فى الديوان (ص ٢٩٥) وقد ترك المؤلف بيتين يقعان بين الثالث والرابع فيما ذكره ، وهما قوله :

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ هُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَتْ بِهِ بِشَرْقِىِّ سَابَاطَ الدِّيَارُ الْبَسَابِسُ

أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ

(٢) فى ا ، ب ، ج « قرار بها كسرى » وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان . والمها : اسم جنس جمعى واحده مهاة ، وهى البقرة من أبقار الوحش ، وتدريها : تختلها لتصطادها .

عمل الجرار والخزف ، ولعمرى إن الجاحظ عرف فوصف ، وخبر فشكر ، والذى ذكره هو الحق .

وعلى هذا الأسلوب جاء قول أبى تمام(١) :

إِنَّ الْقَوَافِيَ وَالْمَسَاعِيَ لَمْ تَزَلْ   مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا أَصَابَ فَرِيدَا(٢)
هِيَ جَوْهَرٌ نَثْرٌ فَإِنْ أَلَّفْتَهُ   بِالشِّعْرِ صَارَ قَلَائِداً وَعُقُودَا
فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ وَكُلِّ مُقَامَةٍ   يَأْخُذْنَ مِنْهُ ذِمَّةً وَعُهُودَا
فَإِذَا الْقَصَائِدُ لَمْ تَكُنْ خُفَرَاءَهَا   لَمْ تَرْضَ مِنْهَا مَشْهَدًا مَشْهُودَا
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتِ الْعَرَبُ الْأُلَى   يَدْعُونَ هٰذَا سُودَدًا مَحْدُودَا
وَتَنِدُّ عِنْدَهُمُ الْعُلَا إِلَّا عُلاً   جُعِلَتْ لَهَا مِرَرُ الْقَرِيضِ قُيُودَا

وأما الضرب الثانى ، وهو الإيجاز بالقصر ؛ فإن القرآن الكريم مَلْآن منه ، وقد تقدم القول أنه قسمان : أحدهما : مايدلّ على محتملات متعددة .

فمن ذلك قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) فقوله : (فغشيهم من اليم ماغشيهم) من جوامع الكلم التى يستدلّ على قلتها بالمعانى الكثيرة : أى غشيهم من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كُنْهَهُ إلا الله ، ولا يحيط به غيره .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) فجمع فى الآية جميعَ مكارم الأخلاق ؛ لأن فى الأمر بالمعروف صلة

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا   وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بِذَاكَ شَهِيدَا

(٢) فى الديوان « مثل الجمان » .

الرحم ، ومنعَ اللسان عن الغيبة وعن الكذب ، وغَضّ الطرف عن المحرمات ، وغير ذلك ، وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وغيرهما .

وقال بعض الأعراب فى دعائه : اللهم هَبْ لِى حَقَّكَ ، وأَرْضِ عنى خلقك ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « هذا هو البلاغة » .

ومن ذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ ؛ فإنه دخل تحت الأمن جميع المحبوبات ، وذلك أنه نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة ، وغير ذلك من أصناف المكاره .

وأشباهُ هذا فى القرآن الكريم كثيرة ؛ فهو يكثر فى بعض الصور ، ويقلّ فى بعض ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شَاءَ يَرْتَعُ فى الرِّيَاضِ الأَنَائِقِ فَعَلَيْهِ بِآلِ حٰمٓ » .

ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الْخَرَاجُ بِالضَّمَانِ » ؛ وذاك أن رجلاً اشترى عبداً ، فأقام عنده مدة ، ثم وجد به عيباً ، فخاصم البائع إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فَرَدَّه عليه ؛ فقال : يارسول الله ، إنه استغلّ غلامى ، فقال : « الخراج بالضمان » ومعنى قوله : « الخراج بالضمان » أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغلّه ثم وَجَدَ به عيباً دلّسه عليه البائعُ فله أن يردّه ويسترجع الثمن جميعه ، ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان فى مال المشترى ، وضمانُهُ عليه ، وإذا كان ضمانه عليه فخراجه له : أى له ماتحصّل من أجرة عمله .

وأما ماورد شعراً ، فقول السَّمَوْءَل بن عاديا الغسّانى من جملة أبياته اللامية المشهورة ، وذلك قوله منها(١) :

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

فإن هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها : من سماحة ، وشجاعة ،

(١) تقدم كثير من أبيات هذه القصيدة فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٧٣) .

وعفة ، وتواضع ، وحلم ، وصبر ، وغير ذلك ؛ فإن هـذه الأخلاق كلها من ضَيْم النفس ؛ لأنها تجد بحملها ضَيْماً : أى مشقة وعَنَاء .

وقد تقدم القول أن الإيجاز بالقصر يكون فيما تضمن لفظه محتملات كثيرة ، وهذا البيت من ذلك القبيل ، ولا أعلم أن شاعراً قديماً ولا حديثاً أتى بمثله ، وقد أخذه أبو تمام فأحسن فى أخذه ، وهو :

وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ طَالِباً إِنْصَافَهَا فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَـــةٍ لَمْ تُظْلَمِ

ففاز فى بيته هذا بالمقابلة بين الضدين فى الظلم والإنصاف ، ثم قال : « فعجبت من مظلومة لم تظلم » وهـذا أحسن من الأول ، ومعنى قوله : « ظلمت نفسك طالباً إنصافها » أى : أنك أكرهتها على مشاقّ الأمور وإذا فعلت ذلك فقد ظلمتها ، ثم إنك مع ظلمك إياها قد أنصفتها؛ لأنك جلبت إليها أشياء حسنة تكسبها ذكراً جميلاً ومجداً مؤثّلاً ، فأنت مُنْصِف لها فى صورة ظالم ، وكذلك قوله : « فعجبت من مظلومة لم تظلم » أى أنك ظلمتها وما ظلَمْتَهَا لأن ظلمك إياها أدّى إلى ماهو جميل حسن .

وهذا القدر فى الأمثلة كاف فى هذا الباب .

القسم الآخر من الضَّرب الثانى ؛ فى الإيجاز بالقصر وهو الذى لايمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكانا ، وأعْوَزُها إمكانا ، و إذا وجد فى كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً .

فمن ذلك ماورد فى القرآن الكريم ؛ كقوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) فإن قوله تعالى : (الْقِصَاصُ حياة) لايمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة ، لأن معناه أنه إذا قُتِل القاتل امتنع غيره عن القتل ؛ فأوجب ذلك حياةً للناس ، ولا يلتفت إلى ماورد عن العرب من قولهم : الْقَتْلُ أنْفَى لِلْقَتْلِ ؛ فإن مَنْ لايعلم يظن أن هذا على وزن الآية ، وليس كذلك ، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه :

الأول : أن (القصاص حياة) لفظتان ، و « القتل أنفى للقتل » ثلاثة ألفاظ ؛ الوجه الثانى : أن فى قولهم « القتل أنفى للقتل » تكريراً ليس فى الآية ؛ الثالث : أنه ليس كل قتل نافيا للقتل ؛ إلا إذا كان على حكم القِصاص .

وقد صاغ أبو تمام هذا الوارد عن العرب فى بيت من شعره ، فقال (١) :

وَأَخَافَكُمْ كَىْ تُغْمِدُوا أَسْيَافَكُمْ إِنَّ الدَّمَ الْمُغْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ (٢)

فقوله « إن الدم المغتر يحرسه الدم » أحسن مما ورد عن العرب من قولهم « القتل أنفى للقتل .

ويروى عن معن بن زائدة أنه سأله أبو جعفر المنصور فقال له : أيما أحبُّ إليك دولتنا أو دولة بنى أمية ؟ فقال : ذاك إليك ، فقوله « ذاك إليك » من الإيجاز بالقصر الذى لايمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة ؛ لأن معنى قوله « ذاك إليك » وهو لفظتان أنه زاد إحسانك على إحسان بنى أمية فأنتم أحب إلى ، وهذه عشرة ألفاظ

فإن قيل : كيف لايمكن التعبير عن ألفاظ بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها وفى المترادف من الألفاظ ما هو دليل على خلاف ذلك ؟ فإنه إذا قيل راح ثم قيل مُدَامة أو سُلَافة كان ذلك سواء ، وقامت هذه اللفظة مقام هذه اللفظة .

قلت فى الجواب : ليس كل الألفاظ المترادفة يقوم بعضها مقام بعض ، ألاترى أن لفظة « القصاص » لايمكن التعبير عنها بما يقوم مقامها ، ولما عبر عنها بالقتل فى قول العرب « القتل أنفى للقتل » ظهر الفرق بين ذلك و بين الآية فى قوله

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

أَرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وَأُخْرَى تُثْجَمُ تِلْكَ الَّتِى رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرَمُ

ومصردة : لاشجر بها ، وتثجم : تمطر على الدوام . انظر الديوان (٢٧١ بيروت) .

(٢) « المغتر » المضطرب ، وهو هكذا فى الديوان . ووقع فى ا ، ب ، ج « المغبر » .

تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) فالذى أردته أنا إنما هو الكلام الذى لايمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها ، فإن كان كذلك وإلا فليس داخلا فى هذا القسم المشار إليه .

النوع السادس عشر

فى الإطناب

هذا النوع من الكلام أنْعَمْتُ نظرى فيه ، وفى التكرير ، وفى التطويل ؛ فملكتنى حَيْرة الشُّبَه بينها طويلا ، وكنت فى ذلك كعُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى الْكَلَالَة حيث قال : قَدْ أعيانى أمْرُ الْكَلَالَة ، وكنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً حتى ضَرَبَ فى صدرى ، وقال : « ألاَ يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ[(١)] » .

وبعد أن أنعمت نظرى فى هذا النوع الذى هو الإطناب وجدتُ ضربا[(٢)] من ضروب التأكيد التى يؤتى بها فى الكلام قصداً للمبالغة ، ألا ترى أنه ضَرْبٌ مفرد من بينها برأسه لايشاركه فيه غيره ؛ لأن من التأكيد مايتعلق بالتقديم والتأخير ؛ كتقديم المفعول ، وبالاعتراض[(٣)] ؛ كالاعتراض بين القسم وجوابه وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وأشباه ذلك ، وسيأتى الكلام عليه فى بابه . وهذا الضرب الذى هو الإطناب ليس كذلك .

ورأيت علماء البيان قد اختلفوا فيه ؛ فمنهم من ألحقه بالتطويل الذى هوضد

---

(١) فى ا ، ب ، ج « أنه الصنف » بصاد ونون وفاء ، وهو تحريف وانظر النهاية .

(٢) كذا فى جميع الأصول ، ولعله «وجدته ضربا من ضروب التأكيد ـ إلخ» .

(٣) فى ا ، ب ، ج « بالاعتراض » بدون الواو .

الإيجاز ، وهو عنده قسم غيره ، فأخطأ من حيث لايدرى ؛ كأبى هلال العسكرى ، والغانمى ، حتى إنه قال : إن كتب الفتوح وما جَرَى مجراها مما يُقْرَأ على عوامّ الناس ينبغى أن تكون مُطوَلة مُطْنَبًا فيها ؛ وهذا القول فاسد ؛ لأنه إن عنى بذلك أنها تكون ذات معانٍ متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غيره فذلك مُسَلَّم ، وإن عنى بذلك أنها تكون مُكَرَّرة المعانى مُطوَلة الألفاظ قصداً لإفهام العامة فهذا غير مُسَلَّم ، وهو مما لايذهب إليه مَنْ عنده أدنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة ، ويكفى فى بطلانه كتاب الله تعالى ؛ فإنه لم يُجْعل لخواصّ الناس فقط ، وإنما جعل لعوامهم وخواصّهم ، وأكثره لابل جميعه مفهومُ الألفاظ للعوام ، إلا كلمات معدودة ، وهى التى تسمى غريب القرآن ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى المقاله الأولى المختصة بالألفاظ ، وعلى هذا فينبغى أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوامّ الناس وخواصهم ذاتَ ألفاظٍ سَهْلَة مفهومة ، وكذلك الأشعار والخطب ، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه بِنَجْوَة عن هذا الفن ، وعلى هذا فإن الإطناب لايختص به عوام الناس ، وإنما هو للخواصّ كما هو للعوام . وسأبين حقيقته فى كتابى هذا ، وأحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التى خَبَط أرباب علم البيان من أجلها ، وقالوا أقوالا لاتعرب عن فائدة .

والذى عندى فيه أنه إذا رجعنا إلى الأسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسباً لمسماه ، وهو فى أصل اللغة مأخوذ من أَطْنَبَ فى الشىء إذا بالغ فيه ، ويقال : أَطْنَبَتِ الريح ؛ إذا اشتدَّتْ فى هُبُوبها ، وأطنب فى السير ؛ إذا اشتد فيه ، وعلى هذا فإنْ حملناه على مقتضى مسماه كان معناه المبالغة فى إيراد المعانى ، وهذا لايختص بنوع واحد من أنواع علم البيان ، وإنما يوجد فيها جميعها ؛ إذ مامن نوع منها إلا ويمكن المبالغة فيه ، وإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن يفرد هذا النوع من بينها ، ولايتحقق إفراده إلا بذكر حَدِّه الدال على حقيقته .

والذى يُحَدُّ به أن يقال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ؛ فهذا حَدُّه الذى

يميزه عن التطويل ؛ إذ التطويل هو : زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة ، وأما التكرير فإنه : دلالة اللفظ على المعنى مردّداً ، كقولك لمن تستدعيه : أَسْرِعْ أَسْرِعْ ؛ فإن المعنى مردّد واللفظ واحد ، وسيرد بيان ذلك مفصّلاً فى بابه بعد باب الإطناب ؛ لأنى ذكرت الإيجاز ، ثم الإطناب ، ثم التكرير ، وهى أبواب يتبع بعضها بعضاً ، وإذا كان التكرير هو إيراد المعنى مردداً فمنه مايأتى لفائدة ومنه مايأتى لغير فائدة ؛ فأما الذى يأتى لفائدة[1] فإنه جزء من الإطناب وهو أخص منه ؛ فيقال حينئذ : إن كل تكرير يأتى لفائدة فهو إطناب وليس كل إطناب تكريراً يأتى لفائدة ، وأما الذى يأتى من التكرير لغير فائدة فإنه جزء من التطويل ، وهو أخص منه ، فيقال حينئذ : إن كل تكرير يأتى لغير فائدة تطويل ، وليس كل تطويل تكريراً يأتى لغير فائدة .

وكنت قدمت القول فى باب الإيجاز بأن الإيجاز هو : دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة عليه .

وإذا تقررت هذه الحدود الثلاثة المشار إليها فإن مثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه فى ثلاثة طرق ؛ فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه ، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان فى البعد إليه ، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على مُنَزَّه من المنازه لايوجد فى طريق التطويل ، وسيأتى بيان ذلك بضرب الأمثلة التى تسهل من معرفته .

والإطناب يوجد تارةً فى الجملة الواحدة من الكلام ، ويوجد تارةً فى الجمل المتعددة ، والذى يوجد فى الجمل المتعددة أبلغ ؛ لاتساع المجال فى إيراده

وعلى هذا فإنه بجملته ينقسم قسمين :

---

(١) فى ا ، ب ، ج « فأما الذى يأتى لغير فائدة » وهو خطأ أجمعت عليه هذه النسخ ، والصواب حذف كلمة « غير » وذلك يدرك بالتأمل البسيط .

القسم الأول : الذى يوجد فى الجملة الواحدة من الكلام ، وهو يرد حقيقة ، ومجازاً ؛ أما الحقيقة فمثل قولهم : رأيته بعينى ، وقَبَضْتُه بيدى ، ووطئته بقدمى ، وذُقْتُه بفمى ، وكل هذا يظن الظان أنه زيادة لا حاجة إليها ، ويقول : إن الرؤية لاتكون إلا بالعين ، والْقَبْض لايكون إلا باليد ، والوطء لا يكون إلا بالقدم ، والذَّوْق لايكون إلا بالفم ، وليس الأمر كذلك ، بل هذا يقال فى كل شىء يعظم مَنَالُه[1] ويعز الوصول إليه ، فيؤكد الأمر فيه على هـذا الوجه دلالةً على نيله والحصول عليه ، كقول أبى عُبَادَةَ البحترى[2] :

تَأَمَّلْ مِنْ خِلاَلِ السَّجْفِ وَانْظُرْ ... بِعَيْنِكَ مَا شَرِبْتُ وَمَنْ سَقَانِى[3]
تَجِدْ شَمْسَ الضُّحَى تَدْنُو بِشَمْسٍ ... إِلَىَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْخُسْرُوَانِى

ولما كان الحضور فى هذا المجلس مما يعز وجوده ، وكان الساق فيه على هذه الصفة من الحسن ؛ قال : انظر بعينك .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ) ؛ فإن هذا القول لما كان فيه افتراء عَظَّم الله تعالى على قائله ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى قصة الإفك : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) فصرَّح فى هذه الآية بما أشرت إليه من تعظيم الأمر المقول .

وفى مساق الآية المشار إليها جاء قوله تعالى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ

---

(١) فى ا ، ب ، ج « يعظم مثاله » وتأمل فى قوله بعد ذلك « دلالة على نيله والحصول عليه » تدرك أن « يعظم مناله » بالنون أولى .

(٢) من قصيدة يمدح فيها الهيثم الغنوى ، وأولها قوله :

رُوَيْدَكَ إِنَّ شَأْنَكَ غَيْرُ شَانِى ... وَقَصْرَكَ ؛ لَسْتُ طَاعَةَ مَنْ نَهَانِى

(٣) فى الديوان « تأمل من خلال الشك فانظر » .

أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) ألا ترى أن مساق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته : أنتِ علىَّ كظهر أمى ، ويقول لمملوكه : يابنىّ ؛ فضرب الله لذلك مثالاً ، فقال : كيف تكون الزوجة أمًّا ؟ وكيف يكون المملوك ابناً ؟ والجمع بين الزوجية والأمومة وبين العبودية والبنوّة فى حالة واحدة كالجمع بين القلبين فى الجوف ، وهذا تعظيم لما قالوه ، وإنكار له ؛ ولما كان الكلام فى حال الإنكار والتعظيم أتى بذكر الجوف ، وإلا فقد علم أن القلب لايكون إلا فى الجوف ، والتمثيل يصح بقوله : (ماجعل الله لرجل من قلبين) وهو تام ، لكن فى ذكر الجوف فائدة ، وهى ما أشرت إليها ، وفيها أيضاً زيادة تصوير للمعنى المقصود ؛ لأنه إذا سمعه المخاطب به صوّر لنفسه جوْفاً يشتمل على قلبين ، فكان ذلك أسرع إلى إنكاره .

وعليه ورد قوله تعالى : (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) فكما أن القلب لايكون إلا فى الْجَوْف فكذلك السقف لايكون إلا من فَوْقُ ، وهذا مقام ترهيب وتخويف ، كما أن ذاك مقام إنكار وتعظيم ، ألا ترى إلى هذه الآية بكمالها وهى قوله تعالى : (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) ولذكر لفظة (فوقهم) فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تحسُّ هذا من نفسك ؛ فإنك إذا تَلَوْتَ هذه الآية يخيَّل إليك أن سقفاً خرَّ على أولئك من فوقهم ، وحصل فى نفسك من الرعب ما لايحصل مع إسقاط تلك اللفظة .

وفى القرآن الكريم من هذا النوع كثير ؛ كقوله تعالى : (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) وقوله : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) وكل هذه الآيات إنما أطنب فيها بالتأكيد لمعانٍ اقتضتها ؛ فإن النفخ فى الصور الذى تقوم به الأموات

من القبور مَهُول عظيم دلّ على القدرة الباهرة ، وكذلك حمل الأرض والجبال ؛ فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما : (نفخة واحدة) و (دكة واحدة) أى : أن هذا الأمر المهول العظيم سَهْلٌ يسير على الله تعالى يفعل ويمضى الأمر فيه بنفخة واحدة ودكة واحدة ، ولا يحتاج فيه إلى طول مدة ولا كلفة مشقة ، فجىء بذكر الواحدة لتأكيد الإعلام بأن ذلك هين سهل على عظمه .

وهذه المواضع وأمثالها ترد فى القرآن الكريم ويتوهم بعض الناس أنها ترد لغير فائدة اقتضتها ، وليس الأمر كذلك ؛ فإن هذه الأسرار البلاغية لايتنبه لها إلا العارفون بها ، وهكذا يرد مايرد منها فى كلام العرب .

وههنا نكتة لابد من الإشارة إليها ؛ وذاك أنى نظرت فى قوله تعالى : (نفخة واحدة) و (دكة واحدة) وفى قوله تعالى : (وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى) فوجدت ذلك غَيْرَ مَقِيس على ما تقدم ، وسأبينه ببيان شاف ؛ فأقول : إن قوله تعالى : (ومناة الثالثة الأخرى) إنما جىء به لتوازن الفقر التى نظمت السورة كلها عليها ، وهى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) ولو قيل : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة) ولم يقل الثالثة الأخرى لكان الكلام عاريًا عن الطلاوة والحسن ، وكذلك لو قيل : ومناة الأخرى ، من غير أن يقال الثالثة لأنه نقص فى الفقرة الثانية عن الأولى ، وذاك قبيح ، وقد تقدم الكلام عليه فى باب السجع ؛ لكن التأكيد فى هذه الآية جاء ضِمْناً لتوازن الفقر وتَبَعاً ، وأما (نفخة واحدة) و (دكة واحدة) فإنما جىء بلفظ الواحدة فيهما وقد علم أن النفخة هى واحدة والدكة هى واحدة لمكان نظم الكلام ؛ لأن السورة التى هى (الحاقة) جارية على هذا المنهاج فى توازنها السجعى ، ولو قيل نفخة من غير واحدة ودكة من غير واحدة ثم قيل بعدهما : (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) لكان الكلام منثوراً[1] محتاجاً إلى تمام ، لكن التأكيد جاء فيهما ضمناً وتبعا ، وإذا تبين ذلك واتضح فاعلم أن الفرق بين هذه الآيات وبين

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ ولعله « مبتورا » بباء موحدة فتاء مثناة .

قوله تعالى : (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) ظاهر ، وذاك أن نفخة هي واحدة ومناة هي الثالثة .

وأما ماجاء منه على سبيل المجاز فقوله تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تُعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الْحَدَقَة بما يطمس نورها ، واستعماله فى القلب تشبيه ومثل ؛ فلما أريد إثبات ماهو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ؛ ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار .

وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه ، وافرة لطائفه ، والمجاز فيه أحسن من الحقيقة ؛ لمكان زيادة التصوير فى إثبات وصف الحقيقى للمجازى ، ونفيه عن الحقيقى .

وأما القسم الثانى المختص بالجمل فإنه يشتمل على ضروب أربعة :

الأول منها : أن يذكر الشىء فيؤتى فيه بمعان متداخلة ، إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر ، وذلك كقول أبى تمام[١] :

قَطَعَتْ إِلَىَّ الزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَالْتَاثَ مَأْمُولُ السَّحَابِ الْمُسْبِلِ[٢]

مِنْ مِنَّةٍ مشهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فقوله : « منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل » تداخلت معانيه ؛

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

لَيْسَ الْوُقُوفُ يَكُفُّ شَوْقَكَ فَانْزِلِ ... تَبْلُلْ غَلِيلاً بِالدُّمُوعِ فَيُبْلَلِ

(٢) وقع هذا البيت فى ب ، ج هكذا :

قطعت إلىّ الرائبين هباته ... التاث مأمور السحاب المسبل

وفى ا « الزابيين » وبقية البيت كما فى ب ، ج . والزابيان : نهران ، والهبات : العطايا ، واحدها هبة . والتاث : أبطأ . والمسبل : الممطر .

إذ المنة والصنيعة والإحسان متقارب بعضه من بعض ، وليس ذلك بتكرير ؛ لأنه لو اقتصر على قوله منة وصنيعة وإحسان لجاز أن يكون تكريراً ، ولكنه وصف كل واحدة من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير ، فقال : « منة مشهورة » فوصفها بالاشتهار لعظم شأنها ، و « صنيعة بكر » فوصفها بالبكارة : أى أنها لم يُؤْتَ بمثلها من قبل ، و « إحسان أغر محجل » فوصفه بالغرة والتحجيل : أى هو ذو محاسن متعددة ، فلما وصف هذه المعانى المتداخلة التى تدل على شىء واحد بأوصاف متباينة صار ذلك إطناباً ، ولم يكن تكريراً .

ولم أجد فى ضروب الإطناب أحسن من هذا الموضع ، ولا ألطف ، وقد استعمله أبو تمام فى شعره كثيراً ، بخلاف غيره من الشعراء ، كقوله(١) :

زَكِىٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفَهُ وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ(٢)

فإن غرضه من هذا القول إنما هو ذكر الممدوح بالكرم وكثرة العطاء ، إلا أنه وصفه بصفات متعددة ؛ فجعل ضيوفه تضيف ، وراجيه يُرْجَى ، وسائله يُسْأَل ، وليس هذا تكريراً ؛ لأنه لا يلزم من كون ضيوفه تضيف أن يكون راجيه مرجواً ، ولا أن يكون سائله مسئولاً ؛ لأن ضيفه يستصحب ضيفاً طمعاً فى كرم مضيفه ، وسائله يسأل : أى [أنه] يُعْطِى السائلَ عطاءً كثيراً يصير به مُعْطِياً ، وراجيه يرجى : أى أنه إذا تعلق به رجاء راج فقد أيْقَنَ بالفلاح والنجاح فهو حَقِيق بأن يُرْجَى ؛ لمكان رجائه إياه ، وهذا أبلغ الأوصاف الثلاثة .

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها القاسم به طوق ، وأولها قوله :

جَوًى سَاوَرَ الأَحْشَاءَ وَالْقَلْبُ وَاغِلُهْ وَدَمْعٌ يُضِيمُ الْعَيْنَ وَالْجَفْنُ هَامِلُهْ

انظر الديوان (٣٧٧ بيروت) .

(٢) فى الديوان « ولكن سجاياه - إلخ » وقد أكثر أبو تمام من ذكر هذا المعنى ، فمنه قوله فى قصيدة يمدح فيها المعتصم :

إذَا آمِلٌ سَامَاهُ قَرْطَسَ فِى الْمُنَى مَوَاهِبُــــهُ حَتَّى يُؤَمَّلَ آمِلُهْ

الضرب الثانى : يسمى النفى والإثبات ، وهو أن يذكر الشىء على سبيل النفى ، ثم يذكر على سبيل الإثبات ، أو بالعكس ، ولا بد أن يكون فى أحدهما زيادة ليست فى الآخر ، وإلا كان تكريراً ، والغرض به تأكيد ذلك المعنى المقصود .

فمما جاء منه قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) .

واعلم أن لهذا الضرب من الإطناب فائدة كبيرة ، وهو من أوكد وجوهه ، ألا ترى أنه قال : (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ثم قال : (إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر) والمعنى فى ذلك سواء ، إلا أنه زاد فى الثانية قوله : (وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) ولولا هذه الزيادة لكان حكم هاتين الآيتين حكم التكرير ، وهذا الموضع ينبغى أن يتأمل وينعم النظر فيه .

وعليه ورد قوله تعالى : (أَلَمّ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) فقوله : (يعلمون) بعد قوله : (لايعلمون) من الباب الذى نحن بصدد ذكره ، ألا ترى أنه نفى العلم عن الناس بما خفى عنهم من تحقيق وعده ، ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة الدنيا ؛ فكأنهم علموا وما علموا ؛ إذ العلم بظاهر الأمور ليس بعلم ، وإنما العلم هو ما كان بالباطن من الأمور .

الضرب الثالث : هو أن يذكر المعنى الواحد تامًّا لا يحتاج إلى زيادة ،

ثم يضرب له مثال من التشبيه ، كقول أبى عبادة البحترى(١) :

ذَاتُ حُسْنٍ لوِ استزَادَتْ مِنَ الْحُسْنِ إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا
فَهْىَ كَالشَّمْسِ بَهْجَةً وَالْقَضِيبِ اللَّدْنِ قَدًّا وَالرِّيمِ طَرْفًا وَجِيدَا(٢)

ألا ترى أن الأول كاف فى بلوغ الغاية فى الحسن ؛ لأنه لما قال : « لو استزادت لما أصابت مزيدا » دخل تحته كل شىء من الأشياء الحسنة ، إلا أن للتشبيه مزية أخرى تفيد السامع تصويراً وتخييلاً لايحصل له من الأول ، وهذا الضرب من أحسن مايجىء فى باب الإطناب .

وكذلك ورد قوله(٣) :

تَرَدَّدَ فِى خُلُقَىْ سُودَدٍ سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فالبيت الثانى يدلّ على معنى الأول ؛ لأن البحر والسيف للبأس المهيب ، إلا أن فى الثانى زيادة التشبيه التى تفيد تخيلاً وتصويرا .

الضرب الرابع : أن يستوفى معانى الغرض المقصود من كتاب أو خطبة أو قصيدة ، وهذا أصعب الضروب الأربعة طريقًا ، وأضيقها باباً ؛ لأنه يتفرع إلى أساليب كثيرة من المعانى ، وأرباب النظم والنثر يتفاوتون فيه ، وليس الخاطر الذى يقذف بالدرر فى مثله إلا معدوم الوجود ، ومثاله ومثال الإيجاز مثال مجمل

(١) من قصيدة له يفتخر فيها ، وأولها قوله :

إِنَّمَا الْغَىُّ أَنْ يَكُونَ رَشِيدَا فَانْقُصَا مِنْ مَلَامِهِ أَوْ فَزِيدَا

(٢) رواية الديوان :

فَهِىَ الشَّمْسُ بَهْجَةً وَالْقَضِيبُ الْـغَضُّ لِينًا وَالرِّيمُ طَرْفًا وَجِيدَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وأولها قوله

لَوَتْ بِالسَّلَامِ بَنَانًا خَضِيبَا وَلَحْظًا يَشُوقُ الْفُؤَادَ الطَّرُوبَا

ومفصل ؛ وقد تقدم القول بأن الإيجاز والإطناب والتطويل بمنزلة مقصد يسلك إليه ثلاثة طرق ، وقد أوردت ههنا أمثلة لهـذه الأساليب الثلاثة ، وجعلتها على هيئة المقصد الذى تسلك إليه الطرق الثلاثة .

فمن ذلك ماذكرته فى وصف بستان ذات فواكه متعددة ؛ فإذا أريد وصفه على حكم الإيجاز قيل : فيه من كل فاكهة زوجان ؛ وهذا كلام الله تعالى ؛ وقد جمع جميع أنواع الفاكهة بأحسن لفظ وأخصره . وإذا أريد وصف ذلك البستان على حكم الإطناب قيل فيـه ما أذكره ، وهو فصل من كتاب أنشأته ، وهو : جنة عَلَتْ أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بِيَنْبُوعها أن تَسْتَجْدِىَ سماء ، وهى ذات ثمار مختلفة الغرابة ، وتربة مُنْجِبة وما كل تربة توصف بالنَّجَابة ، ففيها المشمش الذى يسبق غيره بقدومه ، ويقذف أيدى الجانين بنجومه ، فهو يَسْمُو بطيب الفرع والنِّجَار ، ولو نظم فى جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نُضَار ، وله زَمَنُ الربيع الذى هو أعدل الأزمان ، وقد شبه بسن الصبا فى الأسنان ، وفيها التفاح الذى رقّ جِلْدُه ، وعظم قَدُّه ، وتورّد خَدُّه ، وطابت أنفاسه فلا البَانُ الوادى ولا رَنْدُه ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ الشم والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر ؛ وفيها العنب الذى هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة ، وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، فقِطْفُه يميل بكف قاطفه ، ويُغْرِى بالوصف لسان واصفه ، وفيها الرُّمّان الذى هو طعام وشراب ، وبه شبهت نهود الكعاب ، ومن فضله أنه لانَوَى له فيرمى نواه ، ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه ، وفيها التين الذى أقسم الله به تنويهاً بذكره ، واستتر آدم عليه السلام بورقه إذ كَشَفَت المعصية من ستره ، وخصّ بطول الأعناق فما يرى بها من مَيْل فهو نَشْوَة من سكره ، وقد وصف بأنه راق طعماً ، ونعم جسماً ، وقيل هذا كُنَيِّفٌ ملِئ شهداً لا كنيف ملئ علماً ، وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه وشكله ، ويشغل

بلذة منظره عن لذة أكله ، وهو الذى فَضَلَ ذوات الأفنان بعرجونه ، ولا تماثل بينه و بين الحلواء هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها ، وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ، ولقد دخلتها فاسْتَهْوَتْنى حَسَداً ، ولم ألم صاحبها على قوله لن تبيد هذه أبداً .

فهذا الوصف على هذه الصورة يسمى إطناباً ؛ لأنه لم يَعْرَ عن فائدة ، وذاك الأول هو الإيجاز ؛ لأنه اشتمل باختصاره على جميع أصناف الفاكهة .

وأما التطويل فهو أن تعد الأصناف المذكورة تَعْدَاداً من غير وصف لطيف ، ولا نعت رائق ، فيقال : مشمش وتفاح وعنب ورمان ونخل ، وكذا وكذا .

وانظر أيها المتأمل إلى ما أشرت إليه من هـذه الأقسام الثلاثة فى الإيجاز والإطناب والتطويل ، وقس عليها ما يأتى منها .

وسأزيد ذلك بياناً بمثال آخر ؛ فأقول :

قد ورد فى باب الإيجاز كتاب كتبه طاهر بن الحسين إلى المأمون رحمه الله تعالى ، يخبره بهزيمة عيسى بن مَاهَان وقتله إياه ، وهو : كتابى إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يَدَىَّ ، وخاتمه فى يَدِى ، وعسكره مُصَرَّف تحت أمرى ، والسلام .

وهذا كتاب جامع للمعنى ، شديد الاختصار .

و إذا كتب ما هو فى معناه على وجه الإطناب قيل فيـه ما أذكره ، وهو ما أنشأته مثالاً فى هـذا الموضع ؛ ليعلم به الفرق بين الإيجاز والإطناب ، وهو : أصدر كتابه هذا وقد نُصِرَ بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وانقلب باليد المُلْأَى والعين القَرِيرة ، وكان انتصاره بجَدّ أمير المؤمنين لا بجَدّ نصله ، والجد أغنى من الجيش و إن كثرت أمداد خيله ورَجْلِه ، وجىء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسد غير جسده ، وليس له قدم فيقال إنه يسعى بقدمه ولا يد فيقال إنه يبطش بيده ، ولقد طال وطُولُه مؤذن بقصر شأنه ، وحسدت الضباع الطير على

مكانها منه وهو غير محسود على مكانه ، وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذى كان الأمر يجرى على نقش أسطره ، وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنية دون مصدره ، وكذلك البغى مَرْتَعُهُ وبيل ، ومَصْرَعُه جليل ، وسَيْفُهُ وإن مضى فإنه عند الضرب كليل ، وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك وراسه ، وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء إلا على أساسه ، والعساكر التى كانت على أمير المؤمنين حرباً صارت له سِلْماً ، وأعطته البيعة عِلْماً بفضله وليس من تَابَعَ تقليداً كمن تابع علما ، وهم الآن مُصَرَّفون تحت الأوامر ، مُمْتَحَنُون بكشف السرائر ، مطيفون باللواء الذى خصه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر ، وكما سرت خطوات القلم فى أثناء هذا القرطاس ، فكذلك سرت طلائع الرعب قبل الطلائع فى قلوب الناس ، وليس فى البلاد مايغلق بمشيئة الله باباً ، ولا يحسر نقابا ، وعلى الله إتمام النعم التى افتتحها ، وإجابة أمير المؤمنين إلى مقترحاته التى اقترحها ، والسلام

وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى ؛ إلا أنه فصل ذلك الإجمال .

ولو كتبت على وجه التطويل الذى لا فائدة فيه لقيل : أصدر كتابه فى يوم كذا من شهر كذا ، والتقى عسكر أمير المؤمنين وعسكر عدوه الباغى ، وتطاعن الفريقان ، وتزاحف الجمعان ، وحمى القتال ، واشتد النزال ، وترادفت الكتائب ، وتلاحقت المقانب ، وقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه وقطع ، ونزع الخاتم من يده وخلع ، وترك جسده طعاما للطيور والسباع ، والذئاب والضباع ، وانجلت الوقعة عن غلب أمير المؤمنين ونصره ، وخذلان عدوه وقهره ؛ والسلام .

فهذا الكتاب يشتمل على تطويل لافائدة فيه ؛ لأنه كرر فيه معانى يتم

الغرض بدونها ، وذكر مالا حاجة إليه فى الإعلام بالواقعة .

فانظر إلى هذه الكتب الثلاثة وتأملها كما تأملت الذى تقدمها .

وبعد ذلك إنى أورد لك كتاباً وتقليداً يوضحان لك فائدة الإطناب ، أما الكتاب فإنه كتاب كتبته عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار ، وذلك فى معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه ، وكان الفتح فى السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوى ، وجعل أيام دولته أترابا ، ومناقب مجدها هِضَابا ، وزادها على مرور الأيام شبابا ، وأوسعها توشية وإذهابا ، إذا أوسع غيرها تلاشيا وذَهَابا ، ومنحها فى الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لاعطاء حسابا ، ومثل جدودها فى عيون الأعداء شيئاً عُجابا ، وأراهم منها وراءهم فى اليقظة إرهابا وإرعابا ، وفى المنام إبلاصعابا تقود خيلا عرابا ، لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخراً ، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخرا ، وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التى كسته حبراً وقلدته دُرَرَا ؛ ودونت له من المحامد سيرا ، وجعلت فى كل ناحية من وجهه شمساً وقمرَا ، وقيَّض الله لها من الخادم ولياً يوصل يومه فى طاعتها بأمسه ؛ ولا يرى إلا ومن نفسه فى خدمتها رقيب على نفسه ، وطالما سعى بين يديها بمَسَاعٍ تغصّ بأخبارها محافل القوم ، ويقال له فيها : ماضَرَّكَ ماصَنَعْتَ بعد اليوم ، وقد سلفت منها آيات تتماثل فى أشباهها وأضرابها ، واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأم كتابها ، وهى فتح البيت المقدس الذى تفتحت له أبواب السماء ، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء ، واسترد حَقَّ الإسلام وطالما سعت الهمم فى طلبه بالزاد والماء ، ومن أحسن ما أتى به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولى ، وأطال منه كل ماقَصَّرَته يد الكفر وكانت هى الطولى ، وبه صحّ لهذا البيت معنى اسمه ، وانتقل إلى

الطهارة ونزاهتها عن الرِّجس ووَصْمه ، ولم يحزه الخادم حتى طوى ماحوله من البلاد المنجدة والغائرة ، وكان مركزاً لدائرتها فغادره وهو طرف من أطراف الدائرة ، ولما شارفه نظر منه إلى ظُلَّة من الظلَل ، ورأى بلداً قد اسْتقرَّ على متن الجبل مثل الجبل ، ويطيف به وادٍ تستهزئ عصمته بِنوَبِ الدهر ، وقد انعطف على جوانبه انعطاف الحبوة على الظهر ، والمسالك إليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج ، وهى ضَيِّقة مُسْتَوْعِرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج ؛ فلما رآه قال : هذا أمنية لمن يرى ، وعلم حينئذ أن كُلَّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا ، إلا أن لسان حاله خاطبه وهو أفصح الخطاب ، وقال : امْدُدْ يدك فليس دونها من حجاب ، وكان قد بَرَزَ من السلاح فى لباس رائع من المنعة ، وأخرج من السواد الأعظم ماخدع العيون والحرب خُدْعَة ، وما يمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ، ولا يحمى بعَوَالى الأسوار بل بعوَالى الصِّعَاد ، وفى يوم كذا وكذا خَيَّم المسلمون فى عقد داره ، ونزلوا منه نزول الجار إلى جانب جاره ، ثم ارتادوا مَوْقِفاً للقتال وإن لم يكن هناك موقف يقرب مناله ولا يتسع مجاله ، واتفق الرأى على لسان المنجنيق فى خطبة عقيلية أبلغ خطابا ، وأدنى من المطلوب طلابا ، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبَجَسَتْ عيون أهله دماء ، كما انبجست عيون الحجر ماء ، هذا ، والعزائم تنظر إلى هذا الرأى نظر المستجهل ، وتَصُدُّ عنه صدود المستعجل ، وتقول: ما بارْتيادِ السهل تملك الصعاب ، ومن ابتغى السيف صرحاً لم ينأ عنه بلوغ الأسباب ، والحديد لا يُفْلَح إلا بالحديد ، والركن الشديد لا يصدم إلا بركن شديد ، فعندها صَمَّم الخادم أن يلقى البلد مُوَاثباً لا مواربا ، وأن يجعل للزحف جانباً وللمنجنيق جانبا ، ونَوَى أن يبدى صفحة وجهه أمام الناس ، وتأسَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاتقاء به إذا اشتد الباس ، ولا شك أن قلوب الجيوش بمنزلة قلوبها ، وأن النفاذ لأسنة الرماح لا لكعوبها ، ولا يشتفى من الوغى إلا من كان طرفه أمام طرفه ، ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه ،

ولما وقع الزَّحْف صُورع البلد صراعا ، بعد أن قورع قراعا ، ثم هزّ هزة طوته يمينها ونشرته بشمالها ، وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نكالها ، وبدون ذلك يكون عَرْكُ أَدِيمه ، وعطف شكيمه ، ولم يكن قتاله بالسهام التى غايتها أن تصفّ أجنحتها لمطار ، وتنال بكلومها من فوق الأسوار ، بل بالسيوف التى إذا جالدت بلداً أخذت بكظمه ، وتوغلت فى هجمه ، وأغنت بسرعة خطواتها إليه عن المنجنيق و إبطاء هدمه، والسيف ليس بمُرْتَوٍ من النفس التى تظل طائشة عند لقائها ، جائشة عند استيفائها ؛ فالقلوب توصف بأنها تجيش إذا كانت أعداداً ، والنفوس لا تجيش إلا إذا كانت ثمادا ، وما يستوى وجوه الأقران فى إقدامها وإحجامها ، فمنها المظلم إذا رَاَبهَا الروع بإشراقها ، ومنها المشرق إذا شابَهَا الروع بإظلامها ، وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بلباس الإشراق ، وأتم أبدراً والبدور لا يكون تمامها فى المُحَاق ؛ فما منهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض ، ومشى إلى جنة عرضها السموات والأرض ، حتى اتسع المكرُّ وضاق بأعداء الله المقر ، وحرقت أوعار الخنادق ، وصار الرجاء لمنطقة السور كالمناطق ، ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لا تدخله لام التعريف ، وكانت أجنحة الملائكة مطيفة بهم فأكرم بالمُطَاف به وبالمطيف ، وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التى هى الفوز الأكبر ، وقرَنَها بإدناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التى هى أرض المحشر ، فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد ، وأيسر ذلك أن أرواحهم فى حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة إلى يوم المعاد ، ولما رأى الكفار أن صَلِيبَهُمْ قد صار خوارا ، وأن زئيرهم قد انقلب خوارا ؛ أذعنت أيديهم باستسلامها ، وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها ، وبالبلد عن النفوس وحمامها ، فأبى السيف أن يترك رقابا تغذى بأكلها ، ويحل من عشقها على مداومة وصلها ، وذكر الخادم أنَّ سلف هؤلاء انتزع هذا البلد قَسْرًا ، وفتك بمن كان به من المسلمين غَدْرًا ، وذلك ثأر ذخره الله لك حتى تحظى فى

الآخرة بثوابه ، وتتجمل فى الدنيا بزينة أثوابه ، والمسلم أخو المسلم يأخذ بدمه ، وإن تطاولت أمداد السنين على قدمه ، فيابُعْدَ عهد هذا الثأر من ثائره ، ويا طيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره ، ولما تحقق العزم على ذلك أشار ذوو الرأى بقبول الفدية المبذولة ، وألا يحمل العدو على ما ليست نفسه عليه بمحمولة ، فإن النقد إذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار ، واستَضْرَى حتى يلتحق بالسباع الضَّوَار ، وهؤلاء إذا رأوا عين القتل تجردوا للقتال ، وركبوا الأهوال للنجاة من الأهوال ، ومن يُدْعَ إلى خطة رشد فليقبلها ، ومن أنشط له عقل الأمور فلا يعقلها ، وعلى كل حال فإن الفدية للمسلمين أرغب ، وأموال يُتَقَوَّى بها على العدو خير من دماء تذهب ، هذا ، وبالبلد من أسارى المسلمين مَنْ حَيَاةُ أحدهم بحياة كل نفس ، ومَنْ حُرْمَتُه عند الله خير مما طلعت عليه الشمس ، ولا يُوَازَى فتحه عنوة أن يتعدى إليهم أضراره ، ولا شك أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره ، فرأى الخادم عند ذلك أن الرأى مشترك ، وأن له معتركا كما أن السيف له معترك ، وتقرر تسليم البلد ودموع أهله قد خضبت أحداقها وأقرحت آماقها ، ولم تطب أنفسهم بفراق قمامه حتى كادت الهام تفارق أعناقها ، فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم ، وتشيل نعامتهم ، ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار ، وكيف يرجى النصر من معبود تقر شيعته بقتله ، أم كيف يدفع عن غيره من كان هو مبتلى بمثله ، وهذه عقول سخيفة نفذ فيها كيد شيطانها ، وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها ، ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار ، زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار ، واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار ، وزاده فخراً إلى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوى الذى كان فى تلك الأرض موعده ، ومن صخرتها مَصْعَدُه ، وذلك هو الإسراء الذى ركب إليه ظهر البراق ، واستفتح له أبواب السبع الطِّباق ، ولَقِىَ فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم

فظفر خير ملق بخير لاق ، وبركة ذلك اليوم سرت إلى هذا فأطالت من شهرته ، وضمنته نصرة الدين الحنيف الذى لله عناية بنصرته ، وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبى صلى الله عليه وسلم بدار هجرته ، وإذا أنصف واصفه قال : إنه لليوم البدرى فى اقتراب النسب ، وإنه العجيبة التى لم تجفل عنها الأيام فى صفر وإنما أجفلت عنها فى رجب ، فما أكثر الفائز فيه والمغبون ، والمسرور والمحزون ، فمن جد راكب ومن جد راجل ، ومن عز قادم وذل راحل ، ولطالما جد الخادم فى السعى له وأبصار العدا تزلقه ، وألسنتهم تَسْلُقُهُ ، وما منهم إلا من أكثر الشناعة بأن ذلك السعى للاستكثار من البلاد ، والله يعلم أنه لم يكن إلا للاستكثار من موارد الجهاد ، لاجرم أن صدق النية كان له عقبى الدار ، وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عقبى البْوَار ، ويوم هذا الفتح يفتقر قبله إلى أيام تجلو بياضه عن سوادها ، ويلقح لها بطون المساعى حتى يكون هو نتيجة ميلادها ، ولما ظفر به الخادم لم يكن لأهل النِّجامة فيه قول يرد كذابه ، ولا يقبل صوابه ، والشهب الطالعة على ذوات السروج ، أصدق نبأ من الشهب الطالعة من ذوات البروج ، على أنهما وإن اتفقا رَجْمًا فإنهما يختلفان علما ، فعلم هذه يسأل عنه ثغر الأعناق ، وعلم هذه يسأل عنه بطون الأوراق ، ولما دخل البلد وجد به أمما لولا أن ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة ، وغالبوا السيوف مصابرة ، وهم طوائف مختلفو الألسنة والألوان ، وإن قيل إنهم أناسى فإنَّ صُوَرَهُمْ صور الجان ، ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها ، وفحصت الشعر عن أوساط رءوسها ، وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها ، ولما رأوا طلعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بالْجُؤَار ، واصطرخوا جميعا كما يَصْطَرِخون غدا فى النار ، وزادهم غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة ، وقد صار الناقوس أذانا ، وكلمة الكفر إيماناً ، وأقيمت الجمعة ، وهى أول جمعة حظى الأقصى بمشهدها ، وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها ، فمن باكٍ بدمعة سروره الباردة ، ومن مُجِيل نظَرَه فى نعمة الله

الواردة ، ومن شاكر للزمن الّذى أبقاه إلى يومه هذا الّذى كلُّ الأيام له حاسدة ، مَنْ كان مَوْلِدُه تقدم قبله أو بعده فكأنه لم يولد ، وكانت هذه الجمعة فى رابع شعبان ، وهو الشهر الّذى جعله الله طليعة لشهر الصيام ، وليلة نصفه هى اللّيلة المعروفة بإحياء قيامها إلى حين وفاة شخص الظلام ، والتى يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوى الذنوب والآثام ، وجىء باللّواء الأسود فركز من المنبر فى أعلاه ، ونطق لسان حاله فقال : من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه فأنا مَوْلاَه ، ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه ، غير أن هذا يُزْهَى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزة سلطانه ، ولما ذُكِرَتْ سِمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الّذى ملأ المسجد بِعَجِيجه ، وسَبَقَ الكرامُ الكاتبون بزميله إلى السماء ووشيجه ، وكان اليوم فَصْلاً ، والموقف حَفْلاً ، وذلك الدعاء فرضا لا نفلا ، ولا ينتهى الوصف إلى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التى تَسْتَلْبِثُ العَجْلاَنِ ، وتستحلب الأذهان وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الّذى فطر الإنسان ، ومن جملة ذلك ما تُبُوهِىَ فى حسنه من البِيَع والصَّوَامع ، ذوات الأبنية الروائع ، التى روضت بالزخارف ترويض الأزهار ، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحى إليها بالأسرار ، وما منها إلا ما يقال : إنه إِرَمُ ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا فى توسيعها بضروب الاختيار ، وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار ، وقيل فيها : هذه روضات جنان لا أفنية ديار ، هذا إلى غيره مما وجد من معبودات القوم الموصوفة بأنها آلهة الصُّلُب ، اللاتى من ذوات النصب ، وأكثر ذلك وجد فى المسجد موضوعاً ، وعلى قبته مرفوعاً ، فأنزلت على قرونها ، وأُسْتُنَّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طعن عيونها ، واستوطن المؤمن مكان الكَفُور ، وبُدِّلت الظلمات بالنور ، وقالت الصخرة : الآن جمع بينى وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام ، والجمع بين

الأختين فى هذا الأمر من الحلال لا من الحرام ، وقال الأقصى : سبحان الذى أسرى إلىّ بجنده ، كما أسرى بعبده ، وأعاد لى عهود الفتح الأول بهذا الفتح الذى أتى من بعده ، وعَوْدُ الذاهب أرْجى لدوام أحقابه ، وخُلودُ الإنسان لا يكون إلا فى مآبه ، وهذا هو الخطب الذى جدد للاسلام عهود ابن خَطَّابه ، رضى الله عنه ! إلا أن مستنقذ الطريدة أولى بها من صاحبها ، ولئن غصبتها يد غالبة فقد جاء الله باليد التى غصبتها من غاصبها ، هذا ، ولم يستنقذها الخادم إلا بإنضاء سلاح أنفته الوقعة الأولى التى استأصلت حماة البلاد ، واستباحت أغيالها بقتل الآساد ، فكانت لهذا الفتح عنوانا ، ولتقرير أصوله بنيانا ، ولم يَنْجُ بها من طواغيت الكفر إلا طاغية ترابلس ، فإن السيوف أسَأَرَتْهُ و بفؤاده قلق من أوجالها ، وفى عينه دهش من أهوالها ، وقد قرَنَ الله هذا الفتح ببشرى موته ، وكفى المسلمين مؤنة الاهتمام لِفَوْتِهِ ؛ ففر من الوقعة ولم ينج بذلك الفرار ، واعتصم بذات جداره ففتله الخوف من وراء الجدار ، ولا فرق بين قتيل خوف السفار ، و بين قتيل الشفار ، ولقد فرّ من المكروه إلى مثله ، لكنه انتقل من ميتة عِزّهِ إلى ميتة ذُلّه ، وكذلك آثار الخادم فى أعداء الله فهم هلكى بسيفه فى مواقف الطراد ، فإن فرّوا فبخوفه على جنوب الوساد ، و بعد هذه فهل يَمْتَرُونَ فى أن دماءهم قد استجابت لمراده ، وأن سواء لديه من أمكن منها فى دنوه ومن امتنع منها فى بعاده ، وكل ذلك مستمد من الاستنصار بعناية الديوان العزيز التى من شأنها أن تجعل الرؤيا حقا ، وأحاديث الآمال صدقا ، وتُقَرِّبَ بعيداتِ الأمور حتى تجعل الشرق غربا والغرب شرقا ، فهذا الفتح منسوب إليها ، وإن كان الخادم هو الساعى فى تسهيله ، والمجاهد بنفسه وماله فى سبيله ، فعلى عطف دولتها ترقم أعلامه ، وفى أيامها تؤرخ أيامه ، ولو أبيح للقلم الخيلاء فى مقام المقال ، كما أبيح لصاحبه فى مقام القتال ، لاختالت مشيته فى هذا الكتاب ، ولقال وأسهب فليس الإكثار ههنا من الإسهاب ، لكنه منعه من ذلك أن يكون ممن نخر

بعمله فأبطله ، وأرسل خطابه إلى الديوان العزيز فلم يقبضه بالأدب حين أرسله ، وقد ارتاد مَنْ يُبلِّغ عنه مشاريح هذه الوقائع التى اختصرها ، ويمثل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ، ويكون مكانه من النباهة كريماً كمكانها ، وهى عرائس المساعى فَأَحْسَنُ الناس بيانا مؤهل لإبداع حسانها ، والسائر بها فلان وهو راوى أخبار نصرها التى صحبها فى تجريح الرجال ، وَعَوَالِى إسنادها مأخوذة من طرق العَوَال ، والأيام والليالى رواة فما الظن برواية الأيام والليال ، وستتلو هذه الأخبار الصادقة بمشيئة ٱللّٰه أخبار مثلها صادقة ، وما دامت السيوف ناطقة فى يد الخادم فالألسنة عنها ناطقة ، وللآراء العالية مزيد العلو ، إن شاء ٱللّٰه تعالى .

وأما التقليد فإنه تقليد أنشأته لمنصب الحسبة ، وهو : أما بعد ؛ فقد جعل ٱللّٰه جزاء التمكين فى أرضه ، أن يقام بحدود فرضه ، ونحن نسأله التوفيق لهذا الأمر الذى ثقل حمله ، وعدم أهله ، فقد جىء بنا فى زمن أصبح الناس فيه سدى ، وعاد الإسلام فيه غريباً كما بدَا ، وهو الزمن ٱلذى كثرت فيه أشراط اليوم الأخير ، وغربلت فيه الأمة حتى لم يبق إلا حُثالة كحُثالة التمر والشعير ، ومِنْ أَهَمّ ما نقرر بناءه ونقدم عناءه ، ونصلح به الزمن وأبناءه ، أن نمضى أحكام الشريعة المطهرة على ما قررته ، فى تعريف ما عرفته وتنكير ما نكرته ، ومَدَارُ ذلك على النظر فى أمر الحِسْبَة التى تتنزل منه بمنزلة السلك من العقد ، والكف من الزَّنْدِ ، وقد أخلصنا النية فى ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ، ويُصْطَفَى لها ولا يصطفيها ، وهو أنت أيها الشيخ الأجل فلان أحسن ٱللّٰه لك الأثر ، وصدق فيك النظر ؛ فتولَّها غير موكول إليها ، بل مُعَانًا عليها . وٱعلم أن الناس قد أماتوا سننا وأَحْيَوْا بِدَعًا ، وتفرقوا فيما أحدثوهُ من المحدثات شيعا ، وأظلم منهم من أَقَرَّهُمْ على أمرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ؛ فإن السكوت عن البدعة رضاً بمكانها ، وترك النهى عنها كالأمر بإتيانها ، ولم يأت بنا ٱللّٰه تعالى إلا ليعيد ٱلدين قائما على أصوله ،

صادعا بحكم ٱلله فيه وحكم رسوله .

ونحن نأمرك أن تتصفح أحول الناس فى أمر دينهم ٱلذى هو عصمة مالهم ، وأمر معاشهم ٱلذى يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ أولا بالنظر فى العقائد ، واهْدِ فيها إلى سبيل الفِرْقَة الناجية ٱلذى هو سبيل واحد ، وتلك الفِرْقة هى السلف الصالح ٱلذين لزموا مواطن الحق فأقاموا ، وقالوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ، وَمَنْ عداهم شُعَبٌ دانوا أديانا ، وَعَبَدُوا من الأهواء أوثانا ، واتبعوا ما لم ينزل به ٱلله سلطانا ، ولو نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول وٱلله يعلم أعمالكم ؛ فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولا ، ولا تقبل منه صرفا ولا عدلا ، وليكن قتله على رءوس الأشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فما تَكَدَّرَتِ الشرائع بمثل مقالته ، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته ، والمنتمى إليها يُعْرَفُ بنكره ، ويستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار ، وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار ، وما تجده من كتبها التى هى سموم ناقعة ، لا علوم نافعة ، وأفاعى ملففة ، لا أقوال مؤلفة ؛ فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله ٱلله بأهلها من التحريق ؛ ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد فى تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ؛ فمن وُجِدَتْ فى بيته فليؤخذ جهارا ، ولينكل به إشهاراً ، وليقل : هذا جزاء من استكبر استكباراً ، وَلَمْ يَرْجُ لله وَقاراً ، وأما من تَحَدَّثَ فى القَدَرِ ، وقال فيه بمخالفة نص الخبر ؛ فليس فى شىء من رِبْقَةِ الإسلام ، وإن تَنَسَّكَ بمداومة الصلاة والصيام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هٰذِهِ الأمَّةِ » . والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين ٱلله والعبد والضياء والظلمة ، فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تُخْزَى فليقابل جمعها بالتكسير ، واسمها بالتصغير ، ولتنقل إلى ثقل الحدود عن خفة التعزير ، ومن كان منها ذا مكانة نابهة فليهبط ، أو شهادة عادلة فليسقط ، وكذلك يجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم ، أو قال بحدوث القرآن القديم ،

ومن مُلْحِدِي القرآن فرقة فرقت بين المعنى والخط ، وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط ، وكل هؤلاء قوم خَبُثَتْ سرائرهم ، وعميت بصائرهم ، وعظمت عند الله جرائمهم ، نخذهم بالتوبة التى تطهر أهلها ، وتجُبُّ ما قبلها ، وليست التوبة عبارة عن ذكرى اللسان ، والقلبُ لاهٍ فى قبضة النسيان ، بل هى عبارة عن الندم على مافات ، واستئناف الإخلاص فيما هوآت ، وقد جعل الله التائب من أحبابه ، ووصفه فى مواضع كثيرة من كتابه ، ومن فضله أن الملائكة يستغفرون لذنبه ، ويشفعون له إلى ربه ، فإن أبَتْ هذه الطوائف إلا إصرارا ، ولم يزدهم دعاؤك إلا فراراً ؛ فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم طبعا ، وألحقهم بالذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكره وكانوا لايستطيعون سمعاً ، نخذهم عند ذلك بحد الجلد ، فإن لم ينجع فبحد ذوات الحد ؛ فإن هذه أمراض عمى لا ترجى لها الإفاقة ، ولا تبرىء منها إلا الدماء المراقة .

وأما الفرقة المدعوة بالرافضة ، التى هى لما رفعه الله خافضة ، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رَسْمه ، وإذا نُقِّب عن مذهبهم وجد على العصبية موضوعا ، ولغير ماشرعه الله ورسوله مشروعا ، ذبُّوا عَنْ علىٍّ رضى الله عنه فأسلموه ، وأخروه إذ قدَّمُوه ، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها ، وأولوها على ما أولوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمة ، وقالوا : إنَّا وجدنا آباءنا على أمة ، وههنا غير ماذكرناه من عقائد محلولة[1] ، ومذاهب غير منقولة ولا مقبولة ، وبالهدى يتبين طريق الضلال ، وبالصحة يظهر أثر الأعتلال ، ولا عقيدة إلا عقيدة السنة والكتاب ، ولا دين إلا دين العجائز الماء والمحراب .

وإذا فرغنا من الوصية بالأصول التى هى للدين مِلَاك ، فَلْنُتْبِعْهَا بالفروع التى هى له مِسَاك ، وأول ذلك الصلاة ، وهى فى مبانى الإسلام الخمس أو كد خَمْسِهِ ، وآخر ما وَصَّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مفارقة نَفْسِهِ ، ومن فضلها أنها العَمَلُ الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا عذر فى تركها لأحد من

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ ولعلها « منحولة » .

الناس فيقال إنه يعذر ، فأجمع الناس إليها ، وأحملهم عليها ، ومُرْهم بالاجتماع لها فى المساجد ، ونادِ فيهم بفضيلة صلاة الجماعة على صلاة الواحد ، وراقبهم عند أوقات الأذان ، فى الأسواق التى هى معركة الشيطان ؛ فمن شغل بتثمير مكسبه ، ولَهَا عنها بالإقبال على لهوه ولعبه ؛ فَخُذْهُ بالآلة العمرية التى تَضَعُ من قَدْره ، وتُذِيقه وَبَالَ أَمْرِهِ ، ولا يمنعك عن ذى هيبة هيبته ، ولا عن ذى شيبة شيبته ، فإنما أهلكَ ألذين قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، ومِنْ مهمات الصلاة يوم الجمعة الذى هو فى الأيام بمنزلة الأعياد فى الأعوام ، وفيه الساعة المخصوصة بالدعاء المجاب ، التى ما صادفها عبد إلا ظفر بالطِّلَاب ، فمر الناس بابتداره فى البواكر ، والفوز فيه بقربان البدنات الأخاير ، فإنه اليوم الذى لم تطلع الشمس على مثله ، وبه فضل هذا الدين على أهل الكتاب من قبله ، فهو وَاسِطَةَ عِقْدِ الأيام السبعة ، ولاشتماله على مجموع فضلها سمى يوم الجمعة ، وفى الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح فى شهر رمضان والرغائب فى أول جمعة من رجب وليلة النصف من شعبان ، فلتملأ المساجد فى هذه المواسم التى تكثر فيها شهادات الأقلام ، فى كَتْبِ الطاعات ومحو الآثام ، ومَنْ حَضَرَها وليس همه إلا أن يمر بها طروقا ، ويواعد إليه أخدانه رَفَثاً أو فسوقاً ؛ فهؤلاء هم الخَلْفُ الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فابعث عليهم قوماً يسلبونهم سلباً ، ويوجعونهم ضَرْباً ، ويملئون عيونهم مهابة وقلوبهم رعباً ، فبيوت ألله مطهرة من هذه الأدناس ، ولم تعمر لشياطين الإنس وإنما عمرت للناس ، فلا يحضرها إلا راكع وساجد ، أو ذاكر وحامد .

وههنا عظيمة عضيهة ، وفاحشة يفقه لها من ليست نفسه بفقيهة ، وهى الرِّبَا ؛ فإنه قد كثر أكله ، وتظاهر به فاعله ، وقال فساق الفقهاء بتأويله ، وتوصلوا إلى شبهة تحليله ، ولا يتسارع إلى ذلك إلا من أعمى الله قلبه ، ومَحَقَ كسبه ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لَعَنَ ألله اليهودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا

وَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا » ونحن نأمرك أن تشمر فى هـذا الأمر تشميراً يرهبه الناس(١) ، ولا تدع ربًا حتى تضعه وأول ربا تضعه ربا العباس ، فتأديب الكبير قاض بتهذيب الصغير ، والأسوة بالرفيع خلاف الأسوة بالنظير ، وجل معاملة الربا تجرى فى سوق الصرف الذى تختلف به النقود ، وتفترض فيه العقود ، ويخاض فى نار نيره إلى النار ذات الوقود ، وبه قوم أوسعوا عيون الموازين غمزاً ، وألسنتها همزاً ولمزا ، وأصبح الدرهم والدينار عندهم بمنزلة الصنمين اللات والعُزَّى ، ولا يُرَى منهم إلا مَنِ الحرصُ مُفَاضٌ على ثيابه ، وقد جمع بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه ، فعَدِّل مَيْلَ هؤلاء تعديلا ، وتَخَوَّلْهُمْ على مرور الأيام تخويلا ، واعلم أنك قد وليت من الكيل والميزان أمرين هلكت فيهما الأمم السالفة فباشرهما بيدك مباشرة الاختيار والاختبار ، ولا تَقِلْ أَهْلَهُمَا عَثْرَةً فإن الإقالة لاتنهى عن العثار ، وكل هؤلاء من سواد الناس ممن لم يَزْكُ غَرْسُه ، ولا فقهت نَفْسُه ، وليس همه إلا فرجه أو ضِرْسُه ، نخذهم بآلة التعزير التى هى نزاعة للشَّوَى ، تدعو من أدبر وتولى ، ومن آثارها أنها ترجّ أرض الرأس رجًا ، وتفرج سماءه فرجا ، ويسلك بصاحبه هدياً ونهجا .

وقد كثر فى الأسواق الخِلاَبة والنَّجْش وتَلَقِّى الرُّكْبَان وبَيْعُ الْحَاضِرِ للبادى وتَنْفِيق السِّلعة باليمين الكذابة ، وكل هذه من المحظورات التى وردت الأخبار النبوية ببيانها ، والنهى عن تورُّد مكانها ، فَمَنْ قارف شيئاً منها جاهلاً بتحريمه فقوّمه بالتعليم ، واهده إلى الصراط المستقيم ، ومَنْ عَرَفَ ما اقترف فأَذِقْهُ حَرَّ التأديب ، قَبْلَ أن يُذَاق غداً حَرَّ التعذيب ، وأعلمه أن الأرزاق بيد الله تعالى لاينقصها عجز القاعد ولا يزيدها حرص الكادح ، وقد ينقلب الجاهد فيها بصفقة الخاسر والْوَادِعُ بصفقة الرابح ، ومن سنة الله تعالى أن ينمى الحلال وإن كان يسيراً ، ويَمْحَقَ الحرام وإن كان كثيراً ، ومن الناس من آتاه الله مالاً فَبَثَّ فى الأسواق جنود ذهبه ووَرِقِهِ ، واحتكر ماحمله الميزان من ذوات رطله ووسعه

(١) فى ا ، ب ، ج « برهة البأس » وما أثبتناه عن د .

الكيل من ذوات وسقه ، فأصبح فقراء بلده فى ضيق من عدم الرفق ، ومدد الرزق ، فليمنع هؤلاء أن يجعلوا رزق الله مُحْتَكَرا ، ومعاش عباده مُحْتَجَرا ، وليؤمروا بأن يتراحموا ، ولا يتزاحموا ، وأن يأخذ الغنى منهم بقدر الكفاف ، ويترك للفقير مايعينه على الإسعاف ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لاحكرة فى سوقنا ، لايَعْمِدْ رجال بأيديهم فضول من أذهاب إلى رزق من أرزاق الله تعالى ينزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ، ولكن أيُّما جَالبٍ جلب على عمود كبده فذلك ضيف عمر فليبع كيف شاء الله وليمسك كيف شاء الله » وأما التسعير فإنه وإن آثره القاطنون ، وحكم به القاسطون ، وقيل : إن فى ذلك للفقير تيسير العسير ؛ فليس لأحد أن يكون يَدَ الله فى حفظ مارفع ، وبذل مامنع ، فقف أنت حيث أوقفك حكم الحق ، ودَعْ مايَعِنُّ لك من مصلحة الخلق ، ولا تكن ممن اتبع الرأى والنظر ، وترك الآية والخبر ، فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله ، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ومما نأمرك به أن تمحو الصغيرة ، كما تمحو الكبيرة ؛ فإن لَمَمَ الذنوب كالقطر يصير مُجْتَمَعُه سيلاً متدفقاً ، وكان أوله قَطْراً متفرقا .

وقد استمر فى الناس عوائد تهاونوا باستمرارها ، ولم ينظروا إلى ثقل أوْزَارِها ؛ فمن ذلك لُبْسُ الذهب والحرير الذى لم يلبسه إلا مَنْ عدم عند الله خلاقاً ، وإن قيل إنه شعار للغنى فلم يزد صاحبه من الحسنات إلا إملاقا ، ولَلُبْسُ عباءة مع التقوى أحسن فى العيون شعاراً ، وأعظم فى الصدور وقاراً ، ويلتحق بهذه المعصية صَوْغُ الذهب والفضة آنيةً يمنع منها حق الصدقات وهو حق يُقَاتَلُ مانعه ، ويُعْصَى فى استعمالها أمْرُ الله وهو حدٌّ من حدوده يعاقب عاصيه ويثاب طائعه ، وكذلك يجرى الحكم فى الصور المرقومة فى البيوت والثياب ، وعلى الستور المعلقة على الأبواب ، وإخراجها فى ضروب أشكال الحيوان لملاعبة الصبيان ، وذلك مماثلة

لخلق الله فى التقدير ، ولهذا يؤمر صانعه بنفخ الروح فيما صوّره من التصوير .

ومما يغلظ نكيره إطالة الذيول للاجترار ، والمباهاة لما فيها من عنجهية التيه والاستكبار ، ولَنْ يَخْرِقَ صاحبُهَا الأَرْضَ بإعجابه ، ولا يبلغ طول الجبال بإطالة ثيابه ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيلاَءَ » .

ومما هو أشد نكيراً أمر الحمامات ؛ فإن الناس قد أصروا بها على الإجهار ، وترك الاستتار ، والتهاون بأمر العورات التى لصاحبها اللعنة وله سوء الدار ، والنساء فى هذا المقام أشد تهالكاً من الرجال ، وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن فى فاحشة الابتذال ، ولهن مُحْدَثَات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاه والإسراف ، وأهمل إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف ، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان فى حساب ، وتلك من لباس الشُّهْرَة الذى لا يستر منه إسبال مِرْطٍ ولا إدناء جلباب ، ومن جملتها أنهن يَعْتَصِبْنَ عصائب كأمثال الأسنمة ، ويخرجن من جهارة أشكالها فى الصور المعلمة ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فيما ورد عنه من الأخبار ، وجعل صاحبها معدوداً من زمرة أصحاب النار .

ومما حِيدَ فيه عن السنن قراءةُ القرآن بضروب الألحان ، وتلك قراءة تخرج حروفها من غير مَخْرَج ، وتبدو معوجة وهو قرآن عربى غير ذى عِوَج ، وقد أمر الله بترتيله ، وإيراده على هيئة تنزيله ؛ فَمَنْ قرأه بالترجيع والترديد ، وزَلْزَلَ حروفه بالتمطيط والتمديد ؛ فقد ألحقه بدرجات الأغانى ، وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعانى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم ؛ « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وَأَصْوَاتِهَا وَإِيَّاكُمْ وَلُحُونَ أَهْلِ الْفِسْقِ وَلُحُونَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ ، وَسَيَجِىءُ بَعْدِى قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالنَّوْحِ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، مَفْتُونَةٌ قُلُوبُهُمْ وَقُلُوبُ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ » ويلتحق بذلك اقتناء القَيْنَات المغنيات

اللاتى يلعبن بالعقول لعبهن بالأسماع ، ويُغْنِين الشيطانَ بغنائهن عن بثّ الجنود والأشياع ، وفُتْيَا النفس الأمارة فى ذلك أن تقول : هؤلاء إماء يحل نغمة سماعهن ، كما يحل ماتحت قناعهن ، وقد علم أن لكل شىء نماما ، وقد ينقلب الحلال فيصير حراما ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاَ تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ الْمُغَنِّيَاتِ وَلاَ تَشْتَرُوهُنَّ وَلاَ تُعَلِّمُوهُنَّ وَلاَ خَيْرَ فِى تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ » وفى مثل هـذا أنزلت : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ) وكذلك يجرى الحكم فى المواشط اللاتى يجعلن الحسن موفوراً ، والقبح مستوراً ، ويخدعن نظر الناظر حتى يجعلنه مسحوراً ؛ فهن يُبْدِين صدقا من كذب ، وَجداً من لعب ، وفعلهن هذا من الغش الذى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وقال : إنه ليس منه ، وقد لعَنَ الْوَاصِلَةَ والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة ، ومِنْ غِشّ المنكرات أيضاً خِضَابُ الشَّيْب الذى يخالف فيه الظاهر الباطن ، ويتخلَّق صاحبه بخلق الكاذب الخائن ، وهَبْ أنه أخفى لون شعره وهل يخفى أخْلَاق لباسه ، وإذا استسَنّ ملائم المرء فلا يغنيه سواد عارضه ولا سواد راسه ، وقد جعل الله الشيب من نعمه المبشرة بطول الأعمار ، وسماه نوراً للونه وهدايته ولا تستوى الظلمات والأنوار ، قال النبى صلى الله عليه وسلم[1] الشيب أن يشتغل بتغيير صيغة الكتاب ، ويدأب فى محو سواد العقاب ببياض الثواب ، فى بقية عمره مندوحة لادخار مايُحْمَد ذخره ، وتبديل ماتقدم سطره .

ومما خولفت فيه السنة عقد مجالس التعازى لحضور الناس ، وإظهار شعار الأسود والأزرق من اللباس ، والتشبيه بالجاهلية فى النوح والندب ، ومجاوزة دمع العين وخشوع القلب إلى الإعلان بإسخاط الرب ، وقد تواطأ النساء على ضَرْب

(١) هكذا ورد فى ا ، ب ، ج ، د ؛ ونعتقد أنه قد سقط من جميع هذه النسخ الحديث النبوى الدال على فضيلة الشيب ، وقد يكون المؤلف بيض له ثم غفل عنه ، ومن الأحاديث فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الشيب نور المؤمن ، لايشيب الرجل شيبة فى الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ورفع بها درجة » .

الخيام على القبور ، وجعل الأعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور ، فصارت المآتم بينهم ولائم والمنادب عندهم مآدب ، وربما نشأ من ذلك مايغض طرفا ، ويجدع أنفا ، و يوجب حداً وقذفا .

وهكذا أهمل أمر الإسلام فى تشبيه أهل الذمة بأهله ، وما كانوا ليشابهوه فى زى غرته و يخالفوه فى سلوك سبله ، ولا بد من الغِيَار بأن يَشُدَّ النصرانى عقدة زُناره ، ويُصَفِّر اليهودى أعلى إزاره ، وليمنعوا من الظاهر بطغيان النعمة وعلو الهمة ، و يؤمروا بالوقوف عند ماحكم عليهم من الأحكام ، وأخذوا فيه بالاختفاء والاكتتام ، فخمورهم تستر ، وشعائر دينهم لاتظهر ، وموتاهم تقبر بالخمول قبل أن تقبر ؛ فلا يوقد خلف ميتهم مصباح ، ولا يتبع بنَدْب ولا صياح .

ومما عرف الناس منكره إثارة التحريش بين الحيوانات ، وهى ذوات أكباد رطبة ، وأخلاق صعبة ، وما منها إلا مايحل أكله ، ولايحل قتله ، كالكبش والحجلة والديك والسمانى وما أشبهها ، وقد أكثر الناس من اقتنائها ، والمواظبة على إضرام شَحْنائها ، ولربما نشأ من ذلك فتنة تئول إلى ضراب ، وشق ثياب ، وإحداث شِجَاج ، و إثارة عَجَاج ، وتحزب إلى أحزاب كثيرة وأفواج .

ويتصل بهذه المنكرات المذكورة أشياء أخرى تجرى مجراها فى التقديم ، وتتنزل منزلتها فى التحريم ، فاحكم فيها بحكمك ، وامض فى شبهاتها بدليل علمك ، ونُبْ عنا فى التذكير والتحذير ، والتعريف والتنكير ، حتى يتقوَّمَ الأوَد ، ويتضح الرشد ، ويمكث فى الأرض ماينفع ويذهب الزَّبَد ، وليكن عملك لله الذى يسمع و يرى ، وله ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

واعلم أن الأمر بالمعروف عبادة يتعدى نفع صاحبها إلى غيره ، وتستضيف خير المأمور بها إلى خيره ، وهى الجهاد الأكبر الذى تقاتل فيه عواصى النفوس ، وتضرب به رءوس الشهوات التى هى أمنع من معاقد الرءوس ، فقتيله يحيا بقتله ، وجريحه يوسى بجراحة نصله ، وبمثل هـذا الجهاد تستنزل أَمْدَادُ النعم مضعفة ، كما تستنزل أمداد النصر مردفة ، فأقدِمْ عليه ذا عزم باتر ، وطرف ساهر ،

وقدم ثابت صابر ، حتى تظل لمعاقل الشيطان فاتحا ، وتكون فيمن دعا إلى الله وعمل صالحا .

واعلم أنك فى صبيحة كل يوم يَبْتَدِرُكَ المَلَكُ والشيطان ، وكل منهما يقول: يأيها الإنسان ، فإن أجبت نداء الملك كتبك فى زمرة من مهد لجنبه ، وخاف مقام ربه ، وعَرَّج بك إلى الله طيبا نَشْرُهُ ، مُضَاعَفًا أجره ، وإن أجبت نداء الشيطان كتبك فى زمرة من أغواه ، وقَرَنَكَ بمن أغفل الله قلبه واتبع هواه ، ثم نزل به إلى الأرض خبيثاً مخبثاً ، وأقبل به على إخوانه من الشياطين محدثا .

وهذا آخر ماعهدناه إليك من العهد الذى طوقت اليوم بكتابه ، وستُنَاقش غداً على حسابه ، وكما جعلناه لك فى الدنيا ذكراً ، فاجعله لك فى الآخرة ذخراً ، إن شاء الله تعالى ؛ والسلام .

وهذا الذى ذكرته فى هذين من الكتاب والتقليد يتضمن إطنابا مستوفى الأقسام ، ولولا خوف الإطالة التى لاحاجة إليها لأوردت قصائد من الشعر أيضاً ، حتى لايخلو الموضع من ضرب أمثلة من المنظوم والمنثور ، لكن فى الذى ذكرته كفاية لمن يحمله على أشباهه ونظائره .

فان قيل : إن الإطناب فى الكلام قد وضعتموه اسما على غير مسمى ؛ فإن الكلام لايخلو من حالين : إما ألاَّ يزيد لفظه على معناه ، وهو الإيجاز ، أو يزيد لفظه على معناه ، وهو التطويل ، وليس ههنا قسم ثالث ، فما الإطناب إذاً ؟

قلت فى الجواب : اعلم أن الإيجاز هو ضد التطويل ، كما أن السواد ضد البياض ، غير أن بين الضدين مراتب ومنازل ليست أضداداً؛ فالإطناب لا إيجاز هو ولا تطويل ، كما أن الحمرة أو الخضرة ليست بياضاً ولا سواداً ، وقد قدمنا القول أن الإطناب يأتى فى الكلام مؤكدا كالذى يأتى بزيادة التصوير للمعنى المقصود إما حقيقة وإما مجازا ، والتطويل ليس كذلك ؛ فإنه التعبير عن المعنى بلفظ زائد عليه يفهم ذلك المعنى بدونه ، فإذا حذفت تلك الزيادة بقى المعنى المعبر عنه على حاله لم يتغير منه شىء ، وهذا بخلاف الإطناب ؛ فإنه إذا حذفت منه

تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغير ذلك المعنى وزال ذلك التأكيد عنه ، وذهبت فائدة التصوير والتخييل التى تفيد السامع مالم يكن إلا بها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وهذا لايسمى إيجازاً ؛ لأنه أتى فيه بزيادة لفظ ، وهو ذكر الصدور ، وقد علم أن القلوب لاتكون إلا فى الصدور ، ولايسمى تطويلا ؛ لأن التطويل لا فائدة فيه أصلا ، وهذا فيه فائدة ، وهى ما أشرنا إليه ، وكذلك باقى أقسام الإطناب التى نبهنا عليها ، وهذا لا نزاع فيه .

النوع السابع عشر

فى التكرير

قد تقدم الكلام فى صدر كتابى هذا على تكرار الحروف ، وما [أشبه] ذلك مما يختلط بهذا النوع الذى هو تكرار المعانى والألفاظ .

واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان ، وهو دقيق المأخذ .

وحدّه هو : دلالة اللفظ على المعنى مردّدًا ، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة ، وبالتطويل أخرى ، وقد تقدم الكلام على الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة فى باب الإطناب ، فلا حاجة إلى إعادته ههنا ، وأما التكرير فقد عرفتكه .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما يوجد فى اللفظ والمعنى ، والآخر يوجد فى المعنى دون اللفظ .

فأما الذى يوجد فى اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه : أَسْرِعْ أَسْرِعْ ، ومنه قول أبى الطيب المتنبى (١) :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن على العجلى ، وأولها قوله :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيـهِ الْمُدَامُ   وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْـدَ مِثْلِهِمُ مُقَامُ

وأما الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ فكقولك : أَطِعْنى ولا تَعْصِنِى ، فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية .

وكل من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وغير مفيد ، ولا أعنى بالمفيد ههنا مايعنيه النحاة ؛ فإنه عندهم عبارة عن اللفظ المركب ؛ إما من الاسم مع الاسم ، بشرط أن يكون للأول بالثانى علاقة معنى يسع مكلفاً جهله ، وإما من الاسم مع الفعل التام المتصرف ، على هذا الشرط أيضاً ، وإما من حرف النداء مع الاسم ؛ فهذا هو المفيد عند النحاة ، وأنا لم أقصد ذلك ههنا ، بل مقصودى من المفيد أن يأتى لمعنى ، وغير المفيد أن يأتى لغير معنى .

واعلم أن المفيد من التكرير يأتى فى الكلام تأكيداً له ، وتشييداً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشىء الذى كررت فيه كلامك ؛ إما مبالغة فى مدحه أو فى ذمه ، أو غير ذلك ، ولا يأتى إلا فى أحد طرفى الشىء المقصود بالذكر ، والوسط عارٍ منه ؛ لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أو ذم أو غيرهما ، والوسط ليس من شرط المبالغة ؛ وغير المفيد لا يأتى فى الكلام إلا عيًّا وخَطَلاً من غير حاجة إليه .

فأما الأوّل ــ وهو الذى يوجد فى اللفظ والمعنى ــ فإنه ينقسم إلى ضربين : مفيد ، وغير مفيد .

فالأول المفيد وهو فرعان : الأول : إذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد ، والمقصود به غرضان مختلفان ، كقوله تعالى : (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) هذا تكرير فى اللفظ والمعنى ، وهو قوله :

(يحق الحق) و (ليحق الحق) ، إنما جيء به ههنا لاختلاف المراد ، وذاك أن الأول تمييز بين الإرادتين ، والثانى بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه مانصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِى فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) فكرر قوله تعالى : (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله : (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) والمراد به غرضان مختلفان ، وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص فى دينه ، والثانى إخبار بأنه يخصُّ الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ؛ ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة فى الثانى ، وأخّره فى الأول ؛ لأن الكلام أولاً واقع فى الفعل نفسه وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل من أجله ، ولذلك رتب عليه (فاعبدوا ماشئتم من دونه)

وعليهورد قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ) وظاهر الأول والثانى أنهما سواء فى المعنى ، وليس كذلك ؛ لأن الثانى فيه تخصيص غير موجود فى الأول ، ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد الأفضل ، وقلنا : الأفضل زيد ، كان فى الثانى تخصيص له بالفضل ، وهذا التخصيص لايوجد فى القول الأول ألذى هو زيد الأفضل ، ويجوز أن تبدل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدها ؛ فيقال : زيد الأجمل ، أو زيد الأنقص ، وإذا قلنا : الأفضل زيد ، وجب تخصيصه بالفضل ، ولم يمكن تغييره عنه ، وكذلك يجرى الحكم فى هذه الآية ؛ فإن ألله تعالى قال : (إنما المؤمنون ألذين آمنوا بألله ورسوله) ، ثم قال : (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) فوصفهم بالامتناع عن الذهاب

إلا بإذنه ، وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصفات ، كما قال تعالى فى موضع آخر : (إنما المؤمنون ٱلذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) فجاء بصفة غير تلك الصفة ، ولما قال : (إن ٱلذين يستأذنونك أولئك ٱلذين يؤمنون بالله ورسوله) وجب تخصيصهم بذلك الوصف دون غيره ؛ وهذا موضع حسن فى تكرير المعانى .

ومما يُعَدّ من هذا الباب قوله تعالى : (قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَآ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه ، وليس الأمر كذلك ؛ فإن معنى قوله (لا أعبد) يعنى فى المستقبل : من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهى ، (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى : وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه ، يعنى أنه لم يعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فى وقت مّا فكيف يرجي ذلك منى فى الإسلام ؟ (ولا أنتم عابدون) فى الماضى فى وقت مّا ما أنا على عبادته الآن .

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ) فكرر (الرحمن الرحيم) مرتين والفائدة فى ذلك أن الأول يتعلق بأمر الدنيا ، والثانى يتعلق بأمر الآخرة ؛ فما يتعلق بأمر ٱلدنيا يرجع إلى خلق العالمين فى كونه خَلَقَ كلاًّ منهم على أكمل صفة ، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه ، حتى البقة والذباب ، وقد يرجع إلى غير الخلق كإدرار الأرزاق وغيرها ، وأما مايتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية فى يوم القيامة الذى هو يوم الدين .

وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لا فائدة فى تكريره ؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه ؛ فانظر إلى سوابقه ولواحقه ؛ لتنكشف لك الفائدة منه .

ومما ورد فى القرآن الكريم مكرراً قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [فكرر قوله : (فاتقوا الله وأطيعون)] ليؤكده عندهم ويقرره فى نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة ؛ فجعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم، وجعل علة الثانى حَسْمَ طمعه عنهم ، وخُلُوَّه من الأغراض فيما يدعوهم إليه .

ومن هذا النحو قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) وإنما كرر تكذيبهم ههنا لأنه لم يأت به على أسلوب واحد ، بل تنوع فيه بضروب من الصنعة ؛ فذكره أولاً فى الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل ؛ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم ، وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنوع فى تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما فى الاستثناء من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص المبالغةُ المسجِّلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه .

وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض ، وبه يعرف مواقع التكرير ، والفرق بينه وبين غيره ؛ فافهمه إن شاء الله تعالى .

الفرع الثانى من الضرب الأول : إذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدلّ على معنى واحد ، والمراد به غرض واحد ؛ كقوله تعالى : (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) والتكرير دلالة [على] التعجب من تقديره وإصابته الغرض ، وهذا كما يقال : قتله الله ما أشجعه ! أو ما أشعره ! وعليه ورد قول الشاعر :

* أَلاَ يَا اُسْلَمِي ثُمَّ اُسْلَمِي ثُمَّتَ اُسْلَمِي (١) *

وهذا مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة ، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته .

وعليه ورد الحديث النبوى ؛ وذاك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيًّا فَلاَ آذَنُ ثُمَّ لاَ آذَنُ ثُمَّ لاَ آذَنُ إِلاَّ أَنْ يُطَلِّقَ عَلِيٌّ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ » فقوله : « لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن » من التكرير الذى هو أشد موقعاً من الإيجاز ؛ لانصباب العناية إلى تأكيد القول فى منع علىّ رضى الله عنه من التزوج بابنة أبى جهل ابن هشام .

وهذا مثل قوله تعالى : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ومن أجل ذلك نقول : لا إِلَهَ إِلاَّ الله وحده لا شريك له ؛ لأن قولنا : « لا إِلَهَ إِلاَّ الله » مثل قولنا : « وحده لا شريك له » وهما فى المعنى سواء ، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته ، وذاك لأن مِنَ الناس مَنْ يخالف فيه كالنصارى والثَّنَوية ، والتكرير فى مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز ، وأحسن ، وأسدُّ موقعاً .

ومما جاء فى مثل هذا قوله تعالى : (وَاللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) فقوله : (من قبله) بعد قوله : (من قبل) فيه دلالة على أن عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول ؛ فاستحكم بأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

وعلى ذلك ورد قوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ

(١) عجز هذا البيت قوله :

* ثَلاَثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلَّمِي *

الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) فقوله : (لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) يقوم مقام قوله : (ولا يدينون دين الحق) لأن مَنْ لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر لايدين دين الحق ، وإنما كرر ههنا للخطب على المأمور بقتالهم ، والتسجيل عليهم بالذم ، ورجمهم بالعظائم ؛ ليكون ذلك أدْعَى لوجوب قتالهم وحربهم ، وقد قلنا : إن التكرير إنما يأتى لما أَهَمَّ من الأمر الذى بِصَرْفِ العناية إليه يثبت ويتقرر .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فتكرير لفظة (أولئك) من هذا الباب الذى أشرنا إليه ؛ لمكان شدة النكير ، وإغلاظ العقاب بسبب إنكارهم البعث .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) فإنه إنما تكررت لفظة (هم) للإيذان بتحقيق الْخَسَار ، والأصل فيها وهم فى الآخرة الأخسرون ؛ لكن لما أريد تأكيد ذلك جيء بتكرير هذه اللفظة المشار إليها .

وكذلك قوله تعالى : (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا) .

وأمثال هذا فى القرآن كثير .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة القصص : (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ) فقوله تعالى : (فلما أن أراد أن يبطش) بتكرير أَنْ مرتين دليل على أن موسى عليه السلام لم تكن مسارعته إلى قتل الثانى كما كانت مسارعته إلى قتل الأول ، بل كان عنده إبطاء فى بَسْط يده إليه ، فعبر

القرآن عن ذلك فى قوله تعالى : (فلما أن أراد أن يبطش) .

وجرت بينى و بين رجل من النحويين مفاوضة فى هذه الآية ؛ فقال : إن أنْ الأولى زائدة ، ولو حذفت فقيل فلما أراد أن يبطش لكان المعنى سواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ) وقد اتفق النحاة على أنَّ أنْ الواردة بعد لَمَّا وقبل الفعل زائدة ، فقلت له : النحاة لا فُتْيَا لهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولا عندهم معرفة بأسرارهما ، من حيث إنهم نحاة ، ولا شك أنهم وَجَدُوا أنْ ترد بعد لمَّا وقبل الفعل فى القرآن الكريم وفى كلام فصحاء العرب فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت ، فقالوا : هذه زائدة ، وليس الأمر كذلك ، بل إذا وردت لمَّا وورد الفعل بعدها بإسقاط أنْ دلّ ذلك على الفور ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل كان على الفور ، وإنما كان فيه تراخٍ و إبطاء .

و بيان ذلك من وجهين :

أحدهما : أنى أقول : فائدة وضع الألفاظ أن تكون أدِلّة على المعانى ، فإذا أوردت لفظة من الألفاظ فى كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة فالأَوْلَى أن تحمل تلك اللفظة على معنى ، فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير والبحث الطويل قيل : هذه زائدة دخولها فى الكلام كخروجها منه ، ولما نظرت أنا فى هذه الآية وجدت لفظة « أنْ » الواردة بعد « لمَّا » وقبل الفعل دالة على معنى ، و إذا كانت دالة على معنى فكيف يسوغ أن يقال : إنها زائدة .

فإن قيل : إنها إذا كانت دالة على معنى فيجوز أن تكون دالة على غير ما أشرت أنت إليه .

قلت فى الجواب : إذا ثبت أنها دالّة على معنى فالذى أشرت إليه مَعْنًى مناسب واقع فى موقعه ، و إذا كان مناسباً واقعاً فى موقعه فقد حصل المراد منه ، ودلّ الدليل حينئذ أنها ليست بزائدة .

الوجه الآخر : أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحاً فى كلام الله تعالى ، وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة فى كلامه لاحاجة إليها ، والمعنى يتم بدونها ، وحينئذ لايكون كلامه معجزاً ؛ إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذى لا حاجة إليه ، وإن التطويل عيب فى الكلام ، فكيف يكون ماهو عيب فى الكلام من باب الإعجاز ؟ هذا محال .

وأما قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ) فإنه إذا نظر فى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه فى الجبّ وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثَمَّ إبطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون فى طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثَمَّ مدة بعيدة وأَمَدٌ مُتَطَاوِل لما جىء بأَنْ بعد لمَّا وقبل الفعل ، بل كانت تكون الآية فلما جاء البشير ألقاه على وجهه .

وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة ؛ لأنها ليست من شأنهم .

واعلم أن من هذا النوع قسماً يكون المعنى فيه مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ ، وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، واستعمل فى فصيح الكلام .

فمنه قوله تعالى : (وَالَّذِينَ سَعَوْا فى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ) والرجز هو العذاب .

وعليه ورد قول أبى تمام[1] :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ الْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ ... وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

والثقل : هو العبء ، والعبء : هو الثقل ، وكذلك ورد قول البحترى[2] :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافى ، وأولها قوله :

نُسَائِلُهَا أَىَّ الْمَوَاطِنِ حَلَّتِ ... وَأَىَّ بِلَادٍ أَوْطَنَتْهَا وَأَيَّتِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل ، وأولها قوله :

مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ ... جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِىءٌ وَلَا نَزْرُ

وَيَوْمَ تَثَنَّتْ لِلْوَدَاعِ وَسَلَّمَتْ بِعَيْنَيْنِ مَوْصُولٍ بِلَحْظِهِمَا السِّحْرُ
تَوَهَّمْتُهَا أَلْوَى بِأَجْفَانِهَا الْكَرَى كَرَى النَّوْمِ أَوْ مَالَتْ بِأَعْطَافِهَا الْخَمْرُ

فإن الكرى هو النوم .

وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطى هذه الصناعة وظنوه مما لا فائدة فيه ، وليس كذلك ، بل الفائدة فيه هى التأكيد للمعنى المقصود ، والمبالغة فيه .

أما الآية فالمراد بقوله تعالى : (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) أى : عذاب مُضاعف من عذاب .

وأما بيت أبى تمام فإنه تضمن المبالغة فى وصف الممدوح بحمله للأثقال .

وأما بيت البحترى فإنه أراد أن يشبه طَرْفَهَا لِفُتُوره بالنائم ؛ فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف إليه تأكيداً له وزيادة فى بيانه .

وهذا الموضع لم ينبه عليه أحد سواى .

ولربما أدخل فى التكرير من هذا النوع ما ليس منه ، وهو موضع لم ينبه عليه أيضاً أحد سواى .

فمنه قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فلما تكرر (إن ربك) مرتين عُلم أن ذلك أدل على المغفرة .

وكذلك قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومثل هذا قوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) .

وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير ، وليست كذلك ، وقد أنعمت

نظرى فيها فرأيتها خارجةً عن حكم التكرير ، وذلك أنه إذا طال الفصل من الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لايفهم إلا به ؛ فالأولَى فى باب الفصاحة أن يُعَاد لفظ الأول مرة ثانية ؛ ليكون مقارنا لتمام الفصل ؛ كى لايجىء الكلام منثوراً ؛ لا سيما فى إنَّ وأخواتها ؛ فإذا وردت إنَّ وكان بين اسمها وخبرها فُسْحَة طويلة من الكلام فإعادة إنَّ أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة ؛ كالذى تقدم من هذه الآيات .

وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة[1] :

أَسِجْناً وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْىَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ

وَإِنَّ امْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ هٰـذَا إِنَّهُ لَكَرِيمُ

فإنه لما طال الكلام بين اسم إنَّ وخبرها أعيدت إنَّ مرة ثانية ؛ لأن تقدير الكلام ، وإنَّ امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريمٌ ؛ لكن بين الاسم والخبر مَدًى طويل ؛ فإذا لم تُعَدْ إنَّ مرة ثانية لم يأت على الكلام بَهْجَة ولا رَوْنَقٌ ، وهذا لايتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً .

وكذلك يجرى الأمر إذا كان خبر إنَّ عاملا فى معمول يَطُول ذكره ؛ فإن إعادة الخبر ثانية هو الأحسن .

وعلى هذا جاء قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ) فلما قال (إنى رأيت) ثم طال الفصل كان الأحسن أن يعيد لفظ الرؤية فيقول (رأيتهم لى ساجدين) .

وكذلك جاءت الآية المذكورة ههنا قبل هذه ، وهى قوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) فإنه لما طال الفصل أعاد قوله (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) فاعلم ذلك ، وضع يدك عليه .

(١) انظر البيتين فى الحماسة (شرح التبريزى : ٣ — ٢٧٠)

وكذلك الآية التى قبلها ، وهى قوله تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ) .

وكذلك الآية الأخرى ، وهى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا) .

ومن باب التكرير فى اللفظ والمعنى الدال على معنى واحد قوله عز وجل : (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) ؛ فإنه إنما كرر نداء قومه ههنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سِنَةِ الغَفْلة ، ولأنهم قومه وعشيرته ، وهم فيما يُوبِقُهم من الضلال ، وهو يعلم وَجْهَ خلاصهم ، ونصيحتُهُم عليه واجبة ؛ فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك ألاّ يتهموه ؛ فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وأن ينزلوا على نصيحته لهم ، وهذا من التكرير الذى هو أبلغ من الإيجاز ، وأسد موقعاً من الاختصار ؛ فاعرفه إن شاء الله تعالى .

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى فى سورة القمر : (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) فإنه قد تكرر ذلك فى السورة كثيراً ، وفائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبا من أنباء الأولين ادّكاراً وإيقاظاً ، وأن يستأنفوا تَنَبُّهاً واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث إليه ، وأن تُقْرَعَ لهم العصا مرّاتٍ لئلا يغلبهم السهو وتستولى عليهم الغفلة .

وهكذا حكم التكرير فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وذلك عند كل نعمة عَدَّدها على عباده .

وأمثال هذا فى القرآن الكريم كثير .

ومما ورد من هذا النوع شعراً قول بعض شعراء الحماسة(١) :

---

(١) البيت من كلة نسبها أبو تمام لخلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة (انظر شرح التبريزى : ٤ - ٢٧٩)

إِلَى مَعْدِنِ الْعِزِّ الْمُؤَثَّلِ وَالنَّـدَى هُنَاكَ هُنَاكَ الْفَضْلُ وَالْخُلُقُ الْجَزْلُ

فقوله « هناك هناك » من التكرير الذى هو أبلغ من الإيجاز ؛ لأنه فى معرض مدح ، فهو يقرر فى نفس السامع ما عند الممدوح من هذه الأوصاف المذكورة مشيراً إليها ، كأنه قال : أدلكم على معدن كذا وكذا ومقره ومفاده .

وكذلك ورد قول المساور بن هند :

جَزَى اللهُ عَنِّى غَالِباً مِنْ عَشِيرَةٍ إِذَا حَدَثَانُ الدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ

فَـكَمْ دَافَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ عَلَىَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْـنِى غَوَارِبُهْ

فصدر البيت الثانى وعجزه يدلان على معنى واحد ؛ لأن تلاحم الكرب عليه كتعالى الموج من فوقه ، وإنما سوغ ذلك لأنه مقام مدح وإطراء ، ألا ترى أنهُ يصف إحسان هؤلاء القوم عند حَدَثَان دهره فى التكرير ، وفى قبالته لو كان القائل هاجيا ؛ فإن الهجاء فى هذا كالمدح ، والتكرير إنما يحسن فى كلا الطرفين ، لا فى الوسط .

واعلم أنه إذا وردت « إِنِ » المكسورة المخففة بعد « ما » كانت بمعناها سواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) فإنْ وما بمعنى واحد ، وإذا أوردت من بعد ما كانت من باب التكرير ، كقولنا : ما إنْ يَكُونُ كذا وكذا : أى ما يكون كذا وكذا ، وإذا وردت فى الكلام فإنما ترد في مثل ما أشرنا إليه من التكرير ؛ فإن استعملت فى غير ما يكون منها لفائدة ينتجها تكريرها كان استعمالها لغوا لا فائدة فيه .

وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة أن أبا الطيب المتنبي أتى فى هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه ، وهو قوله(١) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبيد الله محمد بن عبد الله القاضى الأنطاكى ، وأولها قوله :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

الْعَارِضُ الْهَتِنُ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْــنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ

وليس فى هذا البيت من تكرير؛ فإنهُ كقولك : الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا : أى أنهُ عريق النسب فى هذا الوصف .

وقد ورد فى الحديث النبوى مثل ذلك ؛ كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف يوسف الصديق عليه السلام : «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحٰقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» .

ولقد فاوضنى فى هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب ، وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره ، فوقفته على مواضع الصواب منه ، وعرفته أنه كالخبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء ، لكن لفظه ليس بمرضىّ على هذا الوجه الذى قد استعمل فيه ؛ فإنّ الألفاظ إذا كانت حِسَاناً فى حال انفرادها فإن استعمالها فى حال التركيب يزيدها حسناً على حسنها ، أو يذهب ذلك الحسن عنها ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى المقالة الأولى من الصناعة اللفظية ، ولو تهيأ لأبى الطيب المتنبى أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب ، أو ما يجرى مجراها ؛ لكان أحسن ، وكذلك لفظة الْهَتِن ، فإنها ليست بمرضية فى هذا الموضع على هذا الوجه ، ولفظة العارض وإن كانت قد وردت فى القرآن وهى لفظة حسنة فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر ؛ وقد تقدم الكلام على مثلها من آية وبيت لأبى الطيب أيضاً ، وهو فى المقالة اللفظية عند الكلام على الألفاظ المفردة فليؤخذ من هناك ، وكثيراً ما يقع الجهالُ فى مثل هذه المواضع ، وهم الذين قيل فيهم :

وَكَذَا كُلُّ أَخِي حَــذْلَقَةٍ   مَا مَشَى فِي يَابِسٍ إِلاَّ زَلَقْ

فترى أحدهم قد جمع نفسه وظنّ على جهله أنه عالم ، فيسرع فى وصف كلام بالإيجاز وكلام بالتطويل أو بالتكرير ، وإذا طوالب بأن يبدى سبباً لما ذكره

لم يوجد عنده من القول شيء إلا تحكما محضاً صادراً عن جهل محض .

الضرب الثانى من التكرير فى اللفظ والمعنى ، وهو غير المفيد ؛ فمن ذلك قول مَرْوَان الأصغر :

سَقَى اللهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدِ ... وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى النَّأْيِ وَالْبُعْدِ

نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وهذا من العىّ الضعيف ؛ فإنه كرر ذكر نجد فى البيت الأول ثلاثاً ، وفى البيت الثانى ثلاثاً ، ومراده فى الأول الثناء على نجد ، وفى الثانى أنه تلفت إليها ناظراً من بغداد ، وذلك مَرْمًى بعيد ، وهـذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير ؛ أما البيت الأول فيُحْمَل على الجائز من التكرير ؛ لأنه مقام تشوق وتحرق ومَوْجِدَة بفراق نجد ، ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير ، على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد فى البيتين معاً من غير أن يأتى بهذا التكرير المتتابع ست مرات .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى نواس[1] :

أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا ... وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ، ويا عجبا له يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العىّ الفاحش فى ضمن تلك الأبيات[1] العجيبة الحسن التى تقدم ذكرها فى باب الإيجاز ، وهى :

* وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا *

ومن هذا الباب أيضا ما أوردناه فى صدر هـذا النوع وهو قول أبى الطيب[2] المتنبى :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي ... لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمُ مُقَـامُ

---

(١) انظر الكلمة التى منها هذا البيت فى (ص ١٢٢) من هذا الجزء

(٢) مضى هذا البيت فى (ص ١٥٨) من هذا الجزء

فهذا هو التكرير الفاحش الذى يؤثر فى الكلام نقصاً ، ألا ترى أنه يقول : لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار ، ولا مثلى فى مصابرتهم ومقامى عندهم ، إلا أنه قد كرر هذا المعنى فى البيت مرتين .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله أيضاً :

وَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِى قَلْقَلَ الْحَشَى قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

وأما القسم الثانى من التكرير ، وهو الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ ؛ فذلك ضربان : مفيد ، وغير مفيد .

الضرب الأول : المفيد ، وهو فرعان .

الأول : إذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين ، وهو موضع من التكرير مشكل ؛ لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد .

فما جاء منه حديث حاطب بن أبى بَلْتَعَة فى غزوة الفتح ، وذاك أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر على بن أبى طالب والزُّبَيْر والمِقْدَاد رضى الله عنهم فقال : « اذهبوا إلى رَوْضة خاخ ؛ فإن بها ظَعِينةً معها كتاب ، فأتونى به » قال على رضى الله عنه : فخرجنا تتعادى بنا خَيْلُنَا حتى أتينا الروضة ، وإذا فيها الظعينة ، فأخذنا الكتاب من عقاصها ، وأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو من حَاطِب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : يا رسول الله ، لا تعجل على ، إنى كنت أمرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابة يَحْمُون بها أموالهم وأهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب أن أتّخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كُفرًا ، ولا ارْتِدادًا عن دينى ، ولا رِضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّهُ قَدْ صَدَقَكُم » فقوله : ما فعلت ذلك كفرا ، ولا ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، من التكرير

الحسن ، وبعضُ الجهال يظنه تكريراً لا فائدة فيه ، فإن الكفر والارتداد عن الدين سواء ، وكذلك الرضا بالكفر بعد الإسلام ، وليس كذلك ، والذى يدل عليه اللفظ هو أنى لم أفعل ذلك وأنا كافر : أى باق على الكفر ، ولا مرتداً : أى أنى كفرت بعد إسلامى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام : أى ولا إيثاراً لجانب الكفار على جانب المسلمين ، وهذا حسن فى مكانه ، واقع فى موقعه ؛ وقد يحمل التكرير فيه على غير هذا الفرع الذى نحن بصدد ذكره ههنا ، وهو الذى يكون التكرير فيه يدل على معنى واحد ، وسيأتى بيانه فى الفرع الثانى الذى يلى هذا الفرع الأول ، والذى يجوزه أن هذا المقام هو مقام اعتذار وتنصُّل عما رُمِى به من تلك القارعة العظيمة التى هى نِفَاق وكفر ؛ فكرر المعنى فى اعتذاره قَصْدًا للتأكيد والتقرير لما ينفى عنه ما رمى به .

ومما ينتظم بهذا السلك أنه إذا كان التكرير فى المعنى يدلّ على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير ؛ لأن الأمر بالمعروف خاص ، والخير عام ، فكل أمر بالمعروف خير ، وليس كل خير أمراً بالمعروف ، وذاك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف ، ففائدة التكرير ههنا أنه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله ، كقوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) وكقوله تعالى : (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وكقوله تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) فإن الجبال داخلة فى جملة الأرض ، لكن لفظ الأرض عام ، والجبال خاص ، وفائدته ههنا تعظيم شأن الأمانة المشار إليها ، وتفخيم أمرها ، وقد ورد هذا فى القرآن الكريم كثيراً .

ومما ورد منه شعراً قول [المُقنَّع الكِنْدِىّ(١)] من أبيات الحماسة :

(١) فى جميع الأصول بياض فى مكان اسم الشاعر مما يدل على أن المؤلف بيض له ثم غفل عنه ، والأبيات فى الحماسة وانظر (شرح التبريزى : ٣ - ١٧١) .

وَإِنَّ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَ بَنِى أَبِى ... وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمُخْتَلِفٌ جِـدًّا
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِى وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِى بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِى حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيِّى هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا

فهذا من الخاص والعام ؛ فإن كل لحم يؤكل للإنسان فهو تضييع لغيبه ، وليس كل تضييع لغيبه أكلا للحمه ، ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب ، وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب ومنه التخلى عن النصرة والإعانة ومنه إهمال السعى فى كل ما يعود بالنفع كائناً ما كان ، وعلى هذا فإن هذين البيتين من الخاص والعام المشار إليه فى الآية المقدم ذكرها ، وهو موضع يرد فى الكلام البليغ ويظن أنه لافائدة فيه .

الفرع الثانى : إذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لا غير ، وقد سبق مثال ذلك فى أول هذا الباب ، كقولك : أطعنى ولا تَعْصِنِى ؛ فإن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية ، والفائدة فى ذلك تثبيت الطاعة فى نفس المخاطب .

والكلام فى هذا الموضع كالكلام في الموضع الذى قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان الغرض به شيئاً واحدا ، ولا نجد شيئاً من ذلك يأتى فى الكلام إلا لتأكيد الغرض المقصود به ؛ كقوله تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فإنه إنما كَرَّر العفو والصفح والمغفرة ، والجميع بمعنى واحد ؛ للزيادة فى تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته ، وهذا وأمثاله يُنْظَر فى الغرض المقصود به ، وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز من لَمْحَة الإيجاز ، وأولى بالاستعمال .

وقد ورد فى القرآن الكريم كثيراً ، كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) فان الْبَثَّ

والحزن بمعنى واحد ، وإنما كرره ههنا لشدة الخطب النازل به ، وتكاثر سهامه النافذة فى قلبه ، وهذا المعنى كالذى قبله .

وكذلك ورد قوله تعالى : (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) بعد ثلاثة وسبعة تنوب مناب قوله ثلاثة وسبعة مرتين لأن عشرة هى ثلاثة وسبعة ، ثم قال (كاملة) وذلك توكيد ثالث ، والمراد به إيجاب صوم الأيام السبعة عند الرجوع فى الطريق على الفور ، لا عند الوصول إلى البلد كما ذهب إليه بعض الفقهاء ، وبيانه أنى أقول : إذا صَدَرَ الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجرداً من قرينة تُخْرِجه عن وصفه ولم يكن مُوَقَّتاً بوقت معين كان ذلك حَثًّا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور ؛ فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام : قم ، قم ، قم ، فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام فى تلك الحال الحاضرة .

فان قلت : الغرض بتكرير الأمر أن يتكرر فى نفس المأمور أنه مُرَاد منه ، وليس الغرض الحثَّ على المبادرة إلى امتثال الأمر .

قلت فى الجواب : إن المرة الواحدة كافية فى معرفة المأمور أن الذى أُمِرَ به مُرَاد منه ، والزيادة على المرة الواحدة لا تخلو : إما أن تكون دالة على مادلت عليه المرة الواحدة أو دالة على زيادة معنى لم تكن فى المرة الواحدة ؛ فإن كانت دالة على مادلت عليه المرة الوحدة كان ذلك تطويلا فى الكلام لا حاجة إليه ، وقد ورد مثله فى القرآن الكريم ، كهذه الآية المشار إليها وغيرها من الآيات ، والتطويل فى الكلام عَيْبٌ فاحش عند البلغاء والفصحاء ، والقرآن مُعْجز ببلاغته وفصاحته ، فكيف يكون فيه تطويل لا حاجة إليه ؟ فينبغى أن تكون تلك الزيادة دالة على معنى زائدٍ على مادلَّت عليه المرة الواحدة ، وإذا ثبت هذا فتلك الزيادة هى الحث على المبادرة إلى امتثال الأمر ؛ فإن سلمت لى ذلك وإلا فَبَيِّنْ معنى تلك الزيادة ببيان غير ماذكرته أنا ، ولا أراك أن تستطيع ذلك .

فإن قلت : إن الواو فى قوله تعالى : (وسبعة إذا رجعتم) لولا أن تؤكد بقوله

(تلك عشرة) لظن أنها وردت بمعنى أو : أى فثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجعتم ، فلما قيل (تلك عشرة) زال هـذا الظن ، وتحققت الواو أنها عاطفة ، وليست بمعنى أو .

قلت فى الجواب : هـذا باطل من أربعة أوجه : الوجه الأول : أن الواو العاطفة لا تجعل بمعنى أو أين وردت من الكلام ، وإنما تجعل بمعنى أو حال ضرورة ترجيح جانبها على جانب جعلها عاطفة ؛ لأن الأصل فيها أن تكون عاطفة ، فإذا عُدِل بها عن أصلها احتاج إلى ترجيح ، ولا ترجيح ههنا ؛ الوجه الثانى بلاغى ، وذاك أن القرآن الكريم منتهى البلاغة والفصاحة لمكان إعجازه ، فلو كان معنى الواو فى هذه الآية بمعنى أو لقيل فثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ، ولم يحتج إلى هذا التطويل ، فى قوله (فثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) الوجه الثالث : أن هـذا الصوم حكم من أحكام العبادات ، والعبادات يجب فيها الاحتياط أن تُؤَدَّى على أكمل صورة ؛ لئلا يدخلها النقص ، وإذا كان الأمر على ذلك فكيف يظن أن الواو فى هذه الآية بمعنى أو ؟ الوجه الرابع : أن السبعة ليست مماثلة للثلاثة ، حتى تجعل فى قُبالتها ؛ لأن معنى الآية إذا كانت الواو فيها بمعنى أو إما أن تصوموا ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجعتم .

فإن قلت : هذا تعبد لا يعقل معناه كغيره من التعبدات التى لا يعقل معناها .

قلت فى الجواب : إن لنا من التعبدات ما لا يعقل معناه ؛ كعدد ركعات الصلوات ، وعدد الطواف والسعى ، وأشباه ذلك ، ولنا ما يُعْقَل معناه ، كهذه الآية ، فإنا نعقل التَّفَاوُتَ بين الصوم فى الحضر والسفر ، ونعقل التفاوت بين العدد الكثير والعدد القليل ، وعلى هذا فلا يخلو : إما أن يكون صوم الأيام السبعة عند الرجوع فى الطريق ، أو عند الوصول إلى البلد ؛ فإذا كان فى الطريق فإنه أشق من الصوم بمكة ؛ لأن الصوم فى السفر أشَقُّ من الصوم فى الحضر ؛ فكيف يجعل صوم سبعة أيام فى السفر فى مقابلة صوم ثلاثة أيام بمكة ؟ وإن كان الصوم

عند الوصول إلى البلد فلا فرق بين الصوم بمكة والصوم عند الوصول إلى البلد ؛ لأن كليهما صوم فى المُقَام ببلد من البلاد لاتفاوت بينهما حتى يجعل صوم ثلاثة أيام فى مقابلة سبعة أيام على غير مثال ولا تساوٍ ؛ فعلى كلا التقديرين لا يجوز أن تكون الواو فى (وسبعة إذا رجعتم) بمعنى أو ؛ فتحقق إذاً أنها للعطف خاصة ، وإذا كانت للعطف خاصة فتأكيدها بعشرة كاملة دليل على أن المراد وجود صوم الأيام السبعة فى الطريق قبل الوصول إلى البلد .

فإن قلت : إن الصوم بمكة أشق من الصوم فى الطريق ؛ لأن الواجب عليه الصوم بمكة فى نَصَبٍ وتعب بتصريف زمانه فى السعى والطواف والصلاة والعمرة وغير ذلك .

قلت فى الجواب : هذا لايلزم ؛ إذ الواجب عليه سعى واحد ، وطواف واحد ، لاغير ، وماعدا ذلك نافلة لايلزم ، ونحن فى هذا المقام ناظرون إلى مايجب لا إلى النافلة ، والذى يجب أداؤه بمكة يفرغ منه فى ساعة واحدة ، فكيف تجعل الزيادة على ذلك دليلا يُورَدُ فى هذا المقام ؟ هذا غير وارد .

وهكذا ورد قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) فقوله (غير يسير) بعد قوله (عسير) من هذا النوع المشار إليه ، وإلا فقد علم أن العسير لايكون يسيراً ، وإنما ذكر ههنا على هذا الوجه لتعظيم شأن ذلك اليوم فى عُسْره وشِدَّته على الكافرين ،

وكذلك ورد قوله تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد ، وإنما حسن إيرادهما معاً فى مَعْرِض واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به وبين الكفار من

قومهم ؛ حيث لم يؤمنوا بالله وحده ، وللمبالغة فى إظهار القطيعة والمُصارَمة .

وورود مثل ذلك فى مثل هذا الموضع كالإيجاز فى موضعه ، ولن ترى شيئاً يرد فى القرآن الكريم من هذا القبيل إلا وهو لأمر اقتضاه ؛ وإن خَفِيَ عنك موضعُ السر فيه فاسأل عنه أهله العارفين به .

ومما ورد منه شعراً قول بعضهم فى أبيات الحماسة (١)

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ شَاتِياً بَعِيدًا عَنِ الْأَوْطَانِ فِى زَمَنِ الْمَحْلِ (٢)

فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَافْتِقَادُهُمْ وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ أَهْلِي (٣)

فإن الإكرام والافتقاد داخلان تحت الإحسان ، وإنما كرر ذلك للتنويه بذكر الصنيع ، والإيجاب لحقه .

وعلى هذا ورد قول الأعشى فى قصيدته المشهورة التى يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال منها (٤) :

فَآلَيْتُ لَا أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجًى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدَا

فإن الْوَجَى والْكَلَالَة معناهما سواء ، وإنما حسن تكريره ههنا للإشعار ببعد المسافة .

الضرب الثانى من القسم الثانى : فى تكرير المعنى دون اللفظ ، وهو غير المفيد ؛ فمن ذلك قول أبى تمام (٥) :

(١) هذان البيتان فى الحماسة غير منسوبين ، ولم ينسبهما التبريزى ولا غيره من الشراح (انظر التبريزى : ١ - ٢٩١) .

(٢) فى الحماسة « فى زمن محل » .

(٣) فى الحماسة « إكرامهم واقتفاؤهم وإلطافهم » .

(٤) أولها قوله :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا

(٥) هذا البيت هو التالى لمطلع القصيدة ، والمطلع قوله :

قِفْ بِالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عُلَاثَا أَضْحَتْ حِبَالُ قَطِينِهِنَّ رِثَاثَا

قَسَمَ الزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ الصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلَاثَا

فإنَّ الصَّبَا هى الْقَبُولُ ، وليس ذلك مثل التكرير فى قوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) فيما يرجع إلى تكرير اللفظ والمعنى ، ولا مثل التكرير فى قوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ) فيما يرجع إلى تكرير المعنى دون اللفظ ، وقول أبى تمام الصَّبَا وَالْقَبُول لايشتمل إلا على معنى واحد لاغير .

وهذا الضرب من التكرير قد خَبَطَ فيه علماء البيان خبطاً كثيراً ، والأكثر منهم أجازه ؛ فقالوا : إذا كانت الألفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحداً فليس استعمال ذلك بمعيب ، وهذا القول فيه نظر ؛ والذى عندى فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقاً إذا أتى لغير فائدة ، وأما الناظم فإنه يعاب عليه فى موضع دون موضع ؛ أما الموضع الذى يعاب استعماله فيه فهو صُدُور الأبيات الشعرية وماوالاها ، وأما الموضع الذى لايعاب استعماله فيه فهو الأعجاز من الأبيات ؛ لمكان القافية ، وإنما جاز ذلك ولم يكن عيباً لأنه قافية ، والشاعر مضطر إليها ، والمضطر يحل له ما حرم عليه ؛ كقول امرىء القيس فى قصيدته اللامية التى مطلعها :

* أَلَا انْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

فقال :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ لَايَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وإذا كان قليل الهموم فإنه لايبيت بأوجال ، وهذا تكرير للمعنى ، إلا أنه ليس بمعيب ؛ لأنه قافية ؛ وكذلك ورد قول الحطيئة(١) :

(١) من قصيدة له أولها قوله :

طَافَتْ أُمَامَةُ بِالرُّكْبَانِ آوِنَةً يَا حُسْنَهُ مِنْ قَوَامٍ مَا وَمُنْتَقَبَا

قَالَتْ أُمَامَةُ لاَ تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا   إِنَّ الْعَزَاءَ وَإِنَّ الصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا
هَلاَّ الْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً   مَالاً نَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فالبيت الأول معيب ؛ لأنه كرر العزاء والصبر ؛ إذ معناهما واحد ، ولم يردا قافية ؛ لأن القافية هى الباء ، وأما البيت الثانى فليس بمعيب ؛ لأن التكرير جاء فى النَّشَب وهو قافية .

ومما يجرى هذا المجرى قول المنخل اليشكرى(١) :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَا   ةِ الْخِدْرَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
الْكَاعِبِ الْحَسْنَاءِ تَرْ   فُلُ فِي الدِّمَقْسِ وَفِي الْحَرِيرِ

فإن الدِّمَقْسَ والحرير سواء ، وقد ورد قافية فلا بأس به من أجل ذلك .

فإن قيل : إن الحرير هو الإبريسم المنسوج ، بدليل قوله تعالى : (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) فإنه لم يرد خيوط إبريسم ، وإنما أراد أثوابا من الإبريسم ، وأما الدِّمَقْسُ فإنه خيوط الإبريسم محلولة ، بدليل قول امرىء القيس :

* وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ(٢) *

فإنه لم يرد إبريسما منسوجا ، وإنما أراد خيوط الإبريسم .

فالجواب عن ذلك : أنه لو حمل بيت المنخل على ذلك لفسد معناه ؛ لأن

(١) من كلمة اختارها أبو تمام فى الحماسة ، وأولها قوله :

إِنْ كُنْتِ عَاذِلَتِي فَسِيرِي   نَحْوَ الْعِرَاقِ وَلاَ تَحُورِي

وانظر شرح التبريزى (٢ - ١٠٣) .

(٢) هذا عجز بيت من معلقته المعروفة ، وصدره مع بيت سابق عليه :

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي   فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ
فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا   وَشَحْمٍ كهداب الدمقس المفتل

المرأة لا ترفل فى خيوط من الإبريسم ، وإنما ترفل فى الأثواب منه ، وأما قول امرىء القيس « كهداب الدِّمَقْسِ » فإنه لو كان الدمقس هو الخيوط المحلولة من الإبريسم لما احتاج أن يقول « كهداب » فإن الهُدَّابَ جمع هدب ، ثم قال « المُفَتَّلِ » فدلَّ بذلك على أن الدمقس يطلق على الإبريسم ، سواء كان منسوجا أو غير منسوج ، وكذلك الحرير أيضاً ، وعند الاستعمال يفهم المراد منه بالقرينة ، ألا ترى أنه لما قال المنخل « ترفل فى الدمقس وفى الحرير » فهم من ذلك أنه أراد أثوابا من الدمقس ومن الحرير ؛ لأن الرفول لا يكون فى خيوط من الإبريسم ، وإنما يكون فى أثوابه .

ومما يجرى على هذا النهج قول الآخر من شعراء الحماسة[١] :

إِنِّى وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّى غَائِباً ... لَمُقَاذِفٌ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ

فإنَّ خلفاً ووراء بمعنى واحد ، وإنما جاز تكرارهما لأنهما قافية .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام[٢] :

دِمَنٌ كَأَنَّ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِباً ... دِمَناً لَدَى آرَامِهَا وَحُقُودَا[٣]

فإن الدمنة هى الحقد .

وكذلك قول أبى الطيب المتنبى[٤] :

---

(١) هو الهذيل بن مشجعة البولانى ، والبيت من كلمة له فى الحماسة ، وهو أولها بيتا ، وانظر شرح التبريزى (٤ — ٢١٣) .

(٢) هذا البيت هو البيت التالى لمطلع القصيدة ، وهى من مدائحه فى خالد بن يزيد الشيبانى ، والمطلع قوله :

طَلَلَ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا ... وَكَفَى عَلَى رُزْئِى بِذَاكَ شَهِيدَا

(٣) وقع فى ب ، ج «دمنا لدى آثارنا» وهو تحريف ، وما أثبتناه عن الديوان .

(٤) من قصيدته التى أولها :

الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى

وهى من مدائحه فى سيف الدولة الحمدانى .

بَحْرٌ تَعَوَّدَ أَنْ يُذِمَّ لِأَهْلِهِ مِنْ دَهْرِهِ وَطَوَارِقِ الْحِدْثَانِ
فَتَرَكْتَهُ وَإِذَا أَذَمَّ مِنَ الْوَرَى رَاعَاكَ وَاسْتَثْنَى بَنِى حَمْدَانِ

فإن الدهر وطوارق الحدثان سواء ، وإنما جاز استعمال ذلك لأنه قافية .

وأما ماورد فى أثناء الأبيات الشعرية فكقول عنترة(١) :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

فقوله «أقوى وأقفر» من المعيب ؛ لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد لغير ضرورة ؛ إذ الضرورة لا تكون إلا فى القافية كما أريتك .

وأما ماورد من صدور الأبيات فكقول البحترى فى قصيدته العينية(٢) :

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا بِكَ نَافِعٌ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

فإن قوله « ألمت » وقوله « زارت خيالا » سواء ، ولا فرق إذاً بين صدر البيت وعجزه .

فإن قيل : إنه أراد بالإلمام زيارة اليقظة ، ثم قال « وزارت خيالا » .

فالجواب عن ذلك أنه لم يرد إلا زيارة المنام فى الحالتين ؛ لأنه قال « ألمت وهل إلمامها بك نافع » ولو كان الإلمام فى اليقظة لما قال « وهل إلمامها بك نافع » ؛ فإنه لانفع أنفع من زيارة المحبوب فى اليقظة ، وهذا غير خاف لايحتاج إلى السؤال عنه .

فإن قيل : لم أجزت ذلك للناظم وحظرته على الناثر ؟ .

قلت فى الجواب : أما الناثر فإنه إذا سجع كلامه فالغالب أن يأتى به مزدوجا على فقرتين من الفقر ، ويمكنه إبدال تلك الفقرتين بغيرهما ، فَيَسْلَم منه ؛

---

(١) من معلقته التى أولها قوله :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

(٢) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، و بعده قوله :

بِنَفْسِيَ مَنْ تَنْأَى وَيَدْنُو ادِّكَارُهَا وَيَبْذُلُ عَنْهَا طَيْفُهَا وَتُمَانِعُ

وأما الشاعر فإنه يصوغ قصيداً ذا أبيات متعددة على قافية من القوافى ؛ فإذا تكرر لديه شىء من الكلام فى آخر بيت من الأبيات عسر إبداله من أجل القافية ، وهذا غير خافٍ ، والسؤال عنه غير وارد .

وهذا الذى ذكرته إذا ورد فى غير القافية سمى إخلاء ، ويقال : إن البحترى كان يُخْلِي كثيراً فى شعره ، وهو لعمرى كذلك ، إلا أن حسن سبكه ورَوْنَق ديباجته يغفر له ذلك .

ويروى عنه أنه كان إذا مثل بين يدى الفتح بن خاقان وزير المتوكل مادحا له اخْتَالَ بين يديه مُعْجَباً بنفسه ، فتقدَّم خطوات ثم تأخر ، وقال : أىّ شىء تسمعون ، فنقم عليه ذلك بعض حسدته ، وحمل الفتح بن خاقان عليه ، فقال له الفتح : لو رمانا بالحجارة لكان ذلك مغفوراً له فيما يقوله .

النوع الثامن عشر

فى الاعتراض

وبعضهم يسميه الحشو .

وحدّه : كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو أسقط لبقى الأول على حاله .

مثال ذلك أن تقول : زيد قائم ؛ فهذا كلام مفيد ، وهو مبتدأ وخبر ؛ فإذا أدخلنا فيه لفظاً مفرداً قلنا : زيد واُللهِ قائم ، ولو أزلنا القَسَمَ منه لبقى الأول على حاله ، وإذا أدخلنا فى هذا الكلام لفظا مركباً قلنا : زيد عَلَى مابهِ مِنَ المرضِ قائم ، فأدخلنا بين المبتدأ والخبر لفظاً مركباً ، وهو قولنا « على مابه من المرض » فهذا هو الاعتراض ، وهذا حده .

وأعلم أن الجائز منه وغير الجائز إنما يؤخذ من كتب العربية ؛ فإنه يكون مُسْتَقْصًى فيها ، كالاعتراض بين القَسَم وجوابه ، وبين الصفة والموصوف ، وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وأشباه ذلك مما يحسن استعماله ، وكالاعتراض بين المضاف والمضاف إليه ، وبين إنَّ واسمها ، وبين حرف الجر ومجروره ، وأمثال ذلك مما يقبح استعماله ، وليس هذا مكانه ؛ لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيرِه مما أشرنا إليه فى صدر الكتاب .

وليس المراد ههنا من الاعتراض إلا مايفرق به بين الجيد والردىء ، لا مايعلم به الجائز وغير الجائز ؛ لأن كتابى هذا موضوع لذكر مايتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصفى الفصاحة والبلاغة ، فالذى أذكره فى باب الاعتراض إنما هو ما اشتمل على شىء من هذين الوصفين المشار إليهما .

واعلم أن الاعتراض ينقسم قسمين : أحدهما : لايأتى فى الكلام إلا لفائدة ، وهو جار مجرى التوكيد ، والآخر : أن يأتى فى الكلام لغير فائدة ؛ فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه ، وإما أن يؤثر فى تأليفه نقصاً وفى معناه فساداً .

فالقسم الأول ــ وهو الذى يأتى فى الكلام لفائدة ــ كقوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) ؛ ففى هــذا الكلام اعتراضان : أحدهما قوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وذلك اعتراض بين القسم الذى هو (فلا أقسم بمواقع النجوم) وبين جوابه الذى هو (إنه لقرآن كريم) وفى نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الموصوف الذى هو (قَسَم) وبين صفته التى هى (عظيم) وهو قوله : (لو تعلمون) فذانك اعتراضان كما ترى ، وفائدة هــذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هى تعظيم لشأن المقسم به فى نفس السامع ، ألا ترى إلى قوله : (لو تعلمون) اعتراضاً بين الموصوف والصفة وذلك الأمر بحيث لوعلم وُفِّىَ حقه من التعظيم ، وهذا مثل قولنا : إن هذا الأمر لعظيم بحيث لو تعلم يافلان عظمه لقَدَرْتَهُ حَقَّ قَدْره ؛ فإن

ذلك يكبر فى نفس المخاطب ، ويظل متطلعاً إلى معرفة عظمه .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَايَشْتَهُونَ) وتقديره: ويجعلون لله البنات ولهم مايشتهون ؛ فاعترض بين المفعولين[١] بسبحانه ، وهو مصدر يدلّ على التنزيه[٢] فكأنه قال : ويجعلون لله البنات ، وهو منزّه عن ذلك ، ولهم مايشتهون ، وفائدة هذا الاعتراض ههنا ظاهرة .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام : (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) فقوله : (لقد علمتم) اعتراض بين القسم وجوابه ، وفائدته تقرير إثبات البراءة من الفساد والنزاهة من تهمة السرقة : أى إنكم قد علمتم هذا منا ، ونحن مع علمكم به نُقْسِم بالله على صدقه .

وقد ورد الاعتراض فى القرآن كثيراً ، وذلك فى كل موضع يتعلق بنوع من خصوصية المبالغة فى المعنى المقصود .

ومن هذا القسم قوله تعالى : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) فهذا الاعتراض بين إذا وجوابها ؛ لأن تقدير الكلام وإذا بدّلنا آية مكان آية قالوا إنما أنت مفتر ، فاعترض بينهما بقوله تعالى : (والله أعلم بما ينزّل) وهو مبتدأ وخبر ، وفائدته إعلام القائلين إنه مفتر أن ذلك من الله وليس منه ، وأنه أعلم بذلك منهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذى قد طبق مَفْصِل البلاغة ، وفائدته أنه لما وصّى بالوالدين ذكر

(١) الأحسن أن يقول « بين المتعاطفين » .

(٢) فى ج « يدل على التنزيل » وهو خطأ .

ما تكابده الأم من المشاق فى حمل الولد وفصاله ؛ إيجاباً للتوصية بها ، وتذكيراً بحقها ، وإنما خصّها بالذكر دون الأب لأنها تتكلّف من أمر الولد ما لا يتكلفه ، ومن ثم قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لمن قال له : مَنْ أبَرُّ ؟ فقال : « أمَّكَ ثُمَّ أمَّكَ ثُمَّ أمَّكَ ثُمَّ أبَاكَ » .

ومما جاء على هذا الأسلوب قوله عزّ وجلّ : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) فقوله : (والله مخرج ما كنتم تكتمون) اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفائدته أن يقرر فى نفوس المخاطبين وقلوب السامعين أن تَدَارُؤَ بنى إسرائيل فى قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم فى إخفائه وكتمانه ؛ لأن الله تعالى مظهرٌ لذلك ، ولو جاء الكلام غير معترض فيه لكان : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ، ولا يخفى على البليغ الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه .

ومما ورد من ذلك شعراً قول امرىء القيس(١) :

وَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَـٰكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

تقديره : كفانى قليل من المال ؛ فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله : « ولم أطلب » وفائدته تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء ، وإنما الذى يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل .

---

(١) من قصيدة له طويلة أولها قوله :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ... وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وقد تقدم بيت منها قريبا ، انظر (س ١٨ ص ١٧٩ من هذا الجزء) .

وكذلك قول جرير[١] :

وَلَقَدْ أَرَانِي وَالْجَدِيدُ إِلَى بِلًى ... فِي مَوْكِبٍ طُرُفِ الْحَدِيثِ كِرَامِ

تقديره : ولقد أرانى فى موكب طرف الحديث ؛ فاعترض بين المفعولين ، وإنما جاء بهذا الاعتراض تعزِّياً عما مضى من تلك اللذة وذلك النعيم الذى فاز به من عِشْرَة أولئك الأحباب ، ولقد أعهدنى فى كذا وكذا من اللذة ، وذلك قد مضى وسلف وبَلِيَ جديده ، وكذلك كلُّ جديد فإنه إلى بِلًى .

والاعتراض إذا كان هكذا كسا الكلام لطفاً إن كان غزلاً ، وكساه أبهة وجلالاً إن كان مديحاً أو مايجرى مجراه من أساليب الكلام ، وإن كان هجاء كساه تأكيداً وإثباتا ، كقول كثيِّر[٢] :

لَوَ اَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ ... رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْكِ الْمِطَالاَ

فقوله « وأنت منهم » من محمود الاعتراض ونادره ، وفائدته ههنا التصريح بما هو المراد ، وتقدير هـذا الكلام قبل الاعتراض : لو أن الباخلين رأوك ؛ فاعترض بين اسم إنَّ وهو الباخلين وبين خبرها وهو رأوك بالمبتدأ والخبر الذى هو « وأنت منهم » .

ومن محاسن ماجاء فى هذا الباب قول المضرب السعدى[٣] :

فَلَوْ سَأَلَتْ سَرَاةَ الْحَيِّ سَلْمَى ... عَلَى أَنْ قَدْ تَلَوَّنَ بِي زَمَانِي

لَخَبَّرَهَا ذَوُو أَحْسَابِ قَوْمِي ... وَأَعْدَائِي فَكُلٌّ قَدْ بَلاَنِي

(١) هو من قصيدة له من نقائضه مع الفرزدق ، وتقدم ذكر أبيات منها وفى أثنائها هذا البيت فانظر (ص ١٢١ من هذا الجزء) .

(٢) هو بيت مفرد ثابت فى ديوانه (١ - ١٥١) .

(٣) كذا وقع فى ا ، ب ، ج ، نسبة هذين البيتين للمضرب السعدى ، وهما من شعر الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ -١٢٥) وهما لسوّار بن المضرب السعدى فلعل أصل العبارة « قول ابن المضرب السعدى » فسقطت كلمة ابن .

وهذا اعتراض بين « لو » وجوابها ، وهو من فائق الاعتراض ونادره ، وتقديره : فلو سألت سراة الحى سلمى لخبرها ذوو أحساب قومى وأعدائى ، وفائدة قوله : « على أن قد تلوّن بى زمانى » أى : أنهم يخبرون عنى على تَلَوُّن الزمان بى ، يريد تنقُّلَ حالاته من خير وشر ، وليس مَنْ عَجَمَهُ الزمان وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه ولا أبان عنه .

ومن ذلك قول أبى تمام (١) :

وَإِنَّ الْغِنَى لِى إِنْ لَحَظْتَ مَطَالِبِى ... مِنَ الشِّعْرِ إِلاَّ فِى مَدِيحِكَ أَطْوَعُ

وهذا البيت فيه اعتراضان : الأول بين اسم « إن » وخبرها ، تقديره : وإن الغنى أطوع لى من الشعر ، فاعترض بين الاسم والخبر بقوله : « إن لحظت مطالبى » وأما الاعتراض الثانى فقوله : « إلا فى مديحك » فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة ، وموضعها التأخير ؛ فاعترض بها بين الجملة التى هى خبر إن ، وتقدير البيت بجملته : وإن الغنى أطوع لى من الشعر إن لحظت مطالبى إلا فى مديحك ، وفائدة قوله : «إلا فى مديحك» من الاعتراض الذى اكتسب به الكلام [رقةً] فائدةٌ حسنة ، والمراد به وصف جود الممدوح بالإسراع ، ووصف خاطر شعره بالإسراع إذا كان فى مدحه خاصة دون غيره ، فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معاً ، وهو من محاسن مايجىء فى هذا الموضع .

وكذلك ورد قوله (٢) :

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِى فِى صَحِيفَتِهِ ... رَدَّ الصِّقَالِ بَهَاءَ الصَّارِمِ الْخَذِمِ
وَمَا أُبَالِى وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ ... حَقَنْتَ لِى مَاءَ وَجْهِى أَمْ حَقَنْتَ دَمِى

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

أَمَا إِنَّهُ لَوْلاَ الْخَلِيطُ الْمُوَدِّعُ ... وَرَبْعٌ خَلاَ مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعُ

(٢) من أبيات له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

أَبَا سَعِيدٍ وَمَا وَصْــفِى بِمُتَّهَمٍ ... عَلَى الْمَعَالِى ، وَمَا شُكْرِى بِمُخْتَرَمِ

فقوله « وخير القول أصدقه » اعتراض بين المفعول والفعل ؛ لأن موضع حَقَقْتَ نصب ؛ إذ هو مفعول أُبَالى ، وفائدته إثبات ما ماثل به بين ماء الوجه والدم : أى أن هذا القول صدق ليس بكذب .

وأما القسم الثانى ــ وهو والذى يأتى فى الكلام لغير فائدة ــ فهو ضربان :

الضرب الأول : يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به حسناً ولا قبحاً ؛ فمن ذلك قول النابغة(١) :

يَقُولُ رِجَالٌ يَجْهَلُونَ خَلِيقَتِى ... لَعَلَّ زِيَادًا لَا أَبَالَكَ غَافِلُ

فقوله « لا أبالك » من الاعتراض الذى لا فائدة فيه ، وليس مؤثرًا فى هذا البيت حسناً ولا قبحاً .

ومثله جاء قول زهير(٢) :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لَا أَبَالَكَ يَسْأَمِ

وقد وردت هذه اللفظة ــ وهى « لا أبالك » ــ فى موضع آخر فكان للاعتراض بها فائدة حسنة ، كقول أبى تمام :

* عِتَابَكِ عَنِّى لَا أَبَالَكِ وَاقْصِدِى *

فإنه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم .

الضرب الثانى ــ وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصاً ، وفى المعنى فسادًا ــ وقد تقدم ذكر أمثاله وأنظاره فى باب التقديم والتأخير ، وإنما جىء بذكره ههنا

---

(١) من قصيدة له يرثى فيها النعمان بن المنذر ، وأولها قوله :

دَعَاكَ الْهَوَى وَاسْتَجْهَلَتْكَ الْمَنَازِلُ ... وَكَيْفَ تَصَابِى الْمَرْءِ وَالشَّيْبُ شَامِلُ

ووقع فى ا ، ب ، ج « لعل زيادا لا أبا لك عاقل » وهو تصحيف ، وأثبتنا ما فى نسخ الديوان .

(٢) من قصيدته المعلقة التى أولها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

مُكَرَّرًا لإتمام التقسيم الاعتراضى فيما أفاد وفيما لا يفيد ، وقد ذكرت من ذلك مثالا واحداً أو مثالين ؛ فمما وردمنه قول بعضهم (١) :

فَقَدْ وَالشَّكُّ بَيَّنَ لِى عَنَاءٌ بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فإن فى هذا البيت من ردىء الاعتراض ما أذكره لك ، وهو الفصل بين قَدْ والفعل الذى هو بَيَّنَ ، وذلك قبيح ؛ لقوة اتصال قَدْ بما تدخل عليه من الأفعال ألاتراها تُعَدُّ مع الفعل كالجزء منه ، ولذلك أدخلت عليها اللام المراد بها توكيد الفعل ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) وقوله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ) وقول الشاعر (٢) :

وَلَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَىَّ بِهَا حَذَرَ المَوْتِ وَإِنِّى لَفَرُورٌ (٣)

إلا إن فُصِلَ بين قَدْ والفعل بالقسم فإن ذلك لا بأس به ، نحو قولك : قَدْ وَاللهِ كان ذاك ، وقد فصل فى هذا البيت أيضاً بين المبتدأ الذى هو الشَّكُّ و بين الخبر الذى هو عَنَاءٌ بقوله بَيَّنَ لى ، وفصل بين الفعل الذى هو بَيَّنَ و بين فاعله الذى هو صُرَدٌ بخبر المبتدأ الذى هو عَنَاءٌ ؛ فجاء معنى البيت كما تراه ، كأنه صورة مُشَوَّهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض .

---

(١) سبق ذكر هذا البيت فارجع إليه فى (ص ٤٥ من هذا الجزء) .

(٢) البيت أول كلمة لعمرو بن معديكرب الزبيدى اختارها أبو تمام فى الحماسة ، و بعده قوله :

وَلَقَدْ أَعْطِفُهَا كَارِهَةً حِينَ لِلنَّفْسِ مِنَ المَوْتِ هَرِيرُ

(٣) وقع فى ا ، ب ، ج « وإنى لقرور » بالقاف ، وما أثبتناه عن الحماسة « لفرور » بالفاء . وانظر شرح التبريزى (١ - ١٧٦) وقد ذكر أن بعضهم يرويه « لقرور » بالقاف ؛ اعتمادا على أن المرء لايمدح نفسه بالفرار ، ثم غلط من يروى ذلك ، استنادا إلى قول الشاعر نفسه بعد ذلك :

كُلُّ مَا ذَلِكَ مِنِّى خُلُقٌ وَبِكُلٍّ أَنَا فِى الرَّوْعِ جَدِيرُ

ومن هذا الضرب قول الآخر :

نَظَرْتُ وَشَخْصِى مَطْلِعَ الشَّمْسِ ظِلُّهُ إِلَى الْغَرْبِ حَتَّى ظله الشمس قَدْ عقل

أراد نظرت مطلعَ الشمس وشخصى ظله إلى الغرب حتى عقل الشمس : أى حاذاها ، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذى هو شَخْصى و بين خبره الجملة ، وهو قوله ظِلُّه إلى الغرب ، وأغلظ من ذلك أنه فصل بين الفعل وفاعله بالأجنبى ، وهذا وأمثاله مما يفسد المعانى و يورثها اختلالا .

واعلم أن الناثر فى استعمال ذلك أكثر مَلَامَةً من الناظم ، وذاك أن الناظم مضطر إلى إقامة ميزان الشعر ، وربما كان مَجَالُ الكلام عليه ضيقاً ؛ فيلقيه طلبُ الوزن فى مثل هذه الورطات ؛ وأما الناثر فلا يضطر إلى إقامة الميزان الشعرى، بل يكون مَجَالُ الكلام عليه واسعاً ، ولهذا إذا اعترض فى كلامه اعتراضاً يُفْسِدُهُ توجه عليه الإنكار ، وحق عليه الذم .

النوع التاسع عشر

فى الكناية والتعريض

وهذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً .

وقد تكلم علماء البيان فيه ؛ فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ، ولم يفرقوا بينهما ، ولا حَدُّوا كلاًّ منهما بحد يفصله عن صاحبه ، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر ، وأدخلوا أحدهما فى الآخر ؛ فذكروا للكناية أمثلة من التعريض ، وللتعريض أمثلة من الكناية ؛ فمن فعل ذلك الغانمى وابن سنان الخفاجى والعسكرى ؛ فأما ابن سنان فإنه ذكر فى كتابه[1] قول امرئ القيس :

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٧٦

فَصِرْنَا إلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُهَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إذْلالِ (١)

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباضعة ، وهو مثال للتعريض .

ووجدت فى كتاب التذكرة لابن حَمْدُون البغدادى ، وكان مشارًا إليه عندهم بفضيلة ومعرفة ، لاسيما فن الكتابة ؛ فوجدت فى كتابه ذلك بابًا مقصورًا على ذكر الكناية والتعريض ، وما قيل فيهما نظماً ونثرا ، وهو محشوٌّ بالخلط بين هذين القسمين من غير فصل بينهما ، وقد أورد أيضاً فى بعضه أمثلة غَثَّة باردة .

وسأذكر ما عندى فى الفرق بينهما ، وأميز أحدهما عن الآخر ؛ ليعرف كل منهما على انفراده ؛ فأقول :

أما الكناية فقد حُدَّت بحد ؛ فقيل : هى اللفظ الدالّ على الشىء على غير الْوَضْع الحقيقى بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه ، كاللَّمْس وَالْجِمَاع ؛ فإن الجماع اسم موضوع حقيقى واللمس كناية عنه ، وبينهما الوصف الجامع ؛ إذ الجماع لمس وزيادة ، فكان دالا عليه بالوضع المجازى .

وهذا الحد فاسد ؛ لأنه يجوز أن يكون حَدًّا للتشبيه ؛ فإن التشبيه هو اللفظ الدال على غير الوضع الحقيقى لجامع بين المشبه والمشبه به وصفة من الأوصاف ؛ ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظًا دالا على غير الوضع الحقيقى ، بوصف جامع بين زيد والأسد ، وذلك الوصف هو الشجاعة ، ومن ههنا وقع الغلط لمن أشرت إليه فى الذى ذكره فى حد الكناية .

وأما علماء أصول الفقه فإنهم قالوا فى حد الكناية : إنها اللفظ المحتمل ،

---

(١) البيت من طويلته التى أولها :

أَلاَ عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِى وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِى الْعُصُرِ الْخَالِى

وقد تقدم الاستشهاد بأبيات منها غير مرة ، وذكرنا لك فى كل مرة هذا المطلع مبالغة فى تذليل الأمر وتيسيره عليك (انظر ص ١٧٩ و ١٨٦ من هذا الجزء) .

يريدون بذلك أنها اللفظ الذى يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه .

وهذا فاسد أيضا ؛ فإنه ليس كل لفظ يدل على المعنى وعلى خلافه بكناية ، دليل ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ » فإن هذا اللفظ يدلّ على المعنى وعلى خلافه ، و بيان ذلك أنه يقول فى أحد معنييه : إنك إذا لم يكن لك وازع يَزَعُك عن الحياء فافعل ما شئت ، وأما معناه الآخر فإنه يقول : إذا لم تفعل فعلاً يُسْتَحَى منه فافعل ما شئت ، وهذا ليس من الكناية فى شىء ؛ فبطل إذاً هذا الحد ؛ ومثال الفقيه فى قوله « إن الكناية هى اللفظ المحتمل » مثال مَنْ أراد أن يَحُدَّ الإنسان فأتى بحد الحيوان ؛ فعبر بالأعم عن الأخص ؛ فانه يقال : كل إنسان حيوان ، وليس كل حيوان إنسانا ، وكذلك يقال ههنا ، فإن كل كناية لفظ محتمل ، وليس كل لفظ محتمل كناية .

والذى عندى فى ذلك أن الكناية إذا وردت تجاذَبَهَا جانبا حقيقة ومجاز ، وجاز حَمْلها على الجانبين معا ، ألا ترى أن اللمس فى قوله تعالى : (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكل منهما يصح به المعنى ، ولا يختلّ ، ولهذا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد ، فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك هو الحقيقة فى اللمس ، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هوالجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهوالكناية ، وكل موضع تَرِدُ فيه الكناية فإنه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، و يجوز حمله على كليهما معا ، وأما التشبيه فليس كذلك ، ولا غيره من أقسام المجاز ؛ لأنه لا يجوز حمله إلا على جانب المجاز خاصة ، ولو حمل على جانب الحقيقة لا استحال المعنى ، ألا ترى أنا إذا قلنا : زيد أسد ، لا يصح إلا على جانب المجاز خاصة ، وذاك أنا شبهنا زيدا بالأسد فى شجاعته ، ولو حملناه على جانب الحقيقة لا استحال المعنى ؛ لأن زيدا ليس ذلك الحيوان ذا الأربع والذَّنَب والوَبَر والأنياب والمخالب .

وإذا كان الأمر كذلك فحَدُّ الكناية الجامع لها هو : أنها كل لفظةٍ دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

والدليل على ذلك أن الكناية فى أصل الوضع أن تتكلم بشىء وتريد غيره ، يقال : كَنَيْتُ بكذا عن كذا ، فهى تدل على ما تكلمت به ، وعلى ما أردته من غيره ، وعلى هذا فلا تخلو : إماأن تكون فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع ، ولا يصح أن تكون فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة وحقيقة ؛ لأن ذلك هو اللفظ المشترك ، وإذا أُطلق من غير قرينة تخصصه كان مبهماً غير مفهوم ، و إذا أُضيف إليه القرينة صار مختصاً بشىء بعينه ، والكناية أن تتكلم بشىء وتريد غيره ، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أُضيف إليه القرينة ؛ لأنه يختص بشىء واحد بعينه لايتعداه إلى غيره ، وكذلك لا يصح أن تكون الكناية فى لفظ تجاذَبَه جانبا مجاز ومجاز ؛ لأن المجاز لا بدَّ له من حقيقة نقل عنها ؛ لأنه فَرْعٌ عليها ، وذلك اللفظ الدال على المجازين إما أن يكون للحقيقة شركة فى الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة ، فإن كان لها شركة فى الدلالة فيكون اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثةأشياء أحدها الحقيقة ، وهذا مخالف لأصل الوضع ؛ لأن أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ، وههنا تكون قد تكلمت بشىء وأنت تريد شيئين غيره ؛ وإن لم يكن للحقيقة شركة فى الدلالة كان ذلك مخالفاً للوضع أيضاً ؛ لأن أصل الوضع أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ؛ فيكون الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به وعلى غيره ، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة فى الدلالة لم يكن الذى تكلمت به دالا على ما تكلمت به ، وهذا محال ؛ فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز ،

وهذا الكلام فى حقيقة الدليل على تحقيق أمر الكناية لم يكن لأحـــد فيه قول سابق .

واعلم أن الكناية مشتقة من الستر ، يقال : كَنَيْتُ الشىء ؛ إذا سَتَرْتَه ، وأجرى هذا الحكم فى الألفاظ التى يستر فيها المجاز بالحقيقة ؛ فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معا ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) فإنه إن حمل على الجماع كان كناية ؛ لأنه ستر الجماع بلفظ اللمس الذى حقيقته مصافحة الجسد الجسد ، وإن حمل على الملامسة التى هى مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة ، ولم يكن كناية ، وكلاهما يتمُّ به المعنى ، وقد تأولت الكناية بغير هذا ، وهى أنها مأخوذة من الكُنْيَة التى يقال فيها : أبو فلان ، فإنا إذا نادينا رجلا اسمه عبد الله وله ولد اسمه محمد فقلنا : يا أبا محمد ، كان ذلك مثل قولنا : يا عبد الله ؛ فإن شئنا ناديناه بهذا ، وإن شئنا ناديناه بهذا ، وكلاهما واقع عليه ، وكذلك يجرى الحكم فى الكناية ، فإنا إذا شئنا حملناها على جانب المجاز ، وإذا شئنا حملناها على الحقيقة ، إلا أنه لابدَّ من الوصف الجامع بينهما ؛ لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) فكنى بذلك عن النساء ، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث ، ولولا ذلك لقيل فى مثل هذا الموضع : إن أخى له تسع وتسعون كبشاً ولى كبش واحد ، وقيل : هذه كناية عن النساء ، ومن أجل ذلك لم يلتفت إلى تأويل من تأول قوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) أنه أراد بالثياب القلبَ ، على حكم الكناية ؛ لأنه ليس بين الثياب والقلب وصفٌ[1] جامع ، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحاً .

---

(١) قد استعمل العرب الثياب وهم يريدون القلب ، فمن ذلك قول عنترة :

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَه ... لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

فان قيل : فما الدليل على اشتقاق الكناية من كَنَيْتُ الشىء إذا سترته ، ومن الكنية ؟

قلت فى الجواب : أما اشتقاقها من كَنَيْتُ الشىء إذا سترته فإن المستور فيها هو المجاز ؛ لأن الحقيقة تفهم أولا ، ويتسارع الفهم إليها قبل المجاز ؛ لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية ، وأما المجاز فإنه يفهم منه بعد فهم الحقيقة ، وإنما يفهم بالنظر والفكرة ، ولهذا يحتاج إلى دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ ؛ فالحقيقة أظهر ، والمجاز أخفى ، وهو مستور بالحقيقة ، ألا ترى إلى قوله تعالى: (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) فإن الفهم يتسارع فيه إلى الحقيقة التى هى مصافحة الجسد الجسد ، وأما المجاز الذى هو الجماع فإنه يفهم بالنظر والفكر ، ويحتاج الذاهب إليه إلى دليل ؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ . وأما اشتقاقها من الكنية فلأن محمداً فى هذه الصورة المذكورة هو حقيقة هذا الرجل : أى الاسم الموضوع بإزائه أولا ، وأما أبوعبدالله فإنه طارٍ عليه بعد محمد ؛ لأنه لم يكن له إلا بعد أن صار له ولد اسمه عبد الله ، وكذلك الكناية ؛ فإن الحقيقة لها هو الاسم الموضوع بإزائها أولا فى أصل الوضع ، وأما المجاز فإنه طارٍ عليها بعد ذلك ؛ لأنه فرع ، والفرع إنما يكون بعد الأصل ، وإنما يعمد إلى ذلك الفرع للمناسبة الجامعة بينه وبين الأصل على ما تقدم الكلام فيه ، وهذا القدر كاف فى الدلالة على اشتقاق الكناية من ذينك المعنيين المشار إليهما .

فإن قيل : إنك قد ذكرت أقسام المجاز فى باب الاستعارة التى قدمت ذكرها فى كتابك هذا ، وحصرتها فى أقسام ثلاثة ، وهى : التوسع فى الكلام ، والاستعارة ، والتشبيه ، ونراك قد ذكرت الكناية فى المجاز أيضا ، فهل هى قسم رابع لتلك الأقسام الثلاثة أم هى من جملتها ؟ فإن كانت قسما رابعا ، فذلك نَقْضٌ للحَصْر الذى حصرته ، وإن كانت من جملتها فقد أعدت ذكرها ههنا مرة ثانية ، وهذا المكرر لا حاجة إليه .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : أما الحصر الذى حصرته فى باب الاستعارة فهو ذاك ، ولا زيادة عليه ، وأما الكناية فإنها جزء من الاستعارة ، ولا تأتى إلا على حكم الاستعارة خاصة ، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له ، وكذلك الكناية ، فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه ، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ؛ فيقال : كل كناية استعارة ، وليس كل استعارة كناية ، ويفرق بينهما من وجه آخر ، وهو أن الاستعارة لفظها صريح ، والصريح هو : مادل عليه ظاهر لفظه ، والكناية : ضد الصريح ؛ لأنها عدول عن ظاهر اللفظ ، وهذه ثلاثة فروق : أحدها : الخصوص والعموم ، والآخر الصريح ، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز .

وقد تقدم القول فى باب الاستعارة أنها جزء من المجاز ، وعلى ذلك فتكون نسبة الكناية إلى المجاز نسبة جزء الجزء وخاص الخاص .

وكان ينبغى أن نذكر الكناية عند ذكر الاستعارة فى النوع الأول من هذه الأنواع المذكورة فى المقالة الثانية ، وإنما أفردتها بالذكر ههنا من أجل التعريض ؛ لأن من العادة أن يذكرا جميعا فى مكان واحد .

وقد يأتى فى الكلام ما يجوز أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة ، وذلك يختلف باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى مابعده ، كقول نصر بن سيار فى أبياته المشهورة التى يحرض بها بنى أمية عند خروج أبى مسلم :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وميضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالزَّنْدَيْنِ تُورَى ... وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ
أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ : لَيْتَ شِعْرِى ... أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ
فَإِنْ هَبُّوا فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ ... وَإِنْ رَقَدُوا فَإِنِّى لَا أُلَامُ

فالبيت الأول لو ورد بمفرده كان كناية ؛ لأنه يجوز حمله على جانب الحقيقة وحمله على جانب المجاز : أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد ، وأنه سيضطرم ، وأما المجاز فإنه أراد أن هناك ابتداء شرٍّ كامنٍ ومثله بوميض

جمر من خلل الرماد ، وإذا نظرنا إلى الأبيات جملتها اختصّ البيت الأول منها بالاستعارة دون الكناية .

وكثيراً ما يرد مثل ذلك ويشكل ؛ لتجاذبه بين الكناية والاستعارة ، على أنه لا يشكل إلا على غير العارف .

وأما التعريض : فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : وَاللّٰه إنى لمحتاج وليس فى يدى شىء وأنا عُرْيَان والبرد قد آذانى ؛ فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعاً فى مقابلة الطلب ، لا حقيقة ولا مجازاً ، إنما دَلَّ عليه من طريق المفهوم ، بخلاف دلالة اللمس على الجماع ، وعليه ورد التعريض فى خطبة النكاح ، كقولك للمرأة : إنَّكِ لَخَلِيَّةٌ وإنى لعَزَبٌ ؛ فإن هذا وأمثاله لا يدلّ على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً ، والتعريض أخفى من الكناية ؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، وإنما سمى التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عُرْضه : أى من جانبه ، وعُرْض كل شىء : جانبه .

وأعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً ؛ فتأتى على هذا تارة ، وعلى هذا أخرى ، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد البتة ، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز ، وإنما يفهم من جهة التَّلْوِيح والإشارة ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه يحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب ، وعلى هذا فإن بيت أمرىء القيس (١) الذى ذكره ابن سِنَان مثالا للكناية هو مثال للتعريض ؛

(١) هو قوله :

فَصِرْنَا إلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلاَمُنَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةٌ أَىَّ إذْلاَلِ

وقد سبق فى أول الكلام على هذا النوع .

فإن غرضَ امرىء القيس من ذلك أن يذكر الجماع ، غير أنه لم يذكره ، بل ذكر كلاماً آخر يفهم الجماع من عرضه ؛ لأن المصير إلى الْحُسْنَى ورقة الكلام لا يفهم منهما ما أراده امرؤ القيس من المعنى لا حقيقة ولا مجازاً ، وهذا لا خفاء به فاعرفه .

وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض وميزنا أحدهما عن الآخر فلنفصلهما ، ونذكر أقسامهما ، ولنبدأ أولا بالكناية ؛ فنقول :

اعلم أن الكناية تنقسم قسمين : أحدهما : ما يحسن استعماله ، والآخر ما لا يحسن استعماله ، وهو عيب فى الكلام فاحش .

وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة : تمثيلا ، وإردافاً ، ومجاورة .

فأما التمثيل فهو أن تراد الإشارة إلى معنى فيُوضَعَ لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ، كقولهم : فُلَانٌ نَقِيُّ الثوب : أى مُنَزَّه من العيوب .

وأما الإرداف فهو أن تُرَاد الإشارة إلى معنى فيُوضَعَ لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك رادفاً للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ولازما له ، كقولهم : فلان طويلُ النِّجَاد : أى طويل القامة ؛ فطول النجاد رادف لطول القامة ولازم له ، بخلاف نَقَاء الثوب فى الكناية عن النزاهة من العيوب ؛ لأن نَقَاء الثوب لا يلزم منه النزاهة من العيوب ، كما يلزم من طول النِّجَاد طولُ القامة .

وأما المجاورة فهى أن تريد ذكر الشىء فتتركه إلى ما جاوره ، كقول عنترة(١) :

بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِى الشِّمَالِ مُفَدَّمِ

(١) البيت من معلقته التى أولها قوله :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الْدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

يريد بالزجاجة الخمر ، فذكر الزجاجة وكنى بها عن الخمر ؛ لأنها مجاورة لها .

وهذا التقسيم غير صحيح ؛ لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل ، كقولنا : الحيوان ينقسم أقساماً منها الإنسان ، وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الأسد وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا ، ومنها غير ذلك ؛ وههنا لم يكن التقسيم كذلك ؛ فإن التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية ؛ لأن الكناية إنما هى أن تُرَاد الإشارة إلى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة إليه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (إِنَّ هٰذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) فإنه أراد الإشارة إلى النساء ، فوضع لفظاً لمعنى آخر ، وهو النعاج ، ثم مثل به النساء ، وهكذا يجرى الحكم فى جميع ما يأتى من الكنايات ؛ لكن منها ما يَتّضِح التمثيل فيه وتكون الشَّبَهِيَّةُ بين الكناية والمَكْنِىِّ عنه شديدةَ المناسبة ، ومنه ما يكون دون ذلك فى الشبهية ، وقد تأمَّلْت ذلك ، وحَقَّقْت النظر فيه ؛ فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية ، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة فى قوة المناسبة والمشابهة ، ألا ترى إلى قولهم : فلانٌ نقىّ الثوب ، وقولهم اللمس كناية عن الجماع ؛ فإن نَقَاء الثوب أشدُّ مناسبة وأوضح شبهاً ؛ لأنا إذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة ، وإذا قلنا اللمس كالجماع لم يكن بتلك الدرجة فى قوة المشابهة ، وهذا الذى ذكر من أن من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائغ ولا وارد ، بل الكناية كلها هى ذاك ، والذى قدمته من القول فيها هو الحاصر لها ، ولم يأت به أحد غيرى كذلك .

وأما الإرداف فإنه ضرب من اللفظ المركب ، إلا أنه اختصَّ بصفة تخصه ، وهى أن تكون الكناية دليلا على المكنى عنه ولازمة له ، بخلاف غيرها من

الكنايات ، ألا ترى أن طول النِّجَاد دليلٌ على طول القامة ولازم له ، وكذلك يقال : فلان عظيم الرَّمَاد : أى كثير إطعام الطعام ، وعليه ورد قول الأعرابية فى حديث أم زَرْع فى وصف زوجها : له إبلٌ قَلِيلَاتُ المَسَارح كثيرات المَبَارك ، إذا سَمِعْنَ صوت المزهر أيقن أنهن هَوَالك ، وغرضُ الأعرابية من هذا القول أن تصفَ زوجها بالجود والكرم ، إلا أنها لم تذكر ذلك بلفظه الصريح ، وإنما ذكرته من طريق الكناية على وجه الإرداف الذى هو لازم له .

وكذلك ورد فى الأخبار النبوية أيضاً ، وذاك أن امرأة جاءت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألته عن غسلها من الحيض ، فأمرها أن تغتسل ، ثم قال : « خُذِى فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرِى بِهاَ » قالت : كيف أتطهر بها ؟ فقال : « تَطَهَّرِى بِهاَ » قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : « سُبْحَانَ اللهِ ! تَطَهَّرِى بِهاَ » فاجتذبتها عائشة رضى الله عنها إليها ، وقالت : تَتَبَّعِى بها أَثَرَ الدم ، فقولها « أثر الدم » كناية عن الفرج على طريق الإرداف ؛ لأن أثر الدم فى الحيض لا يكون إلا فى الفرج ، فهو رادف له .

ومما ورد من ذلك شعراً قول عمر بن أبى ربيعة[1] :

بَعِيدَةُ مَهْوَى القُرْطِ إِمَّا لِنَوْفَلٍ أَبُوهاَ وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهاَشِمُ

فإن بُعْدَ مَهْوَى القُرْط دليل على طول العنق .

ومن لطيف هذا الموضع وحسنه مايأتى بلفظة مثل ؛ كقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : مثلى لايفعل هذا : أى أنا لا أفعله ، فنفى ذلك عن مثله ويريد نفيه عن نفسه ؛ لأنه إذا نفاه عمن يماثله ويشابهه فقد نفاه عن نفسه لا محالة ؛ إذ هو بنفى ذلك عنه أجدر ، وكذلك يقال : مِثْلُكَ إذا سُئِلَ أعطى :

---

(١) البيت من أبيات له رواها أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى (١ – ١٥٧ دار الكتب) وأول هذه الأبيات قوله :

نَظَرْتُ لَهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى وَلِى نَظَرٌ لَوْلاَ التَّحَرُّجُ عارِمُ

أى أنت إذا سئلت أعطيت ، وسبب ورود هذه اللفظة فى هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هذه أوصافهم تثبيتا للأمر وتوكيدا ، ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ، ولم يَرْسُ فيه قدمه ، وهذا مثل قول القائل إذا كان فى مدح إنسان : أنت من القوم الكرام : أى لك فى هذا الفعل سابقة ، وأنت حقيق به ، ولست دخيلا فيه .

وقد ورد هذا فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) والفرق بين قوله (ليس كمثله شىء) وبين قوله ليس كالله شىء هو ما أشرت إليه ، وإن كان الله سبحانه وتعالى لامثل له حتى يكون لمثله مثل ، وإنما ذكر ذلك على طريق المجاز قصداً للمبالغة .

وقد يأتى هذا الموضع بغير لفظة مثل وهى مقصودة ، كقولك للعربى : العربُ لاتَخفِرُ الذِّمَمَ : أى أنت لا تخفر الذمم ، وهذا أبلغ من قولك : أنت لا تخفر الذمم ؛ لما أشرت إليه .

وعلى نحو من هذا جاء قول أبى الطيب المتنبى[1] :

أَلَسْتُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِى مِنْ رِمَاحِهِمْ نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ[2]

(١) البيت من قصيدة له يرثى فيها أبا الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة ، وأولها قوله :

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَابِكَ فى الرَّمْلِ وَهٰذَا الَّذِى يُضْنِى كَذَاكَ الَّذِى يُبْلِى

(٢) «من القوم الذى» حذف النون من الذين ، كما حذفها الأشهب بن رميلة فى قوله :

وَإِنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

وكما حذفها أمية بن الأسكر الكنانى فى قوله :

قَوْمِى الَّذُو بِعُكَاظٍ طَيَّرُوا شَرَرًا مِنْ رُوسِ قَوْمِكَ ضَرْبًا بِالْمَصَاقِيلِ

وكما حذفها عمرو بن كلثوم التغلبى فى قوله :

أَبَنِى كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الْأَغْلَالَا

والتلعب بالاسم الموصول فى العربية كثير ؛ لأنهم يستكثرون ثلاثة أشياء تدل على

وإذا فرغت من ذكر الأصول التى قدمت ذكرها فإنى أتبعها بضرب الأمثلة نثراً ونظماً ، حتى يزداد ما ذكرته وضوحا .

فمن ذلك ما ورد فى القرآن الكريم ، نحو قوله تعالى : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً) فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ، ثم جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ؛ فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله ؛ فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً ؛ لأن الغيبة إنما هى ذكر مَثَالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم مَنْ يغتابه ؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة ، وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة ؛ لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها ، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته ، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه ، فهذا القول مُبَالغة فى استكراه الغيبة ، وأما جَعْلُ اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها ، وأما جَعْلُه ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جُبِلَت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشَّهْوَة لها مع العلم بقبحها ؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها ؛ لأنك إذا نظرت

شىء واحد ، وهى الموصول والصلة والعائد ، فلما استطالوا هذه الأشياء مع أنها لا تكون جملة مستقلة استهانوا بها واستساغوا الحذف فيها ؛ فأحيانا يحذفون من الموصول ، وأحيانا يحذفون الموصول برمته ، وأحيانا يحذفون الصلة ، وأحيانا يحذفون العائد ، وهذا كله كثير الشواهد فى العربية ، ولولا أن يكون فى الإتيان بها إطالة عليك ، مع أن هذا الكتاب ليس مختصا بمثل هذه المباحث ، لجئتك بالكثير من شواهد هذه الحذوف .

إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له .

وكذلك ورد قوله تعالى : (وَأَوْرَثَـكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا) والأرض التى لم يطئوها كناية عن مناكح النساء ، وذلك من حسن الكناية ونادره .

وكذلك ورد قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً) فكنى بالماء عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال ، وهذه الآية قد ذكرها أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه الموسوم بـ « بإحياء علوم الدين » وفى كتابه الموسوم بـ « بالجواهر » و « الأربعين » وأشار بها إلى أن فى القرآن الكريم إشارات وإيماآت لا تنكشف إلا بعد الموت ، وهذا يدلّ على أن الغزالى رحمه الله لم يعلم أن هـــذه الآية من باب الكنايات الذى لفظها يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز .

وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لايحققون أمر الكناية ، وإذا سئلوا عنها عبروا عنها بالمجاز ، وليس الأمر كذلك ، وبينهما وصف جامع ، كهذه الآية وما جرى مجراها ؛ فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء ، وعلى العلم ، وكذلك يجوز حمل الأودية على مهابط الأرض ، وعلى القلوب ، وهكذا يجوز حمل الزَّبَد على الغُثاء الرابى الذى تقذفه السيول ، وعلى الضلال ، وليس فى أقسام المجاز شىء يجوز حمله على الطرفين معاً سوى الكناية .

وبلغنى عن الفراء النحوى أنه ذكر فى تفسيره آية ، وزعم أنها كناية ، وهى قوله تعالى : (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) فقال : إن الجبال كناية عن أمر رســـول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات ، وهذه الآيةُ من باب الاستعارة ، لا من باب الكناية ؛ لأن الكناية لا تكون إلا فيما جاز حمله على جانبى المجاز والحقيقة ،

والجبال ههنا لا يصح بها المعنى إلا إذا حملت على جانب المجاز خاصة ؛ لأن مكر أولئك لم يكن لتزول منه جبال الأرض ؛ فإن ذلك محال .

وأما ما ورد منها فى الأخبار النبوية فقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ كانت امرأة فيمن كان من قبلنا ، وكان لها ابنُ عمٍّ يُحِبُّهَا ، فَرَاوَدَها عن نفسها ، فامتنعت عليه ، حتى إذا أصابتها شِدَّةٌ فجاءت إليه تسأله ، فَرَاوَدَها ، فمكنته من نفسها ؛ فلما قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرجل من المرأة قالت له : لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه » فقام عنها وتركها ، وهذه كناية واقعة فى موقعها .

ومن ذلك أيضاً قول النبى صلى الله عليه وسلم : « رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ » يريد بذلك النساء ، فكنى عنهنَّ بالقوارير ، وذاك أنه كان فى بعض أسفاره وغُلَامٌ أسود اسمه أَنْجَشَةُ يَحْدُو ، فقال له : « يا أنجشة ، رويدك سوقك بالقوارير » وهذه كناية لطيفة .

وكذلك ورد حديث الحديبية ، وذاك أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الركية جاءه بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُزَاعى فى نفر من قومه من أهل تهامة ، فقال : تركْتُ كعبَ بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا عداد مياه الحديبية معهم الْعُوذُ الْمَطَافيل ، وهم مقاتلوك وصَادُّوك عن البيت ، وهذه كناية عن النساء والصبيان ، والعوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة التى وضعت وقَوِىَ ولدها ، وهذا يجوز حمله على طريق الحقيقة ، كما جاز حمله على طريق المجاز : أى معهم الأموال من الإبل ، وهى كانت جُلَّ أموال العرب : أى أنهم قد أحضروا أموالهم ليقاتلوا دونها ؛ ولما جاز حمل العوذ المطافيل على النساء والصبيان وعلى الأموال كان من باب الكناية .

ومن ذلك ما ورد فى إقامة الحد على الزانى ، وهو أن يشهد عليه برؤية المِيلِ فى المُكْحُلة ، وذلك كناية عن رؤية الفرج فى الفرج .

ومن لطيف الكناية أن امرأة جاءت إلى عائشة رضى الله عنها فقالت لها :

أقيِّدُ جملى ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : لا ، أرادت المرأة أنها تصنع لزوجها شيئاً يمنعه عن غيرها : أى تربطه أن يأتى غيرها ، فظاهر هذا اللفظ هو تقييد الجمل ، وباطنه ما أرادته المرأة وفهمته عائشة منها .

وكذلك يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذاك أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هلكت ، قال : « وَمَا أَهْلَكَكَ » قال : حولتُ رَحْلِي البارِحَة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ والْحَيْضَة » .

ويروى أن عمرو بن العاص زوج ولده عبد الله رضى الله عنه ، فمكثت المرأة عنده ثلاث ليال لم يدن منها ، وإنما كان ملتفتاً إلى صلاته ، فدخل عليها عمرو بعد ثلاث ، فقال : كيف تَرَيْنَ بعلك ؟ فقالت : نعم البعل إلا أنه لم يُفَتِّشْ لنا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً ، فقولها « لم يفتش لنا كنفاً ولا قرب لنا مضجعاً» من الكناية الغراء الظاهرة .

ومن ألطف ما بلغنى فى هذا قول عبد الله بن سلام ، فإنه رأى على رجل ثوبا معصفراً ، فقال : لوأن ثوبك فى تَنُّور أهلك أوتحت قدرهم كان خيراً ، فذهب الرجل فأحرقه ، نظراً إلى حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه ، وإنما أراد المجاز منه ، وهو أنك لوصَرَفْتَ ثمنه إلى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً ، والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين ، فالرجل فهم منه الظاهر الحقيقى فمضى فأحرق ثوبه ، ومراد عبد الله غيره .

ومن هذا القسم ما ورد فى أمثال العرب كقولهم : إيَّاكَ وَعَقِيلَةَ المِلْحِ ، وذاك كناية عن المرأة الحسناء فى مَنْبِتِ السوء ؛ فإن عقيلة الملح هى اللؤلؤة تكون فى البحر ، فهى حسنة وموضعها ملح .

وكذلك قولهم : لَبِسَ لَهُ جِلْدَ النَّمِرِ ، كناية عن العداوة ، وقد يقاس على هذا أن يقال : لبس له جلد الأسد ، ولبس له جلد الذئب ، ولبس له جلد الأرقم ؛

لأن هذا كله مثل قولهم : لبس له جلد النمر ، إذ العداوة محتملة فى الجميع .

وكذلك قولهم : قَلَبَ لهُ ظَهْرَ المِجَنّ ، كناية عن تغيير المودة .

ومما ورد فى ذلك شعراً قول أبى نُوَاس :

لاَ أذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ المُرَّ مِنَ ثَمَرِهْ

وهذا له حكاية ، وهو أنه كان لأبى نواس صديقة تغشاه ، فقيل له : إنها تختلف إلى آخر من أهل الريب ، فلم يصدق ذلك حتى تبعها يوما من الأيام فرآها تدخل منزل ذلك الرجل ، ثم إن ذلك الرجل جاءه ، وكان صديقاً له ، فكلمه ، فصرف وجهه عنه ، ثم نظم قصيدته المشهورة التى مطلعها :

* أيُّهَا المُنْتَابُ عَنْ عُفُرِهْ(١) *

وهذا البيت من جملة أبياتها .

وكذلك ورد قوله أيضاً :

وَنَاظِرَةٍ إلَىَّ مِنَ النِّقَابِ تُلاَحِظُنِى بِطَرْفٍ مُسْتَرَابِ
كَشَفْتُ قِنَاعَهَا فَإذَا عَجُوزٌ مُمَوَّهَةُ المَفَارِقِ بِالْخِضَابِ
فَمَا زَالَتْ تُحَمِّسُنِى طَوِيلاً وَتَأْخُذُ فِى أحَادِيثِ التَّصَابِى
تُحَاوِلُ أنْ يَقُومَ أبُو زِيَادٍ وَدُونَ قِيَامِهِ شَيْبُ الْغُرَابِ
أتَتْ بِجِرَابِهَا تَكْتَالُ فِيهِ فَقَامَتْ وَهْىَ فَارِغَةُ الجِرَابِ

فقوله « أتت بجرابها تكتال فيه » من باب الكناية ؛ إذ الجراب يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ، وكذلك الكيل أيضاً .

ومما جاء من هذا الباب قول أبى تمام فى قصيدته التى يستعطف بها مالك بن طَوْق على قومه ؛ ومطلعها :

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* لَسْتَ مِنْ لَيْلِى وَلاَ سَحَرِهْ *

انظر الديوان (٦٦) .

* أَرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وَأَرْضٌ تُثْجِمُ (١) *

مَالِى رَأَيْتُ تُرَابَكُمْ يَبِسَ الثرى   مَالِى أَرَى أَطْوَادَكُمْ تَتَهَدَّمُ (٢)

« فيبس الثرى » كناية عن تنكر ذات البين ، تقول : يَبِسَ الثرى بينى و بين فلان ؛ إذا تنكر الود الذى بينى و بينه ، وكذلك « تهدُّم الأطواد » ؛ فإنه كناية عن خفّة الحلوم وطَيْش العقول .

ومن الكناية الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى يعاتب فيها سيف الدولة بن حمدان التى مطلعها :

* وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ (٣) *

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِى قَنَصٌ   شُهْبُ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخَمُ

يشير بذلك إلى أن سيف الدولة يستوى فى المنال منه هو وغيره ؛ فهو البازى ، وغيره الرَّخمة ، و إن حمل المعنى على جانب الحقيقة كان جائزاً .

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة ، وعجزه قوله :

* تِلْكَ الَّتِى رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرَمُ *

ووقع فى ب ، ج « وأخرى منجم » بالميم ، والصواب عن الديوان و يحتمله مافى ا .

(٢) رواية الديوان على غير هذا الوجه ، وهاك البيت فى وسط أبيات يتضح بها معناه :

فَسَتَذْكُرُونَ غَدًا صَنَائِعَ مَالِكٍ   إِنْ جَلَّ خَطْبٌ أَوْ تُدُوفِعَ مَغْرَمُ
فَمَنِ النَّقِىُّ مِنَ الْعُيُوبِ وَقَدْ غَدَا   عَنْ دَارِكُمْ ؟ وَمَنِ الْعَفِيفُ الْمُسْلِمُ ؟
مَالِى رَأَيْتُ ثَرَاكُمُ يَبَسًا لَهُ   مَالِى أَرَى أَطْوَادَكُمْ تَتَهَدَّمُ ؟
مَا هٰذِهِ الْقُرْبَى الَّتِى لاَ تُتَّقَى   مَا هٰذِهِ الرَّحِمُ الَّتِى لاَ تُرْحَمُ ؟
حَسَدُ الْعَشِيرَةِ لِلْعَشِيرَةِ قُرْحَةٌ   تَلِدَتْ وَسَائِلُهَا وَجُرْحٌ أَقْدَمُ

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

وَمَنْ بِجِسْمِى وَحَالِى عِنْدَهُ سَقَمُ

وعلى هذا ورد قول الأُقَيْشِرِ الأسدى[١] ، وكان عِنِّيناً لا يأتى النساء ، وكان كثيراً ما يصف ذلك من نفسه ، فجلس إليه يوما رجل من قيس ، فأنشده الأُقَيْشِرُ[١] :

وَلَقَدْ أَرُوحُ بِمُشْرِفٍ ذِى مَيْعَةٍ عَسِرِ الْمَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ

مَرِحٍ يَطِيرُ مِنَ الْمِرَاحِ لُعَابُهُ وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَقَدَّدُ

ثم قال له : أتبصر الشعر؟ قال: نعم ، قال : فما وصفت ؟ قال : فرسا ، قال : أفكنت تركبه لو رأيته ؟ قال : إى والله وأثنى عطفه ، فكشف له عن أيره ، وقال : هذا وصفت ، فقم فاركبه ، فوثب الرجل عن مكانه ، وقال : قبحك الله من جليسٍ سائرَ اليوم !.

وكذلك أيضاً يحكى أنه وفد سعيد بن عبد الرحمن على هشام بن عبد الملك ، وكان جميل الوجه ، فاختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، فراوده عن نفسه ، فوثب من عنده ، ودخل على هشام مغضبا ، وهو يقول :

إِنَّهُ وَاللهِ لَوْلَا أَنْتَ لَمْ يَنْجُ مِنِّى سَالِمًا عَبْدُ الصَّمَدْ

فقال هشام : ولم ذلك ؟ قال :

إِنَّهُ قَدْ رَامَ مِنِّى خُطَّةً لَمْ يَرُمْهَا قَبْلَهُ مِنِّى أَحَدْ

قال : ما هى ؟ قال :

رَاحَ جَهْلاً بِى وَجَهْلاً بِأَبِى يُدْخِلُ الْأَفْعَى عَلَى خِبْسِ الْأَسَدْ

قال : فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكره عليك .

ومن ألطف ما سمعته فى هذا الباب قول أبى نُوَاس فى الهجاء :

إِذَا مَا كُنْتَ جَارَ أَبِى حُسَيْنٍ فَنَمْ وَيَدَاكَ فِى طَرَفِ السِّلَاحِ

(١) وقع فى ا ، ب ، ج ، د « الأقيس » وهو خطأ ، وصوابه الأقيشر ، وانظر البيتين مع نسبتهما فى آخر شرح التبريزى على الحماسة (٤–٣٥٦) وانظر (ص ٢٢٣ من هذا الجزء) .

فإنَّ لهُ نساءً سارقاتٍ ـ إذا ما بتنَ أطرافَ ـ الرِّماحِ
سَرَقْنَ وَقَدْ نَزَلْتُ عَلَيْهِ أيْرى فَلَمْ أظفرْ بهِ حَتَّى الصَّباحِ
فَجَاءَ وَقَدْ تَخَدَّشَ جَانِبَاهُ يَئِنُّ إلَىَّ مِنْ ألَمِ الْجِرَاحِ

فتعبيره عن العضو المشار إليه بأطراف الرماح تعبير فى غاية اللطافة والحسن .

وقد أدخل فى باب الكناية ماليس منه ، كقول نُصَيْب :

فعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِى أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وهـذا يروى عن الجاحظ ، وما أعلم كيف ذهب عليه مع شهرته بالمعرفة بفن الفصاحة والبلاغة ؛ فإن الكناية هى ما جاز حمله على جانب الحقيقة كما يجوز حمله على جانب المجاز ، وههنا لايصح ذلك ، ولايستقيم ؛ لأن الثناء للحقائب لا يكون إلا مجازاً ، وهذا من باب التشبيه المضمر الأداة الخارج عن الكناية ، والمراد به أن فى الحقائب من عطاياك مايعرب عن الثناء لوسكت أصحابها عنه (١) .

وأما القسم المختص بما يقبح ذكره من الكناية ، فإنه لايحسن استعماله ؛ لأنه عيب فى الكلام فاحش ، وذلك لعدم الفائدة المرادة من الكناية فيه .

فمما جاء منه قول الشريف الرضى يرثى امرأة :

* إنْ لَمْ تَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نِصَالِ (٢) *

وفى هذا من سوء الكناية ما لاخفاء به ؛ فإن الوهم يسبق فى هـذا الموضع إلى

---

(١) فى البيت على هذا التفسير استعارة مكنية أو مجاز عقلىّ .

(٢) هكذا وردهذا الشاهد فى ا ، ب ، ج ، د ؛ وهو بهذه الصورة غيرمافى ديوان الشريف الرضى (٢ – ٦٧٧) والبيت بتمامه هكذا :

إلاَّ يَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نُصُولِ غَالَتْهُ أَحْدَاثُ الزَّمَانِ بِغُولِ
أَوْ لا يَكُنْ بِأَبِى شُبُولٍ ضَيْغَمٍ تُدْمى أَظَافِرُهُ فَأُمُّ شُبُولِ

وهو مطلع قصيدة يعزى فيها أبا سعد على بن محمد بن أبى خلف عن وفاة أخته .

مايقبح ذكره ، وهذا المعنى أخذه من قول الفرزدق فمسخه وشوّه صورته ؛ فإن الفرزدق رثى امرأته فقال[(١)] :

وَجَفْنِ سِلَاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فَلَمْ أَنُحْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْهِ البَوَاكِيَا[(٢)]

وَفِى جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لَوَ انَّ المَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لَيَالِيَا[(٣)]

وهذا حسن بديع فى معناه ، وما كنى عن امرأة ماتت بجمع أحسن من هذه الكناية ، ولا أفخم شأنا ، فجاء الشريف الرضى فأخذ معناها وفعل به ما ترى ، وليس كل من تصرف فى المعانى أحسن فى تصريفها ، وأبقى هـــذه الرموز فى تأليفها .

وقد عكس هذه القصة مع أبى الطيب المتنبى فأحسن فيما أساء به أبو الطيب طريق الكناية فأخطأ حيث قال[(٤)] :

إِنِّى عَلَى شَغَفِى بِمَا فِى خُمْرِهَا ... لَأَعِفُّ عَمَّا فِى سَرَاوِيلَاتِهَا

وهذه كناية عن النزاهة والعفة ، إلا أن الفجور أحسن منها .

وقد أخذ الشريف الرضى هذا المعنى فأبرزه فى أجمل صورة حيث قال[(٥)] :

---

(١) البيتان أول كلمة له يقولها وقد ماتت جارية له وهى حبلى ، و بعدهما قوله :

وَلَـٰكِنْ رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَعْثُرُ بِالفَتَى ... وَلَا يَسْتَطِيعُ رَدَّ مَا كَانَ جَائِيَا

(٢) فى الديوان « وغمد سلاح » .

(٣) « لو » هذه هى الدالة على التمنى ، أو هى شرطية وجوابها محذوف : أى لو أمهلته المنايا لظهر فضله . وفى ا ، ب ، ج « وفى جوفه فى دارم » وما أثبتناه هو الصواب ، ودارم : قوم الفرزدق .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأولها قوله :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِى الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

واعجب لذوق المتنبى وغلظ طبعه وفساد اختياره ! كيف يجعل هذا الكلام فى قصيدة من قصائد المدح ؟.

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أباه ، وأولها قوله :

بِغَيْرِ شَفِيعٍ نَالَ عَفْوَ المَقَادِرِ ... أَخُو الجِدِّ لَا مُسْتَنْصِرًا بِالمَعَاذِرِ

أَحِنُّ إلى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى وَأَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ (١)

وأمثال هذا كثير ، وفيما ذكرناه من هذين المثالين مَقْنَع .

وأما التعريض فقد سبق الإعلام به ، وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية .

فمما جاء منه قوله تعالى : (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) وغرض إبراهيم صلوات الله عليه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم ؛ لأنه قال : (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وذلك على سبيل الاستهزاء ، وهذا من رموز الكلام ، والقول فيه أن قَصْدَ إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته على أسلوب تعريضٍ يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم ، والاستهزاء بهم ، وقد يقال فى هذا غير ما أشرت إليه ، وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ، وغرض إبراهيم عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هو دونه ؛ فإن مَنْ دونه مخلوق من مخلوقاته ، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالا لما أراده .

ومن هذا القسم أيضا قوله تعالى : (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) فقوله : (ما نراك إلا بشرا مثلنا) تعريض بأنهم أحقُّ بالنبوة منه ، وأن الله لو أراد أن يجعلها فى أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملأ ومُوازٍ لهم فى المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ؟ ألا ترى إلى قولهم : (وما نرى لكم علينا من فضل) .

(١) رواية الديوان هكذا :

وَلِلّٰهِ قَلْبِي مَا أَرَقَّ عَلَى الْهَوَى وَأَصْبَى إِلَى لَثْمِ الْخُدُودِ النَّوَاضِرِ
يَحِنُّ إِلَى مَا تَضْمَنُ الْخُمْرُ وَالْحُلَى وَيَصْدِفُ عَمَّا فِي ضَمَانِ الْمَآزِرِ

وكان مروان بن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية فعزله ؛ فلما قدم عليه قال له : عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأَوْجَبَتْ عزلك : إحداهن أني أمَّرْتُكَ على عبد الله بن عامر و بينكما مابينكما فلم تستطع أن تشتفى منه ، والثانية كراهتك أمر زياد ، والثالثة أن ابنتى رملة استَعْدَتْك على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها ؛ فقال له مروان : أما عبد الله بن عامر فإنى لا أنتصر منه فى سلطانى ، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه ، وأما كراهتى أمر زياد فإن سائر بنى أمية كرهوه ، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان فوالله إنه لتأتى على سَنَة وأ كثر وعندى بنت عثمان فما أ كشف لها ثوبا ، يريد بذلك أن رملة بنت معاوية إنما استعدت لطلب الجماع ، فقال له معاوية : يا ابن الْوَزَغ لست هناك ، فقال له مروان : هو ذاك ؛ وهذا من التعريضات اللطيفة .

ومثله فى اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذاك أنه كان يخطب يوم جمعة ، فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال عمر : أَيَّةُ ساعة هذه ؟ فقال عثمان : ياأميرالمؤمنين ، انْقَلَبْتُ من أمر السوق فسمعت النداء ، فما زدت على أن توضأت ، فقال عمر : والوضوء أيضاً ، وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل ؛ فقوله « أية ساعة هذه » تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجىء إلى الصلاة وترك السبق إليها ؛ وهومن التعريض المعرب عن الأدب .

ووقفت فى كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع ، وهى أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة ؛ فقالت : أشكو إليك قلة الفأر فى بيتى ؛ فقال : ما أحسن ماوَرَّتْ عن حاجتها ، املئوا لها بيتها خبزا وسمنا ولحما .

ومن خفى التعريض وغامضه ما ورد فى الحديث النبوى ، وهو أن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج وهو مُحْتَضِن أحد ابنى ابنته ، وهو يقول : « وَاللهِ إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون ، و إنكم لَمِنْ رَيحَانِ اللهِ ، وَإنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئها اللهُ

بوجّ » أعلم أنّ وَجًّا واد بالطائف ، والمراد به غزاة حُنَين ، وحُنَين : وادٍ قبل وجّ ؛ لأن غزاة حنين آخر غزاة أوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين ، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حُنَين فلم يكن فيهما وطأة : أى قتال ، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال ، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم « وإن آخر وطأة وطئها الله بوج » على ما قبله من الحديث هو التأسُّف على مفارقة أولاده ؛ لقرب وفاته ؛ لأن غزوة حنين كانت فى شوال سنة ثمان ، ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت فى ربيع الأول من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف ، فكأنه قال : وإنكم لمن ريحان الله : أى من رزقه ، وأنا مفارقكم عن قريب ، إلا أنه صانعَ عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله « إن آخر وطأة وطئها الله بوج » وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم .

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشَّمَيْذَر الحارثى [١] :

بَنِي عَمِّنَا ، لاتَذْكُرُوا الشِّعْرَ بَعْدَمَا دَفَنْتُمْ بِصَحْرَاءِ الْغُمَيْرِ الْقَوَافِيَا [٢]

وليس قصده ههنا الشعر ، بل قصده ماجرى لهم فى هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة ، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر ، وجعله تعريضاً بما قصده : أى لا تفخروا بعد تلك الواقعة التى جرت لكم ولنا بذلك المكان .

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عَمْرو بن مَسْعدة الكاتب إلى المأمون فى أمر بعض أصحابه ، وهو : أما بعد ؛ فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ليتطوَّل فى إلحاقه بنُظَرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجْعَلْنِى فى مَرَاتب

(١) وقع فى ا ، ب ، ج « الشميرد الحارثى » وهو تحريف ، وتصويبه عن شرح الحماسة (١ - ١١٨) .

(٢) البيت أول كلة اختارها أبو تمام فى مستهل كتاب الحماسة (انظر شرح التبريزى : ١ - ١١٨) .

المُسْتَشْفِعِين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعَتِهِ ، فوقَّع المأمون فى ظهر كتابه : قد عرفتُ تصريحَكَ له وتعريضَكَ لنفسك ، وقد أجبناك إليهما .

واعلم أن هــذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة العربية ، ووجدتهما كثيرًا فى اللغة السريانيــة ؛ فإن الإنجيل الذى فى أيدى النصارى قد أتى منهما بالكثير .

ومما وجدته من الكناية فى لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه فقيل : إن الملك يختلف إلى امرأتك ، فهجرها لذلك ، وترك فراشها ، فأخبرت كسرى ، فدعاه وقال له : قد بلغنى أن لك عيناً عذبة وأنك لا تشرب منها ؛ فما سبب ذلك ؟ قال : أيها الملك ، بلغنى أن الأسد يَرِدُها نخفته ، فاستحسن كسرى منه هذا الكلام ، وأسْنَى عطاءه .

النوع العشرون

فى المغالطات المعنوية

وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه ؛ لما فيه من التورية .

وحقيقته : أن يذكرمعنى من المعانى له مثل فى شىء آخر ونقيض ، والنقيض أحسن موقعاً ، وألطف مأخذا .

فالأول الذى يكون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة ، فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبى (١) :

---

(١) من قصيدة له يقولها وقد أوقع سيف الدوله ببنى عقيل و بنى قشير و بنى العجلان و بنى كلاب حين عاثوا فى عمله وخالفوا عليه ، و يذكر إجفالهم من بين يديه وظفره بهم ، وأول هذه القصيدة قوله :

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

يَشُلُّهُمُ بِكُلِّ أَقَبَّ نَهْدٍ لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ(١)
وَكُلِّ أَصَمَّ يَعْسِلُ جَانِبَاهُ عَلَى الْكَعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مُمَارُ(٢)
يُغَادِرُ كُلَّ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ وَلَبَّتُهُ لِثَعْلَبِهِ وِجَارُ(٣)

فالثعلب : هو هــذا الحيوان المعروف ، والوِجَار : اسم بيته ، والثعلب أيضا هو طَرَف سنان الرمح ؛ فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن(٤) ذكر الوِجَار فى طرف السنان ، وهذا نقل المعنى من مثل إلى مثله .

وعليه ورد قول المتنبي أيضا(٥) :

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفَ كَفُّهُ وَكَانَا عَلَى الْعِلَّاتِ يَصْطَحِبَانِ(٦)
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ : رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي

---

(١) يشلهم : يطردهم ، والأقب : الضامر البطن ، والنهد : العالى المرتفع .

(٢) الأصم : الشديد الذى ليس بأجوف . يعسل : يضطرب ، والكعبان : اللذان فى عامل الرمح ، وهما يغيبان فى المطعون ، والممار : السائل الجارى .

(٣) قد فسر المؤلف الثعلب والوجار . والوجار : بكسر الواو وفتحها ، يريد أن الرمح الموصوف يترك من التفت إليه ونحره مطعون .

(٤) قال العكبرى : « وأحسن فى هــذه التورية والاستعارة بذكر الوجار والثعلب » اهـ (انظر : ١ ـ ١٠٤ طبع مطبعة الحلبى) .

(٥) من قصيدة له يذكر فيها خروج شبيب ومخالفته كافورا ، وأولها قوله :

عَـدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

(٦) شبيب : هو ابن جرير العقيلى ، من قوم أصلهم من القرامطة ، وكانوا مع سيف الدولة ، وولى شبيب معرة النعمان دهرا طويلا ، واجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف ، وأراد أن يخرج على كافور ، وقصد دمشق فحاصرها ؛ فيقال : إن امرأة ألقت عليه رحا فصرعته ؛ فانهزم الذين كانوا معه لما مات ؛ ويقال : إنه أكثر من شرب الخمر فحدث به صرع ، ففى ساعة القتال أتته نوبة الصرع فتركه أصحابه ومضوا ، فأخذه أهل دمشق فقتلوه .

فإن شَبيباً الخارجي الذى خرج على كافور الإخشيدى ، وقصد دمشق وحاصرها، وقتل على حصارها ؛ كان من قيس ، ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب ، وأخبار ذلك مشهورة ، والسيف يقال له « يمانى » فى نسبته إلى اليمن ، ومراد المتنبى من هذا البيت أن شبيبا لما قتل وفارق السيف كفه فكأن الناس قالوا لسيفه : أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ولهذا جانبه السيف وفارقه . وهذه مغالطة حسنة ، وهى كالأولى إلا أنها أدق وأغمض .

وكذلك ورد قول بعضهم من أبيات يهجو بها شاعرا ، فجاء من جملتها قوله :

وَخَلَطْتُمُ بَعْضَ الْقُرَانِ بِبَعْضِهِ ... فَجَعَلْتُمُ الشعَرَاء فِي الأَنْعَامِ

ومعنى ذلك أن الشُّعَراء اسم سورة من القرآن الكريم والأنْعَام اسم سورة أيضا ، والشعراء : جمع شاعر ، والأنعام : ما كان من الإبل والبقر .

وكذلك ورد قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد ابن حنبل رضى الله عنه ، ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى رضى الله عنه :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى الْوَجِيهَ رِسَالَةً ... وَإِنْ كَانَ لاَ تُجْدِى لَدَيْهِ الرسَائِلُ

تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَانِ بَعْدَ ابْنِ حَنْبَلٍ ... وَفَارَقْتَهُ إِذْ أَعْوَزَتْكَ الْمَآكِلُ

وَمَا اخْتَرْتَ رَأْىَ الشَّافِعِىِّ تَدَيُّناً ... وَلٰكِنَّمَا تَهْوَى الَّذِى مِنْهُ حَاصِلُ

وَعَمَّا قَلِيلٍ أَنْتَ لاَ شَكَّ صَائِرٌ ... إِلَى مَالِكٍ فَافْطِنْ لِمَا أَنَا قَائِلُ

ومالك : هو مالك بن أنس صاحب المذهب رضى الله عنه ، ومالك : هو خازن النار ، وهذه مغالطة لطيفة .

ومن أحسن ما سمعته فى هذا الباب قول أبى العلاء بن سليمان فى الإبل :

صلْبُ الْعَصَا بِالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا ... تَوَدُّ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَفْنَاهَا

إِذَا أَرَادَتْ رَشَداً أَغْوَاهَا ... محاله من رقه إياها

فالضرب : لفظ مشترك ؛ يطلق على الضرب بالعصا ، وعلى الضَّرْب فى الأرض ،

وهو المسير فيها ، وكذلك دَمَّاها فإنه لفظ مشترك يطلق على شيئين : أحدهما يقال : دماه ؛ إذا أسالَ دمه ، ودماه ؛ إذا جعله كالدُّمْيَة ، وهى الصورة ، وهكذا لفظ الْفَنَاء فإنه يطلق على عِنَب الثَّعْلب ، وعلى إذهاب الشيء إذا لم يبق منه بقية ، يقال : أفناه ؛ إذا أذهبه ، وأفناه ؛ إذا أطعمه الْفَنَاء ، وهو عنب الثعلب ، والرشد والغوى : نبتان ، يقال : أغواه ؛ إذا أَضَلَّه ، وأغواه ؛ إذا أطعمه الغوى ، ويقال : طلب رشداً ؛ إذا طلب ذلك النبت ، وطلب رشداً ؛ إذا طلب الهداية ، وبعض الناس يظن هذه الأبيات من باب اللغز ، وليس كذلك ؛ لأنها تشتمل على ألفاظ مشتركة ، وذلك معنى ظاهر يستخرج من دلالة اللفظ عليه ، واللغز : هو الذى يستخرج من طريق الْحَزْر والْحَدْس ، لا من دلالة اللفظ عليه ، وسأوضح ذلك إيضاحاً جلياً فى النوع الحادى والعشرين ، وهو الذى يتلو هذا النوع ؛ فليؤخذ من هناك .

ويروى فى الأخبار الواردة فى غَزَاة بدر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان سائراً بأصحابه يقصد بَدْراً ، فلقيهم رجل من العرب ، فقال : مِمَّن القومُ ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « مِنْ مَاء » ، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول : من ماء ، من ماء ؛ لينظر أىّ بطون العرب يقال لها ماء ، فسار النبىّ صلى الله عليه وسلم لوجهته ، وكان قصده أن يكتم أمره ، وهذا من المغالطة المثلية ؛ لأنه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء ، ويجوز أن يكون المراد أن خَلَقَهُمْ مِنْ مَاء .

وقد جاءنى شيء من ذلك فى الكلام المنثور .

فمنه ما كتبته فى فصل من كتاب عند دخولى إلى بلاد الروم أصِفُ فيه الْبَرَدَ والثلج ؛ فقلت : ومن صفات هذا الْبَرَد أنه يعقد الدر فى خَلْقِه ، والدمْعَ فى طَرْفه ، وربما تَعَدَّى إلى قليب الخاطر فأجَمَّه أن يجرى بوَصْفِه ؛ فالشمس مأسورة ، والنار مقرورة ، والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ ، ومَسِيلات الجبال أنهار غير أنها جامدة لم تخض .

ومكان المغالطة من هذا الكلام فى قولى : « والأرض شهباء غير أنها حولية لم تُرَضْ » فإن الشهباء من الخيل يقال فيها حَوْلية : أى لها حول ، ويقال : إنها مَرُوضَة : أى ذُلِّلت للركوب ، وهذه الأرض مَضَى للثلج عليها حول فهى شهباء حَوْلية ؛ وقولى : « لم تُرَضْ » أى لم تسلك بعد .

ومن ذلك ماذكرته فى وصف كريم ؛ فقلت : ولقد نزلت منه بمُهلَّبىِّ الصُّنع ، أَحْنَفِى الأخلاق ، ولقيته فكأنى لم أُرَعْ ممَّنْ أحبُّ بلَوْعة الفِراق ، ولا كرامة للأهل والوطن حتى أقول إنى قد استبدلت به أهلاً ووطناً ، وعهدى بالأيام وهى من الإحسان فاطمة فاستولدتها بجواره حَسَناً .

وهذه تورية لطيفة فإن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والْحَسَن رضى الله عنهما ولدها ، وفاطمة : هى اسم فاعلة من الفِطَام ، يقال : فَطَمَتْ فهى فاطمة ، كما يقال : فَطَم فهو فاطم ، والْحَسَن : هو الشىء الحسن .

ومن هـذا الأسلوب ما كتبته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت : وعَهْدُه بقلمِى وهو يَتَحَلَّى من البيان بأسمائه ، وتبرز أنوار المعانى من ظلمائه ، وقد أصْبَحَتْ يدى منه وهى حَمَّالة الحطب ، وأصبح خاطرى أبا جَهْلٍ بعد أن كان أبا لَهَب .

وهذا أحسن من الأول ، وأخلب عبارة ، فانظر أيها المتأمل إلى ما فيه من التورية اللطيفة ، ألا ترى أن الخاطر يحمد فيوصف بأنه وَقَّاد ومُلْتَهِب ، ويُذَم فيوصف بأنه بليد وجاهل ؛ وأبو لهب وأبو جهل : هما الرجلان المعروفان ، وكذلك حَمَّالة الحطب هى المرأة المعروفة ، وإذا ذُمَّ القلم قيل : إنه حطب ، وإن صاحبه حَاطِب ؛ فلما نقلت أنا هـذا إلى المعنى الذى قصدته جئت به على حكم المغالطة ، ووَرَّيْت فيه تورية ، والمسلك إلى مثل هذه المعانى وتصحيح المقصد فيها عَسِرٌ جداً ، لا جَرَم أن الإجادة فيها قليلة .

ومما يجرى هذا المجرى ماذكرته فى وصف شخص بمعالى الأمور ، وهو :

مِنْ أبَرِّ مَساعيه أنه حاز قُفْلَ المكرمات ومفتاحها ، فإذا سُئِل مَنْقَبَةً كان مَنَّاعها وإذا سُئِلَ مَوْهبة كان مَنَّاحَها ، وأحسن أثراً من ذلك أنه أخذ بأعِنَّةِ الصِّعاب وألان جِمَاحَها ، فإذا شهد حَوْمَة حربٍ كان مَنْصُورَها و إذا لقى مُهْجَةَ خطب كان سَفَّاحَها .

والمغالطة فى هذا الكلام فى ذكر المنصور والسفاح ؛ فإنهما لقبُ خليفتين من بنى العباس ، والسفاح : أول خلفائهم ، والمنصور : أخوه الذى ولى الخلافة من بعده ، وهما أيضاً من النصر فى حَوْمَة الحرب والسَّفْح الذى هو الإراقة ، والمُهْجَة : دم القلب ؛ فكأنى قلت : هو منصور فى حومة الحرب ، ومُرِيق لدم الخطوب ، وقد اجتمع فى هذا الكلام المنصور والمنصور ، والسفاح والسفاح (١) ، وهذا من المغالطة المثلية لا من النقيضية ، ولا خفاء بما فيها من الحسن .

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب إلى بعض الإخوان ؛ فقلت : وقد علمت أن ذلك الأنس بقربه يعقب إيحاشاً ، وأن تلك النَّهْلَة من لقائه تجعل الأكباد عِطَاشاً ؛ فإن من شيمة الدهر أن يُبَدِّلَ الصَّفْوَ كَدَرًا ، و يوسع أيام عُقُوقه طولا وأيام بِرِّه قِصَرًا ، وما أقول إلا أنه شعر بتلك المسرة المسروقة فأقام عليها حدّ القطع ، ورأى العيش فيها خَفْضاً فأزاله بعامل الرفع .

والمغالطة فى هذا الكلام هى فى ذكر الخفض والرفع ؛ فإن الْخَفْض : هو سَعَة العيش ، والخفض : هو أحد العوامل النحوية ، والرفع : هو من قولنا : رفعت الشىء ، إذا أزلته ، والرفع : هو أحد العوامل النحوية أيضاً ، وهذا من المغالطات الخفية .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل أصف فيه الْحُمَّى ، وكنت إذ ذاك بحصن سُمَيْسَاط ، وهو بلد من بلاد الأرمن ، فقلت : ومما أكْرَهُ فى حال المرض بهذه الأرض أنَّ الْحُمَّى خَيَّمَتْ بها فاستقرّت ، ولم تقنع بأهلها حتى سَرَتْ إلى تربتها فَتُرَى وقد أخذتها النافِضُ فاقشعرّت ، ولم يشكل أمرها إلا لأنها حمى أرمنية

(١) كذا ؛ ولعله «وقد اجتمع فى هذا الكلام المنصور والسفاح» من غير تكرير

مستعجمة اللسان ، وقد تشتبه الأمراض وأهل بلادها فى الابان ، وإذا كانت الحمى كافرة لم تزل للمسلم حربا ، وشَكاتُها لا تسمى شكاة وإنما تسمى طعناً وضربا ، ولهذا صارت الأدوية فى علاجها ليست بأدوية ، وأصبحت أيامُ نَحْرِها فى الناس غيرَ مبتدأةٍ بأيام تَرْوِيَة ، وليس مَوْسِمُها فى فَصْل معلوم بل كُلُّ فصول العام من مواسمها ، ولو كاتبتها نصيبين أو ميا فارقين بكتاب لترجمته بعبدها وخادمها .

والمغالطة ههنا فى قولى : « وأصبحت أيام نحرها فى الناس غير مبتدأة بأيام ترويه » والمراد بذلك أنها تُقْبِل بَغْتة من غير تروٍّ : أى من غير تَلَبُّث ، ويوم النحر : هو يوم عيد الأضحى ، وقبله يومٌ يسمَّى يوم التروية ؛ فالمغالطة حصلت بين نحر الحمى للناس ونحر الضحايا ، إلا أن يوم النحر مبتدأ بيوم تروية ، ولا خفاء بما فى هذه المغالطة من الحسن واللطافة .

وأما القسم الآخر ــ وهو النقيض ــ فإنه أقل استعمالاً من القسم الذى قبله ؛ لأنه لايتهيأ استعماله كثيراً .

فمن جملته ماورد شعراً لبعضهم ، وهو قوله :

وَمَا أَشْيَاءُ تَشْرِيهَا بِمَالٍ ... فَإِنْ نَفَقَتْ فَأَكْسَدُ مَا تَكُونُ

يقال : نَفَقَت السلعة ؛ إذا راجت ، وكان لها سوق ، ونَفَقَت الدابة ؛ إذا ماتت ، وموضع المناقضة ههنا فى قوله : إنها إذا نَفَقَت كسدت ، فجاء بالشىء ونقيضه ، وجعل هذا سبباً لهذا ، وذلك من المغالطة الحسنة .

ومن ذلك ما كتبته فى جملة كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن فتوح بلد من بلاد الكفار ؛ فقلت فى آخر الكتاب[1] : وقد ارتاد الخادم من يُبَلِّغ عنه

(١) قد مضت هذه القطعة فى آخر كتاب طويل كتبه المؤلف إلى دار الخلافة عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب يتضمن الإخبار بفتح البيت المقدس واستنقاذه من أيدى الكفار ، والكتاب يبتدى فى (ص ١٤٠ من الجزء الثانى من هذا الكتاب) والقطعة المذكورة تجدها فى أول (ص ١٤٧ منه) .

مشاريحَ هذه الوقائع التى اخْتَصَرَها ، ويُمَثِّل صورها لمن غاب عنها كما تمثلت لمن حضرها ، ويكون مكانُهُ من النباهة كريمًا كمكانها ، وهى عرائس المساعى فأحسَنُ الناس بيانًا مؤهَّل لإبداع حسانها ، والسائر بها فلان وهو راوى أخبار نَصْرِهَا التى صَحَّتُها فى تجريح الرجال، وعوَالى إسنادهامأخوذة من طرق العَوَال[1] ، واللَّيالى والأيامُ لها رُوَاة فما الظن برواية الأيام والليال .

فى هذا الفصل مغالطة نقيضية ، ومغالطة مثلية ؛ أما المغالطة المثلية فهى فى قولى : « وعوالى إسنادها مأخوذة من طرق العَوَال »[1] وقد تقدم الكلام على هذا وما يجرى مجراه فى القسم الأول ؛ وأما المغالطة النقيضية فهى قولى : « وهو راوى أخبار نصرها التى صحتها فى تجريح الرجال » وموضع المغالطة منه أنه يقال فى رواة الأخبار : فلان عَدْل صحيح الرواية ، وفلان مَجْرُوح : أى سقيم الرواية غير موثوق به ، فأتيت بهذا المعنى على وجه النقيض ، فقلت : صحة أخبار هذه الفتوح فى تجريح الرجال : أى تجريحهم فى الحرب ، وفى هذا من الحسن ما لاخفاء به .

وقد أوردت من هذه الأمثلة مافيه كفاية ومقنع .

فإن قيل : إن الضرب الأول من هذا النوع هو التجنيس الذى لفظه واحد ومعناه مختلف ، كالمثال الذى مثلته فى قول أبى الطيب المتنبى ثعلب ووجار ؛ فإن الثعلب هو الحيوان المعروف ، وهو أيضاً طرَف السنان ، وكذلك باقى الأمثلة .

قلت فى الجواب : إن الفرق بين هذين النوعين ظاهر ، وذلك أن التجنيس يذكر فيه اللفظ الواحد مرتين ؛ فهو يَسْتَوِى فى الصورة ويختلف فى المعنى ، كقول أبى تمام[2] :

(١) هذا من باب الجناس على مايقرر هو بعد سطور .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

لَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ دَارِ مَاوِيَّةَ الحُقْبُ ... أَنُحْلُ المَغَانِي لِلْبِلَى هِيَ أَمْ نَهْبُ

وقد تقدم الاستشهاد بهذا البيت فى التجنيس (انظر الجزء الأول ص ٢٤٧) .

بِكُلِّ فَتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا ... مُحَيًّا مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

فالضَّرْب : الرجل الخفيف ، والضرب : هو الضرب بالسيف فى القتال ، فاللفظ لابد من ذكره مرتين والمعنى فيه مختلف ، والمغالطة ليست كذلك ، بل يذكر فيها اللفظ مرة واحدة ، ويدلّ به على مثله ، وليس بمذكور .

النوع الحادى والعشرون

فى الأحاجى

وهى الأغاليط من الكلام ، وتسمى الألغاز ، جمع لُغَز ، وهو : الطريق الذى يلتوى ويشكل على سالكه ، وقيل : جمع لَغْز - بفتح اللام - وهو : مَيْلك بالشىء عن وجهه ، وقد يسمى هذا النوع أيضا المُعَمَّى ، وهو يشتبه بالكناية تارة ، وبالتعريض أخرى ، ويشتبه أيضا بالْمُغَالَطات المعنوية ، ووقع فى ذلك عامة أرباب هذا الفن .

فمن ذلك أن أبا الفرج الأصفهانى ذكر بيتى الأقيشر الأسدى[1] فى جملة الألغاز ، وهما :

وَلَقَدْ أَرُوحُ بِمُشْرِفٍ ذِى مَيْعَةٍ ... عَسِرِ الْمَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ[2]

---

(١) وقع فى ا ، ب ، ج «الأقيس» وهو تصحيف ، وقد سبق مثله فى باب الكناية والتعريض (ص ٢٠٩ من هذا الجزء) .

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج « يتقصد » بالقاف ، وهو تحريف ، وصوابه « يتفصد » بالفاء ، والبيتان رواهما الخطيب التبريزى فى آخر شرح الحماسة (٤ - ٣٥٦) وروى معهما بيتا ثالثا ، وهو قوله :

حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مِشَقَّ ثَنِيَّةٍ ... طَوْرًا أَغُورُ بِهَا وَطَوْرًا أُنْجِدُ

مَرِحٍ يَطِيرُ مِنَ الْمِرَاحِ لُعَابُهُ وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَقَدَّدُ(١)

وهذان البيتان من باب الكناية ؛ لأنهما يُحْمَلان على الفرس ، وعلى العضو المخصوص ، وإذا حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز فكيف يعد من جملة الألغاز .؟

وكذلك فعل الحريرى فى مقاماته ؛ فإنه ذكر فى الأحاجىّ التى جعلها على حكم الفتاوى كنايةً ومغالطةً معنوية ، وظن أنهما من الأحاجىّ الملغزة ، كقوله : أيحلُّ للصائم أن يأكل نهارًا ، والنهار : من الأسماء المشتركة بين النهار الذى هو ضد الليل وبين فَرْخِ الْحُبَارَى ؛ فإنه يسمى نهارا ، وإذا كان من الأسماء المشتركة صار من باب المغالطات المعنوية ، لا من باب الأحاجىّ ، والإلغاز شىء منفصل عن ذلك كله ، ولو كان من جملته لما قيل : لغز ، وأُحْجِيَّة ، وإنما قيل : كناية ، وتعريض ، أو مغالطة ، ولكن وجد من الكلام ما يطلق عليه الكناية ، ومنه ما يطلق عليه التعريض ، ومنه ما يطلق عليه المغالطة ، ومنه شىء آخر خارج عن ذلك ؛ فجعل لغزا وأحجية .

وكنتُ قدَّمْتُ القول بأن الكناية هى اللفظ الدال على جانب الحقيقة وعلى جانب المجاز ، فهو يحمل عليهما معا ، وأن التعريض هو ما يفهم من عُرْض اللفظ لا من دلالته عليه حقيقة ولا مجازا ، وأن المغالطة هى التى تطلق ويراد بها شيئان: أحدهما دلالة اللفظ على معنيين بالاشتراك الوضعى ، والآخر دلالة اللفظ على المعنى ونقيضه .

وأما اللغز والأحجية فإنهما شىء واحد ، وهو : كل معنى يُسْتَخْرَج بالْحَدْس

وروى أبو تمام هذين البيتين بغير هذه الرواية ولم ينسبهما لمعين ، وهما بروايته :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِمُشْرِفٍ يَافُوخُهُ عَسِرِ الْمَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَدَفَّقُ
أَرِنٍ يَسِيلُ مِنَ النَّشَاطِ لُعَابُهُ وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَمَزَّقُ

(١) فى ا ، ب ، ج « يطير من المزاح » والتصويب عن التبريزى وهو المناسب لقوله « مرح » .

والحزْر ، لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا ، ولا يفهم من عرضه ؛ لأن قول القائل فى الضرس :

وَصَاحِبٍ لاَ أَمَلَّ ٱلدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يَشْقَى لِنَفْعِي وَيَسْعَى سَعْيَ مُجْتَهِدِ (١)

مَا إِنْ رَأَيْتُ لَهُ شَخْصًا فَمُذْ وَقَعَتْ ... عَيْنِي عَلَيْهِ افْتَرَقْنَا فُرْقَةَ ٱلْأَبَدِ

لا يدل على أنه الضرس ، لا من طريق الحقيقة ، ولا من طريق المجاز ، ولا من طريق المفهوم ، وإنما هو شىء يحدس ويحزر ، والخواطر تختلف فى الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه .

فإن قيل : إن اللغز يعرف من طريق المفهوم ، وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم .

قلت فى الجواب : إن الذى يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض ، كقول القائل : إنى لفقير ، وإنى لمحتاج ؛ فإن هذا القول لا يدلّ على المسألة والطلب ، لا حقيقة ولا مجازاً ، وإنما فهم منه أن صاحبه مُتَعَرِّض للطلب ، وهذان البيتان ليسا كذلك ؛ فإنهما لا يشتملان على مايفهم منه شىء إلا بالحدس والحزر ، لا غير ، وكذلك كل لغز من الألغاز .

وإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا الباب الذى هو اللغز والأحجية والمعمَّى يتنوع أنواعًا : فمنه المصحَّف ، ومنه المعكوس ، ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية ، كقول القائل : اسمى إذا صحفته بالفارسية آخر ، وهذا اسمه اسم تركى ، وهو دنكر ـ بالدال المهملة والنون ، وآخر بالفارسية ديكر ـ بالدال المهملة والياء المعجمة بثنتين من تحت ـ وإذا صحفت هذه الكلمة صارت دنكر ، بالنون ، فانقلبت الياء نوناً بالتصحيف ، وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض .

(١) فى ج «لاأمن الدهر صحبته» بالنون ، وهو تحريف ، وما أثبتناه عن ا ، ب ، د .

وإنما وضع واستعمل لأنه مما يَشْحَذ القريحة ، ويُحِدّ الخاطر ؛ لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج فى استخراجها إلى توقد الذهن ، والسلوك فى معاريج خفية من الفكر .

وقد استعمله العرب فى أشعارهم قليلا ، ثم جاء المحدثون فأكثروا منه ، وربما أتى منه بما يكون حسنا وعليه مسحة من البلاغة ، وذلك عندى بين بين ؛ فلا أعده من الأحاجىّ ، ولا أعدُّه من فصيح الكلام .

فمما جاء منه قول بعضهم :

قَدْ سُقِيَتْ آبَالُهُمْ بِالنَّارِ وَالنَّارُ قَدْ تَشْفِي مِنَ الْأُوَارِ

ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجاهة وتقدم ، ولهم وسم معلوم ؛ فلما وَرَدَت إبلهم الماء عُرِفت بذلك الوَسْم ؛ فأَفْرَج لها الناسُ حتى شَرِبَت ؛ وقد اتفق له أنه أتى فى هذا البيت بالشىء وضده ، وجعل أحدهما سببا للآخر ؛ فصار غريبا عجيبا ، وذاك أنه قال : سقيت بالنار ، وقال : إن النار تشفى من الأُوار ، وهو العطش ، وهذا من محاسن ما يأتى فى هذا الباب .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبى نُوَاس فى شجر الكرم(١) :

لَنَا هَجْمَةٌ لَا يَدَّرِى الذِّئْبُ سَخْلَهَا وَلَا رَاعِهَا غَضُّ الْفِحَالَةِ وَالْحَظْرُ

(١) البيتان من ستة أبيات وردت فى الديوان (ص ٢٨٤) وفيهما بعض تغيير ، ونحن نثبت لك الأبيات كلها على ما فى الديوان :

لَنَا هَجْمَةٌ لَا يُدْرِكُ الذِّئْبُ سَخْلَهَا وَلَا رَاعَهَا نَزْوُ الْفِحَالَةِ وَالْخَطْرُ
إِذَا امْتُحِنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا إِلَى الْجَوِّ إِلَّا أَنَّ أَوْبَارَهَا خُضْرُ
فَإِنْ قَامَ فِيهَا الْحَالِبُونَ اتَّقَتْهُمُ بِنَجْلَاءَ ثقب الجوف دِرَّتُهَا الْخَمْرُ
مَسَارِحُهَا الْغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرِ صَرْصَرٍ فَقُطْرُبُلٌ فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْعُقْرُ
تُرَاثُ أَنُوشِرْوَانَ كِسْرَى ، وَلَمْ تَكُنْ مَوَارِيثَ ما أبْقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصَرْتَ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلُ ابْنِ حُرَّةٍ لَهَا حَسَبٌ زَاكٍ وَلَيْسَ لَهُ وَفْرُ

إِذَا امْتُحِنَتْ أَلْوَانُهَا مَالَ صَفْوُهَا إِلَى الْحُوِّ إِلَّا أَنَّ أَوْبَارَهَا خُضْرُ

ومن هذا القبيل قول بعضهم :

سَبْعٌ رَوَاحِلُ مَا يُنِخْنَ مِنَ الْوَنَا شِيمٌ تُسَاقُ بِسَبْعَةٍ زُهْرِ

مُتَوَاصِلَاتٌ لَا الدُّءُوبُ يُمِلُّهَا بَاقٍ تَعَاقُبُهَا عَلَى الدَّهْرِ

هذان البيتان يتضمنان وصف أيام الزمان ولياليه ، وهى الأسبوع ؛ فإن الزمان عبارة عنه ، وذلك من الألغاز الواقعة فى موقعها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى الطيب المتنبي فى السفن من جملة قصيدته التى مدح بها سيف الدولة عند ذكر عبوره الفرات ، وهى :

* الرَّأْىُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ (١) *

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* هُوَ أَوَّلٌ وَهِىَ الْمَحَلُّ الثَّانِى *

وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف مما يتم به معناهما قوله :

وَالْمَاءُ بَيْنَ عَجَاجَتَيْنِ مُخَلِّصٌ تَتَفَرَّقَانِ بِهِ وَتَلْتَقِيَانِ

رَكَضَ الْأَمِيرُ وَكَاللُّجَيْنِ حَبَابُهُ وَثَنَى الْأَعِنَّةَ وَهْىَ كَالْعِقْيَانِ

فَتَلَ الْحِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ

يريد أن جيش الأمير صار فريقين فى عبور النهر ؛ فريق عبروا ، وفريق لم يعبروا ، ولكل واحد منهما عجاج ، والماء بينهما ؛ فالعجاجتان تفترقان وتلتقيان ، وقال أبو الفتح بن جنى : بل يعنى عجاجة المسلمين وعجاجة الروم ، والأولى ماذكرناه أولا؛ فإن جيش الأمير عند عبور النهر لم يكن قاتل الروم بعد . واللجين : الفضة ، والعقيان الذهب ، والأعنة : جمع عنان ، وهو ما يكون فى رأس الفرس ، والأعنة للخيل بمنزلة الأرسان لغيرها . يريد أن سيف الدولة عبر هذا النهر بجيشه وماؤه أبيض كالفضة ، فلما قاتل الروم جرت دماؤهم إلى النهر فعاد أحمر كالذهب . والغدائر : جمع غديرة ، وهى الذؤابة من الشعر والسفين : اسم جنس جمعى ، واحده سفينة ،

فقال :

وَحَشَاهُ عَادِيَةً بِغَيْرِ قَوَائِمٍ عُقْمَ الْبُطُونِ حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ(١)

تَأْتِي بِمَا سَبَتِ الْخُيُولُ كَأَنَّهَا تَحْتَ الْحِسَانِ مَرَابِضُ الْغِزْلَانِ(٢)

وهذا حسن فى بابه .

ومن ذلك قول بعضهم فى حجر المحكّ :

ومُدَّرِعٍ مِنَ صَنْعَةِ اللَّيْلِ بُرْدَهُ يُفَوَّقُ طَوْرًا بِالنُّضَارِ وَيُطْلَسُ(٣)

إِذَا سَأَلُوهُ عَنْ عَوِيصَيْنِ أَشْكَلَا أَجَابَ بِمَا أَعْيَا الْوَرَى وَهْوَ أَخْرَسُ

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه ، وكان سمعه بعض المتأخرين من أهل زماننا ، فأجاب عنه ببيتين على وزنه وقافيته ، وهما :

سُؤَالُكَ جُلْمُودٌ مِنَ الصَّخْرِ أَسْوَدُ خَفِيفٌ لَطِيفٌ نَاعِمُ الْجِسْمِ أَطْلَسُ

أُقِيمَ بِسُوقِ الصَّرْفِ حُكْمًا كَأَنَّهُ مِنَ الزَّنْجِ قَاضٍ بِالْخَلُوقِ مُطَلَّسُ

وقد رأيت هذا الشاعر ، وهو حائك بجزيرة ابن عمر ، وليس عنده من أسباب الأدب شىء سوى أنه قد أصلح لسانه بطرف يسير من علم النحو لا غير ، وهو مع ذلك يقول الشعر طبعاً ، وكان يجيد فى الكثير منه .

ومن الألغاز ما يرد على حكم المسائل الفقهية ، كالذى أورده الحريرى فى مقاماته ، وكنت سئلت عن مسألة منه ، وهى :

والصلبان : جمع صليب ، وهو الذى تعظمه النصارى ، يريد اتخذ حبال سفنه من شعر القتلى و بناها من صلبانهم ، أراد أنه غنم منهم وأسر الشىء الكثير .

(١) العقيم : الذى لا يلد ، والحوالك : جمع حالكة ، وهى السوداء . يريد أنه حشا الماء سفنا عادية بغير قوائم ، و بطونها عقم ؛ لأنها لا تلد ، وهى سود الألوان ؛ لأنها مقيرة .

(٢) الحسان : جمع حسناء ، والمرابض : جمع مربض ، وهومأوى الغنم والوحش. يريد أن السفن تحمل الجوارى التى سبتها الفوارس ؛ فشبههن بالغزلان والسفن لها مرابض .

(٣) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ وفى د « يفوف طهورا » .

وَلِي خَالَةٌ وَأَنَا خَالُهَا ... وَلِي عَمَّـةٌ وَأَنَا عَمُّهَا
فَأَمَّا الَّتِي أَنَا عَمٌّ لَهَا ... فَإِنَّ أَبِي أُمُّـهُ أُمُّهَا
أَبُوهَا أَخِي وَأَخُوهَا أَبِي ... وَلِي خَالَةٌ هٰكَذَا حُكْمُهَا
فَأَيْنَ الْفَقِيهُ الذِي عِنْدَهُ ... فُنُونُ الدِّرَايَةِ أَوْ عِلْمُهَا
يُبَيِّنْ لنَا نَسَباً خَالِصاً ... وَيَكْشِفُ لِلنفْسِ مَا هَمُّهَا
فَلَسْنَا مَجُوسًا وَلاَ مُشْرِكِينَ ... شَرِيعَـةُ أَحْمَدَ نَأْتَمُّهَا

وهذه المسألة كتبت إلىَّ فتأملتها تأمل غير ملجلج فى الفكر ، ولم ألبث أن انكشف لى ما تحتها من اللغز ، وهو أن الخالة التى الرجل خالُها تصور على هذه الصورة ، وذاك أن رَجُلاً تزوج امرأتين : اسم إحداهما عائشة ، واسم الأخرى فاطمة ، فأولد عائشة بنتا ، وأولد فاطمة ابنا ، ثم زوج بنته من أبى امرأته فاطمة ، فجاءت ببنت ، فتلك البنت هى خالة ابنه ، وهو خالها ؛ لأنه أخو أمها . وأما العمة التى هو عَمُّها فصورتها أن رجلا له ولد ، ولولده أخ من أمه ، فزوج أخاه من أمه أمَّ أبيه ، فجاء ببنت ، فتلك البنت هى عمته ؛ لأنها أخت أبيه ، وهو عمها ؛ لأنه أخو أبيها ، وأما قوله «ولى خالة هكذا حكمها» فهو أن تكون أمها أخته ، وأختها أمه ، كما قال « أبوها أخى وأخوها أبى » وصورتها أن رجلا له ولد ، ولولده أخت من أمه ، فزوجها من أبى أمه ، فجاءت ببنت ؛ فأختها أمه ، وأمها أخته .

وأحسن من ذلك كله وألطف وأحلى قول بعضهم فى الْخَلْخَال :

وَمَضْرُوبٍ بِلاَ جُرْمٍ ... مَلِيحِ اللَّوْنِ مَعْشُوقِ
لَهُ قَدُّ الْهِـلاَلِ عَلَى ... مَلِيحِ الْقَدِّ مَمْشُوقِ
وَأَكْثَرُ مَا يُرَى أَبَدًا ... عَلَى الْأَمْشَاطِ فى السُّوقِ

و بلغنى أن بعض الناس سمع هذه الأبيات ؛ فقال : قد دخلت السوق فما رأيت على الأمشاط شيئاً ، وظن أنها الأمشاط التى يُرَجَّلُ بها الشعر ، وأن السوق سوق البيع والشراء .

واعلم أنه قد يأتى من هذا النوع ماهو ضروب وألوان ؛ فمنه الحسن الذى أوردت شيئاً منه كما تراه ، ومنه المتوسط الذى هو دونه فى الدرجة ، فلا يوصف بحسن ولاقبح ؛ كقول بعضهم[1] :

رَاحَتْ رَكَائِبُهُمْ وَفى أَكْوَارِهَا   أَلْفَانِ مِنْ عُمّ الْأُثَيْلِ الْوَاعِدِ
مَا إِنْ رَأَيْتُ ولا باركب هكذا   حَمَلَتْ حَدَائِقَ كَالظَّلَامِ الرَّاكِدِ

وهذا يصف قوما وفدوا على ملك من الملوك فأعطاهم نخلا، وكتب لهم بها كتابا ، والأثيل : الموضع الذى كتب لهم إليه ، والعم : العظام الرءوس من النخيل ، والواعد: الأقناء من النخل، فلما حملوا الكتب فى أكوارهم فكأنهم حملوا النخل ، وهذا من متوسط الألغاز .

وقد جاء من ذلك ما هو بشع بارد ؛ فلا يستخرج إلا بمسائل الجبر والمقابلة ، أو بخطوط الرمل من القبض الداخل أو القبض الخارج والبياض والحمرة وغيرها ، ولئن كان معناه دقيقاً يدلّ على فرط الذكاء فإنى لا أعده من اللغة العربية ، فضلا عن أن يوصف بصفات الكلام المحمودة ، ولافرق بينه و بين لغة الفرس والروم وغيرهما من اللغات فى عدم الفهم .

وأما ماورد من الألغاز نثرا فقد ألغز الحريرى فى مقاماته ألغازاً ضمنها ذكر الإبرة والمِرْوَد[2] وذكر الدينار ، وهى أشهر كما يقال من قِفَا نَبْكِ ؛ فلا حاجة إلى إيرادها فى كتابى هذا .

---

(١) بحثت طويلا عن هذين البيتين فلم يتيسر لى العثور عليهما فى مرجع آخر ، وقد أثبت ما فى أصول هذا الكتاب مع أن صدر البيت الثانى قلق نافر يدل على حدوث تحريف كثير فيه .

(٢) للحريرى كثير من الألغاز فى عدة مقامات ؛ فانظر المقامة الثانية والثلاثين وهى تتضمن أن أبا زيد قام بمائة مسألة فقهية ملغزة ، وانظر المقامة السادسة والثلاثين ، وانظر المقامة الثانية والأربعين ، وانظر المقامة الرابعة والأربعين ؛ وممن ألغز فى الإبرة أبو العلاء ، فقال :

سَعَتْ ذَاتُ سُمٍّ فى قَمِيصِى فَغَادَرَتْ   بِهِ أَثَرًا وَاللّٰهُ يَشْفِى مِنَ السُّمِّ
كَسَتْ قَيْصَرًا ثَوْبَ الْجَمَالِ وَتُبَّعًا   وَكِسْرَى ، وَعَادَتْ وَهْىَ عَارِيَةُ الْجِسْمِ

وقد ورد من الألغاز شيء في كلام العرب المنثور غير أنه قليل بالنسبة إلى ماورد في أشعارها ، وقد تأملت القرآن الكريم فلم أجد فيه شيئاً منها ، ولا ينبغى أن يتضمن منها شيئاً ؛ لأنه لايستنبط بالحَدْس والحزر كما تستنبط الألغاز .

وأما ما ورد للعرب فيروى عن امرىء القيس وزوجته عدة من الألغاز ، وذلك أنه سألها قبل أن يتزوجها ؛ فقال : ما اثنان وأربعة وثمانية ؟ فقالت : أما الاثنان فثَدْيا المرأة ، وأما الأربعة فأخْلافُ النّاقة ، وأما الثمانية فأطْباء الكَلْبَة ؛ ثم إنه تزوجها وأرسل إليها هدية على يدِ عَبْدٍ له ، وهى حُلّة من عَصْب اليمن ونِحْيٌ من عَسَلٍ ونِحْيٌ من سَمْن ، فنزل العبدُ ببعض المياه ، ولبس الحلة فَعَلِقَ طرفُها بسَمُرَة فانْشَقّ ، وفتح النِّحْيين وأطعم أهلَ الماء ، ثم قدم على المرأة وأهلها خُلُوفٌ ، فسأل عن أبيها وأمها وأخيها ، ودفع إليها الهدية ، فقالت له : أَعْلِمْ مولاكَ أن أبى ذهب يُقرِّبُ بعيداً ويبعد قريبا ، وأن أمّى ذهبت تَشُقُّ النفسَ نَفْسَين ، وأن أخى يَرْقُبُ الشمس ، وأَخْبِرْهُ أن سماءكم انشقّتْ ، وأن وعاءيكم نضبا ؛ فعاد العبد إلى امرىء القيس وأخبره بما قالته له ، فقال : أما أبوها فإنه ذهب يُحالف قومًا على قومه ، وأما أمُّها فإنها ذهبت تُقْبِل امرأة ، وأما أخوها فإنه فى سَرْحٍ يرعاه إلى أن تغرب الشمس ، وأما قولها : « إن سماءكم انشقت » فإن الحُلّة انشقت ، وأما قولها : « إن وعاءيكم نضبا » فإن النِّحْيَيْن نقصا ، ثم قال للعبد : أصدقنى ، فقال له : إنى نزلت بماء من مياه العرب ، وفعلت كذا وكذا .

فهذا وأمثاله قد وَرَدَ عنهم إلا أنه يسير .

وكذلك يروى عن شن بن أفصى ، وكان ألزم نفسه ألاّ يتزوّج إلا امرأة تلائمه ، فصاحبه رجل فى بعض أسفاره ، فلما أخذ منهما السير قال له شن : أتحمِلُنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : ياجاهِلُ ؛ هل يحمل الراكب راكباً ؟ فأمسك عنه ، وسارا حتى أتيا على زَرْع ، فقال شن : أترى هذا الزرع قد أُكِلَ ؟ فقال له :

ياجاهل ؛ أما تراه فى سُنْبُله ، فأمسك عنه ، ثم سارا ، فاستقبلتهما جنازة ، فقال شن : أترى صاحبها حيًّا ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ! أتراهم حملوا إلى القبر حيًّا ؟ ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فسار به إلى بيته ، وكانت له بنت ، فأخذ يطرفها بحديث رفيقه ، فقالت : مانطق إلا بالصواب ، ولا استفهم إلا عما يُسْتَفْهم عن مثله ، أما قوله : « أتحملنى أم أحملك » فإنه أراد أتُحَدِّثنى أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث ، وأما قوله : « أترى هذا الزرع قد أكل » فإنه أراد هل استسلف ربه ثمنه أم لا ، وأما استفهامه عن صاحب الجنازة فإنه أراد هَلْ خلّف له عقباً يَحْيَا بذكره أم لا ، فلما سمع كلام ابنته خرج إلى شن وحَدَّثه بتأويلها ، فخطبها ، فزوّجه إياها .

وأدق من هذا كله وألطف ما يحكى عن رجل من المناقذة أصحاب شيزر ، وهو أولهم الذى استنقذه من أيدى الروم بالمكر والخديعة ، ولذلك قصة ظريفة ، وليس هذا موضع ذكرها ، وكان قبل ملكه إياها فى خدمة محمود بن صالح صاحب حلب ، وكان إذ ذاك يلقب بسديد الملك ، فنبا به مكانه ، وحدثت له حادثة أوجبت له أن هرب ومضى إلى مدينة ترابلس فى زمن بنى عمار أصحاب البلد ، فأرسل إليه ابن صالح واستعطفه ليعود إليه ، فخافه ولم يعد ، فأحضر ابن صالح رجلاً من أهل حلب صديقاً لابن منقذ وبينه وبينه لُحْمَةُ مَوَدَّة أكيدة ، وأجلسه بين يديه ، وأمره أن يكتب إليه كتاباً عن نفسه يوثّقه من جهة ابن صالح ليعود ، فما وسعه إلا أن يكتب وهو يعلم أن باطن الأمر فى ذلك خلاف ظاهره ، وأنه متى عاد ابن منقذ إلى حلب هلك ، فأفكر وهو يكتب فى إشارة عمياء لاتُفْهَم ؛ ليضعها فيه يحذر بها ابن منقذ ، فأدّاه فكره أن كتب فى آخر الكتاب عند إنهائه «إن شاء الله تعالى» ، وشدد إن وكسرها ، ثم سلم الكتاب إلى ابن صالح ، فوقف عليه ، وأرسله إلى ابن منقذ ، فلما صار فى يده وعلم مافيه قال : هذا كتاب صديقى ، وما يَغُشُّنى ، ولولا أنه يعلم صفاء قلب ابن صالح لى لما كتب إلىّ ولا غرّنى ، ثم

عزم على العود ، وكان عنده ولده ، فأخذ الكتاب وكرّر نظره فيه ، ثم قال له : يا أبت ، مَكَانَكَ ، فإن صديقك قد حذَّرك ، وقال : لاتعد ، فقال : وكيف ؟ قال : إنه قد كتب إن شاء الله تعالى فى آخر الكتاب ، وشَدَّد إن وكسرها ، وضبطها ضبطاً صحيحاً لايصدر مثله عن سهو ، ومعنى ذلك أنه يقول : إنَّ المَلَا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، وإن شككت فى ذلك فأرسل إلى حلب .

وهذا من أعجب مابلغنى من حِدَّة الذهن وفطانة الخاطر ، ولولا أنه صاحب الحادثة المخوفة لما تفطَّن إلى مثل ذلك أبداً ؛ لأنه ضرب من علم الغيب ، وإنما الخوف دلَّه على استنباط ما استنبطه .

ووجد لبعض الأدباء لغز فى حَمَّام ؛ فمنه ما أجاد فيه ؛ كقوله : وقد أظَلَّتْهَا سماء ذات نُجوم ، لااسْتِرَاقَ لها ولارجوم ، وهى مركبة فى فلك صحت استدارته ، وسكنت إدارته :

أَعْجِبْ بِهَا مِنْ أَنْجُمٍ عِنْدَ الصَّبَاحِ ظَاهِرَهْ
لَـكِنَّهَـا إِذَا بَدَا نَجْمُ الظَّلَامِ غَائِرَهْ

فهى على القياس جنة نعيم ، مبنية على لظى جحيم ، لا خلود فيها ولا مُقام ، ولا تَزَاوُرَ بين أهلها ولا سلام ، أنهارها متدفقة ، ومياهها مُتَرَقْرِقَة ، والأكواب بها موضوعة ، والنمارق عنها منزوعة :

يُطِيعُ بِهَا المَوْلَى أَوَامِرَ عَبْدِهِ وَيُصْبِحُ طَوْعًا فِي يَدَيْهِ مَقَادَتُهُ
وَيُرْفَعُ عَنْهُ التَّاجُ عِنْدَ دُخُولِهِ وَتُسْلَبُ مِنْ قَبْلِ الْجُلُوسِ غِلَالَتُهُ

التجمُّل بها معدوم ، والخادم فيها مخدوم ، ينكر بها التستر من البرد ، ويكره حرّها إذا جاوز الحد .

هذا اللغز من فصيح الألغاز ، ولا يقال : إن صاحبه فى العمى صانع العكاز ، وإذا تطرز غيره بلمعة من الوشى فهذا كله طراز .

ومما سمعته من الألغاز الحسان التى تجرى فى المحاورات ما يحكى عن عمر ابن هبيرة وشريك النميرى ، وذاك أن عمر بن هبيرة كان سائراً على بِرْذَوْنٍ له ، وإلى جانبه شريك النميرى على بغلة ، فتقدمه شريك فى المسير ، فصاح به عمر : اغْضُضْ من لجامها ، فقال : أصلح الله الأمير ، إنها مكتوبة(١) ، فتبسم عمر ثم قال له : ويحك ! لم أرد هـذا ، فقال له شريك : ولا أنا أردته .

وكان عمر أراد قول جرير(٢) :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ　　فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

فأجابه شريك بقول الآخر(٣) :

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا نَزَلْتَ بِهِ　　عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ(٤)

وهذا من الألغاز اللطيفة ، وتفَطُّن كل من هذين الرجلين لمثله ألطف وأحسن .

ومما يجرى هذا المجرى أن رجلاً من تميم قال لشريك النميرى : ما فى الجوارح أحب إلىّ من البازى ؟ فقال له شريك : إذا كان يَصِيدُ القطا .

وكان التميمى أراد قول جرير(٥) :

---

(١) فى ا ، ب ، ج «مكبوبة» بتقديم الباء الموحدة ، وهو خطأ وصوابه «مكتوبة» بتقديم التاء المثناة ، وتقول : كتب الدابة والبغلة والناقة — من باب نصر وضرب — إذا خزم حياءها بحلقة حديد أو صفر تضم شفريها لئلا ينزى عليها . وهذه القصة فى خزانة الأدب (٤ — ١٦٨ بولاق) .

(٢) هذا البيت من قصيدة له يهجو فيها الراعى النميرى ، وأولها قوله :

أَقِلِّى اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا　　وَقُولِى إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

(٣) هذا البيت لسالم بن دارة من كلمة له يهجو فيها رافعا الفزارى ، وكان ابن دارة هجاء ، وقد قتله رافع الفزارى بسبب ذلك (انظر الشعراء لابن قتيبة ٢٣٦ أوربة).

(٤) فى ا ، ب ، ج « واكبتها بأسيار » بتقديم الباء الموحدة ، وهو تحريف وانظر اللسان (ك ت ب) والشعراء لابن قتيبة (ص ٢٣٧ أوربة) .

(٥) هـذا البيت من قصيدته التى يهجو فيها الراعى النميرى ، والتى منها البيت السابق فى القصة التى قبل هذه .

أَنَا الْبَازِى الْمُطِلُّ عَلَى نُمَيْرٍ ... أُتِيحَ مِنَ السَّمَاءِ لَهَا انْصِبَابَا

وأراد شريك قول الطِّرِمَّاح(١) :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ طُرْقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

واعلم أن خواطر الناس تتفاضل كتفاضل الأشخاص ، ومن ههنا قيل : سبحان خالق أبى موسى وعمرو بن العاص .

النوع الثانى والعشرون

فى المبادى والافتتاحات

هذا النوع هو أحد الأركان الخمسة البلاغية المشار إليها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب .

---

(١) هو الطرماح بن حكيم أحد بنى طيىء ، والبيت من كلمة له يهجو فيها تميما ، وقبله قوله :

وَلَوْ خَرَجَ الدَّجَّالُ يَنْشُدُ دِينَهُ ... لَوَافَتْ تَمِيمٌ حَوْلَهُ وَاُحْزَأَلَّتِ

فِرَاشَ ضَلَالٍ بِالْعِرَاقِ وَجَفْوَةٍ ... إِذَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَهَلَّتِ

فَخَرْتَ بِيَوْمِ الْعُقْرِ شَرْقِىَّ بَابِلٍ ... وَقَدْ جَبُنَتْ فِيهِ تَمِيمٌ وَفَلَّتِ

فَخَرْتَ بِيَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَكَ فَخْرُهُ ... وَقَدْ نَهِلَتْ مِنْكَ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ

كَفَخْرِ الإِمَاءِ الرَّائِحَاتِ عَشِيَّةً ... بِرَقْمِ حُدُوجِ الْحَىِّ لَمَّا اُسْتَقَلَّتِ

و بعد ذلك البيت الذى رواه المؤلف ، و بعد قوله :

وَلَوْ أَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ قَمْلَةٍ ... يَكُرُّ عَلَى صَفَّىْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ

وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعَهَا ... عَلَى ذَرَّةٍ مَعْقُولَةٍ لَاسْتَقَلَّتِ

وَلَوْ أَنَّ أُمَّ الْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا ... مَظَلَّتَهَا يَوْمَ النَّدَى لَا كَنَّتِ

وحقيقة هذا النوع : أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام : إن كان فتحاً ففتحا ، وإن كان هناء فهناء ، أو كان عزاء فعزاء ، وكذلك يجرى الحكم فى غير ذلك من المعانى .

وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع .

والقاعدة التى ينى عليها أساسه أنه يجب على الشاعر إذا نظم قصيداً أن ينظر؛ فإن كانت مديحاً صرفاً لايختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بغَزَل أو لايفتتحها بغزل ، بل يرتجل المديح ارتجالاً من أولها ، كقول القائل :

إنْ حَارَتِ الْأَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ فِى ذَا الْمَقَامِ فَعُذْرُهَا مَقْبُولُ
سَامِحْ بِفَضْلِكَ مَادِحِيكَ فَمَا لَهُمْ أَبَدًا إلَى مَا تَسْتَحِقُّ سَبِيلُ
إنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إلَّا مُحْسِنٌ فَالْمُحْسِنُونَ إذاً لَدَيْكَ قَلِيلُ

فإن هذا الشاعر ارتجل المديح من أول القصيدة فأتى به كما ترى حسناً لائقاً .

وأما إذا كان القصيد فى حادثة من الحوادث ؛ كفتح مُقْفَل أو هزيمة جيش أو غير ذلك ؛ فإنه لاينبغى أن يبدأ فيها بغزل ، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام فى مواضعه .

فإن قيل : إنك قلتَ : يجب على الشاعر كذا وكذا ، فلم ذلك ؟

قلت فى الجواب : إن الغزل رقّة محضة ، والألفاظ التى تنظم فى الحوادث المشار إليها من فَحْلِ الكلام ومتين القول ، وهى ضدُّ الغزل ، وأيضاً فإن الأسماع تكون متطلعة إلى مايقال فى تلك الحوادث ، والابتداء بالخوض فى ذكرها ، لا الابتداء بالغزل ؛ إذ المهم واجبُ التقديم .

ومن أدب هذا النوع ألَّا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح مايتطير منه ، وهذا يرجع إلى أدب النفس ، لا إلى أدب الدرس ؛ فينبغى أن يحترز منه فى مواضعه ، كوصف الديار بالدُّثُور والمنازل بالعَفَاء ، وغير ذلك من تشتت الآلاف وذم الزمان ، لاسيما إذا كان فى التهانى ؛ فإنه يكون أشد قبحاً ، وإنما يستعمل

ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحاً بشىء من ذلك تَطَيَّرَ منه سامعه .

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول مايطرق السمع من الكلام ؛ فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توَفَّرت الدواعى على استماعه ، ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة فى القرآن ، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور ، وكذلك الابتداءات بالنداء ، كقوله تعالى فى مفتتح سورة النساء : (يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) وكقوله تعالى فى أول سورة الحج : (يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه ، وكذلك الابتداءات بالحروف ، كقوله تعالى : (الم) و (طس) و (حم) وغير ذلك ؛ فإن هذا أيضاً مما يبعث على الاستماع إليه ؛ لأنه يَقْرَعُ السمع شىء غريب ليس له بمثله عادة ؛ فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه .

ومن قبيح الابتداءات قول ذى الرمة :

* مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ[1] *

لأن مقابَلةَ الممدوح بهذا الخطاب لا خَفَاء بقبحه وكراهته .

ولما أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها :

* خَفَّ القَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا[2] *

---

(١) هذا صدر المطلع وعجزه قوله :

* كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ *

قال العباسى فى معاهد التنصيص : « وكانت عين عبد الملك تدمع دائما ، فتوهم أنه خاطبه ، وعرض به ، فقال له : وما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ ومقته ، وأمر بإخراجه » اهـ .

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوًى فِى صَرْفِهَا غِيَرُ *

قال له عند ذلك : لا ، بل منك ، وتطير من قوله ؛ فغيرها ذو الرمة ؛ وقال :

* خَفَّ القَطِينُ فَرَاحُوا الْيَوْمَ أَوْ بَكَرُوا *

ومَنْ شاء أن يذكر الديار والأطلال فى شعره فليتأدب بأدب القَطَامى على جَفَاء طبعه ، وبُعْدِه عن فطانة الأدب ؛ فإنه قال :

* إنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ(١) *

فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة ،

وقد قيل : إن امرأ القيس كان يجيد الابتداء ، كقوله :

* أَلاَ انْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبالى(٢) *

وكقوله :

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ(٣) *

ومما يكره من الابتداءات قول أبى تمام :

* تَجَرَّعْ أَسًى قَدْ أَقْفَرَ الْجَرَعُ الْفَرْدُ(٤) *

وإنما ألقى أبا تمام فى مثل هذا المكروه تَتَبُّعه للتجنيس بين تجرع والجرع ،

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطِّيَلُ *

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العُصُرِ الْخَالِى *

ويروى « ألا عم » ، و « وهل يعمن » .

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ *

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة ، وعجزه قوله :

* وَدَعْ حِسْىَ عَيْنٍ يَحْتَلِبْ مَاءَهُ الْوَجْدُ *

وهذا دأب الرجل ؛ فإنه كثيرًا ما يقع فى مثل ذلك .

وكذلك استقبح قول البحترى :

* فُؤادٌ مَلاهُ الحُزْنُ حَتَّى تَصَدَّعا[1] *

فإن ابتداء المديح بمثل هذا طِيَرَةٌ ينبو عنها السمع ، وهو أجدر بأن يكون ابتداء مَرْثِيَة لامديح ، وما أعلم كيف يخفى على مثل البحترى وهو من مفلق الشعراء .

وحكى أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه ، وأمرهم أن يخرجوا فى زينتهم ؛ فما رأى الناسُ أحْسَنَ من ذلك اليوم ؛ فاستأذن إسحٰق بن إبراهيم المَوْصِلى فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشد شعرًا حسنًا أجاد فيه ، إلا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها ، فقال :

يَا دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى وَمَحَاكِ ... يَا لَيْتَ شِعْرِى مَا الَّذِى أبْلاكِ

فتطير المعتصم بذلك ، وتغامز الناس على إسحٰق بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ، ثم أقاموا يَوْمَهم وانصرفوا ، فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم إلى سُرَّ مَنْ رأى ، وخرب القصر .

فإذا أراد الشاعر أن يذكر دارا فى مديحه فليذكر كما ذكر أشْجَعُ السُّلَمِىُّ حيث قال :

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وسَلامُ ... خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمالَها الأيّامُ

وما أجدر هذا البيت بمفتتح شعر إسحٰق بن إبراهيم الذى أنشده للمعتصم ؛ فإنه لو ذكر هذا أو ما جرى مجراه لكان حسنا لائقا .

---

(١) لم أجد هذا فى شعر البحترى ، وإنما وجدت له بيتا قريبا من معنى ذلك وهو قوله رابع بيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب :

عَلَى أنَّ قَلْبِى قَدْ تَصَدَّعَ شَمْلُهُ ... فُنُونًا لِشَمْلِ البِيضِ حِينَ تَصَدَّعَا

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال : مَنْ أجاد الابتداء والمَطْلَع ؛ ألا ترى إلى قصيدة أبى نواس التى أولها :

يا دارُ ؛ ما فعلَتْ بكِ الأيّامُ ❊ لَمْ تُبقِ فيكِ بَشاشَةً تُستامُ

فإنها من أشرف شعره وأعلاه منزلة ، وهى مع ذلك مستكرهة الابتداء ؛ لأنها فى مدح الخليفة الأمين ، وافتتاح المديح بذكر الديار ودُثورها مما يُتَطَيَّر منه ، لا سيما فى مشافهة الخلفاء والملوك .

ولهذا يختار فى ذكر الأماكن والمنازل ما رَقَّ لفظه ، وحسن النطق به ، كالعُذَيْب والْغُوَير ورامَة وبَارِق والْعَقيق ، وأشباه ذلك .

ويختار أيضا أسماء النساء فى الغزل نحو سُعَاد وأُمَيْم وفَوْز ، وما جرى هذا المجرى .

وقد عيب على الأخطل فى تغزّله بقذور ، وهو اسم امرأة ؛ فإنه مستقبح فى الذكر ، وقد عيب على غيره التغزل باسم تُماضر ، فإنه وإن لم يكن مستقبحا فى معناه فإنه ثقيل على اللسان ، كما قال البحترى :

إنَّ لِلْبَيْنِ مِنَّةً لا تُؤَدَّى ❊ وَيَداً فِى تُماضِرٍ بَيْضاء

فتغزله بهذا الاسم مما يشوّه رقّة الغزل ، ويثقل من خفته ، وأمثال هذه الأشياء يجب مراعاتها والتحرز منها .

وقد استثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمن وقعة من الوقائع ؛ فإن ذكره لا يكره ، وإن كان فى اسمه كراهة ، كما ذكر أبو تمام فى شعره مواضع مكروهة الأسماء لضرورة ذكر الوقائع التى كانت بها ، كذكر الحشال وعقوقس وأمثالهما ، وكذلك ذكر أبو الطيب المتنبى هنزيط وشميصاط وما جرى مجراها ، وهذا لا عيب فى ذكره ؛ لمكان الضرورة التى تدعو إليه ، وهكذا يسامح الشاعر والكاتب أيضا فى ذكر مالا بد من ذكره وإن قبح ، ومهما أمكنه من التورية فى هذا المقام فليسلكها ، ومالا يمكنه فإنه معذور فيه .

واعلم أنه ليس من شرط الابتداء ألّا يكون مما يتطير منه فقط ؛ فإن من الابتداءات ما يستقبح وإن لم يتطير منه ، كقول أبي تمام :

* قَدْكَ اتَّئِبْ أرْبَيْتَ فِي الْغُلَوَاءِ(١) *

وكقوله(٢) :

* تَقِي جَمَحَاتِي لَسْتُ طَوْعَ مُؤَنِّبِي(٣) *

وكقول أبي الطيب المتنبي :

* أقَلُّ فعَالِي بَلْهَ أكْثَرَهُ مَجْدُ(٤) *

وكقوله :

* كُفِّي أرَانِي وَيْكِ لَوْمَكِ ألْوَمَا(٥) *

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت ، وعجزه قوله :

* كَمْ تَعْـذِلُونَ وَأنْتُمُ سُجَرَائي *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها عياش بن لهيعة الحضرمي ، وعجزه قوله :

* وَلَيْسَ حَبِيبِي إنْ عَذَلْتِ بِمُصْحِبِي *

(٣) تقي : فعل أمر مسند إلى ياء المؤنثة المخاطبة ، وهو مقتطع من اتقى ، ومثله قول الشاعر :

زِيَادَتَنَا نُعْمَانُ لاَ تَقْرَبَنَّهَا تَقِ اللهَ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو

(٤) هـذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي ، وعجزه قوله :

* وَذَا الْجِدُّ فِيهِ ـ نِلْتُ أمْ لَمْ أنَلْ ـ جَدُّ *

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له في مدح إنسان غير معين ، وهو مما قاله في صباه ، وعجزه قوله :

* هَـــمٌّ أقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أنْجَمَا *

والعجب أن هذين الشاعرين المفلقين يبتدئان بمثل ذلك ، ولهما من الابتداءات الحسنة ما أذكره .

أما أبو تمام فإنه افتتح قصيدته التى مدح بها المعتصم عند فتحه مدينة عَمُّورية فقال :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَاسُودُ الصَّحَائِفِ فِى ... مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

وهذه الأبيات لها قصة ، وذلك أنه لما حضر المعتصم مدينة عمورية زعم أهل النجَامة أنها لا تفتح فى ذلك الوقت ، وأفاضوا فى هذا ، حتى شاع ، وصار أحدوثة بين الناس ، فلما فُتحت بنى أبو تمام مطلع قصيدته على هذا المعنى ، وجعل السيف أصدق من الكتب التى خَبَّرَتْ بامتناع البلد واعتصامها ؛ ولذلك قال فيها :

وَالْعِلْمُ فِى شُهُبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةً ... بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْنَ الرِّوَايَةُ أَمْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبِ

وهذا من أحسن ما يأتى فى هذا الباب .

وكذلك قوله فى أول قصيدة يمدحه بها أيضاً ، ويذكر فيها خروج بابك الخرمى عليه ، وظفره به ، وهى من أمهات شعره ، فقال :

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ ... فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وكذلك قوله متغزلاً :

عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا ... وَأَنْ تُعْتِبَ الْأَيَّامُ فِيهِمْ فَرُبَّمَا

وهذا من الأغزال الحلوة الرائقة ، وهو من محاسن أبى تمام المعروفة .

وكذلك قوله فى أول مرثية :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِى وَإِنْ كانَ أَسْمَعَا ... وَأَصْبَحَ مَغْنَى الجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وأما أبو الطيب فإنه أكثر من الابتداءات الحسنة فى شعره ؛ كقوله فى قصيدة يمدح بها كافوراً ؛ وكان قد جرت بينه و بين ابن سيده نزغة ، فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود ، فقال :

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِى ... وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ

وهذا من بديع الابتداء ونادره .

وكذلك ورد قوله فى سيف الدولة ، وكان ابن الشُّمُشْقِيق (١) حلَفَ لَيَلْقَيَنَّهُ كِفَاحًا ، فلما التقيا لم يطق ذلك ، وولى هاربا ، فافتتح أبو الطيب قصيدته بفَحْوَى الأمر ، فقال :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ ... مَاذَا يَزِيدُكَ فى إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وَفى الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ ... مَا دَلَّ أَنَّكَ فى الْمِيعَادِ مُتَّهَمُ

وكذلك قوله وقد فارق سيف الدولة وسار إلى مصر ، فجمع بين ذكر فراقه إياه ولقائه كافورًا فى أول بيت من القصيدة ، فقال :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ ... وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

ومن البديع النادر فى هذا الباب قوله متغزلاً فى مطلع قصيدته القافية ، وهى :

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ ... تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى الْمَآقِى

---

(١) قال العكبرى : « وهذا إشارة إلى تكذيب البطريق الذى حلف لملك الروم أنه لابد أنه يلقى سيف الدولة فى بطارقته ، و يجتهد فى لقائه بالبطارقة ؛ ففعل ، فخيب الله ظنه ، وأتعس جده ، فذكر ذلك أبو الطيب يرد عليه و يهجوه ، و يريد لو كنت ممن إذا قال وفى لم تحتج إلى اليمين » اهـ ، و بعد البيتين قوله :

آلَى الْفَتَى ابْنُ شُمُشْقِيقٍ ، فَأَحْنَثَهُ ... فَتًى مِنَ الضَّرْبِ تُنْسَى عِنْدَهُ الْكَلِمُ

وَفَاعِلٌ مَا اشْتَهَى يُغْنِيهِ عَنْ حَلِفٍ ... عَلَى الْفِعَالِ حُضُورُ الْفِعْلِ وَالْكَرَمُ

وله مواضع أخر كثيرة لا حاجة إلى ذكرها .

ومن محاسن الابتداءات التى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة ما قرأته فى كتاب الروضة لأبى العباس المبرد ، فإنه ذكر غَزْوَةً غزاها الرشيد هرون رحمه الله فى بلاد الروم ، وأن نقفُورَ مَلِكَ الروم خضع له ، وبذل الجزية ، فلما عاد عنه واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقَضَ نقفورُ العهدَ ، فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد ؛ لمكان هيبته فى صدور الناس ، وبذل يحيى بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا أشعارًا فى إعلامه ، فكلهم أشْفَقَ من لقائه بمثل ذلك ، إلا شاعرا من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وكان شاعرا مُفْلِقًا ، فنظم قصيدًا وأنشدها الرشيد ، أولها :

نَقَضَ الَّذِى أَعْطَيْتَهُ نقفُورُ ... فعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ
أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ ... فَتْحٌ أَتَاكَ بِهِ الْإِلٰهُ كَبِيرُ
نقفُورُ؛ إنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ ـ أَنْ نَأَى ... عَنْكَ الْإِمَامُ ـ لَجَاهِلٌ مَغْرُورُ
أَظَنَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مُفْلِتٌ ... هَبِلَتْكَ أُمُّكَ ! مَاظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد : أو قد فعل ؟ ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هِرَقْلَةَ .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الإصبهانى ما رواه من شعر سَدِيف فى تحريض الخليفة السَّفَّاح رحمه الله على بنى أمية ، فقال : قدم سَدِيفٌ من مكة إلى الحيرة ، والسفاحُ بها ، ووافق قدومه جلوس السفاح للناس ، وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسى تَكْرِمَةً لهم ؛ فلما دخل عليه سديف حَسَرَ لثامه ، وأنشده أبياتًا من الشعر ؛ فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك ، وقال لآخر إلى جانبه : قتلَنَا والله العبدُ ، فلما أنهى الأبيات أمر بهم السفاح فأُخرجوا من بين يديه وقُتلوا عن آخرهم ، وكتب إلى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وَجَدُوه منهم ، ومن الأبيات :

أَصْبَحَ الدِّينُ ثَابِتاً فِى الأَسَاسِ ... بِالْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ (١)
أَنْتَ مَهْدِيُّ هَاشِمٍ وَهُدَاهَا ... كَمْ أُنَاسٍ رَجَوْكَ بَعْدَ إِيَاسِ
لَا تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَاراً ... وَاقْطَعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ وَغِرَاسِ
أَنْزِلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللّٰهُ بِدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِتْعَاسِ
خَوْفُهُمْ أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ فِيهِمْ ... وَبِهِمْ مِنْكُمْ كَحَزِّ الْمَوَاسِى
أَقْصِهِمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ وَاحْسِمْ ... عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَأْفَةَ الْأَرْجَاسِ
وَاذْكُرَنْ مَصْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدٍ ... وَقَتِيلاً بِجَانِبِ الْمِهْرَاسِ (٢)
وَلَقَدْ سَاءَنِى وَسَاءَ سِوَائِى ... قُرْبُهُمْ مِنْ مَنَابِرٍ وَكَرَاسِى

وهذه الأبيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحًا وابتداء وتحريضاً وتأليباً ، ولو وصفتها من الأوصاف بما شاء الله وشاء الإسهاب والإطناب لما بلغتُ مقدار مالها من الحسن .

ومن لطيف الابتداءات ما ذكره مِهْيار (٣) ، وهو :

---

(١) الذى فى شعر سديف ، وهو مروى فى كثير من كتب التاريخ والأدب :

أَصْبَحَ الْمُلْكُ ثَابِتَ الآسَاسِ ... بِالْبَهَالِيلِ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ

(٢) وقع فى ا ، ب ، ح « بجانب الهرماس » وهو تحريف ، وصوابه « بجانب المهراس » . والمهراس ـ بكسر الميم وسكون الهاء ـ ماء بجبل أحد . والقتيل الذى بجانب المهراس : هو حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان مقتله فى غزاة أحد ، قتله عبد اسمه وحشى بتحريض هند أمّ معاوية ابن أبى سفيان ، انظر ياقوت فى « مهراس » أما الهرماس ـ بكسر الهاء وسكون الراء فنهر نصيبين ، وموضع فى المعرة .

(٣) انظر الديوان (٣ ـ ١٩٤ دار الكتب) وبعد البيتين اللذين رواهما المؤلف قوله .

وَقَالَ فَلَمْ تَقْبَلْ وَلٰكِنْ تَلَوَّمَتْ ... عَلَى أَنَّهُ مَا قَالَ إِلَّا لِتَقْبَلَا

أَمَا وَهَوَاهَا عِذْرَةً وَتَنَصُّلاَ لَقَدْ نَقَلَ الْوَاشِى إِلَيْهَا فَأَمْحَلاَ
سَعَى جُهْدَهُ ، لَـكِنْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ ، وَلَوْ شَاءَ قَلَّلاَ

فإنه أبرز الاعتذار فى هيئة الغزل ، وأخرجه فى مَعْرِض النسيب ، وكان وشى به إلى الممدوح ، فافتتح قصيدته بهذا المعنى فأحسن .

ومما جاء على نحو من ذلك قول بعض المتأخرين من العراقيين :

وَرَاءكَ أَقْوَالُ الْوُشَاةِ الْفَوَاجِرِ وَدُونَكَ أَحْوَالُ الْغَرَامِ الْمُخَامِرِ
وَلَوْلاَ وَلُوعٌ مِنْكَ بِالصَّدِّ مَا سَعَوْا وَلَوْلاَ الْهَوَى لَمْ أَنْتَدِبْ لِلْمَعَاذِرِ

فسلك فى هذا القول مسلك مهيار ، إلا أنه زاد عليه زيادة حسنة ، وهى المعاتبة على الإصغاء إلى أقوال الوشاة والاستماع منهم ، وذلك من أغرب ما قيل فى هذا المعنى .

ومن الْحَذَاقة فى هذا الباب أن تجعل التحميدات فى أوائل الكتب السلطانية مناسبةً لمعانى تلك الكتب ، وإنما خصصت الكتب السلطانية دون غيرها لأن التحاميد لا تصدر فى غيرها ؛ فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد ، كفتح مُقْفَل أو هزيمة جيش ، أو ما جرى هذا المجرى .

ووجدت أبا إسحق الصابى ــ على تقدمه فى فن الكتابة ــ قد أخلَّ بهذا

وَطَارَحَهَا أَنِّى سَلَوْتُ ، فَهَلْ رَأَى لَهُ الذَّمُّ مِثْلِي عَنْ هَوًى مِثْلِهَا سَلاَ

وفى الديوان قبل ذكر القصيدة : «واتفق أن بعض الحسدة والسعاة وشى به فى أمر محال اتصل بحضرة الملك شاهنشاه جلال الدولة ركن الدين أبى طاهر بن بويه ، فاقتضى أن استدعى إلى داره ، واعتقل ليلة على كشف الصورة اعتقالا مميزا جميلا ، ثم انكشفت له البراءة مما حكاه الساعى به ، وقنع الملك بقوله ووثق بصحته ، وبالغ فى الإنعام بتمييزه وأفرج عنه إفراجا طيبا مجملا ، وكان فى عرض ذلك استبطأ منه خدمة مجلسه بالشعر ، واستنكر مايستعمله مع خدمة أوليائه من المدح ، وما يخل به من فروض خدمته ، فقال يشكر نعمته ويذكر القصة ، ويعرض بالساعى ، ويمدحه ، وأنشدها بحضرته يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة » اه .

الركن الذى هو من أوكد أركان الكتابة ، فإذا أتى بتحميدة فى كتاب من هذه الكتب لاتكون مناسبةً لمعنى ذلك الكتاب ، وإنما تكون فى وادٍ والكتاب فى واد ، إلا ما قل من كتبه .

فما خالف فيه مطلع معناه[1] أنه كتب كتابا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الأتراك[2] عنها ، وكان ذلك فتحاً عظيما ؛ فابتدأ بالتحميد ، فقال : الحمدُ لله رب العالمين ، الملكِ الحقِّ المبين ، الوحيد الفريد ، العلى المجيد ، الذى لا يوصف إلا بسلب الصفات ، ولا ينعت إلا برفع النعوت ، الأزلى بلا ابتداء ، الأبدى بلا انتهاء ، القديم لا منذ أمد محدود ، الدائم لا إلى أجل معدود ، الفاعل لا من مادة استمدَّها ، ولا بآلة استعملها ، الذى لا تُدْرِكه الأعين بِلِحَاظها ، ولا تحدُّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها ، ولا تضارعه الأجسام بأقطارها ، ولاتجانسه الصور بأعراضها ، ولا تجاريه أقدام النظر أوالأشكال ، ولاتزاحمه مناكب القرناء والأمثال ، بل هو الصَّمَد الذى لا كفء له ، والفَذُّ الذى لا توْأم معه ، والحى الذى لا تخرمه المنون ، والقيوم الذى لا تشغله الشئون ، والقدير الذى لا تئودُه المعضلات ، والخبير الذى لا تُعْيِيه المُشْكِلات .

وهذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذى افتتح بها ، ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مُصَنَّف من مصنفات أصول الدين ، ككتاب الشامل للجوينى ، أو كتاب الاقتصاد ، أو ما جرى مجراها ، وأما أن توضع فى صدر كتاب فتحٍ فلا .

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ والأحسن « فما خالف فيه المطلع معناه » .

(٢) هذه الرسالة موجودة فى رسائل الصابى (ص ١٠) بدون هذه التحميدة التى نقدها المؤلف ، وأول الرسالة كما فى الرسائل : « أما بعد فإن لله قضايا نافذة وأقدارا ماضية فيهن النعم السوابغ والنقم الدوامغ » .

وهو وإن أساء فى هذا الموضع فقد أحسن فى مواضع أخر، وذاك أنه كتب كتابا عن الخليفة الطائع رحمه الله تعالى إلى الأطراف عند عَوْدِه إلى كرسى ملكه، وزوال ما نزل به وبأبيه المطيع رحمه الله من فادحة الأتراك؛ فقال[١]:

الحمد لله ناظم الشمل بعد شَتَاته، وواصل الحبل بعد بتَاته، وجابر الوَهْن إذا ثلم[٢]، وكاشف الخطب إذا أظلم، والقاضى للمسلمين بما يَضُمُّ نشرهم، ويَشُدُّ أَزْرَهُم، ويصلح ذاتَ بَيْنِهِمْ[٣]، ويحفظ الألفة عليهم، وإن شابت ذلك فى الأحيان شوائب من الحدثان فلن يتجاوز[٤] بهم الحد الذى يُوقِظُ غافلهم، ويُنَبِّهُ ذاهِلَهم، ثم إنهم عائدون إلى فضل[٥] ما أولاهم الله وعوَّدهم، ووثّق لهم ووعدهم، من إيمان سِرْبِهِمْ[٦]، وإعْذَاب شُرْبهم، وإعزاز جانبهم، وإذلال مُجَانبهم، وإظهار دينهم على الدين كله ولو كره المشركون.

وهذه تحميدة مناسبة لموضوع الكتاب، وإن كانت المعانى فيها مكررة كالذى أنكرته عليه وعلى غيره من الكُتَّاب، وقدمت القول فيه فى باب السجع؛ فليؤخذ من هناك.

ومن المبادى التى قد أُخْلِقَتْ وصارت مُزْدَرَاة أن يقال فى أوائل التقليدات: إن أحق الخِدَم بأن ترعى خدْمَةُ كذا وكذا، وإن أحق من قُلِّد الأعمال مَن اجتمع فيه كذا وكذا؛ فإن هذا ليس من المبادى المستحسنة، ومَن استعمله أوَّلاً

---

(١) انظر رسائل الصابى (ص ١٦٠ بيروت).

(٢) فى الرسائل «إذا انثلم».

(٣) سقطت هذه الجملة من الرسائل.

(٤) فى ا، ب، ج «تتجاوز» والذى أثبتناه عن الرسائل.

(٥) فى الرسائل «إلى أفضل ما أولاهم».

(٦) فى الرسائل «من أثمان» والذى هنا أحسن، وهذا إشارة إلى الحديث «من أصبح آمنا فى سربه» والسرب: النفس.

فقد ضعفت فكرته عن اقتراح ما يحسن استعماله من المبادى ، والذى تبعه فى ذلك إما مُقلِّد ليس عنده قوة على أن يختار لنفسه ، وإما جاهل لا يفرق بين الحسن والقبيح والجيد والردىء ، وأهلُ زماننا هذا من الكتاب قد قصَرُوا مبادئَ تقاليدهم على هذه الفاتحة دون غيرها ، وإن أتوا بتحميدة من التحاميد كانت مباينة لمعنى التقليد الذى وضعت فى صدره ، وكذلك قد كان الكتاب يستعملون فى التقليدات مَبْدَأً واحدًا لا يتجاوزونه إلى غيره ، وهو « هذا ما عهد فلان إلى فلان» والتحميد خير ما افتتح به التقليدات وكتب الفتوح وما جرى مجراهما ، وقد أنكرتُ ذلك على مستعمله فى مفتتح تقليد أنشأته بولاية وال فقلت : كانت التقليدات تُفْتَتَح بكلام ليس بذى شان ، ولا يوضع فى ميزان ، ولا يجتنى من أفنان ، وغاية ما يقال هذا ما عهد فلان إلى فلان ، وتلك فاتحة لم تكن جديدة فتخلق بتطاول الأيام ، ولا حسنة النظم فيُضَاهى بمثلها من ذوات النِّظَام ، وهذا التقليد مفتتح بحمد الله الذى تكفَّل لحامده بالزيادة ، وبدأ النعمة ثم قرَنها من فضله بالإعادة ، وهو الذى بلغ بنا [مِنْ] مآرِب الدنيا مُنْتَهَى الإرادة ، وسَلَّم إلينا مَقَادَه فذلل لنا بها كل مَقَادة ، ووسّد الأمر منا إلى أهله فاستوطأت الرعايا منه على وسادة ، ونرجو أن يَجْمَعَ لنا بين سعادة الأولى والأخرى حتى تتصل هذه السعادة بتلك السعادة ، ثم نُصَلِّى على نبيه محمدٍ الذى مَيَّزَه الله على الأنبياء بشرف السيادة ، وجعل انشقاق القمر له من آيات النبوة وانشقاق الإيوان من آيات الولادة ، وعلى آله وأصحابه الذين شادوا الدين من بعده فأحسنوا فى الإشادة ، وبُسِطت عليهم الدنيا كما بسطت على الذين من قبلهم فلم يَحُولُوا عن خُلُق الزَّهادة ، أما بعد كذا وكذا ، ثم أنهيت التقليد إلى آخره .

ومن الْحَذَاقة فى هذا الباب أن يجعل الدعاء فى أول الكتاب من السلطانيات والإخوانيات وغيرهما مضمنًا من المعنى ما بُنِيَ عليه ذلك الكتاب ،

وهذا شىء انفردت بابتداعه ، وتراه كثيرا فيما أنشأته من المكاتبات ؛ فانى توخَّيْتُه فيها وقصدته .

فمن ذلك ما كتبته فى الهناء بفتح ، وهو : هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامى الفلانى جَدّد الله له فى كل يوم فتحا ، وبدل عرش كل ذى سلطان لديه صَرْحا ، وجعل كلَّ موقف من مواقف جوده و بأسه يومَ فِطْرٍ ويومَ أضْحَى ، وكتب له على لسان الإسلام ولسان الأيام ثناء خالداً ومَدْحا ، وأسكنه بعد العمر الطويل داراً لا يظمأ فيها ولا يَضْحَى ، ثم أخذتُ بعد ذلك فى إنشاء الكتاب المتضمن ما يقتضيه معانى ذلك الفتح .

ومن ذلك ما ذكرته فى الهناء بمولود ، وهو : جَدَّدَ الله مَسَرَّاتِ المجلس السامى الفلانى ووصل صَبُوحَ هنائه بغَبُوقه ، وأمتعه بسليله المبشَّر بطروقه ، وأبقاه حتى يستضىء بنوره و يرمى عن فُوقِهِ ، ومَرَّ به أبكار المعانى حتى تخلق أعطافها بخلُوقه ، وجعله كزَرْع أخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ ، ثم أخذتُ فى إتمام الكتاب بالهناء بالمولود على حسب ما اقتضاه ذلك المعنى .

فتأمل ما أوردته ههنا من هذين المثالين ، وانْسُجْ على منوالهما فيما تقصده من المعانى التى تبنى عليها كتبك ؛ فان ذلك من دقائق هذه الصناعة .

وأما فواتح الكتب التى أنشأتها فمنها ما اخترعته اختراعا ولم أسبق إليه ، وهى عدة كثيرة ، وقد أوردت ههنا بعضها .

فمن ذلك مفتتح كتاب إلى ديوان الخلافة ، وهو : نشأت سحابة من سَمَاء الديوان العزيز النبوى جعل الله الخلود لدولته أوطانا ، والحدود لها أركانا ، ونصب أيامها فى أيام الدهر أحْيانا ، وصَوَّرها فى وجهه عيناً وفى عينه إنسانا ، ومَدَّ ظِلَّها على الناس عدلا وإحسانا ، وجمع الأمم على دين طاعتها و إن تفرّقوا أدْيَانا ، وأتاها من معجزات سلطانه مالم ينزل به لغيرها سلطانا ، فارتاح الخادمُ

لالتقائها ، وبسط يده لاستسقائها ، وقال : رحمة مرسلة لا تخشى رعودها ، وَلا تُخْلَف وعودها ، ومن شأنها تَرْوِيضُ الصنائع التى تبقى آثارها ، لا الخمائل التى تَذْوِى أزهارها ، وقد يعبر عن الكتاب ونائله ، بالسحاب ووابله ؛ فإن صَدَرَ عن يَدِ كَيَدِ الديوان العزيز فقد وقع التشبيه موقع الصواب ، وصدق حينئذ قول القائل : إن البحر عُنْصُر السحاب ، لكن فَرْقٌ بين مايجود بمائه ، ومايجود بنعمائه ، وبين مايَسِمِ الأرض الماحلَةَ ، وبين مايَسِمِى الأقدار الخاملة ، ومازالت كتبُ الديوان العزيز تُضْرَبُ لها الأمثال ، وتُصْرَفُ نحوها الآمال ، وَيُرَى الحسد فيها حسناً وإن عُدَّ فى غيرها من سيِّئ الأعمال . وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وأرسلته إليه من المَوْصِل إلى أرض الشمال من بلاد الروم ، وهو : طلَعَ كوكبٌ من أفق المجلس السامى لا خلَتْ سيادته من عدو وحاسد ، ولا شينت بتَوْأم يخرجها عن حكم الواحد ، ولا عَدِمَتْ صحبة الجُدُود المتيقِّظة فى الزمن الراقد ، ولا أوحشت الدنيا من ذكره الخالد الذى هو عمر خالد ، ولا زال مرفوعا إلى المحل الذى يعلم به أن الدهر للناس ناقد ، والكواكب تختلف مطالعها فى الشمال والجنوب ؛ فمنها ما يطلع دائما فى أحدهما وهو فى الآخر دائم الغروب ، وكتابُ المجلسِ كوكبٌ لم يُرَ بهذه الأرض مطلعه ، وإن عُلِم من السماء أين موضعه ، ولما ظهر الآن للخادم سبَّحَ له حامداً ، وخرّ له ساجداً ، وقال : قد عُبِدَتِ الكواكبُ من قبلى فلا عَجَبَ أن أكون لهذا الكوكب عابدا ، وهاأنا قدأصبحت بالعكوف على عبادته مُغْرَى ، وقال الناس : هذا ابنُ كَبْشَةِ الْكِتَابِ (١) لا ابْنُ أبى كَبْشَةِ الشِّعْرَى .

وهذا مطلع غريب ، والسياقة التالية لمطلعه أغرب ، ومن أغرب ما فيها قولى «وهاأناقدأصْبَحْتُ بالعكوف على عبادته مغرى ، وقال الناس هذا ابن كبشة الكتاب (١)

(١) كذا فى جميع الأصول ، والصواب « هذا ابن أبى كبشة الكتاب »

لابن أبى كبشة الشعرى » والمراد بذلك أن ابن كبشة[1] كان رجلا فى الجاهلية يَعْبُدُ الشِّعْرَى فخالف بذلك دينَ قومه ، ولما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قالت قريش : هذا قد خالف ديننا ، وسموه « ابن أبى كبشة » أى أنه قد خالفنا كما خالف أبو كبشة قومه فى عبادة الشعرى ، فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتابى هذا فجاء كما تراه مبتدعا غريبا .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان بالشام ، وهو : طَلَعَتْ من الغرب شمسٌ فقيل : قد آذنت أشراط الساعة بالاقتراب ، ولم يعلم أن تلك الأنوار إنما هى أنوار الكتاب ، لم تألف الأبصار من قبله أن تطلع الشمس من المغرب ، وليس ذلك إلا كتاب المجلس لا سَلَبَهُ الله مزية هذا الوصف الكريم ، وأتاه من الفضل ما يقال معه وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم ، وأحيا النفوس من كَلْمِهَا بروح كَلِمِهِ كما شفى غليلها من أقلامه بسقيا الكليم ، ولما ورد عن الخادم صار ليله نهارا ، وأصبح الناس فى الحديث به أطوارا ، والمنصف منهم يقول : قد جرت الشمس إلى مُسْتَقَرِّهَا والشمس لا تجد قرارا .

وهذا الكتاب فى الحسن والغرابة كالذى قبله .

ومن جملة الكتب المشار إليها مُفْتَتَح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ، وهو : تأَوّبَ زَوْرٌ من جانب المجلس السامى أدنى الله داره ، وجعل كلماتِهِ التامةَ جَارَه ، وأشهد أفعال التقوى ليله وأفعال المكارم نهاره ، ووهبه من أعوام العمر طواله ومن أعوام العيش قصاره ، ولا أقدر السابقين إلى المعالى أن يجْرُوا معه ولا أن يَشُقوا غُبارَه ، وليس ذلك الزَّوْرُ إلا سطورا فى قرطاس ، ولا فرق بين الكتاب و بين مُرْسِلِهِ فى مُلَاطفة الإيناس ، والله لا يصغر ممشى هذا الزائر ، ويُقِر عينى برؤيته حتى لا أزال به قرير الناظر ، ومع هذا فإنى عاتب لتأخره

(١) كذا ، والصواب « أن أبا كبشة » على ما يأتى .

وههنا مظنة العتاب ، ومَنْ تأخر عنه كتابُ صديقِهِ فلا بدَّ أن يخطر له خاطر الارتياب ، والضَّنِين بالمودَّة[١] لا يرى إلا ظَنيناً ، وقد قيل إنها وديعة وقليلاً ماتجد على الودائع أميناً .

وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ، وهو : سَنَحَتْ رَوْضَةٌ من جانب المجلس السامى جعل الله المعالىَ له رِدَاء ، ونهاياتِ المساعى له ابتداء ، وفَدَاه بمن يقصر عن درجته حتى تكون الأكارم له فداء ، وهَدَى المحامدَ لأفعاله وأهدى البقاء لأيامه حتى يجتمع له الأمران هُدًى وإهداء ، وأتاه من السيادة مايجعل أعداءه أصادقَ ومن السعادة مايجعل أصدقاءه أعداء ، فاستنشق الخادم رُبَاها ، وتلق بالتحية مُحيَّاها ، واستمتع بأزهارها التى أنبتها سقيا الأقلام لا سقى الغمام ، وقال : هذا ربيع الأرواح لا ربيع الأجسام ، ولو رام الإحاطة بوصفها لكانت الأقوال المطولة فيها مختصرة ، ولكنه اكتفى بأن رفعها على رأسه حتى يتمثل أن الجنة فى شجرة ، ومن أوصافها أنها جاءت رائدة ومن شأن الروض أن يُرْتَاد ، وحلت محاسنها التى هى فى غيرها من حظ البصر وفيها من حظ السمع والبصر والفؤاد ، ولما سَرَّحَ فيها نظره وجد شوقه حمامة تغرد فى أكنافها ، وتُرَدِّد الشَّجَى لبعد أليفها إذا رددته الحمائم لقرب أُلَّافها ، وهذا قول له عند إخوان الصفاء علامة ، وإذا تمثل كتاب الحبيب روضة فهل يتمثل شوق مُحِبِّه إلا حمامة ، وأىُّ فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الأطواق ؟ لولا أنها تملى شجوها على صفحات القلوب وتلك تمليه على عَذَبَات الأوراق .

وهذا فصل من الكتاب ، وهو غريب عجيب ، وفيه معنيان مبتدعان ، وأعجبهما وأغربهما قولى : « حتى يتمثل أن الجنة فى شجرة » وهذا مستخرج من الحديث النبوى .

ومن جملة الكتب المشار إليها مفتتح كتاب كتبته إلى بعض الإخوان ،

(١) فى ا ، ب ، ج « والظنين بالمودة » .

وهو : تَضَوَّعَتْ نَفْحَةٌ من تلقاء المجلس السامى رعى الله عهده وسقاه ، وصان وُدَّه ووقاه ، ويسر لى إلقاء العصا بمُلْقاه ، فعطرت الطريق التى سايرتها ، والريح التى جاورتها ، وأتت فأفرشتها خدى ، وضممت عليها ودى ، وجعلتها درعا لجيبى ولطيمة لردنى وسخابا لعقدى ، وعلمت أنها ليست بنفحة طيب ، ولكنها كتاب حبيب ، فإن مَنَاشِقَ الأرواح غير مناشق الأجسام ، ولا يستوى عَرْفُ الطِّيب وعَرْفُ الأقلام ، ثم مددت يدى إلى الكتاب بعد أن صافحت يد موصله ، كما صافحت عَبْقَةَ مَنْدَلِهِ ، وقلت : أهلاً بمن أدْنَى من الحبيب مزارا ، وأهدى لعينى قُرَّةً ولقلبى قَرَارا .

وهذا فى الغرابة كأخواته التى تقدمت .

ولم أستقص ما اخترعته من هذا الباب فى مطالع الكتب .

وأما ما أتيت فيه بالحسن من المعانى ولكنه غير مخترع ؛ فمن ذلك مطلع كتاب كتبته عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الملك الأفضل على بن يوسف يتضمن تعزيةً وتهنئة : أما التعزية فبوفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فبوراثة الملك من بعده ، وهو : لايَعْلَمُ القلمُ أينطق بلسان التعزية أم بلسان التهنية ، لكنه جمعهما جميعاً فأتى بهما على حكم التثنية ، وفى مثل هذا الخطب يظل القلم حائرا ، وقد وَقَفَ موقفَ السخط والرضا فسخط أولاً ثم رضى آخرا ، وهذا البيت الناصرىّ يَتَدَاوَلُ درجاتِ العُلَى فما تمضى إلا وإليه ترجع ، وشموسه وأقماره تتناقل مطالع السعود فما يغيب منها غائب إلا وآخر يطلع ، والناس إن فُجِعوا بماجدٍ رَدِفَه من بعده ماجد ، وإن قيل إن الماضى كان واحداً قيل بل الآتى هو الواحد .

وهذا فصل من أول الكتاب ، ثم كتبت فى هذا المعنى كتابين آخرين ، وفى الذى أوردته من هذا الفصل مقنع .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه ، وكانت

الكتب قد انقطعت بينى وبينه زماناً ، وهو : لقاء كُتُبِ الأحباب كلقاء الأحباب ، وقد تأتى بعد يأسٍ منها فيشتبه لها دمع السرور بدمع الاكتئاب ، ومن أحسنها كتاب المجلس السامى الفلاني جعل الله الليالى له صحباً والمعانى له عقبا ، ورفع مجده فوق كل ماجد حتى تكون حسناتهم لدى حسناته ذنبا ، ولا زال اسمه فى الأفواه عَذْبا وذكره فى الألسنة رَطْباً ، ووده لكل إنسان إنساناً ولكل قلب قلبا.

ثم انتهيت إلى آخر الكتاب على هذا النَّسَق . وإنما ذكرت ههنا مبتدأه لأنه الغرض المقصود فى هذا الموضع .

ومن ذلك ما كتبته إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه ، وهو : البشرى تُعْطى للكتاب كما تعطى لمرسله ، وكل منهما يُوَفَّى حق قدره وينزل فى منزله ، وكذلك فعل الخادم بكتاب المجلس السامى الفلانى لا زال محله أنيسا ، وذكره للفرقدين جليسا ، وسعيه على المكارم حبيسا ، ومجده جديد الملابس إذا كان المجد لَبيسا

وههنا ذكرت من هذا الكتاب[1] كما ذكرته من الذى قبله فإنى لم أذكر إلا مبدأه الذى هو الغرض .

ومما ينتظم فى هذا السلك ما كتبته فى صدر كتاب يتضمن تعزية ، وهو : لو لم يلبس قلمى ثوب الحداد لهجر مداده ، ونضى عنه سواده ، وبعد عن قرينته ، وعاد إلى طينته ، وحرم على نفسه أن يمتطى يدا ، أو يجرى إلى مَدَى ، لكنه أحَدَّ فندب ، وبكى فسكب ، وسطر هذا الكتاب من دموعه ، وضمنه ماحملته أحناء ضلوعه ، وإنما استعار ذلك من صاحبه الذى أعداه ، وأبدى إليه من حزنه ما أبداه ، وهو نائب عنه فى تعزية سيدنا أحْسَنَ الله صبره ، ويسر أمره ، وأرضى عنه دهره .. ثم أنهيت الكتاب إلى آخره .

ومن محاسن هذا الباب أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ، أو بخبر من الأخبار النبوية ، أو ببيت من الشعر ، ثم يبنى الكتاب عليه .

(١) فى ا ، ب ، ج « وههنا ذكرت فى هذا الكتاب ـ إلخ»

فمن ذلك ما كتبته فى ابتداء كتاب يتضمن البشرى بفتح ، وهو :

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مَفَاتِيحُهُ الْبِيضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ [١]

وقد أخذنا بقول هذا الشاعر الحكيم ، وجعلنا السيف وسيلة إلى استنتاج الْمُلْك الْعَقِيم ، وراية المجد لاتنصب إلا على النَّصَب ، والراحة الكبرى لاتنال إلا على جسر من التعب [٢] ، وكتابنا هذا وقد استولينا على مملكة فلانة ، وهى المملكة التى تمسى الآمال دونها صَرْعَى ، وإذا قِيسَ إليها غيرها من الممالك كانت أصلاً وكان غيرها فرعاً . وهذا فصل من أول الكتاب .

ومن ذلك ما كتبته فى مفتتح تقليد بالحِسْبَة ، وهو : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ، ولا يختصُّ به إلا ذوو الأوامر المطاعة وذوو العلوم ، وقد جمع الله لنا هٰذين الوصفين كِلَيْهما ، وجعلنا من المستخلفين عليهما ، فلْنَبْدَأْ أولا بحمده الذى هو سبب للمزيد ، ثم لنأخذ فى القيام بأمره الذى هو على كل نفس منه رقيب عتيد ، ولا رَيْبَ أن إصلاح العباد يسرى إلى الأرض حتى تزكو بطونها وتنام عيونها ، ويشترك فى بركات السماء ساكنها ومسكونها ، والأمر بذلك حمل إن لم تَتَوَزَّعْه الأكُفُّ ثقل على الرقاب ، وإذا انتشرت أطراف البلاد فإنها تفتقر إلى مساعدة من مستنيب ومستناب ، وقد اخترنا لمدينة فلانة رجلاً لم نَأْلُ فى اختياره جهدا ، وقدَّمْنا فيه خِيَرَةَ الله التى إذا صَدَقَتْ نيتها صادفت رشدا ، وهو أنت أيها الشيخ فلان ، فَابْسُطْ يدك بقوة إلى أخذ هذا الكتاب ، وكن كحسنة من حسناتنا التى

(١) هذا البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تأتِى الْعَزَائِمُ وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

(٢) يشير بهذا إلى قول أبى تمام :

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

يرجح بها ميزان الثواب ، وحقّقْ نظرنا فيك فإنه من نور الله الذى ليس دونه حجاب . فتأمل كيف فعلت فى هذه الآية التى بنيت التقليد عليها ، وهو من محاسن المبادى والافتتاحات .

وكذلك فعلت فى موضع آخر ، وهو مفتتح كتاب كتبته إلى شخص كلفته السفارة إلى مخدومه فى حاجة عرضت ، وهو : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) هذا القول تتبع آثاره ، وتحمل عليه أنظاره ، وأولى الناس بسيدنا من شاركه فى لحمة أدبه ، وإن لم يشاركه فى لُحْمَةِ نسبه ؛ فإن المناقب أقارب والمآثر أواصر :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ لِي فَضْلِي وَلاَ أَدَبِي إِلاَّ امْرُؤٌ كانَ ذَا فَضْلٍ وَذَا أَدَبِ

ونتيجة هذه المقدمة بعث خلقه الكريم على عوارف أفضاله ، واستهداء صنيعة جاهه التى هى أكرم من صنيعة ماله(١) ، ولا تجارة أربح من هذه التجارة ، والساعى فيها شريك فى الكسب برىء من الخسارة .

وأما الأخبار النبوية فيسلك بها هذا المسلك : بأن يذكر الخبر فى صدر الكتاب ، ثم يبنى عليه .

ولنذكر منها ولو مثالا واحدا ، وهو توقيع كتبته لولد رجل من أصحاب السلطان توفى والده ونقل ما كان باسمه إليه ، فقلت : قال النبي صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ كَلاًّ أَوْ ضِيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » وهـذا خلق من الأخلاق

(١) أخذ هذا من قول أبى تمام :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ

وهو بيت من قصيدة له يمدح فيها كاتب أبى دلف إسحاق بن أبى ربعى ، وأولها قوله :

إِنَّ الأَمِيرَ بَلاَكَ فِي أَحْوَالِهِ فَرَآكَ أَهْزَعَهُ غَدَاةَ نِضَالِهِ

بلاك : اختبرك وجربك . والأهزع : السهم الذى يخبأ للنازلة الشديدة .

النبوية لامزيد على حسنه ، وأساليب المكارم بأسرها موضوعة فى ضمنه ، ونحن نرجو أن نمشى على أثره فنتنزل منزلة رديفه ، أو أن نتشبه به فنبلغ مبلغ مُدِّه أو نَصِيفه ، وقد أرانا الله ذلك فى قوم صحبونا فأسعفناهم بمَبَاغِى الإنعام ، وأحمدناهم صحبة الليالى والأيام ، وتكفَّلْنَا أيتامهم من بعدهم حتى وَدُّوا أن يكونوا هم الأيتام ، وهـذا فلان ابن فلان رحمه الله ممن كان له فى خدمة الدولة قدمُ صِدْق ، وأولية سَبْق ، وحفظ كتاب المحافظة عليها فقيل له فى تلاوته اقْرَأْ وَارْقَ ؛ ثم أنهيت التوقيع إلى آخره ،

فتأمل مُفْتَتَح هذا التوقيع فإنه تضمن نَصَّ الخبر من غير تغيير ، وقد ضمنته بعض خبر آخر من الأخبار النبوية ، وهو قوله « اقرأوارق » قال النبى صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا» .

وقد مثلت لك ههنا أمثالا يقتدى بها ، فاحْذُ حَذْوَها ، وامض على نهجها . والله الموفق للصواب .

النوع الثالث والعشرون

فى التخلص والاقتضاب

وهذا النوع أيضا كالذى قبله فى أنه أحد الأركان الخمسة التى تقدمت الإشارة إليها فى الفصل التاسع من مقدمة الكتاب .

وينبغى لك أيها المتوشح لهذه الفضيلة أن تصرف إليه جُلَّ همتك ؛ فإنه مهمٌّ عظيم من مهمات البلاغة .

أما التخلص ـ وهو أن يأخذ مؤلِّفُ الكلام فى معنى من المعانى فبينما هو فيه إذ أخذ فى معنى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه ـ فيكون بعضه آخذاً

برقابِ بعض ؛ من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلامًا آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفْرِغَ إفراغًا ، وذلك مما يدلّ على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه ؛ من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متبعاً للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته ، وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضى حيث شاء ؛ فلذلك يَشُقُّ التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر .

وأما الاقتضاب فإنه ضدُّ التخلص ، وذاك : أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالأول .

وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين ، وأما المحدَثُون فإنهم تصرفوا فى التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل غريبة .

فمن ذلك قول أبى تمام[١] :

يَقُولُ فى قُومِسٍ صَحْبِى وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَى وَخُطَا الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ[٢]
أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِى أَنْ تَؤُمَّ بنَا فَقُلْتُ : كَلاَّ ! وَلَـكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ[٣]

وهذان البيتان من بديع ما يأتى فى هذا الباب ونادره .

وكذلك قوله[٤] أيضا فى وصف أيام الربيع ثم خرج من ذكر الربيع وما وصفه به من الأوصاف ؛ فقال :

---

(١) هما بيتان مفردان يمدح فيهما عبد الله بن طاهر وكان قد خرج إليه .

(٢) قومس : صقع كبير بين خراسان والجبل ، السرى : السير ليلا ، والمهرية : الإبل الكريمة ، منسوب إلى مهرة ، وقد قيل : مهرة أبو قبيلة تنسب إليها هذه الإبل ، وقيل : مكان . والقود : جمع قوداء ، وهى الطويلة العنق ، ومعنى «أخذت منا» نالت من أجسامنا وأتعبتنا .

(٣) تبغى : تريد ، وتؤم : تقصد ، والجود : الكرم .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، وأولها قوله :

رَقَّتْ حَوَاشِى الدَّهْرِ فَهْىَ تَمَرْمَرُ وَغَدَا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

خُلُقٌ أَطَلَّ مِنَ الرَّبِيعِ كَأَنَّهُ ... خُلُقُ الْإِمَامِ وَهَدْيُهُ الْمُتَنَشَّرُ(١)
فى الْأَرْضِ مِنْ عَدْلِ الْإِمَامِ وَجُودِهِ ... وَمِنَ النَّبَاتِ الْغَضِّ سُرْجٌ تُزْهِرُ(٢)
تُنْسِي الرِّيَاضَ وَمَا يُرَوِّضُ ؛ جُودُهُ ... أَبَدًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُذْكَرُ(٣)

وهذا من ألطف التخلصات وأحسنها .

وكذلك قوله فى قصيدته الفائية التى أولها :

* أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَا سَلَفَا(٤) *

فقال فيها :

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِيُّ الْحُسْنِ سُنَّتَهَا ... فَصَاغَهَا بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أُنُفَا
يُضْحِي الْعَذُولُ عَلَى تَأْنِيبِهِ كَلِفًا ... بِعُذْرِ مَنْ كَانَ مَشْغُوفًا بِهَا كَلِفَا

ومن هذه القصيدة فى وصف الرياض قوله : (انظر ص ٤١٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَى فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ
دُنْيَا مَعَاشٌ لِلْوَرَى حَتَّى إِذَا ... جُلِّيَ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرُ
أَضْحَتْ تَصُوغُ بُطُونُهَا لِظُهُورِهَا ... نَوْرًا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تُنَوِّرُ

(١) فى ا ، ب ، ج « وهديه المتيسر » والموجود فى جميع نسخ الديوان « المتنشر » أى المنتشر الذائع فى الناس ، ولما فى أصول الكتاب وجه وجيه .

(٢) سرج : جمع سراج ، وأصله سرج بضمتين مثل كتاب وكتب فأسكن الراء تخفيفا ولأنه احتاج إلى إقامة الوزن ، وتزهر : تضيء .

(٣) فى ا ، ب ، ج « على مر الزمان ويذكر » وما أثبتناه عن نسخ الديوان ، وهو الصواب ؛ فإن « جوده » مبتدأ ، خبره قوله « يذكر » فلا معنى للواو ههنا .

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى ، وعجزه قوله :

* فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا *

وَدِّعْ فُؤَادَكَ تَوْدِيعَ الْفِرَاقِ فَمَا ... أَرَاهُ مِنْ سَفَرِ التَّوْدِيعِ مُنْصَرِفَا
تُجَاهِدُ الشَّوْقَ طَوْراً ثُمَّ تَجْذِبُهُ ... جِهَادُهُ لِلْقَوَافِي فِي أَبِي دُلَفَا

وهذا أحسن من الذى قبله ، وأدخل فى باب الصنعة .

وكذلك جاء قوله(١) :

زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ ... مِنْهَا طُلُولٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ
لاَ وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى ... أَجَلٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمُ(٢)
مَاحُلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلاَ غَدَتْ ... نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكِ تَحُومُ(٣)

وهذا خروج من غزل إلى مديح أغزل منه .

ومن البديع فى هذا الباب قول أبى نواس من جملة قصيدته المشهورة التى أولها :

* أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ(٤) *

فقال عند الخروج إلى ذكر الممدوح :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي ... عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ ... بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْهَا بَوَادِرٌ ... جَرَتْ فَجَرَى فى جَرْيِهِنَّ عَبِيرُ :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة ، وأولها قوله :

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

(٢) فى الديوان ومعاهد التنصيص « أن النوى صبر » .

(٣) فى الديوان « مازلت عن سنن الوداد » .

(٤) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها الخصيب وكان والى مصر من قبل الرشيد ، وعجزه قوله :

* وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكِ عَسِيرُ *

انظر الديوان (ص ٩٨) ، ويروى « تقول التى من بينها خف محملى » .

ذَرِينِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهَا الخَصِيبُ أَمِيرُ

ومما جاء من التخلصات الحسنة قول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته الدالية التى أولها :

* عَوَاذِلُ ذَاتِ الخَالِ فِيَّ حَوَاسِدُ[1] *

وأُورِدُ نَفْسِي وَالمُهَنَّدُ فِي يَدِي مَوَارِدَ لَا يُصْدِرْنَ مَنْ لَا يُجَالِدُ

وَلٰكِنْ إِذَا لَمْ يَحْمِلِ القَلْبُ كَفَّه عَلَى حَالَةٍ لَمْ يَحْمِلِ الكَفَّ سَاعِدُ

خَلِيلَيَّ إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَكَمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي القَصَائِدُ

فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلٰكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ اليَوْمَ وَاحِدُ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ؛ ألا ترى إلى الخروج إلى مدح الممدوح فى هذه الأبيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ؛ ثم إن أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة فى بيت واحد ، وهو من بدائعه المشهورة .

وكذلك قوله أيضاً ، وهو من أحسن ما أتى به من التخلصات ؛ وهو فى قصيدته التى أولها :

* سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا[2] *

فقال فى أثنائها :

وَمَطَالِبٍ فِيهَا الهَلَاكُ أَتَيْتُهَا ثَبْتَ الجَنَانِ كَأَنَّنِي لَمْ آتِهَا

وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرْتُهَا أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبَهَاتِهَا

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وعجزه قوله :

* وَإِنَّ ضَجِيعَ الخَوْدِ مِنِّي لَمَاجِدُ *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وعجزه قوله :

* دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا *

الثَّابتِينَ فُرُوسَـةً كَجُلُودِهَا فِى ظَهْرِهَا وَالطَّعْنِ فِى لَبَّاتِهَا
فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا
تِلْكَ النُّفُوسُ الْغَالِبَاتُ عَلَى الْعُلاَ وَالمَجْـدُ يَغْلِبُهَا عَلَى شَهَوَاتِهَا
سُقِيَتْ مَنَابِتُهَا الَّتِى سَقَتِ الْوَرَى بِيَدَىْ أَبِى أَيُّوبَ خَـيْرِ نَبَاتِهَا

فانظر إلى هذين التخلصين البديعين ؛ فالأول خرج به إلى مدح قوم الممدوح ، والثانى خرج به إلى نفس الممدوح ، وكلاهما قد أغرب فيه كل الإغراب .

وعلى هذا جاء قوله[1] :

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفَاتِكٍ وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ[2]
وَإِلاَّ فَخَانَتْنِى الْقَوَافِى وَعَاقَنِى عَنِ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ ضُعْفُ الْعَزَائِمِ

والشعراء متفاوتون فى هذا الباب ، وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى ، كالبحترى ؛ فإن مكانه من الشعر لا يجهل، وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريباً ضَوْؤُها بعيداً مكانُهَا ، وكالقناة لَيِّناً مَسُّهَا خَشِناً سِنانُهَا ، وهو على الحقيقة قَيْنَةُ الشعراء فى الإطراب ، وعَنْقاؤهم فى الإغراب ، ومع هذا فإنه لم يُوَفَّق فى التخلص من الْغَزَل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً إلا

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ، وكان أبو محمد قد كثرت مراسلاته إلى أبى الطيب من الرملة ، فسار إليه ، فلما دخل الرملة أكرمه أبو محمد فمدحه بهذه القصيدة ، وهى أول ماقاله أبو الطيب فيه ، ومطلعها قوله :

أَنَا لاَئِمِى إنْ كُنْتُ وَقْتَ اللَّوَائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بِى بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

(٢) فى الديوان «لم أترك مصالا لصائل» وتقول : صال عليه ؛ إذا استطال عليه، وصال عليه أيضا ؛ إذا وثب عليه . والمصال : اسم مكان من الصولة .

اليسير ، كقوله فى قافية الباء من قصيدة[١] :

وَكَفَانِى إذَا الْحَوَادِثُ أَظْلَمْــنَ شِهَابًا بِغُرَّةِ ابْنِ شِهَــابِ

وكقوله فى قافية الدال من قصيدة[٢] :

قَصَدَتْ لِنَجْرَانِ الْعِرَاقِ رِكَابُنَا يَطْلُبْنَ أَرْحَبَهَا مَحِــلَّةَ مَاجِدِ[٣]
آلَيْتُ لاَ تَلْقَيْنَ جِدًّا صَاعِــدًا فِى مَطْلَبٍ حَــتَّى تُنَاخَ بِصَاعِدِ[٤]

وكقوله فى قصيدته التى أولها :

* حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ[٥] *

فإنه تشوّق فيها إلى العراق من الشام ، ووصف العراق ومنازله ورياضه ، فأحسن فى ذلك كله ، ثم خرج إلى مَدْح الفتح بن خاقان بسياقة آخذ بعضها برقاب بعض ، فقال :

رِبَاعٌ مِنَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ لَمْ تَزَلْ غِنًى لِعَدِيمٍ أَوْ فَكَاكًا لِمُوثَقِ

ثم أخذ فى مدحه بعد ذلك بضروب من المعانى .

---

(١) هى قصيدة له يمدح فيها أحمد بن إسماعيل بن شهاب ، وأولها قوله :

مَاعَلَى الرَّكْبِ مِنْ وُقُوفِ الرِّكَابِ فى مَغَانِى الصِّــبَا وَرَسْمِ التَّصَابِى

(٢) هى قصيدة يمدح فيها صاعد بن مخلد ، وأولها قوله :

قُلْ لِلْخَيَالِ إذَا أَرَدْتَ فَعَاوِدِ تُدْنِى الْمَسَافَةَ مِنْ هَوًى مُتَبَاعِدِ

(٣) فى ا ، ب ، ج ، د « فظللن أزجيها محلة ماجد » وما أثبتناه عن ثلاث نسخ من الديوان ، ولا يصح ما فى أصول هذا الكتاب إلا مع تكلف وتمحل .

(٤) فى الديوان « حتى ينخن بصاعد » وهو أنسب لما فى صدر البيت ، ولكن لما فى أصول هذا الكتاب وجه فى العربية .

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وعجزه قوله :

* وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِى بِهَا الْمُتَعَلِّقِ *

وانظر نقد المؤلف لهذا المطلع فى (ص ٣٠٨ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

وكذلك ورد قوله فى قصيدته التى أولها(١) :

* مِيلُوا إلى الدَّارِ مِنْ ليلى نُحَيِّيهَا *

فإنه وصف البركة فأبدع فى أوصافها ، ثم خرج منها إلى مدح الخليفة المتوكل ؛ فقال :

كَأَنَّهَا حِينَ لَجَّتْ فِي تَدَفُّقِهَا   يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا

وأحسن ما وجدته له ، وهو مما لطف فيه كل التلطيف ، قوله فى قصيدته التى يمدح بها ابن بسطام ومطلعها :

* نَصِيبُ عَيْنِكَ مِنَ سَحٍّ وَتَسْجَامِ *

فقال عند تخلصه إلى المديح :

هَلِ الشَّبَابُ مُلِمٌّ بِي فَرَاجِعَةٌ   أَيَّامُهُ لِيَ فِي أَعْقَابِ أَيَّامِ

لَوْ أَنَّهُ بَابِل عمــر يجاذبه   إِذًا تَطَلَّبْتُهُ عِنْدَ ابْنِ بِسْطَامِ

وهذا من الملائح فى هذا الباب .

وله مواضع أخرى يسيرة بالنسبة إلى كثرة شعره .

وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى : إن كتاب الله خالٍ من التخلص .

وهذا القول فاسد ؛ لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام [إلى] آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج إليه ، وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك ، كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهى ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* نَعَمْ وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِيهَا *

لنبى مرسل وملك منزل إلى ذم شيطان مَرِيد وجبّار عَنيد ، بلطائف دقيقة ، ومعان آخذ بعضُها برقاب بعض .

فمما جاء من التخلص فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

هذا كلام يسكر العقول ، ويسحر الألباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة ، فإنه متى أنعم فيه نظره وتدبر أثناءه ومَطَاوِيَ حكمته علم أن فى ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة فى هذا الفن ، ألا ترى ما أحسن ما رتّب إبراهيم عليه السلام كلامَهُ مع المشركين حين سألهم أولا عمّا يعبدون سُؤَالَ مُقرِّرٍ لا سؤال مستفهم ، ثم أنْحَى على آلهتهم ؛ فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر

ولا تسمع ، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكَسَرَه وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذى لا تجب العبادة إلا له ، ولا ينبغى الرجوع والإنابة إلا إليه ، فَصَوَّرَ المسألة فى نفسه دونهم ، بقوله (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) على معنى إنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادةً للعدو وهو الشيطان ؛ فاجتنبتها ، وآثرت عبادة مَنِ الخيرُ كله فى يده ، وأراهم بذلك أنها نصيحةٌ ينصح بها نفسه ؛ لينظروا فيقولوا : ما نَصَحَنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله ، وأبْعَثَ على الاستماع منه ، ولو قال فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ؛ فأجرى عليه تلك الصفات العظام : من تفخيم شأنه وتعديد نعمه من لَدُن خَلَقه وأنشأه إلى حين وفاته مع مايرجى فى الآخرة من رحمته ؛ ليعلم من ذلك أنَّ مَنْ هذه صفاتُهُ حقيق بالعبادة ، واجب على الخلق الخضوع له ، والاستكانة لعظمته ؛ ثم خرج من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه ، فدعا الله بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوَّابين ؛ لأن الطالب من مولاه إذا قَدَّمَ قبل سؤاله وتضرعه الاعترافَ بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة ، وأنجح لحصول الطَّلِبة ، ثم أدرج فى ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ، ومجازاة الله تعالى من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار ، فجمع بين الترغيب فى طاعته والترهيب من معصيته ؛ ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند معاينة الجزاء ، وهو سؤال مُوبِّخ لهم مستهزئ بهم ، وذكر مايدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى العودة ؛ ليؤمنوا ؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضُه برقاب بعض ، مع احتوائه على ضروب من المعانى فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد ، فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هى فيه من التَّعَرِّى عن

صفات الإلٰهيّة حيث لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلٰهية فعظَّم شأنه وعدّد نعمه ؛ ليعلم بذلك أن العبادة لا تصحّ إلا له ، ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له ؛ ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة فى أثناء هذا الكلام .

وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات ، كالذى ورد فى سورة الأعراف ؛ فانه ذكر فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية من آدم إلى نوح عليهما السلام ، وكذلك إلى قصة موسى عليه السلام ، حتى انتهى إلى آخرها الذى هو (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

هذا تخلص من التخلصات الحسان ؛ فإن الله تعالى ذكر الأنبياء والقرونَ الماضية إلى عهد موسى عليه السلام ؛ فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذكَرَه بتخلّص انتظم به بعضُ الكلام ببعض ؛ ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام : (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) فأجيب بقوله تعالى :

(قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين) من حالهم كذا وكذا ، ومن صفتهم كيت وكيت ، وهم الذين (يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ) ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام .

ويالله العجب ! ! كيف يزعم الغانمى أن القرآن خالٍ من التخلص ؟ ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فإنها قصة برأسها ، وهى مُضَمَّنَةٌ شرحَ حاله مع إخوته من أول أمره إلى آخره ، وفيها عدة تخلصات فى الخروج من معنى إلى معنى ، وكذلك إلى آخرها ؟

ولو أخذت فى ذكر مافى القرآن الكريم من هذا النوع لأطلت ، ومَنْ أَنْعَمَ نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة .

وقد جاءنى من التخلصات فى الكلام المنثور أشياء كثيرة ، وسأذكر ههنا نبذة يسيرة منها .

فمن ذلك ما أوردته فى كتاب إلى بعض الإخوان أصِفُ فيه الربيع ، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الأشواق ، فقلت : وكما أنَّ هذه الأوصاف فى شأنها بديعة ، فكذلك شوقى فى شأنه بديع ، غير أنه لحرّه فصل مصيف وهذا فصل ربيع ، فأنا أملى أحاديثه العجيبة على النوى ، وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستفض حديث من قتله الهوى .

ومن هذا الأسلوب ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان أيضاً ، وأرسلته إليه من بلاد الروم ، وهو كتاب يشتمل على وصف البرد وما لاقيته منه ، ثم خرجت من ذلك إلى ذكر الشوق ، فقلت : ومما أشكوه من بَرْدِها أن الفرو لايلبس إلا فى شهر ناجر ، وهو قائم مقام الظل الذى يتبرّد به من لفح الهواجر ، ولفرط شدّته لم أجد مايخففه فضلاً عما يذهبه ، فإن النار المعدّة له تطلب من الدفء أيضاً ما أطلبه ، لكن وجدت نار أشواقى أشدَّ حراً فاصطليت بجمرها التى لاتذكى بزناد ولا تئول إلى رماد ، ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشدّ من حَرّ الفؤاد ،

غير أنى كنت فى ذلك كمن سد خلة بخلة ، واستشفى من علة بعلة ، وأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَاشَفَاكَ (١) فما ظنك بمن يصطلى نار الأشواق ، وقد قنع من أخيه بالأوراق فضن عليه بالأوراق .

ومما ينتظم فى هذا العقد ماذكرته فى مفتتح كتاب يتضمن عناية ببعض المتظلمين ، فاستطردت فيه المعنى إلى ذكر المكتوب إليه ؛ وهو : هدايا المكارم أنفس من هدايا الأموال ، وأبقى على تعاقب الأيام والليال ، وقد حمل هذا الكتاب منها هدية تورث حمداً وتكسب مجداً ، وهى خير ثواباً وخير مَرَدًّا ، ولا يسير بها إلا سجية طبعت على الكرم ، وخلقت من عُنْصُرِ الدِّيَم ، كسجية مولانا أعلاه الله علوًّا تفخر به الأرض على السماء ، وتحسده شمس النهار ونجوم الظلماء ، ولا زالت أياديه مُخْجِلَةً صَوْبَ الغمام ، معدية على نُوَبِ الأيام . مغنية بشرف فضلها على شرف الأخوال والأعمام ، وتلك الهديَّة هى تجريد الشفاعة فى أمر فلان ومن إيمان المرء سعيه فى حاجة أخيه ، وإن لم يمسّه بشىء من أسباب أواخيه ؛ فإن المؤمنين إخوة وإن تباينت مناسبهم ، وتفاوتت مراتبهم ، ومن صفتهم أن يَسْعَى بذِمّتهم أدناهم ، وخيرهم من عناه من الأمر ماعناهم . ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن ذلك ما كتبته من كتاب إلى صديق استحدثت مودته ، وهو من أهل العراق ، وكنت اجتمعت به بالموصل ثم سارعَنِّى ، فكتبت إليه أستهديه رطبا ؛ فقلت : هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى ترف كلمه زفيف الأوراق ،

---

(١) هذا عجز بيت لأبى الطيب المتنبى ، وصدره قوله :

* قَدِ اُسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ *

وهذا بيت من قصيدة له يمدح فيها أبا شجاع عضد الدولة ، وأولها قوله :

فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا ... فَلَا مَلِكٌ إِذًا إِلَّا فَدَاكَا

وتَسْجَع سَجْعَ ذوات الأطْوَاق ، وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق، وأبْرَحُ الشوق ما كان عن فراق غير بعيد ،ووُدٍّ استجدت حلته واللذة مقترنة بكل شىء جديد ، وارجو ألاَّ يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباسا ، وأن يعاذ من نظرة الجن والإنس حتى لايخشى جنة ولا باسا ، وقد قيل : إن للمودَّات طعماً كما أن لها وَسْماً ، وإن ذا اللب يصادق نفساً قبل أن يصادق جسما ، وإنى لأجد لمودَّة سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ، ولا يمل استطعامها ، وقد أذكرتنى الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها ، وغير عجيب لمناسبة الأشياء أن يذكِّر بعضها ببعضها ، إلا أن هــذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالأسرار ، وفَرْقٌ بين مايغترس بالأرض وما يغترس بالقلب فى شرف الثمار ؛ فلا ينظر سيدنا علىَّ فى هذا التمثيل ، ولربمـا كان ذلك تعريضاً ينوب مناب التطفيل .

وهذا من التخلصات البديعة ؛ فانظر أيها المتأمل كيف سُقْتُ الكلام إلى استهداء الرطب ، وجعلت بعضه آخذاً برقاب بعض ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد ؟ وكذلك فليكن التخلص من معنى إلى معنى .

وهذا القدر من الأمثلة كاف للمتعلم .

ومما أستظرف من هذا النوع فى الشعر قول ابن الزمكرم الموصلى ، وهو :

وَلَيلٍ كَوَجْهِ الْبَرْقَعِيدِىِّ مُظْلِمٍ   وَبَرْدِ أَغَانِيهِ وَطُولِ قُرُونِهِ
سَرَيْتُ وَنَوْمِى فِيهِ نَوْمٌ مُشَرَّدٌ   كَعَقْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدٍ وَدِينِهِ
عَلَى أَوْلَقٍ فِيــهِ التفاتٌ كَأَنَّهُ   أَبُو جَابِرٍ فِى خَبْطِهِ وَجُنُونِهِ
إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ   سَنَا وَجْهِ قِرْوَاشٍ وَضَوْءُ جَبِينِهِ

وهذه الأبيات لهـا حكاية ، وذاك أن هذا الممدوح ، وهو شرف الدولة قرواش مَلِك العرب ، وكان صاحب الموصل ؛ فاتفق أنه كان جالسا مع ندمائه فى ليلة من ليالى الشتاء ، وفى جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر ، وكان البرقعيدى مغنيا ،

وسليمان بن فهد وزيرا ، وأبو جابر حاجبا ، فالتمس شرف الدولة من هذا الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه ؛ فأنشد هذه الأبيات ارتجالا ، وهى غريبة فى بابها : لم يسمع بمثلها ، ولم يرض قائلها بصناعة التخلص وحدها ، حتى رقى فى معانيه المقصودة إلى أعلى منزلة ، فابتدأ البيت الأول بهجْو البرقعيدى ؛ فجاءه فى ضمن مُراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها ، وهى الظلمة والبرد والطول ، ثم إن هذه الأوصاف الثلاثة جاءت ملائمة لما شبهت به مطابقة له ، وكذلك البيت الثانى والثالث ، ثم خرج إلى المديح بألطف وجه ، وأدقّ صنعة ، وهذا يسمى الاستطراد ، وما سمعت فى هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات .

ومما يجرى على هذا الأسلوب ما ورد لابن الحجاج البغدادى ، وهى أبيات لطيفة جدا[1] :

أَلاَ يَامَاءَ دِجْلَةَ لَسْتَ تَدْرِى ... بِأَنِّى حَاسِدٌ لَكَ طُولَ عُمْرِى
وَلَوْ أَنِّى اسْتَطَعْتُ سَكِرْتُ سُكْرًا ... عَلَيْكَ فَلَمْ تَكُنْ يَا مَاءُ تَجْرِى
فَقَالَ المَاءُ : مَا هٰــذَا عَجِيبٌ ... بِمَ اسْتَوْجَبْتَهُ يَا لَيْتَ شِعْرِى[2]
فَقُلْتُ لَهُ : لِأَنَّكَ كُلَّ يَوْمٍ ... تَمُرُّ عَلَى أَبِى الْفَضْلِ بْنِ بِشْرِ
تَرَاهُ وَلاَ أَرَاهُ ، وَذَاكَ شَىْءٌ ... يَضِيقُ عَنِ احْتِمَالِكَ فِيهِ صَبْرِى

وما علمت معنى فى هذا المقصد ألطف ولا أرقّ ولا أعذب ولا أحلى من هذا اللفظ ، ويكفى ابن الحجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الأبيات .

ولا تظن أن هذا شىء انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة ، وفاتَ مَنْ تَقَدَّمهم لما عندهم من قَشَف العيش وغِلَظِ الطبع ، بل قد تقدم أولئك إلى هذا الأسلوب ، وإن أقلوا منه وأكثر منه المحدثون ، وأى حسن من محاسن

(١) هذه الأبيات فى معاهد التنصيص (ص ٦٢٩ بولاق) بهذا الترتيب .
(٢) فى معاهد التنصيص « فقال الماء قل لى كل هذا ــ الخ » .

البلاغة والفصاحة لم يسبقوا إليه ؟ وكيف لا وَهُمْ أهْله ، ومنهم علم ، وعنهم أخذ ؟

فمن ذلك ماجاء للفرزدق ، وهو(١) :

وَرَكْبٍ كأنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ ... لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ(٢)

سَرَوْا يَخْبِطُونَ اللَّيْلَ وَهْيَ تَلُفُّهُمْ ... إلَى شُعَبِ الْأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ(٣)

إذا آنَسُوا نَاراً يَقُولُونَ لَيْتَهَا ... وَقَدْ خَصِرَتْ أيْدِيهِمُ نَارُ غَالِبِ(٤)

فانظر إلى هذا الاستطراد ما أحلاه وأفخمه !!.

واعلم أنه قد يقصد الشاعر التخلص فيأتى به قبيحاً ، كما فعل أبو الطيب المتنبى فى قصيدته التى أولها :

* مُلِثَّ الْقَطْرِ أعْطِشْهَا رُبُوعَا(٥) *

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة وردت كما هنا فى معاهد التنصيص (ص ٦٢٨ بولاق) وقد وردت فى الديوان ضمن ستة أبيات ، ومما فى الديوان زيادة على ماهنا بيت يقع بين أول هذه الأبيات وثانيها ، وهو قوله :

يَعَضُّونَ أطْرَافَ الْعِصِىِّ كَأنَّهَا ... تُخَرِّمُ بِالأطْرَافِ شَوْكَ الْعَقَارِبِ

ثم بعد هذه الأبيات قوله :

إلَى نَارِ ضَرَّابِ الْعَرَاقِيبِ لَمْ يَزَلْ ... لَهُ مِنْ ذُبَابَىْ سَيْفِهِ خَيْرُ حَالِبِ

تَدُرُّ بِهِ الْأنْسَاءُ فِى لَيْلَةِ الصَّبَا ... وتنتفخُ اللَّبَّاتُ عِنْدَ التَّرَائِبِ

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج « تطلب عندها لها قوة » وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان ومعاهد التنصيص .

(٣) فى ا ، ب ، ج « سروا يخطبون » وهو تحريف ، وتصويبه عن الديوان ، وفى الأغانى « سروا يركبون الليل » وفى الديوان « على شعب الأكوار » .

(٤) فى الأغانى «اذا استوضحوا نارا» وفى الديوان «اذا مارأوا نارا» وفى معاهد التنصيص كما هنا .

(٥) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها على بن إبراهيم التنوخى ، وعجزه قوله :

* وَإلَّا فَاسْقِهَا السَّمَّ النَّقِيعَا *

فقال عند الخروج من الغزل إلى المديح :

غَدَا بِكِ كُلُّ خِلْوٍ مُسْتَهَامًا وَأَصْبَحَ كُلُّ مَسْتُورٍ خَلِيعَا
أُحِبُّكِ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيرًا وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيعَا

وهذا تخلّص كما تراه بارد ، ليس عليه من مسحة الجمال شىء ، وههنا يكون الاقتضاب أحسن من التخلص ؛ فينبغى لسالك هذه الطريق أن ينظر إلى مايَصُوغه ؛ فإن واتاه التخلّص حسناً كما ينبغى وإلا فَلْيَدَعْه ، ولا يستكرهه حتى يكون مثل هذا ، كما فعل أبو الطيب ، ولهذا نظائر وأشباه ، وقد استعمل ذلك فى موضع آخر فى قصيدته التى أولها :

* أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا[(١)] *

فقال :

عَلَّ الأَمِيرَ يَرَى ذُلِّى فَيَشْفَعَ لِى إِلَى الَّتِى تَرَكَتْنِى فِى الْهَوَى مَثَلَا[(٢)]

والإضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره ، وما ألقاه فى هذه الهُوَّة إلا أبو نواس ؛ فإنه قال[(٣)] :

والملث : الدائم المقيم ، والقطر : المطر ، والربوع : جمع ربع ، وهو الدار مطلقا ، وقيل : خاص بما يسكنه القوم أيام الربيع ، والنقيع : القاتل .

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابى المنبجى ، وعجزه قوله :

* وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِى وَمَا عَدَلَا *

(٢) قال الواحدى : أخذه من قول أبى نواس (وذكر البيت الذى ذكره المؤلف) وقول أبى نواس أحسن من قول المتنبى ؛ لأن الجمع يمكن بأن يعطيه مايتوصل به إلى محبوبته ، والشفاعة تكون باللسان ، وذلك نوع من القيادة » اهـ .

(٣) هو من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن يحيى ، وأولها قوله :

طَرَحْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ ذِكْرًا فَغَمَّنَا فَلَوْ قَدْ شَخَصْتُمْ صَبَّحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَاكِ لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا(١)

على أن أبا نواس أخذ ذلك من قيس بن ذريح ، لكنه أفسده ولم يأت به كما أتى به قيس ، ولذلك حكاية ، وهو أنه لما هام بلُبْنَى فى كل وادٍ وجُنَّ بها رَقَّ له الناس ورحموه ، فسعى له ابن أبى عَتِيق إلى أن طلقها من زوجها ، وأعادها إلى قيس ، فزوجها إياه ؛ فقال عند ذلك :

جَزَى الرَّحْمٰنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِى عَلَى الْإِحْسَانِ خَيْرًا مِنْ صَدِيقِ
وَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِى جَمِيعًا فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنِ أَبِى عَتِيقِ
سَعَى فى جَمْعِ شَمْلِى بَعْدَ صَدْعٍ وَرَأْى حِرْتُ فِيهِ عَنْ طَرِيقِ
وَأَطْفَى لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِى أَغَصَّتْنِى حَرَارَتُهَا بِرِيقِى

و بين هذا الكلام و بين كلام أبى نواس بَوْنٌ بعيد ؛ وقد حكى عن ابن أبى عتيق أنه قال : يا حبيبى أمسك عن هذا المديح فما يسمعه أحد إلا ظننى قوَّاداً .

وأما الاقتضاب فهو الذى أشرنا إليه فى صدر هذا النوع ، وهو: قَطْعُ الكلام واستئناف كلام آخر غيره ؛ بلا علاقة تكون بينه و بينه .

فمن ذلك ما يقرب من التخلص ، وهو فصل الخطاب ، والذى أَجْمَعَ عليه المحققون من علماء البيان أنه « أما بعد » ؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه فى كلّ أمر ذى شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فَصَلَ بينه و بين ذكر الله تعالى بقوله « أما بعد » .

ومن الفصل الذى هو أحسن من الوصل لفظة « هذا » وهى علاقة وكيدة

(١) حدثوا أن الفضل لما سمع هذا البيت قال لأبى نواس : مازدت على أن تجعلنى قوادا !؟ فقال له : أيها الأمير ؛ إنه جمع تفضل ، لاجمع توصل ، قال : صدقت ، وأمر له بخمسمائة دينار ، وكان يعطى الشعراء أكثر من ذلك .

بين الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، كقوله تعالى : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هٰذَا ذِكْرٌ وَإنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ) ألا ترى إلى ما ذكر قبل (هذا ذكر) من ذكر من الأنبياء عليهم السلام ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر غيره ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، فقال : (هذا ذكر) ثم قال : (وإن للمتقين لحسن مآب) ثم لما أتمّ ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال : (هٰذَا وَإنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ) وذلك من فصل الخطاب الذى هو ألطف موقعاً من التخلص .

وقد وردت لفظة « هذا » فى الشعر إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور ؛ فمن ذلك قول الشاعر المعروف بالخباز البلدى فى قصيدة أولها :

* الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ *

إنِّى لَيُعْجِبُنِى الزِّنَا فى سُحْرَةٍ وَيَرُوقُ لِى بِالْجَاشِرِيَّةِ زِيرُ
وَأَكَادُ مِنْ فَرَحِ السُّرُورِ إذَا بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ مِنَ السُّتُورِ أَطِيرُ
وَإذَا رَأَيْتُ الْجَوَّ فى فِضِّيَّةٍ لِلْغَيْمِ فى جَنَبَاتِهَا تَكْسِيرُ
مَنْقُوشَةٍ صَدْرَ الْبُزَاةِ كَأَنَّهُ فَيْرُوزَجٌ قَدْ زَانَهُ بَلُّورُ
نَادَتْ بِيَ اللَّذَّاتُ وَيْحَكَ فَانْتَهِزْ فُرَصَ الْمُنَى يَأَيُّهَا الْمَغْرُورُ
مِلْ بِي إلَى جَوْرِ السُّقَاةِ فَإنَّنِى أَهْوَى سُقَاةَ الْكَأْسِ حِينَ تَجُورُ
هٰذَا ، وَكَمْ لِى بِالْجُنَيْنَةِ سَكْرَةٌ أَنَا مِنْ بَقَايَا شُرْبِهَا مَخْمُورُ
بَاكَرْتُهَا وَغُصُونُهَا مَغْرُوزَةٌ وَالْمَاءُ بَيْنَ مُرُوزِهَا مَذْعُورُ
فِى سِتَّةٍ : أَنَا، وَالنَّدِيمُ ، وَقَيْنَةٌ ، وَالْكَأْسُ ، وَالْمِزْمَارُ ، وَالطُّنْبُورُ

هذه الأبيات حسنة ، وخروجها من شِدْق هذا الرجل الخبّاز عجيب ، ولو جاءت فى شعر أبى نواس لزانت ديوانه .

والاقتضاب الوارد فى الشعر كثيرٌ لا يُحْصَى ، والتخلص بالنسبة إليه قَطْرة من بحر ؛ ولا يكاد يوجد التخلص فى شعر الشاعر المجيد إلا قليلا بالنسبة إلى المقتضب من شعره .

فمن الاقتضاب قولُ أبى نواس فى قصيدته النونية التى أولها(١) :

* يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِى الدِّمَنِ *

وهذه القصيدة هى عَيْنُ شعرِهِ والملاحةُ لِلعُيُون ، وهى تَنزِل منه منزلة الألف لامنزلة النون ، إلا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضابا ؛ فبينا هو يصف الخمر ويقول :

فَاسْقِنِى كَأْساً عَلَى عَذَلٍ   كَرِهَتْ مَسْمُوعَهُ أُذُنِى
مِنْ كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ   خَيْرِ مَا سَلْسَلْتَ فِى بَدَنِى
مَا اسْتَقَرَّتْ فِى فُؤَادِ فَتًى   فَدَرَى مَا لَوْعَةُ الْحَزَنِ

حتى قال :

تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ   قَامَ بِالآثَارِ وَالسُّنَنِ
سَنَّ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدُوا   فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنِ

فأكثر مدائح أبى نواس مقتضبة هكذا ، والتخلص غير ممكن فى كل الأحوال ، وهو من مستصعبات علم البيان .

ومن هذا الباب الذى نحن بصدد ذكره قول البحترى فى قصيدته المشهورة

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* لاَ عَلَيْهَا بَلْ عَلَى السَّكَنِ *

وهى قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد ، وانظر معاهد التنصيص (ص ٦٣٨).

بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان وذكر لقاءه الأَسَدَ وقَتْلَه إياه ، وأولها :

* أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِى لِزَيْنَبا[1] *

وهى من أمهات شعره ، ومع ذلك لم يوفق فيها للتخلص من الغزل إلى المديح ؛ فإنه بينما هو فى تغزله وهو يقول :

عَهِدْتُكِ إِنْ مَنَّيْتِ مَنَّيْتِ مَوْعِدًا ... جِهَامًا وَإِنْ أَبْرَقْتِ أَبْرَقْتِ خُلَّبَا

وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّدُودَ الَّذِى مَضَى ... دَلَالٌ فَمَا إِنْ كَانَ إِلَّا تَجَنُّبَا

فَوَا أَسَفَا حَتَّامَ أَسْأَلُ مَانِعًا ... وَآمَنُ خَوَّانًا وَأُعْتِبُ مُذْنِبَا

حتى قال فى أثر ذلك :

أَقُولُ لِرَكْبٍ مُعنفين تَدَرَّعُوا ... عَلَى عَجَلٍ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبَا

رِدُوا نَائِلَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ إِنَّهُ ... أَعَمُّ نَدًى فِيكُمْ وَأَيْسَرُ مَطْلَبَا

فخرج إلى المديح بغير وصلة ولا سبب .

وكذلك قوله فى قصيدته المشهورة بالجودة التى مدح بها الفتح بن خاقان أيضاً، وذكر نجاته عند انخساف الجسر به ، وقد أغرب فيها كل الإغراب ، وأحسن كل الإحسان ، وأولها :

* مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرٌ[2] *

فبينا هو فى غزلها حتى قال :

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* خَيَالٌ إِذَا آبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبَا *

وانظر الديوان (ج ١ ص ٥٥ مصر) .

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِىءٌ وَلَا نَزْرُ *

وانظر الديوان (ج ١ ص ٢١٧ مصر) .

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الْجَدَى إِذَا بَقِيَ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ وَالْقَطْرُ

نخرج إلى المديح مقتضباً له ، لا متعلقاً به ، وأمثال هذا فى شعره كثير .

النوع الرابع والعشرون

فى التناسب بين المعانى

وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فى المطابقة .

وهذا النوع يسمى البديع أيضاً ، وهو فى المعانى ضد التجنيس فى الألفاظ ؛ لأن التجنيس هوأن يتحد اللفظ مع اختلاف المعنى ، وهذا هو أن يكون المعنيان ضدين .

وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده ؛ كالسواد والبياض ، والليل والنهار .

وخالفهم فى ذلك قُدامة بن جعفر الكاتب ؛ فقال : المطابقة إيراد لفظين متساويين فى البناء والصيغة مختلفين فى المعنى .

وهذا الذى ذكره هو التجنيس بعينه ، غير أن الأسماء لامُشَاحَّة فيها ، إلا إذا كانت مشتقة .

ولننظر نحن فى ذلك ، وهوأن نكشف عن أصل المطابقة فى وضع اللغة ، وقد وجدنا الطِّباق فى اللغة من طَابَقَ البعيرُ فى سيره ؛ إذا وضع رجله موضع يده ، وهذا يؤيد ماذكره قُدامة ؛ لأن اليدَ غيرُ الرجل ، لاضدها ، والموضع الذى يقعان فيه واحد ، وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذى يجمعهما واحد ؛ فقُدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقاً ، حيث كان الاسم مشتقا مما سمى به ، وذلك مناسب

وواقع فى موقعه ، إلا أنه جعل للتجنيس اسماً آخر ، وهو المطابقة ، ولا بأس به ، إلا إن كان مَثَّله بالضدين ؛ كالسواد والبياض ؛ فإنه يكون قد خالف الأصل الذى أصَّله بالمثال الذى مَثَّله .

وأما غيره من أرباب هذه الصناعة فإنهم سَمَّوْا هـذا الضرب من الكلام مطابقاً لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسماه ، هذا الظاهر لنا من هذا القول ، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن .

ولنرجع إلى ذكر هذا القسم من التأليف وإيضاح حقيقته ؛ فنقول :

الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة ؛ لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين : إما أن يقابَلَ الشىء بضده ، أو يقابل بما ليس بضده ، وليس لنا وجه ثالث .

فأما الأول — وهو مقابلة الشىء بضده ، كالسواد والبياض ، وما جرى مجراهما — فإنه ينقسم قسمين : أحدهما مقابلة فى اللفظ والمعنى ، والآخر مقابلة فى المعنى دون اللفظ .

أما المقابلة فى اللفظ والمعنى فكقوله تعالى : (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا)؛ فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير ، وكذلك قوله تعالى : (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) ؛ وهذا من أحسن ما يجىء فى هذا الباب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ » .

ومن الحسن المطبوع الذى ليس بمتكلف قول على رضى الله عنه لعثمان رضى الله عنه : إن الحق ثقيلٌ مَرِىءٌ والباطل خفيف وَبِىءٌ ، وأنت رجل إن صدقتُ سخطتَ ، وإن كذبتُ رضيتَ ؛ فقابل الحق بالباطل ، والثقيلَ المرىءَ بالخفيف الوبىءِ ، والصدقَ بالكذب ، والسخطَ بالرضا . وهذه خمس مقابلات فى هذه الكلمات القصار .

وكذلك ورد قوله رضى الله عنه لما قال الخوارج : لا حكم إلا الله تعالى : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطل .

وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضى الله عنه وقد أحضره بين يديه ليقتله ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : سعيد بن جبير ، قال : بل أنت شقى ابن كسير ، وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين ، وفى كلامه هذا مطابقة حسنة ؛ فإنه نقل الاسمين إلى ضدهما ، فقال فى سعيد : شقى ، وفى جبير : كسير .

وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

ومما وجدته فى لغة الفرس أنه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره : حَرَّكنا بسكونه .

وأول كتاب الفصول لأبقراط فى الطب قوله : العمر قصير ، والصناعة طويلة . وهذا الكتاب على لغة اليونان .

ومن كلامى فى هذا الباب ما كتبته فى صدر مكتوب إلى بعض الإخوان ، وهو : صَدَرَ هذا الكتاب عن قلب مقيم وجسد سائر ، وصبر مليم وجزع عاذر ، وخاطر أدهشته لوعة الفراق فليس بخاطر .

وكذلك كتبت إلى بعض الإخوان أيضا ، فقلت : صَدَرَ هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه ، وطرف مستوحش لفراقه ، فهذا مُرَوَّع بكآبة إظلامه ، وهذا ممتنع ببهجة إشراقه ، غير أن لقاء القلوب لقاء عنيت بمثله خواطر الأفكار ، وتتناجى به من وراء الأستار ، وذلك أخو الطَّيْف المُلِمّ فى المنام ، الذى يُمَوِّهُ بلقاء الأرواح على لقاء الأجسام .

ومن هذا النوع ما ذكرته فى كتاب أصِفُ المسيرَ من دمشق إلى الموصل على طريق المناظر ، فقلت من جملته : ثم نزلت أرضَ الخابور فغرَّبَت الأرواح وشرَّقَتِ الجسوم ، وحصل الاعدام من المسار والإنزال من الهموم ، وطالبتنى النفس بالعود والقدرة مُفْلِسة ، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب إلى بعض الإخوان ، وعرضت فيه بذكر جماعة من أهل الأدب ، فقلت : وهم مسئولون ألّا ينسونى فى نادى فضلهم الذى هو منبع الآمال ، وملتقط اللآل ، فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدى الأقلام المتسودة ، وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة ، والواغل إليه يَسْكَر من خمرته التى تُنَبه العقول من إغفائها ، ولا يشربها أحد غير أكفائها .

وهذه الفصول المذكورة لاَخَفَاء بما تضمنته من محاسن المقابلة .

ومما ورد من هذا النوع شعراً قولُ جرير (١) :

وَأَعْوَرَ مِنْ نَبْهَانَ أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى ، وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ

وهكذا ورد قول الفرزدق (٢) :

قَبَحَ الْإِلٰهُ بَنِى كُلَيْبٍ إِنَّهُمْ لاَ يَغْدِرُونَ وَلاَ يَفُونَ بِجَارِ (٣)

---

(١) من كلمة له يجيب فيها أعور بنى نبهان ، وأولها قوله :

عَفَا ذُو حَمَامٍ بَعْدَنَا وَحَفِيرُ وَبِالسِّرِّ مَبْدًى مِنْهُمُ وَحُضُورُ

وقبل البيت الذى أنشده المؤلف قوله :

وَجَدْنَا بَنِى نَبْهَانَ أَذْنَابَ طَيِّئٍ وَلِلنَّاسِ أَذْنَابٌ تُرَى وَصُدُورُ

تَرَى شَرَطَ الْمِعْزَى مُهُورَ نِسَائِهِمْ وَفى قَزَمِ الْمِعْزَى لَهُنَّ مُهُورُ

إِذَا حَلَّ مِنْ نَبْهَانَ أَذْنَابُ ثَلَّةٍ بِأَوْشَالِ سَلْمَى دِقَّةٌ وَفُجُورُ

أَلَسْتَ لِنَبْهَانِيَّةٍ طَالَ بَظْرُهَا وَبَاعُ ابْنِهَا عِنْدَ الْفَخَارِ قَصِيرُ

كَثِيرَةُ صِئْبَانِ النِّطَاقِ كَأَنَّهَا إِذَا رَشَحَتْ مِنْهَا الْمَغَابِنُ كِيرُ

(٢) من قصيدة له يهجو فيها جريرا ، وأولها قوله :

يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ إِنَّمَا جَارَيْتَنِى بِمُسَبَّقِينَ لَدَى الْفَعَالِ قِصَارِ

وَالْحَابِسِينَ إِلَى الْعَشِىِّ لِيَأْخُذُوا نُزُحَ الرَّكِىِّ وَدِمْنَةَ الْأَسْآرِ

(٣) فى الديوان « ولا يفون لجار »

يَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نَهِيقِ حِمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الأَوْتَارِ[(١)]

فقابل بين الغدر والوفاء ، و بين التيقظ والنوم ، وفى البيت الأول مَعْنًى يُسْأل عنه .

وكذلك ورد قول بعضهم[(٢)] :

فَلاَ الجُودُ يُفْنِى المَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلاَ البُخْلُ يُبْقِى المَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ

وقد أكثر أبو تمام من هذا فى شعره فأحسن فى موضع وأساء فى موضع ؛ فمن إحسانه قوله[(٣)] :

مَا إِنْ تَرَى الأَحْسَابَ بِيضاً وُضَّحاً إِلاَّ بِحَيْثُ تَرَى المَنَايَا سُودَا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا :

شَرَفٌ عَلَى أُولَى الزَّمَانِ وَإِنَّمَا خَلَقُ المُنَاسِبِ مَا يَكُونُ جَدِيدَا[(٤)]

وعلى هذا النهج ورد قوله[(٥)] :

إِذَا كَانَتِ النُّعْمَى سَلُوبًا مِنَ امْرِئٍ غَدَتْ مِنْ خَلِيجَىْ كَفِّهِ وَهْىَ مُتْبِـعُ[(٦)]

---

(١) فى الديوان والنقائض « يستيقظون إلى نهاق حمارهم » .

(٢) نسب العباسى فى معاهد التنصيص (ص ٢٧٧) هـذا البيت لأبى الطيب المتنبى ، ولم أجده فى ديوانه ، بل ليس للمتنبى كلمة على هذا الروى .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيبانى ، وأولها قوله :

طَلَلَ الجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا وَكَفَى عَلَى رُزْئِى بِذَاكَ شَهِيدَا

(٤) فى ا ، ب ، ج « سوف على أولى الزمان » وضبط بتشديد الواو ، وهو تصحيف ، والتصويب عن ثلاث نسخ من الديوان .

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

أَمَا إِنَّهُ لَوْلاَ الخَلِيطُ المُوَدِّعُ وَرَبْعٌ خَلاَ مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعُ

(٦) السلوب : التى مات ولدها . والمتبع : التى يتبعها ولدها ، يريد أن غيره إذا كان لايجود إلا مرة واحدة فجود الممدوح يتلو بعضه بعضا ، و وقع فى ا ، ب ، ج « وهو متبع » والتصويب عن الديوان .

وَإِنْ عثَرتْ بيضُ اللَّيالِى وَسُودُهَا بِوُحْدَتِهِ أَلْفَيْتَهَا وَهْىَ مُجْمِعُ(١)

وَيَوْمٍ يظَلُّ الْعِزُّ يُحْفَظُ وَسْطَهُ بِسُمْرِ الْعَوَالِى وَالنُّفُوسُ تُضَيَّعُ(٢)

مَصِيفٌ مِنَ الهَيْجَاوَمِنْ حَاجِمِ الْوَغَى وَلٰكِنَّهُ مِنْ وَابِلِ الدَّمِ مَرْبَعُ(٣)

ومن هذا الأسلوب قوله أيضا(٤) :

تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ الْقُصْوَى إذَا أَخَذَتْ سِلاَحَهَا وَهُوَ الْإِرْقَالُ وَالرَّمَلُ

إِذَا تَظَلَّمْتُ مِنْ أَرْضٍ فَصَلْتُ بِهَا كَانَتْ هِىَ الْعِزَّ إِلاَّ أَنَّهَا ذُلُلُ

الْمُرْضِيَاتُكَ مَا أَرْغَمْتَ آنُفَهَا وَالْهَادِيَاتُكَ وَهْىَ الشُّرَّدُ الضُّلُلُ

---

(١) فى الديوان «و إن عثرت سود الليالى و بيضها» . والمجمع : التى اتفقت آراؤها فهو يذيق العذاب و يورد الحتوف ، وهو ينيل المحتاجين و يرفد السائلين :

(٢) يريد أنه رب حرب طاحنة تسيل فيها النفوس على شفرات السيوف فتضيع ليبنى عليها العز والعلا و يشيد عليها المجد وآساسه سمر العوالى .

(٣) فى ا ، ب ، ج « مصيف من الهيجاء ومن حاجم الوغى » وهو تحريف من وجهين .

(٤) من كلمة له يصف فيها شدة البرد بخراسان ، وأولها قوله :

لَمْ يَبْقَ لِلضَّيْفِ لاَ رَسْمٌ وَلاَ طَلَلُ وَلاَ قَشِيبٌ فَيُسْتَكْسَى وَلاَ سَمَلُ

وهى فى الديوان بتقديم البيت الثالث على أول هذه الأبيات ، وها كها برواية الديوان مع بيت سابق عليها يوضح المعنى والارتباط بينها :

فَمَا صِلاَئِى إِنْ كَانَ الصِّلاَءُ بِهَا جَمْرَ الْغَضَا الجَزْلَ إِلاَّ السَّيْرُ وَالْإِبِلُ

الْمُرْضِيَاتُكَ مَا أَرْغَمْتَ آنُفَهَا وَالْهَادِيَاتُكَ وَهْىَ الرُّشْدُ وَالضَّلَلُ

تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ الْقُصْوَى إِذَا أَخَذَتْ سِلاَحَهَا وَهِىَ الْإِرْقَالُ وَالرَّمَلُ

إِذَا تَظَلَّمْتُ مِنْ أَرْضٍ فَصَلْتُ بِهَا كَانَتْ هِىَ الْعِزَّ إِلاَّ أَنَّهَا ذُلُلُ

وعلى هذا النحو ورد قوله(١) :

وَنَاضِرَةِ الصِّبَاحِينَ اسْبَكَرَّتْ ... طِلاَعَ الْمِرْطِ وَالدِّرْعِ الْبَدِيِّ
تَشَكَّى الأَيْنَ مِنْ نِصْفٍ سَرِيعٍ ... إِذَا قَامَتْ وَمِنْ نِصْفٍ بَطِيِّ

وقد جاء لأبي نواس ذلك فقال :

أَقِلْنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ ... وَبِالْإِقْرَارِ عُذْتُ مِنَ الْجُحُودِ
أَنَا اسْتَهْدَيْتُ عَفْوَكَ مِنْ قَرِيبٍ ... كَمَا اسْتَعْفَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعِيدِ

فقابل بين الأضداد : من الجحود والإقرار ، والعفو والسخط ، والقرب والبعد .

وعلى نحو من ذلك ورد قول على بن جبلة فى أبى دُلَف العجلى ، وهو :

أَيْمُ الْمُهِيرِ وَنِكَاحُ الأَيِّمِ ... يَوْمَاكَ يَوْمُ أَبْؤُسٍ وَأَنْعُمِ

* وجمع مَجْدٍ وَنَدًى مُقَسَّمِ *

وكذلك قوله أيضا :

هُوَ الأَمَلُ الْمَبْسُوطُ وَالأَجَلُ الَّذِى ... يُمِرُّ عَلَى أَيَّامِهِ الدَّهْرُ أَوْ يُحْلُو
وَلاَ تُحْسِنُ الأَيَّامُ تَفْعَلُ فِعْلَهُ ... وَإِنْ كَانَ فِي تَصْرِيفِهَا النَّقْضُ وَالْفَعْلُ
فَعِشْ وَاحِدًا أَمَّا الثَّرَاءُ فَمُسْلَمٌ ... مُبَاحٌ وَأَمَّا الْجَارُ فَهْوَ حِمًى بَسْلُ(٢)

ومما جاء من هذا القسم قول البحترى(٣) :

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

أَلاَ وَيْلَ الشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ ... وَبَالِي الرَّبْعِ مِنْ إِحْدَى بَلِيِّ
وَمَا لِلدَّارِ إِلاَّ كُلُّ سَمْحٍ ... بِأَدْمُعِهِ وَأَضْلُعِهِ سَخِيِّ

(٢) بسل ـ بفتح الباء وسكون السين ـ معناه حرام .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، وأولها قوله :

يَا أَخَا الأَزْدِ مَا حَفِظْتَ الْإِخَاءَ ... لِمُحِبٍّ وَلاَ رَعَيْتَ الْوَفَاءَ

أَحْسَنَ اللهُ فِى ثَوَابِكَ عَنْ ثَغْـرِ مُضَاعٍ أَحْسَنْتَ فِيـهِ الْبَلَاءَ
كَانَ مُسْـتَضْعَفًا فَعَزَّ وَمَحْرُو مًا فَأَجْدَى وَمُظْلِمًا فَأَضَاءَ

ومن أحسن ما ورد له فى هذا الباب قوله (١) :

أَشْكُو إِلَيْكَ أَنَامِلًا مَاتَنْطَوِى بُخْلًا وَإِمْلَاقًا تقصفها الْيَدُ (٢)
أَرْضِيهِمُ قَوْلًا وَلَا يَرْضَوْنَنِى فِعْلًا وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ لا تقصد
فَأَذُمُّ مِنْهُمْ مَا يُذَمُّ وَرُبَّمَا سَامَحْتُهُمْ فَحَمِدْتُ مَالَا يُحْمَدُ

وعلى هذا النهج ورد قوله (٣) :

ذَا لَا يَتْرُكُ الْحَنِينَ أَنِينًا فِى هَوًى يَتْرُكُ الدُّمُوعَ دِمَاءَ
لَا تَلُمْنِى عَلَى الْبُكَاءِ فَإِنِّى نِضْوُ شَجْوٍ مَالُمْتُ فِيهِ الْبُكَاءَ

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب ابن أخت أبى الوزير ، وأولها قوله :

يَايَوْمُ عَرِّجْ ، بَلْ وَرَاءَكَ يَاغَدُ قَدْ أَجْمَعُوا بَيْنًا وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ

(٢) فى الديوان « يبسا وأخلاقا تقصفها اليد » ؛ وبين هذا البيت والذى بعده عدة أبيات ، وهى قوله :

وَأَنَا لَبِيدٌ عِنْدَ آخِرِ دَمْعَةٍ يَصِفُ الصَّبَابَةَ وَالْمَكَارِمَ أَرْبَدُ
النَّاسُ حَوْلَكَ رَوْضَةٌ مَا تُرْتَعَى رَيَّا النَّبَاتِ وَمَنْهَلٌ مَا يُورَدُ
جِدَةٌ وَلَا جُودٌ وَطَالِبُ بُغْيَةٍ فِى الْبَاخِلِينَ وَبُغْيَةٌ لَا تُوجَدُ
تَرَكُوا الْعُلَا وَهُمُ يَرَوْنَ مَكَانَهَا وَدَعَا اللُّجَيْنُ قُلُوبَهُمْ وَالْعَسْجَدُ
وَتَمَاحَكُوا فِى الْبُخْلِ حَتَّى خِلْتُهُ دِينًا يُدَانُ بِهِ الْإِلٰهُ وَيُعْبَدُ

(٣) من قصيدة له يعاتب فيها أبا العباس بن بسطام ، وأولها قوله :

أَمَّا الْعُدَاةُ فَقَدْ أَرَوْكَ نُفُوسَهُمْ فَاقْصِدْ بِسُوءِ ظُنُونِكَ الْإِخْوَانَا

وانظر الديوان (ص ٢٧٩ ج ٢ مصر) .

وَتَوقُّعِي مِنْكَ الْإِسَاءَةَ جَاهِداً ... وَالْعَدْلُ أَنْ أَتَوَقَّعَ الْإِحْسَانَا
وَكَمَا يَسُرُّكَ لِينُ مَسِّي رَاضِياً ... فَكَذَاكَ فَاخْشَ خُشُونَتِي غَضْبَانَا

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه استعمل هذا النوع قليلا في شعره ؛ فمن ذلك قوله[1] :

ثِقَالٌ إِذَا لَاقَوْا خِفَافٌ إِذَا دُعُوا ... كَثِيرٌ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٌ إِذَا عُدُّوا

وكذلك قوله[2] :

إِلَى رَبِّ مَالٍ كُلَّمَا شَتَّ شَمْلُهُ ... تَجَمَّعَ فِي تَشْتِيتِهِ لِلْعُلَا شَمْلُ

ومما استعذبته من قوله في هذا الباب[3] :

كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي ... فَبَيْنَهُمَا فِي كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ

ومما جاء من هذا الباب :

لَمَّا اعْتَنَقْنَا لِلْوَدَاعِ وَأَعْرَبَتْ ... عَبَرَاتُنَا عَنَّا بِدَمْعٍ نَاطِقِ

---

(١) هذا ثالث بيت من قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي ، والذي قبله قوله :

أَقَلُّ فَعَالِي بَلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ ... وَذَا الْجِدُّ فِيهِ نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ جَدُّ
سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ ... كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها شجاع بن محمد الطائي المنبجي ، وأولها قوله :

عَزِيزٌ أَسًى مَنْ دَاؤُهُ الْحَدَقُ النُّجْلُ ... عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ الْمُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إِلَيَّ فَمَنْظَرِي ... نَذِيرٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْهَوَى سَهْلُ

(٣) هذا البيت من القصيدة التي منها البيت السابق ؛ وقبله قوله :

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ سَدَّ مَسَامِعِي ... عَنِ الْعَذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ

و بعده البيت الذي أنشده المؤلف ، و بعده قوله :

أُحِبُّ الَّتِي فِي الْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فَرَّقْنَ بَيْنَ مَعَاجِرٍ وَمَحَاجِرٍ وَجَمَعْنَ بَيْنَ بَنَفْسَجٍ وَشَقَائِقِ

وهذا تحته معنى يسأل عنه غير المقابلة .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة ؛ لأن من العادة أن يشبه العارض بالبنفسج .

وهذا قول غير سائغ ؛ لأن العارض إنما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره ، فإذا طرّ وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شُبِّه بالبنفسج ؛ لأنه يكون بين الأخضر والأسود ، وليس فى الشعر ما يدل على أن المودّع كان شابا قد طرّ عارضه ؛ والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فمزَّقت خِمارَها ولطمت خدها ؛ فجمعت بين أثر اللطم ، وهو شبيه بالبنفسج ، وبين لون الخد ، وهو شبيه الشقائق ، وفرَّقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق وَلَهًا وموجدة على الوداع ؛ هذا هو معنى البيت ، لا ما ذهب إليه هذا الرجل .

وأما المقابلة فى المعنى دون اللفظ فى الأضداد فمما جاء منه قول المُقَنَّع الكِنْدِىّ من شعراء الحماسة[1] .

---

(١) المقنع الكندى ـ بصيغة اسم المفعول ـ اسمه محمد بن عميرة ، وأصل المقنع : الذى يغطى رأسه ، والذى يلبس السلاح مقنع أيضا ، وذكروا أن محمد بن عميرة هذا كان جميلا وضىء الوجه ، فكان يستر وجهه لجماله ، ولهذا سمى المقنع ؛ والبيت من كلمة له اختارها أبو تمام فى الحماسة (انظر شرح التبريزى : ٣ ـ ١٧١) وأولها قوله :

يُعَاتِبُنِى فِى الدَّيْنِ قَوْمِى وإنَّمَا دُيُونِىَ فِى أشْيَاءَ تَكْسِبُهُمْ حَمْدَا
أَسُدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا ثُغُورَ حُقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدَّا
وَفِى جَفْنَةٍ مَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهَا مُكَلَّلَةٍ لَحْمًا مُدَفَّقَةٍ ثُرْدَا
وَفِى فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُهُ حِجَابًا لِبَيْتِى ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدَا

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فقوله « تتابع لى غنى » بمعنى قوله « كثر مالى » فهو إذاً مقابلة من جهة المعنى ؛ لا من جهة اللفظ ؛ لأن حقيقة الأضداد اللفظية إنما هى فى المفردات من الألفاظ ، نحو : قام وقعد ، وحَلّ وَعَقَد ، وقل وكثر ؛ فإن القيام ضد القعود ، والْحَلّ ضد الْعَقْد ، والقليل ضد الكثير ؛ فإذا ترك المفرد من الألفاظ وتوصل إلى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى ، لا من جهة اللفظ ؛ كقول هذا الشاعر « تَتَابَعَ لِي غِنًى » فى معنى كثر مالى ، وهذه مقابلة معنوية ، لا لفظية ، فاعرف ذلك .

وأما مقابلة الشىء بما ليس بضده فهى ضربان : أحدهما ألَّا يكون مثلا ، والآخر أن يكون مثلا .

فالضرب الأول يتفرع إلى فرعين :

الأول : ما كان بين المقابِلِ والمقابَلِ نَوْعُ مناسبة وتقارب ، كقول قُرَيْط ابن أُنَيْفٍ(١) :

وَإِنَّ الَّذِى بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِى أَبِى وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِى وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيِّى هَوِيتُ لَهُمْ رُشْدَا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِى زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمُ وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا

وبعد ذلك البيت الذى ذكره المؤلف ، وبعده قوله :

وَإِنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلاً وَمَا شِيمَةٌ لِى غَيْرُهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

(١) البيت من كلمة اختارها أبو تمام فى مستهل الحماسة ، وأولها قوله :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِى بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

فقابل الظلم بالمغفرة ، وليس ضدا لها ، وإنما هو ضد العدل ، إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حَسُنَت المقابلة بينها وبين الظلم .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ؛ فإن الرحمة ليست ضدا للشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، إلا أنه لما كانت الرحمة من مُسَبِّبات اللين حَسُنت المقابلة بينها وبين الشدة .

وكذلك ورد قوله تعالى : (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ) ؛ فإن المصيبة سيئة ؛ لأن كل مصيبة سيئة ، وليس كل سيئة مصيبة ؛ فالتقابل ههنا من جهة العام والخاص .

الفرع الثانى : ما كان بين المقابِلِ والمقابَلِ به بُعْدٌ ، وذاك مما لا يحسن استعماله ، كقول أم النُّحَيْفِ[١] ، وهو سعد بن قرط[٢] ، وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها ، فقالت من أبيات تَذُمُّهَا فيها[٣] :

---

(١) فى ا ، ب ، ج « أم المحنف » والتصويب عن شرح الحماسة للتبريزى (٤ - ٣٥٢) قال : « يقال : نَحِفَ الرجل يَنْحَفُ ، وَنَحُفَ يَنْحُفُ ، نَحَافَةً ، وهو نَحِيفٌ ؛ فيجوز أن يكون النُّحَيْفُ تحقير ترخيم النَّحِيف » اه .

(٢) فى ا ، ب ، ج «وهو سعد بن قرظ» بالظاء المعجمة ، والتصويب عن التبريزى فى الموضع المذكور .

(٣) الأبيات رواها أبو تمام فى أخريات ديوان الحماسة ، وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قولها :

لَعَمْرِى لَقَدْ أَخْلَفْتَ ظَنِّى وَسُؤْتَنِى فَحُزْتَ بِعِصْيَانِى النَّدَامَةَ فَاصْبِرِ

وَلَا تَكُ مِطْلَاقًا مَلُولاً ؛ فَسَامِحِ الْـ ـقَرِينَةَ وَافْعَلْ فِعْلَ حُرٍّ مُشَهَّرِ

فَقَدْ حُزْتَ بِالْوَرْهَاءِ أَخْبَثَ خِبْثَةٍ فَدَعْ عَنْكَ مَا قَدْ قُلْتَ يَا سَعْدُ وَاحْذَرِ

تَرَبَّصْ بِهَا الْأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا سَتَرْمِي بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ
فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلٰهُهُ بِمَذْمُومَةِ الْأَخْلَاقِ وَاسِعَةِ الْحِرِ

فقولها « بمذمومة الأخلاق واسعة الحر » من المقابلة البعيدة ، بل الأولى أن كانت قالت « بضيقة الأخلاق واسعة الحر » حتى تصح المقابلة .

وهذا مما يدل على أن العربيَّ غَيْرُ مُهْتَدٍ إلى استعمال ذلك بصنعته ، وإنما يجيء له منه ما يجيء بطبعه ، لابتكلفه ، وإذا أخطأ فإنه لا يعلم الخطأ ، ولا يشعر به ، والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن ، وحصلت المقابلة ، وإنما يعذر من يعذر في ترك المقابلة في مثل هذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه .

وأما الْمُحْدَثُونَ من الشعراء فإنهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه ، لا جَرَمَ أنهم أشدُّ مَلَامَة من العرب .

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي (١) :

لِمَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ (٢)

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها كافورا الإخشيدى ، وأولها قوله :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتَ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتَ خَيْرُ مُيَمَّمِ

(٢) رواية الديوان التي شرح عليها العكبرى :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

والخطاب والغيبة جائزان لا على جهة الالتفات فحسب ؛ بل لأن فيما قبل البيت خطابا وغيبة فهو بأحد الوجهين يطابق أحد السابقين ، وما قبله هو قوله :

قَدِ اخْتَرْتُكَ الْأَمْلَاكَ فَاخْتَرْ لَهُمْ بِنَا حَدِيثًا ، وَقَدْ حَكَّمْتُ رَأْيَكَ فَاحْكُمِ
فَأَحْسَنُ وَجْهٍ فِي الْوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمُ كَفُّ مُنْعِمِ
وَأَشْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ أَشْرَفَ هِمَّةً وَأَكْبَرَ إِقْدَامًا عَلَى كُلِّ مُعْظَمِ

فإن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض ، لا بين المحب والمجرم ، وليست متوسطة أيضاً حتى يقرب الحال فيها ، وإنما هى بعيدة ؛ فإنه ليس كل من أجْرَم إليك كان مُبْغِضاً لك .

ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى « المواخاة بين المعانى ، والمواخاة بين المبانى » وكان ينبغى أن نعقد له بابا مفرداً لكنا لما رأيناه ينظر إلى التقابل من وجه وصلناه به .

أما المواخاة بين المعانى فهو : أن يذكر المعنى مع أخيه ، لا مع الأجنبى ؛ مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف ، وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قَدْحًا فى الصناعة ، وإن كان جائزا .

فمن ذلك قول الكميت[1] :

أمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ رَافِعَةٌ ... وَإنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ[2]

فإن الدَّلَّ يذكر مع الْغَنَج وما أشبهه ، والشَّنَب يذكر مع اللَّعَس وما أشبهه ، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا ، وهو مَظِنَّة الغلط ؛ لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحِذْقٍ بحيث توضع المعانى مع أخواتها ، لا مع الأجنبى منها .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج[3] أنه اجْتَمَعَ نُصَيْبٌ والكُمَيْت

---

(١) البيت من قصيدة للكميت بن زيد الأسدى ، ومطلعها قوله :

هَلْ أنْتَ عَنْ طَلَبِ الْإِيقَاعِ مُنْقَلِبُ ... أمْ هَلْ يُحَسِّنُ مِنْ ذِى الشَّيْبَةِ اللَّعِبُ

وهى قصيدة يعارض فيها قصيدة ذى الرمة التى أولها :

ما بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ ... كَأنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

(٢) روى هذا البيت بروايات مختلفة ؛ فوقع فى ا ، ب ، ج « بالعلياء رافعة » ووقع فى رواية لثعلب « بالعلياء نافعة » ووقع فى رواية لإسحاق الموصلى « بالخلصاء رابعة » ووقع فى رواية لمحمد بن يزيد :

وَقَدْ رَأيْنَا بِهَا حُورًا مُنَعَّمَةً ... بِيضًا تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنَبُ

انظر الموشح ص ١٩١ .

(٣) انظر هذه القصة بروايات متعددة فى الموشح للمرزبانى (١٩١ – ١٩٨) .

وذُو الرُّمَّة ، فأنشد الكميت « أم هل ظعائن ـ البيت » فعقد نصيبٌ واحدة ؛ فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك ؛ فإنك تباعدت فى القول ، أين الدَّلُّ من الشَّنَبِ ؟ ألاَّ قُلْتَ كما قال ذو الرمة :

لَمْيَاءُ فى شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ   وَفِى اللِّثَاتِ وَفِى أَنْيَابِهَا شَنَبُ

ورأيت أبا نواس يقع فى ذلك كثيرا ؛ كقوله فى وصف الديك[1] :

لَهُ اعْتِدَالٌ وانْتِصَابُ قَدِّ   وَجِـلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْىَ الْبُرْدِ
كَأَنَّهَا الْهُدَّابُ فِى الْفِرِنْدِ   مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ كَرِيمُ الْجَدِّ

فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد ، وهذا لا يناسب هذا ؛ لأن الظهر من جملة الْخَلْق ، والجَدّ من النسب ، وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويواخيه أيضاً .

وكذلك أخطأ أبو نواس فى قوله :

---

(١) الأبيات من أرجوزة له يصف فيها الديك ، وليس ترتيبها فى الديوان كترتيبها فيما ذكر المؤلف ؛ ونحن نذكر لك من هذه الأرجوزة ما يجمع الأبيات التى رواها المؤلف ، لهذا ، ولأن فى رواية الديوان بعض اختلاف يحسن أن نقفك عليه ؛ قال :

أَنْعَتُ دِيكاً مِنْ دُيُوكِ الْهِنْدِ   أَحْسَنَ مِنْ طَاوُوسِ قَصْرِ الْمَهْدِى
أَشْجَعَ مِنْ عَادِى عَرِينِ الْأسْدِ   تَرَى الدَّجَاجَ حَوْلَهُ كَالْجُنْدِ
يُقْعِينَ مِنْهُ خِيفَةً لِلسِّـفْدِ   لَهُ سُقَاعٌ كَدَوِىِّ الرَّعْـدِ
مِنْقَارُهُ كَالْمِعْوَلِ الْمُحَـدِّ   يَقْهَرُ مَا نَاقَرَهُ بِالنَّقْـدِ
عَيْنَاهُ مِنْهُ فى الْقَفَا وَالْخَـدِّ   ذُو هَامَـةٍ وَعُنُقٍ كَالْوَرْدِ
وَجِلْدَةٍ تُشْـبِهُ وَشْىَ الْبُرْدِ   ظَاهِرُهَا زِفٌّ شَـدِيدُ الْوَقْدِ
كَأَنَّهُ الهُـدَّابُ فى الفِرِنْدِ   مُضمَّرُ الْخَلْقِ عَمِيمُ الْقَـدِّ
لَهُ اعْتِـدَالٌ وَانْتِصَابُ قَدِّ   مُحْدَوْدِبُ الظَّهْرِ كَرِيمُ الْجَدِّ

وَقَدْ حلفتُ يميناً مَبْرُورةً لا تُكْذَبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَالحَوْ ضِ وَالصَّفا وَالمحصَّبْ

فإن ذكر الحَوْض مع زمزم والصّفا والمحصَّب غيرُ مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان ، وما جرى مجراهما ، وأما زَمْزَم والصّفا والمحصَّب فيذكر معها الرُّكْنُ وَالحَطِيم، وما جرى مجراها .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضاً :

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِى قارِ مَنْزِلُ خَمَّارَةٍ وَخَمَّارِ (١)
وَشَمُّ رَيْحانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوارِ

فالبيت الثانى لا مقارنة بين صدره وعجزه ، وأين شَمُّ الريحان من الأينق بالأكوار ؟ وكان ينبغى له أن يقول : شمُّ الريحان أحسن من شم الشِّيح والقَيْصُوم ، وركوب الفتيَات الرُّود أحْسَنُ من ركوب الأينق بالأكوار ، وكلُّ هذا لا يتفطن لوضعه فى مواضعه فى كل الأوقات ، وقد كان يغلب علىَّ السهوُ فى بعض الأحوال حتى أسلك هذه الطريق فى وضع المعانى مع غير أنسابها وأقاربها ، ثم إنى كنت أتأمل ما صنعته بعد حين فأصلح ما سهوت عنه .

(١) فى الديوان (ص ٢٨٨ مصر) :

أَحْسَنُ مِنْ مَنْزِلٍ بِذِى قارِ مَنْزِلُ خَمَّارَةٍ بِالْأَنْبارِ
وَشَمُّ رَيْحانَةٍ وَنَرْجِسَةٍ أَحْسَنُ مِنْ أَيْنُقٍ بِأَكْوارِ
وَعِشْرَةٌ لِلْقِيانِ فى دَعَةٍ مَعْ رَشَإٍ عاقِدٍ لِزُنَّارِ
أَلَذُّ مِنْ مَهْمَهٍ أَكُدُّ بِهِ وَمِنْ سَرابٍ أَجُوبُ غَرَّارِ
وَنَقْرُ عُودٍ إذا تُرَجِّعُهُ بَنانُ رُودِ الشَّبابِ مِعْطَارِ
أَحْسَنُ عِنْدِى مِنْ أُمِّ ناجِيَةٍ وَأُمِّ عَمْرٍو وَأُمِّ عَمَّارِ

وأما المواخاة بين المباني فإنه يتعلق بمباني الألفاظ .

فمن ذلك قول أبي تمام في وصف الرماح[(١)] :

مُثَقَّفَاتٌ سَلَبْنَ الْعُرْبَ سُمْرَتَهَا وَالرُّومَ زُرْقَتَهَا وَالْعَاشِقَ الْقَضَفَا[(٢)]

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الأفراد ، غير أن فيه نظرا ، وهو قوله العُرْب والروم ثم قال العاشق ، ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن ؛ إذ كانت الأوصاف تجرى على [سَنَن] واحد ، وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ثم قال القضفا ، وكان ينبغي أن يقول : قضفها أو دقتها .

وعلى هذا ورد قول مُسْلِم بن الْوَلِيد :

نفضت بكَ الْأَحْلَاسُ نَفْضَ إقامَةٍ وَاسْتَرْجَعَتْ نُزَّاعَهَا الْأَمْصَارُ

فَاذْهَبْ كما ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْنِي عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ

والأحسن أن يقال : السَّهْلُ والْوَعْرُ ، أوالسهول والأوعار ؛ ليكون البناء اللفظي واحداً : أي أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الإفراد ، ولا يكون أحدهما مجموعا والآخر مفردا .

وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر[(٣)] :

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف العجلي ، وأولها قوله :

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَا سَلَفَا فَلَا تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

(٢) مثقفات : مقومات معدلات ، وتقول : ثقفت الرمح تثقيفا ؛ إذاقومته وعدلته بالثقاف ، بزنة كتاب ، والقضف ـ بفتح القاف والضاد جميعا ـ النحافة ؛ يريد أن هذه الرماح معدلات مقومات؛وأنها زرقاء السنان صافية الجوهر كلون الروم ، وأنها سمراء كلون العرب ، وأنها نحيفة كالعاشق .

(٣) من كلمة له أولها قوله :

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ وَمُحَسِّنَ الضحكَاتِ وَالْهَزْلِ

صَفْرَاءُ مَجْدُهَا مَرَازِبُهَا جَلَّتْ عَنِ النُّظَرَاءِ وَالْمِثْلِ (١)

فجمع وأفرد فى معنى واحد ، وهو أنه قال « النظراء » مجموعا ثم قال « المثل » مفردا ، وكان الأحسن أن يقول : النظير والمثل ، أو النظراء والأمثال .

وعلى ذلك ورد قوله أيضاً ، والإنكار يتوجّه فيه أكثر من الأول ، وهو (٢) :

أَلَا يَابْنَ الَّذِينَ فَنُوا فَمَاتُوا أَمَا وَاللهِ مَامَاتُوا لِتَبْقَى

وَمَالَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا مُقَامٌ إِذَا اسْتَكْمَلْتَ آجَالاً وَرِزْقَا

وموضع الإنكار ههنا أنه قال « آجالا ورزقا » وكان ينبغى أن يقول : أرزاقا ، أو أن يقول : أجلاً ورِزْقاً ، وقد زاده إنكارا أنه جمع الأجل فقال « آجالا » والإنسان ليس له إلا أجل واحد ، ولو قال أجلا وأرزاقا لما عيب ؛ لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة ؛ لِاخْتِلَافِ ضروبها وأجناسها .

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

وَالرَّاحُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رَزَأَتْ بُلَغَ المَعَاشِ وَقَلَّتْ فَضْلِي

و بعده قوله :

ذُخِرَتْ لِآدَمَ قَبْلَ خِلْقَتِهِ فَتَقَدَّمَتْهُ بِخُطْوَةِ الْقَبْلِ

(٢) البيتان من خمسة أبيات له فى الزهد ، ورواية الديوان (ص ١٩٨) فيهما تخالف رواية المؤلف بعض المخالفة ، وهاك الأبيات كلها برواية الديوان :

أَخِى ؛ مَابَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْقَى كَأَنَّكَ لَا تَظُنُّ الْمَوْتَ حَقَّا

أَلَا يَابْنَ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا أَمَا وَاللهِ مَا بَادُوا لِتَبْقَى

وَمَالَكَ فَاعْلَمَنْ بِهَا مُقَامٌ إِذَا اُسْتَكْمَلْتَ آجَالاً وَرِزْقَا

وَمَالَكَ غَيْرُ مَا قَدَّمْتَ زَادٌ إِذَا جَعَلَتْ إِلَى اللَّهَوَاتِ تَرْقَى

وَمَا أَحَدٌ بِزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بِزَادِكَ مِنْكَ أَشْقَى

وإذا أنصفنا فى هذا الموضع وجدنا الناثر مُطَالبا به دونَ الناظم ؛ لمكان إمكانه من التصرف .

وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجباً فى الاستعمال ، وأنه لايحسن المَحِيدُ عنه ، حتى مر بى فى القرآن الكريم مايخالفه ، كقوله تعالى فى سورة النحل : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظى على سنن واحدٍ لجمع اليمين كما جمع الشمال أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين ، وكذلك ورد قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) فجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع ، وكذلك ورد قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا مَاجَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) فذكر السمع بلفظ الإفراد وذكر الأبصار والجلود بلفظ الجمع ؛ وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا ، ولو كان هذا معتبرا فى الاستعمال لورد فى كلام الله تعالى الذى هو أفصح من كل كلام ، والأخذ فى مقام الفصاحة والبلاغة إنما يكون منه ، والمعوَّل عليه ، وما ينبغى أن يقاس على هذا قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) وربما قيل : إن هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وإفراد ، وظن أنها من هذا الباب ، وليس كذلك ؛ لأنها مشتملة على خطاب موسى وهرون عليهما السلام أوّلا فى اتخاذ المساجد لقومهما ، ثم ثنى الخطاب لهما ولقومهما جميعا ، ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين ؛ لأنه صاحب الرسالة .

الضرب الثانى : فى مقابلة الشىء مثله ، وهو يتفرع إلى فرعين : أحدهما : مقابلة المفرد بالمفرد ، والآخر مقابلة الجملة بالجملة .

الفرع الأول : كقوله تعالى : (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) وكقوله تعالى :

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً) وقد روعى هذا الموضع فى القرآن الكريم كثيراً ؛ فإذا ورد فى صدر آية من الآيات ما يحتاج إلى جواب كان جوابه مماثلا ، كقوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) وكقوله تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) وهذا هو الأحسن ، وإلا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه كان ذلك جائزا ، لكن الأحسن هو ما ورد فى كتاب الله تعالى ، وعليه مدار الاستعمال .

وهذا الحكم يجرى فى النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية .

فأما إن كان ذلك غير جواب ؛ فإنه لايلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية ، ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هى فى معناها ، وإن لم تكن مساوية لها فى اللفظ ، وهذا يقع فى الألفاظ المترادفة ؛ ولذا يستعمل ذلك فى الموضع الذى ترد فيه الكلمة غير جواب .

فمما جاء منه قوله تعالى : (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) ولو كان لا تورد الكلمة إلا مثلا لقيل وهو أعلم بما تعملون ، وكذلك قوله تعالى : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) فقال (لا تخف) بعد قوله (ففزع) ولما كان هذا فى معنى هذا قوبل أحدهما بالآخر ، ولم يقابل اللفظ بنفسه .

وكذلك جاء قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) فذكر الاستهزاء الذى هو فى معنى الخوض واللعب وقابل به الخوض واللعب ، ولو ذكره على حد المماثلة والمساواة لقال : أفى الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون .

فإن قيل : إنك قد احتججت بالقرآن الكريم فيما ذكرته ، ونرى قد ورد

فى القرآن الكريم ماينقضه ، كقوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) ولم يقل جزاء سيئة سيئة مثلها .

الجواب عن ذلك أنى أقول : أردت أن تنقض علىَّ ما ذكرته فلم تنقضه ، ولكنك شيَّدْته ، والذى ذكرته هو دليل لى لا لك ، ألا ترى أنه لا فرق بين قوله تعالى (جزاء سيئة بمثلها) و بين قوله جزاء سيئة سيئة مثلها ؛ إذ المعنى واحد لايختلف ، ولو جاء عوضاً عن السيئة لفظة أخرى فى معناها كالأذى والسوء أو ما جرى مجراهما لصح لك ما ذهبت إليه .

وقد ذهب بعض المتصدرين فى علم البيان أنه إذا ذكرت اللفظة فى أول كلام يحتاج إلى تمام ، وإن لم يكن جوابا كالذى تقدم ؛ فينبغى أن تُعاد بعينها فى آخره ، ومتى عدل عن ذلك كان معيباً ، ثم مثل ذلك بقول أبى تمام وقوْل أبى الطيب المتنبى ، فقال : إن أبا تمام أخطأ فى قوله[1] :

بَسَطَ الرَّجَاءَ لَنَا بِرَغْمِ نَوَائِبٍ ... كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصَارِعُ الآمَالِ[2]

فحيث ذكر الرجاء فى صدر البيت فكان ينبغى أن يعيد ذكره أيضاً فى عجزه ، أوكان ذكر الآمال فى صدر البيت وعجزه ، وكذلك أخطأ أبو الطيب المتنبى فى قوله[3] :

---

(١) البيت من كلمة له يمدح فيها الحسن بن رجاء ، وأولها قوله :

يَكْفِى وَغَاكَ فَإِنَّنِى لَكَ قَالِ ... لَيْسَتْ هَوَادِى عَزْمَتِى بِتَوَالِ

ومثل هذا البيت قول أبى تمام أيضا :

ثَكِلَتْ رَجَاءَ أَخِيكَ فُرْقَتُكَ الَّتِى ... قَدْ أَمْسَكَتْ بِمُخَنَّقِ الآمَالِ

(٢) فى الديوان (ص ٢٤٦ بيروت) : « أحيا الرجاء لنا برغم نوائب » .

(٣) هذا مطلع قصيدة له يرثى فيها محمد بن إسحاق التنوخى ، و بعده قوله :

وَرَأَيْتُ كُلاًّ مَا يُعَلِّلُ نَفْسَهُ ... بِتَعِلَّةٍ ، وَإِلَى الفَنَاءِ يَصِيرُ

إنِّى لَأعْلَمُ وَاللَّبِيبُ خَبِــيرُ أنَّ الحيَاةَ وَإنْ حَرَصْتَ غُرُورُ

فإنه قال « إنى لأعلم واللبيب خبير » وكان ينبغى أن يقول : إنى لأعلم واللبيب عليم ؛ ليكون ذلك تقابلا صحيحاً .

وهذا الذى ذكره هذا الرجل ليس بشىء ، بل المعتمد عليه فى هذا الباب أنه إذا كانت اللفظة فى معنى أختها جاز استعمالها فى المقابلة بينهما ، والدليل على ذلك ما قدمناه من آيات القرآن الكريم ، وكفى به دليلا .

وهذه الرموز التى هى أسرار الكلام لا يتفطَّن لاستعمالها إلا أحد رجلين : إما فقيه فى علم البيان قد مارسه ، وإما مشقوق اللسان فى الفصاحة قد خلق عارفا بلطائفها مستغنيا عن مطالعة صحائفها ، وهذا لا يكون إلا عَرَبىٌّ الفطرة يقول ما يقوله طبعا ، على أنه لايسدد فى جميع أقواله ، مالم تكن معرفته الفطرية ممزوجة بمعرفته العرفية .

الفرع الثانى فى مقابلة الجملة بالجملة : اعلم أنه إذا كانت الجملة من الكلام مستقبلة قوبلت بمستقبلة ، وإن كانت ماضية قوبلت بماضية ، وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة ، والمستقبلة بالماضية ؛ إذا كانت إحداهما فى معنى الأخرى .

فمن ذلك قوله تعالى : (قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإنِ اُهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إلَىَّ رَبِّى) فإن هذا تقابل من جهة المعنى ، ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال : وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها ؛ أعنى أن كل ما هو وَبَال عليها وضارٌّ لها فهو بسببها ومنها ؛ لأنها الأمارة بالسوء ، وكل ما هو لها مما

أمُجاوِرَ الدَّيمَاسِ رَهْنَ قَرَارَةٍ فِيهَا الضِّيَاءُ بِوَجْهِهِ وَالنُّورُ
ما كُنْتُ أحْسَبُ قَبلَ دَفْنِكَ فى الثَّرى أنَّ الكَوَاكِبَ فى التُّرَابِ تغورُ

ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها ، وهذا حكم عام لكل مُكَلَّف ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند ذلك إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع عُلُوّ محله وسداد طريقته كان غيره أولى به .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) فإنه لم يراع التقابل فى قوله ليسكنوا فيه ومبصرا ؛ لأن القياس يقتضى أن يكون والنهار لتبصروا فيه ، وإنما هو مراعى من جهة المعنى ، لامن جهة اللفظ ، وهذا النظم المطبوع غير المتكلف ؛ لأن معنى قوله مبصرا لتبصروا فيه طرقَ التقلّب فى الحاجات .

واعلم أن فى تقابل المعانى باباً عجيبَ الأمر ، يحتاج إلى فضل تأمل ، وزيادة نظر ، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور ، وبالأعجاز من الأبيات الشعرية .

فمما جاء من ذلك قوله تعالى فى ذم المنافقين : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) وقوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) ألا ترى كيف فصل الآية الأخرى بيعلمون والآية التى قبلها بيشعرون ، وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك ، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدّى إلى الفتنة والفساد فى الأرض فأمر دُنْيَوِىّ مبنى على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور ، فهو كالمحسوس عندهم ؛ فلذلك قال فيه (لايشعرون) وأيضاً فإنه لما ذكر السفه فى الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقا فقال (لايعلمون) .

وآيات القرآن جميعها فصلت هكذا ، كقوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) وكقوله : (لَهُ

مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) وكقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) فإنه إنما فصلت الآية الأولى بلطيف خبير لأن ذلك فى موضع الرحمة لخلقه بإنزال الغيث وغيره، وأما الآية الثانية فإنما فصلت بغنى حميد لأنه قال: (له مافى السموات وما فى الأرض) له لا لحاجة، بل هو غنى عنها، جوّادبها؛ لأنه ليس كل غنيٍّ نافعا بغناه إلا إذا كان جوادا منعما، وإذا جاد وأنعم حمده الْمُنْعَمُ عليه، واستحق عليه الحمد، فذكر الحميد ليدل على أنه الغنىّ النافع بغناه خلقه، وأما الآية الثالثة[1] فإنها فصلت برءوف رحيم؛ لأنه لما عدّدللناس ماأنعم به عليهم من تسخير ما فى الأرض لهم وإجراء الفلك فى البحر بهم وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم وخلقه السماء فوقهم وإمساكه إياها عن الوقوع حَسُنَ أن يفصل ذلك بقوله: (رءوف رحيم) أى: أنّ هذا الفعلَ فعلُ رءوفٍ بكم رحيم لكم.

واعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قلّمَا توجد هذه الملاءمة والمناسبة فى كلام ناظم أو ناثر.

ومن الآيات ما يشكل فاصلته فيحتاج إلى فكرة وتأمل، كقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) فإنه قد وردت الفاصلة فى غير هذا الموضع بتواب

(١) فى ج «وأما الآية الثانية» وهو تحريف، وصوابه عن ا، ب، د.

رحيم ، ويظن الظان أن هذا كذاك ، ويقول : إن التوبة مع الرحمة ، لا مع الحكمة ؛ وليس كما يظن ، بل الفاصلة بتوّاب حكيم أولى من توّاب رحيم ؛ لأن الله عز وجل حكم بالتلاعن على الصورة التى أمر بها ، وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده ، وذلك حكمة منه ، ففصلت الآية الواردة فى آخر الآيات بتواب حكيم ، فجمع فيها بين التوبة المرجوّة من صاحب المعصية وبين الحكمة فى سَتْرِها على تلك الصورة .

وهذا الباب ليس فى علم البيان أكثر منه نفعاً ، ولا أعظم فائدة .

ومما جاء من هذا الباب قول أبى الطيب المتنبى :

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ... وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

وقد أُوخذ على ذلك ، وقيل : لو جعل آخر البيت الأول آخرا للبيت الثانى وآخر البيت الثانى آخرا للبيت الأول لكان أولى .

ولذلك حكاية ، وهى أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التى أولها :

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ(١) *

فلما بلغ إلى هذين البيتين قال : قد انتقدتُهما عليك كما انْتُقِدَ على امرىء القيس قوله(٢) :

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

(١) هذا صدر مطلع القصيدة التى منها البيتان السابقان ، وعجزه قوله :

* وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ *

(٢) هذا البيتان من قصيدته التى أولها قوله :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ... وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ   لِخَيْلِيَ كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إجْفَالِ

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس، وكان ينبغي لك أن تقول :

وَقَفْتَ وَمَافِى المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ   وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً   كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وهْوَ نَائِمُ

فقال المتنبى : إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لايعلمه البزّاز كما يعلمه الحائك ؛ لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف تفاصيله ، وإنما قَرَنَ امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد ؛ وقرَنَ السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وكذلك لما ذكرتُ الموت فى صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى فى آخره ، ليكون أحسن تلاؤما ، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت « وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ » لأجمع بين الأضداد .

القسم الثانى : فى صحة التقسيم وفساده .

ولسنا نريد بذلك ههنا ماتقتضيه القسمة العقلية ، كما يذهب إليه المتكلمون؛ فإن ذلك يقتضى أشياء مستحيلة ، كقولهم : الجواهر لاتخلو : إما أن تكون مجتمعة، أومفترقة، أولامجتمعةولامفترقة ، أومجتمعة ومفترقة معا ، أوبعضها مجتمعة و بعضها مفترقة ؛ ألاترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل ؛ لاستيفاء الأقسام جميعها وإن كان من جملتها مايستحيل وجوده .

وإنما نريد بالتقسيم ههنا مايقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد ، وإذا ذكرت قام كلُّ قسم منها بنفسه ، ولم يشارك غيره ، فتارة يكون التقسيم بلفظة «إما» وتارة بلفظة بين كقولنا : بين كذا وكذا ،وتارة منهم،

كقولنا : منهم كذا ، ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر العدد المراد أولا بالذكر ، ثم يقسم ؛ كقولنا: فانشعب القوم شعباً أربعة ؛ فشعبة ذهبت يميناً ، وشعبة ذهبت شمالا ، وشعبة وقفت بمكانها ، وشعبة رجعت إلى ورائها .

فمما جاء من هذا القسم قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ وهذه قسمة صحيحة ؛ فإنه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة : فإما عاصٍ ظالم لنفسه ، وإما مُطيع مبادر إلى الخيرات ، وإما مقتصِد بينهما .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التى قبلها ؛ فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ فإن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ، وليس لنا قسم ثالث .

فإن قيل : إن استيفاء الأقسام ليس شرطاً ، وترك بعض الأقسام لا يَقدح فى الكلام ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ فذكر أصحاب الجنة دون أصحاب النار .

فالجواب عن ذلك أنى أقول : هذا لا ينقض على ما ذكرته ؛ فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم الإجمال فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ﴾ فإنه حيث قال (فمنهم) لزم استيفاء الأقسام الثلاثة ، ولو اقتصر على قسمين منها لم يجُزْ ، وأما هذه الآية التى هى

(لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) فإنه إنما خَصَّ أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فَوْزَ لهم ، ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضا ما لأصحاب الجنة ، وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى ؛ فإنه إنما ينظر فيه إلى المستبهم وغير المستبهم ، فاعرفه .

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة يعجبون بقول بعض الأعراب ، ويزعمون أن ذلك من أصح التقسيمات ، وهو قولهم : النِّعَمُ ثلاثة : نعمة فى حال كونها ، ونعمة تُرْجَى مستقبلة ، ونعمة تأتى غير محتسبة ، فأبقى الله عليك ما أنت فيه ، وحَقَّق ظنك فيما ترتجيه ، وتَفَضَّل عليك بما لم تحتسبه .

وهذا القول فاسد ؛ فإن فى أقسام النعم التى قسمها نقصاً لابد منه ، وزيادة لا حاجة إليها ، فأما النقص فإغفال النعمة الماضية ، وأما الزيادة فقوله بعد المستقبلة : ونعمة تأتى غير محتسبة ؛ لأن النعمة التى تأتى غير محتسبة داخلة فى قسم النعمة المستقبلة ، وذاك أن النعمة المستقبلة تنقسم قسمين : أحدهما يُرْجَى حصوله ، والآخر لا يحتسب ، فقوله : ونعمة تأتى غير محتسبة ؛ يُوهِمُ أَنَّ هذا القسم غير المستقبل ، وهو داخل فيه ، وعلى هذا فكان ينبغى له أن يقول النعم ثلاث : نعمة ماضية ، ونعمة فى حال كونها ، ونعمة تأتى مستقبلة ؛ فأَحْسَنَ اللهُ آثار النعمة الماضية ، وأبقى عليك النعمة التى أنت فيها ، ووفَّر حظك من النعمة التى تستقبلها ؛ ألا تراه لو قال ذلك لكان قد طبق به مَفْصِلَ الصواب ؟

وقد استوفى أبو تمام هذا المعنى فى قوله[1] :

جُمِعَتْ لَنَا فِرَقُ الأَمَانِى مِنْكُمُ ... بِأَبَرَّ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ وَأَوْصَلِ[2]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الوليد أحمد بن أبى دواد ، وأولها قوله :

بَوَّأْتُ رَحْلِى فى المَرَادِ المُبْقِلِ ... وَرَتَعْتُ فى أُثُرِ الغَمَامِ المُسْبِلِ

(٢) فى ا ، ب ، ج « جمعت لها فوق » وهو تصحيف صوابه عن الديوان .

فَصَنِيعَةٌ فِي يَوْمِهَا وَصَنِيعَةٌ ... قَدْ أَحْوَلَتْ وَصَنِيعَةٌ لَمْ تُحْوِلِ
كَالْمُزْنِ مِنْ مَاءِ الرَّبَابِ فَمُقْبِلٍ ... مُتَنَظَّرٍ وَمُخَيِّمٍ مُتَهَلِّلِ (١)

ووقف أعرابى على مجلس الحسن البصرى رضى الله عنه فقال : رحم الله عبداً أعطى من سَعَة ، أو آسى من كَفاف ، أو آثر من قِلَّة ، فقال الحسن البصرى : ماترك لأحد عذرا .

وقد عاب أبو هلال العسكرى على جَمِيل قوله (٢) :

لَوْ كَانَ فِى قَلْبِى كَقَدْرِ قُلَامَةٍ ... حُبًّا وَصَلْتُكِ أَوْ أَتَتْكِ رَسَائِلِى (٣)

فقال أبو هلال (٤) : إن إتيان الرسائل داخل فى جملة الْوَصْل . وليس الأمر كما وقع له ؛ فإن جميلا إنما أراد بقوله وصلتك أى أتيتك زائرًا وقاصداً أو كنت راسلتك مراسلة ، والوصل لايخرج عن هذين الوصفين : إما زيارة ، وإما رسالة .

ومن أعجب ماوجدته فى هذا الباب ماذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف

---

(١) فى ا ، ب ، ج « كالمزن من ماضى الرباب » وفى الديوان « كالمزن من ماء السحاب » ، وما أثبتناه عن د ، وفى جميع النسخ « ومقبل متنظر » بالواو وما أثبتناه عن الديوان .

(٢) من كلمة له أولها قوله :

أَبُثَيْنَ إِنَّكِ قَدْ مَلَكْتِ فَأَسْجِحِى ... وَخُذِى بِحَظِّكِ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
فَلَرُبَّ عارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصْلَهَا ... بِالْجِدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
فَأَجَبْتُهَا بِالرِّفْقِ بَعْدَ تَسَتُّرٍ ... حُبِّى بُثَيْنَةَ عَنْ وِصَالِكِ شَاغِلِى

وبعد هذا البيت الذى أنشده المؤلف .

(٣) فى الديوان « كقدر قلامة فضلا » .

(٤) انظر كتاب « الصناعتين » لأبى هلال (ص ٢٧٠ الآستانة) .

بالغانمى ، وهو قول العباس بن الأحنف(١) :

وِصَالُكُمُ هَجْرٌ وَحُبُّكُمُ قِلًى وَعَطْفُكُمُ صَدٌّ وَسِلْمُكُمُ حَرْبُ(٢)

ثم قال الغانمى : هـــذا والله أصح من تقسيمات إقليدس ، ويالله العجب ! أين التقسيم من هذا البيت ؟ هذا والله فى واد والتقسيم فى واد ، ألا ترى أنه لم يذكر شيئاً تحصره القسمة ، وإنما ذم أحبابه فى سوء صنيعهم به ، فذكر بعض أحواله معهم ، ولو قال أيضاً :

وَلِينُكُمُ عُنْفٌ وَقُرْبُكُمُ نَوًى وَإِعْطَاؤُكُمْ مَنْعٌ وَصِدْقُكُمُ كِذْبُ

لكان هذا جائزا ، وكذلك لو زاد بيتا آخر لجاز ، ولو أنه تقسيم لما احتمل زيادة ، والأولى أن يضاف هذا البيت الذى ذكره الغانمى إلى باب المقابلة ؛ فإنه أولى به ؛ لأنه قابل الوصل بالهجر ، والعطف بالصد ، والسلم بالحرب .

ومن فساد التقسيم قول البحترى فى قصيدته التى مطلعها :

* ذَاكَ وَادِى الْأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلاً(٣) *

فقال :

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيناً أَوْ مُعِيناً أَوْ عَاذِراً أَوْ عَـــذُولاَ

فإن المشوق يكون حزينا ، والمسعد يكون معينا ، وكذلك يكون المسعد عاذرا ، وكثيرا ما يقع البحترى فى مثل ذلك .

(١) من كلمة له أولها قوله :

أَلاَ لَيْتَ ذَاتَ الْخَالِ تَلْقَى مِنَ الْهَوَى عُشَيْرَ الَّذِى أَلْقَى فَيَلْتَئِمَ الشَّعْبُ

(٢) فى الديوان (ص ١٣ الجوائب) : « وصالكم صرم » .

(٣) هـــذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها محمد بن على بن عيسى القمى ، وعجزه قوله :

* مُقْصِرًا مِنْ صَبَابَةٍ أَوْ مُطِيلاَ *

والبيت الذى ذكره المؤلف ونقده هو التالى لهذا المطلع (الديوان : ٢ ـ ٢١٠) .

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي ، وهو[(١)] :

فَافْخَرْ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلاثَةٌ مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلُ[(٢)]

فإن المستعظم يكون حاسداً ، والحاسد يكون مستعظما .

ومن شرط التقسيم ألاّ تتداخل أقسامه بعضها في بعض .

ومن هذا الأسلوب ما ورد في أبيات الحماسة ، وهو[(٣)] :

وَكُنْتَ امْرَأً إِمَّا ائْتَمَنْتُكَ خَالِياً فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ[(٤)]

فَأَنْتَ مِنَ الأَمْرِ الَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ

فإن الخيانة من الإثم ، وهذا تقسيم فاسد .

ومما جاء من ذلك نثرا قول بعضهم في ذكر منهزمين : فمن جريح متضرج

---

(١) هذا البيت من قصيدة له يمدح فيها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي ، وأولها قوله :

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

(٢) كذا في أصول الكتاب ؛ وفي الديوان « يا اخر فإن الناس — إلخ » وقال أبو البقاء في شرحه : « يريد ياهذا اخر ، فحذف المنادى ، كقراءة علي بن حمزة : (أَلاَ يَا اُسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ) ويجوز أن يكون جعله تنبيها بمنزلة ألا ، كقول ذي الرمة :

أَلاَ يَا اُسْلَمِي يَا دَارَمَيَّ عَلَى الْبِلَى وَلاَزَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

ومثله في الشعر كثير » اهـ .

(٣) البيتان من شعر الحماسة ، اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما لمعين ، ونسبهما التبريزي لعبد الله بن همام السلولي ، وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبي سفيان ، ثم جمع زياد بينهما ، فقال عبد الله للواشي ذينك البيتين .

(٤) الذي في الحماسة وشرحه «وأنت امرؤ إما ائتمنتك — إلخ» انظر شرح التبريزي على الحماسة (٣ — ١٤٢) .

بدمائه ، وهارب لا يلتفت إلى ورائه ؛ فإن الجريح قد يكون هاربا ، والهارب قد يكون جريحا ، ولو قال : فمن بين قتيل ومأسور وناج ؛ لصح له التقسيم ، أو لو قال : فمن بين قتيل ومأسور ؛ لصح له التقسيم أيضاً ؛ لعدم الناجى بينهما .

وقد أحسن البحترى فى هذا المعنى حيث قال :

غَادَرَتْهُمْ أَيْدِى المَنِيَّةِ صُبْحًا ... بِالْقَنَا بَيْنَ رُكَّعٍ وَسُجُودِ
فَهُمُ فِرْقَتَانِ بَيْنَ قَتِيلٍ ... قُنِصَتْ نَفْسُهُ بِحَدِّ الحَدِيدِ
أَوْ أَسِيرٍ غَدَا لَهُ السِّجْنُ لَحْدًا ... فَهْوَ حَىٌّ فى حَالَةِ المَلْحُودِ
فِرْقَةٌ لِلسُّيُوفِ يَنْفُذُ فِيهَا الْـحُكْمُ قَصْدًا وَفِرْقَةٌ لِلْقُيُودِ

ومن فساد التقسيم قول أبى تمام (١) :

وَمَوْقِفٌ بَيْنَ حُكْمِ الذُّلِّ مُنْقَطِعٌ ... صَالِيهِ أَوْ بِحِبَالِ المَوْتِ مُتَّصِلُ (٢)

فإنه جعل صالى هذا الموقف إما ذليلا عنه أو هالكا فيه ، وههنا قسم ثالث ، وهو ألا يكون ذليلا ولا هالكا ، بل يكون مُقْدِما فيه ناجياً .

وفى هذا نظر على من ادعى فساد تقسيمه ؛ فإن أبا تمام قصد الغلو فى وصف هـذا الموقف ، فقال : إن الناس فيه أحد رجلين : إما ذليل عن مورده ، وإما هالك فيه : أى أنه لا ينجو منه أحد يَرِدُه ، وهذا تقسيم صحيح لا فساد فيه .

القسم الثالث : فى ترتيب التفسير ، وما يصح من ذلك وما يفسد .

اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يُذْكر فى الكلام معانٍ مختلفة ، فإذا عيد إليها بالذكر لتفسر قدم المقـدم وأخر المؤخر ، وهو الأحسن ، إلا أنه قد ورد

(١) من قصيدة له يمدح المعتصم بالله ، وأولها قوله :

فَحْوَاكَ عَيْنٌ عَلَى نَجْوَاكَ يَا مَذِلُ ... حَتَّامَ لَا يَتَقَضَّى قَوْلُكَ الخَطِلُ

(٢) فى الديوان (ص ٢٢٨) : « ومشهد بين حكم الذل » .

فى القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يُرَاع فيه تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر؛ كقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) ولو قدم تفسير المقدم فى هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل: إن يشأ يسقط عليهم كسفاً من السماء أو يخسف بهم الأرض.

وكذلك ورد قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ) فقدم المؤخر وأخر المقدم.

والقسمان قد وردا جميعاً فى القرآن الكريم:

فمما روعى فيه تقديم المقدم وتأخير المؤخر قوله تعالى: (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ).

ومن ذلك قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً).

وكذلك قوله تعالى: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فلما قدم الليل فى الذكر على النهار قدم سبب الليل، وهو السكون، على سبب النهار، وهو التعيش.

ومن ذلك ما كتبته فى كتاب تعزية، وهو فصل منه، فقلت: ولقد أَوْحَشَت منه المعالى كما أوحشت المنازل، وآمَتِ المكارمُ كما آمت الحلائل، وعَمَّتْ لَوْعَة خطبه فما تشتكى ثكلى إلا إلى ثاكل، وما أقول فيمن عدمت

الأرضُ منه حَيَاها ، والمحامد مَحْيَاها ، فلو نطق الجماد بلسان ، أو تصور المعنى لعيان ؛ لأعْرَبَتْ تلك عن ظمأ صعيدها ، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها .

ومن ذلك ما كتبته فى فصل من كتاب إلى بعض الإخوان ؛ فقلت : وما زالت أيادى سيدنا متنوعة فى زيادة جودها وكتابها ، فهذه مُتَطَوِّلة بترقية وردها وهذه آخذة بسنة أغبابها ، وأحسن ما فى الأولى أنها تأتى متحلية بفواضل الإكثار ، وفى الثانية أنها تأتى متحلية بفضائل الاختصار ؛ فاختصار هذه فى فوائد أقلامها ، كتطويل تلك فى عوائد إنعامها ، وقد أصبحت خواطرى مستغرقة بإنشاء القول المبتكر ، فى شكر الفضل المطول وجواب البيان المختصر ، وما جعل الله لها من سلطان البلاغة ما يستقلّ بأداء حقوق تثقل على الرقاب ، ومقابلة بلاغات تثقل على الألباب .

ومما جاء من ذلك شعرًا قول إبراهيم بن العباس (١) :

لَنَا إِبِلٌ كُومٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَا … وَيَفْتَرُّ عَنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا

فَمِنْ دُونِهَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُنَا … وَمِنْ دُونِنَا أَنْ تُسْتَبَاحَ دِمَاؤُهَا (٢)

حِمًى وَقِرًى فَالْمَوْتُ دُونَ مَرَاحِهَا … وَأَيْسَرُ خَطْبٍ يَوْمَ حَقٍّ فَنَاؤُهَا (٣)

وهذه الأبيات من نادر ما يجىء فى هذا الباب معنى وترتيب تفسير .

ومما جاء منه أيضًا قول أبى تمام (٤) .

---

(١) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين ، والأبيات الثلاثة فى ديوانه (ص ١٥٣) فى الافتخار .

(٢) فى الديوان « ومن دونها أن يستذم دماؤها » وما هنا أروع .

(٣) فى ا ، ب ، ج « دون مرامها » وهو تصحيف ، وصوابه عن الديوان .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ، ويذكر الأفشين ، وأولها قوله :

غَدَا الْمُلْكُ مَعْمُورَ الْحَرَا وَالْمَنَازِلِ … مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ الْمَنَاهِلِ

الحرا : الجهة والناحية ؛ والوحف : الريان ؛ والمناهل : جمع منهل ، وهو الحوض .

وَمَا هُوَ إِلاَّ الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ ... تَمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مَائِلِ[(١)]
فَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ ... وَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلِ

وكذلك قوله أيضا :

وَكَانَ لَهُمْ غَيْثًا وَعِلْمًا فَمُعْدِمٌ ... فَيَسْأَلُهُ أَوْ بَاحِثٌ فَيُسَائِلُهْ

وهذا من بديع ما يأتى فى هذا الباب .

ومما ورد منه قول على بن جَبَلة :

فَتًى وقَفَ الْأَيَّامَ بالسُّخْطِ وَالرِّضَا ... عَلَى بَذْلِ عُرْفٍ أَوْ عَلَى حَدِّ مُنْصُلِ

ومن الحسن فى هذا الباب قول أبى نواس[(٢)] :

يَرْجُو وَيَخْشَى حَالَتَيْكَ الْوَرَى ... كَأَنَّكَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

وكذلك ورد قول بعض المتأخرين ، وهو القاضى الأرجانى[(٣)] :

يَوْمُ الْمُتَيَّمِ فِيكَ حَوْلٌ كَامِلٌ ... يَتَعَاقَبُ الْفَصْلَانِ فِيهِ إِذَا أَتَى
مَا بَيْنَ حَرِّ جَوًى وَمَاءِ مَدَامِعٍ ... إِنْ حَنَّ صَافَ وَإِنْ بَكَى وَجْدًا شَتَا

ومما أخذ على الفرزدق فى هذا الباب قوله[(٤)] :

---

(١) المرهف : السيف ، والأخدعان : عرقان فى المحجتين ، وظبة السيف : حده .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع ، وأولها قوله :

هَلْ مِنْكَ لِلْمَكْتُومِ إِظْهَارُ ... أَمْ مِنْكَ تَغْيِيبٌ وَإِنْكَارُ

انظر الديوان (ص ٩١ مصر) .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الفقيه جمال الدين بن الحسن بن سليمان مدرس النظامية ببغداد ، وأولها قوله :

يَا مُعْرِضًا قَدْ آنَ أَنْ تَتَلَفَّتَا ... تَعْذِيبُ قَلْبِي الْمُسْتَهَامِ إِلَى مَتَى

انظر الديوان (ص ٦٧ بيروت) .

(٤) البيتان من شواهد سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (٢٥٤) وهما من قصيدة للفرزدق يقولها فى مقتل هبيرة بن ضمضم القعقاع بن عوف بن القعقاع بن معبد

لَقَدْ جِئْتَ قَوْماً لَوْ لَجَأْتَ إِلَيْهِمُ طَرِيدَ دَمٍ أَوْ حَامِلاً ثِقْلَ مَغْرَمِ (١)
لَأَلْفَيْتَ مِنْهُمْ مُعْطِياً أَوْ مُطَاعِناً وَرَاءَكَ شَزْراً بِالْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ (٢)

لأنه أصاب فى التفسير وأخطأ فى الترتيب ، وذاك أنه أتى بتفسير ما هو أول فى البيت الأول ثانيا فى البيت الثانى ، والأولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا ؛ ففسر ما هو أول فى البيت الأول بما هو ثان فى البيت الثانى .

واعلم أن الناظم لا ينكر عليه مثل هذا ما ينكر على الناثر ؛ لأن الناظم يضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى .

وأما فساد التفسير فإنه أقبح من فساد ترتيبه ، وذاك أن يؤتى بكلام ثم يفسر تفسيراً لا يناسبه ، وهو عيب لا تسامح فيه بحال ، وذلك كقول بعضهم (٣) :

فَيَأَيُّهَا الْحَيْرَانُ فِى ظُلْمَةِ الدُّجَى وَمَنْ خَافَ أَنْ يَلْقَاهُ بَغْىٌ مِنَ الْعِدَى
تَعَالَ إِلَيْهِ تَلْقَ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ ضِيَاءً وَمِنْ كَفَّيْهِ بَحْراً مِنَ النَّدَى

ابن زرارة ، وأولها قوله :

وَقَائِلَةٍ وَالدَّمْعُ يَحْدُرُ كُحْلَهَا لَبِئْسَ الْمَدَى أَجْرَى إِلَيْهِ ابْنُ ضَمْضَمِ

(١) كذا فى جميع أصول الكتاب وفى سر الفصاحة ، والذى فى الديوان « لقد خنت قوما ـ إلخ » وهو أنسب بما قبله ، وهو قوله :

فَلَوْ كُنْتَ صُلْبَ الْعُودِ أَوْ ذَا حَفِيظَةٍ لَوَرَّيْتَ عَنْ مَوْلَاكَ فِى لَيْلٍ مُظْلِمِ
لَجُرْتَ بِهَادٍ أَوْ لَقُلْتَ لِمُدْلِجٍ مِنَ الْقَوْمِ لَمَّا يَقْضِ نَعْسَتَهُ نَمِ
وَكُنْتَ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَماً بِصَاحِبِهِ يَوْماً أَحَالَ عَلَى الدَّمِ

(٢) كذا فى أصول هذا الكتاب ، وفى سر الفصاحة أيضا (٢٥٥) وفى الديوان « لألفيت فيهم مطعما ومطاعنا » .

(٣) البيتان من شواهد سر الفصاحة (٢٥٥) ، وفيه « فى ظلم الدجى » .

وكان يجب لهذا الشاعر أن يقول بإزاء بغى العدا ما يناسبه من النصرة والإعانة، أو ما جرى مجراهما؛ ليكون ذلك تفسيرًا له، كما جعل بإزاء الظلمة الضياء وفسرها به، فأما أن جعل بإزاء ما يتخوف منه بحرًا من الندى فإن ذلك غير لائق.

النوع الخامس والعشرون

فى الاقتصاد والتفريط والإفراط

اعلم أن هذه المعانى الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد فى كل شىء: من علم، وصناعة، وخلق؛ ولا بد لنا من ذكر حقيقتها فى أصل اللغة حتى يتبين نقلها إلى هذا النوع من الكلام.

فأما الاقتصاد فى الشىء فهو من القَصْد الذى هو الوقوف على الوسط الذى لا يميل إلى أحد الطرفين، قال الله تعالى: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) فظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان، والاقتصاد وسط بينهما، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) فالإسراف والإقتار طرفان، والقَوَام وسط بينهما، وقال الشاعر(١):

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ ... إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِى دُونَهُ الْخُلُقُ

---

(١) هذا البيت لسالم بن وابصة، وهو من شعر الحماسة، وانظر شرح التبريزى (٢ - ٢٣٦)، وقد روى ابن منظور فى لسان العرب (خ ل ق) هذا البيت على وجه آخر ونسبه لسالم بن وابصة أيضا، وهو:

يَأَيُّهَا الْمُتَحَلِّى غَيْرَ شِيمَتِهِ ... إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِى دُونَهُ الْخُلُقُ

وأما التفريط فهو التقصير والتضييع ، ولهذا قال الله تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) أى : ما أهملنا ولا ضيعنا .

وأما الإفراط فهو : الإسراف وتجاوُز الحد ، يقال : أفرط فى الشىء ؛ إذا أسرف وتجاوز الحد .

والتفريط والإفراط هما الطرفان البعيدان ، والاقتصادُ هو الوسط المعتدل ؛ وقد نُقِلَتْ هٰذه المعانى الثلاثة إلى هذا النوع من علم البيان .

أما الاقتصاد فهو : أن يكونَ المعنى المضمر فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته .

أما التفريط والإفراط فهما ضدان : أحدهما : أن يكون المعنى المضمر فى العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه ، والآخر : أن يكون المعنى فوق منزلته .

والتفريطُ فى إيراد المعانى الْخَطَابية قبيحٌ لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه ، والإفراط يجوز استعماله ؛ فمنه الحسن ، ومنه دون ذلك .

فمما جاء من التفريط قول الأعشى[1] :

وَمَا مُزْبِدٌ مِنْ خَلِيجِ الفُرَا ... تِ جَوْنٌ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمْ[2]

---

(١) البيتان من قصيدة للأعشى ميمون بن قيس ، وأولها قوله :

أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمّْ ... أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمْ

أَمِ الصَّبْرُ أَحْجَى فَإِنَّ امْرَأً ... سَيَنْفَعُهُ عِلْمُهُ إِنْ عَلِمْ

انظر ديوانه (ص ٢٨ طبع بيانة) .

(٢) المزبد : الموج ، وأراد به ماءه ، والجون : الأسود ، وإذا وصف الماء بالسواد عنى أنه كثير ، والغوارب : جمع غارب ، وغارب كل شىء : أعلاه . والبيتان غير متصلين فى الديوان ، وبينهما قوله :

يَكُبُّ الْخَلِيَّةَ ذَاتَ الْقِلَا ... عِ قَدْ كَادَ جُؤْجُؤُهَا يَنْحَطِمْ

تَكَأْكَأَ مَلَّاحُهَا وَسْطَهَا ... مِنَ الْخَوْفِ كَوْثَلَهَا يَلْتَزِمْ

الخلية : السفينة الكبيرة ، والقلاع : الشراع ، وجؤجؤها : صدرها ، وينحطم :

بأجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ إذا ما سَمَاؤُهُمُ لَمْ تُغِمْ(١)

فإنه مدح ملكاً بالجود بماعُونِه ، والماعُون : كل ما يُسْتَعار من قدوم أو قَصْعَة أو قدْر ، أو ما أشبه ذلك ، وليس الملوك فى بذله مدح ، ولا لأوساط الناس أيضاً ، وفى مدح السوقة به قولان ، ومدح الملوك به عيب وذم فاحش ، وهذا من أقبح التفريط .

ومما يجرى هذا المَجْرَى قول الفرزدق(٢) :

أَلاَ لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لاَ نَرِدْ عَلَى حَاضِرٍ إلاَّ نُشَلُّ وَنُقْذَفُ(٣)

كِلاَنَا بِهِ عُرٌّ يُخَافُ قِرَافُهُ عَلَى النَّاسِ مَطْلِيُّ المَسَاعِرِ أَخْشَفُ(٤)

يتكسر ، وتكأكأ : تمايل ، أو تأخر ، وانتصب « وسطها » على الظرفية ، وانتصب « كوثلها » لأنه مفعول مقدم ليلتزم .

(١) هذه رواية أبى عبيدة فى هذا البيت وفسر الماعون بالعطية ، ورواه ثعلب :

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا عِنْدَهُ إذَا ما سَمَاؤُهُمُ لَمْ تُغِمْ

(٢) هذان البيتان من قصيدة له أولها قوله :

عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَما كِدْتَ تَعْزِفُ وَأَنْكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ ما كُنْتَ تَعْرِفُ

يريد انصرفت نفسك عما كنت فيه من باطلك ، وحدراء : امرأته .

(٣) رواية الديوان والنقائض « فياليتنا كنا بعيرين لانرد على منهل » وذكر شارح النقائض أنه يروى « لاترى على حاضر » والمنهل : الماء فى الآبار ، والحاضر : أصله القوم عند الماء ، وأراد منه ههنا الماء ، ونشل : نطرد ، ونقذف : نرمى بالحجارة

(٤) العر — بفتح العين — الجرب ، والعر — بضم العين — قرح ليس بالجرب ، وقوله « يخاف قرافه » يعنى يتقى لئلا يعديها بجربه ؛ ووقع فى ا ، ب ، ج « مجاف قرافه » وهو تحريف . والمساعر : أصول الفخذين والإبطين ، ووقع فى ا ، ب ، ج « المشاعر » وأخشف : يابس الجلد من الجرب ، و بعد البيتين قوله :

بِأَرْضٍ خَلاَءٍ وَحْدَنَا ، وَثِيَابُنَا مِنَ الرَّيْطِ وَالدِّيبَاجِ دِرْعٌ وَمِلْحَفُ

وَلاَ زَادَ إلاَّ فَضْلَتَانِ سُلاَفَةٌ وَأَبْيَضُ مِنْ ماءِ الْغَمَامَةِ قَرْقَفُ

هذا رجل ذَهَب عقله حين نظم هذين البيتين ؛ فإن مُرَاده منهما التغزل بمحبوبه ، وقد قصَر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجْرَبَيْن : لا يقرَبُهما أحد ، ولا يقرُبَان أحداً ، إلا طردهما ، وهذا من الأمانىّ السخيفة ، وله فى غير هذه الأمنية مَنْدُوحات كثيرة ، وما أشبه هذا بقول القائل :

يَارَبِّ إنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقبِّلٍ غَيْرِى فَلِلأَقْدَاحِ أَوْ لِلأَ كْؤُسِ
وَإذَا حَكَمْتَ لَنَا بِعَيْنِ مُرَاقِبٍ فِى الدَّهْرِ فَلْتَكُ مِنْ عُيُونِ النَّرْجِسِ

فانظر كم بين هاتين الأمنيتين .

ومما أخذ على أبى نُواس فى قصيدته الميمية الموصوفة التى مدح بها الأمين محمد بن الرشيد ، وهو قوله[1] :

وَأَشْلاَء لَحمٍ مِنْ حُبَارَى يَصِيدُهَا إذَا نَحْنُ شِئْنَا صَاحِبٌ مُتَأَلِّفُ
لَنَا مَا تَمَنَّيْنَا مِنَ الْعَيْشِ مَا دَعَا هَدِيلاً حَمَامَاتٌ بِنَعْمَانَ هُتَّفُ

وقد تبع كثير عزة الفرزدق فى هذه الأمنية حيث يقول :

وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللهِ أَنَّكِ بَكْرَةٌ وَأَنِّي هِجَانٌ مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ
كِلاَنَا بِهِ عَرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ عَلَى حُسْنِهَا جَرْبَاءُ تُعْدِى وَأَجْرَبُ
نَكُونُ لِذِى مَالٍ كَثِيرٍ مُغَفَّلٍ فَلاَ هُوَ يَرْعَانَا وَلاَ نَحْنُ نُطْلَبُ
إِذَا مَاوَرَدْنَا مَنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ عَلَيْنَا فَلاَ نَنْفَكُّ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

ويروى أن عزة حين سمعت ذلك قالت : لقد أردت بنا الشقاء ! أما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ ! . وأقبح من هذين ومن كل أمنية قول الآخر :

سَلاَمَ ؛ لَيْتَ لِسَاناً تَنْطِقِينَ بِهِ قَبْلَ الَّذِى نَالَهُ مِنْ صَوْتِهِ قُطِعَا

---

(١) هو من قصيدة له أولها قوله :

يَا دَارُ ، مَا فَعَلَتْ بِكِ الأَيَّامُ ؟ ضَامَتْكِ ، وَالأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ

أَصْبَحْتَ يَا بْنَ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ أَمَلاً لِعَقْدِ حِبَالِهِ اسْتِحْكَامُ(١)

فإن ذكر أمّ الخليفة فى مثل هذا الموضع قبيح .

وكذلك قوله فى موضع آخر(٢) .

وَلَيْسَ كَجَدَّتَيْهِ أُمِّ مُوسَى إِذَا نُسِبَتْ وَلاَ كَالْخَيْزُرَانِ(٣)

وهذا لغو من الحديث لا فائدة فيه ؛ فإن شرف الأنساب إنما هو إلى الرجال ، لا إلى النساء ، وياليت شعرى أما سمع أبو نواس قَوْلَ قُتَيْلَة بنت النضر فى النبى صلى الله عليه وسلم(٤) :

أَمُحَمَّدٌ ؛ وَلأَنْتَ نَجْلُ كَرِيمَةٍ مِنْ قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا مَنَّ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ

فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم ، وأبرزت هذا الكلام فى هذا اللباس الأنيق .

وكذلك فليكن المادح إذا مدح ، وأبو نواس ـ مع لطافة طبعه ، وذكائه ، وما كان يوصف به من الفطنة ـ قد ذهب عليه مثل هذا الموضع مع ظهوره .

---

(١) بعد هذا البيت قوله :

فَسَلِمْتَ لِلأَمْرِ الَّذِى تُرْجَى لَهُ وَتَقَاعَسَتْ عَنْ يَوْمِكَ الأَيَّامُ

(٢) هو من كلمة له أولها قوله :

رَضِينَا بِالأَمِينِ عَنِ الزَّمَانِ فَأَضْحَى الْمُلْكُ مَعْمُورَ الْمَكَانِ

تَمَنَّيْنَا عَلَى الأَيَّامِ شَيْئاً فَقَدْ بَلَّغْتَنَا تِلْكَ الأَمَانِى

(٣) موسى : هو موسى الهادى أمير المؤمنين ابن المهدى ، والخيزران : زوج المهدى ، وأم هرون الرشيد .

(٤) من كلمة رواها ابن إسحاق فى السيرة ؛ انظر سيرة ابن هشام : (٢ ـ ٤٢٠) ورواها أبو تمام فى باب المراثى من ديوان الحماسة ؛ وانظر شرح التبريزى (٣ـ١٧) وأول هذه الكلمة قولها :

وليس لقائل أن يعترض على ما ذكرته بقوله تعالى حكاية عن موسى وأخيه هرون عليهما السلام : (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي) فإن الفرق بين الموضعين ظاهر ؛ لأن المنكر على أبى نُوَاس إنما هو التلفظ باسم الأم ، وهى زُبَيْدَة ، وكذلك اسم الجدة ، وهى الْخَيْزُرَان ، وليس كذلك ما ورد فى الآية .

فإن قيل : قد ورد فى القرآن الكريم ما يسوّغ لأبى نواس مقالته ، وهو قوله تعالى : (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ) فناداه باسم أمه .

قلت : الجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما أن عيسى عليه السلام لم يكن له أب ، فنودى باسم أمه ضرورةً ؛ إذ لو كان له أب لنودى باسم أبيه ؛ الوجه الآخر : أن هذا النداء إنما هو من الأعلى إلى الأدنى ؛ إذ الله سبحانه وتعالى هو الربُّ ، وعيسى عليه السلام عبده ، وهذا لا يكون تفريطا ؛ لأنه لم يعبر عنه بما هو دون منزلته .

على أن أبا نواس لم يوقعه فى هذه العثرة إلا ماسمعه عن جرير فى مدح عمر بن عبد العزيز ، كقوله[1] :

يَا رَاكِباً إِنَّ الْأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقُ
بَلِّغْ بِهِ مَيْتاً ؛ فَإِنَّ تَحِيَّةً ... مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا الرَّكَائِبُ تَخْفِقُ
مِنِّي إِلَيْهِ وَعَبْرَةً مَسْفُوحَةً ... جَادَتْ لِمَائِحِهَا وَأُخْرَى تَخْنُقُ

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن كنانة بعد غزاة بدر ، ويروى أنه لما سمع كلمتها هذه قال : « لو سمعنا كلامها قبل قتله لتركناه لها » .

(١) من قصيدة له أولها قوله :

أَبَتْ عَيْنَاكَ بِالْحَسَنِ الرُّقَادَا ... وَأَنْكَرْتَ الْأَصَادِقَ وَالْبِلَادَا

وَتَبْنِي الْمَجْدَ يَا عُمَرَ ابْنَ لَيْلَى وَتَكْفِي الْمُمْحِلَ السَّنَةَ الْجَمَادَا(١)

وكذلك قال فيه كثير عزة أيضاً(٢) .

وليس المعيب من هذا بخافٍ ؛ فإن العرب قد كان يعير بعضها بعضاً بنسبته إلى أمه دون أبيه ، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقال له : ابن حَنْتَمَةَ ، وإنما كان يقول ذلك من يَغُضُّ منه ، وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم للزبير بن صفية : « بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ » فإن صفية كانت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما نسبه إليها رَفْعاً لقدره فى قرب نسبه منه ، وأنه ابن عمته ، وليس هذا كالأول فى الغض من عمر رضى الله عنه فى نسبه إلى أمه .

وقد عاب بعض من يتهم نفسه بالمعرفة قول أبى نواس فى قصيدته السينية التى أولها :

* نَبِّهْ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسْ(٣) *

فقال من جملتها :

وَرِثَ الْخِلَافَةَ خَامِساً وَبِخَيْرِ سَادِسِهِمْ سَدَسْ

قال : وفى ذكر السادس نظر ، ويا عجبا له ! مع معرفته بالشعر كيف ذهب عليه

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

هَنِيئاً لِلْمَدِينَةِ إِذْ أَهَلَّتْ بِأَهْلِ الْمُلْكِ أَبْدَأَ ثُمَّ عَادَا

يَعُودُ الْحِلْمُ مِنْكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَتَفْرُجُ عَنْهُمُ الْكُرَبَ الشِّدَادَا

وَقَدْ لَيَّنْتَ وَحْشَهُمُ بِرِفْقٍ وَتُعْيِي النَّاسَ وَحْشُكَ أَنْ تُصَادَا

وابن ليلى : هو عبد العزيز بن مروان أبو عمر بن عبد العزيز .

(٢) فى جميع النسخ بدون ذكر شعر كثير عزة ، وكثير يذكر « ابن ليلى » كثيرا فى مديحه لعبد العزيز بن مروان ؛ فمن ذلك قوله :

فَبُورِكَ مَا أَعْطَى ابْنُ لَيْلَى بِنِيَّةٍ وَصَامِتُ مَا أَعْطَى ابْنُ لَيْلَى وَنَاطِقُهْ

(٣) لم أقف على هذه القصيدة فى شعر أبى نواس .

هذا الموضع ؟ أما قرأ سورة الكهف ، يريد قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) وهذا ليس بشىء ؛ لأنه قد ورد فى القرآن الكريم ما ينقضه ، وهو قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) .

ومما عبته على البحترى قوله فى مدح الفتح بن خاقان فى قصيدته المشهورة عند لقائه الأسد التى مطلعها :

* أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِي لِزَيْنَبَا[(١)] *

فقال :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَنْبَرِى ... لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ الْبِيضِ مِقْضَبا[(٢)]

فَلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا ... عِرَاكاً إِذَا الْهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبا[(٣)]

قوله « إذا الهيابة النكس » تفريط فى المدح ، بل كان الأولى أن يقول : إذا البطل كذب ، وإلافأىُّ مدح في إقدام المُقْدِم فى الموضع الذى يَفِرُّ منه الجبان ؟ وألّا [قال] كما قال أبو تمام[(٤)] :

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* خَيَالٌ إِذَا آبَ الظَّلَامُ تَأَوَّبَا *

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج « حين تبترى » وهو تحريف ، وصوابه عن الديوان .

(٣) بعد هذا البيت قوله :

لِهِزَبْرٌ مَشَى يَبْغِي هِزَبْرًا وَأَغْلَبٌ ... مِنَ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبا

أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ ... رَآكَ لَهَا أَمْضَى جَنَاناً وَأَشْغَبا

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً ... وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبا

(٤) من قصيدة له يرثى فيها أبا نصر محمد بن حميد الطائى ، وأولها قوله :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا ... وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

فَتًى كُلَّمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَفَرًّا غَدَاةَ المَأْزِقِ ارْتَادَ مَصْرَعَا (١)

وعلى أسلوب البحترى ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة (٢) :

وَإِنِّى لَقَوَّالٌ لِعَافِىَّ مَرْحَبًا وَلِلطَّالِبِ المَعْرُوفَ إِنَّكَ وَاجِدُهْ

وَإِنِّى لِمَنْ أَبْسُطُ الكَفَّ بِالنَّدَى إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ البَخِيلِ وَسَاعِدُهْ (٣)

وهذا مَعِيبٌ من جهة أنه لا فضلَ فى بسط يده عند قَبْضِ يد البخيل ، وإنما الفضيلة فى بسطها عند قَبْض الكرام أيديهم .

ومن هذا الباب قول أبى تمام (٤) :

---

(١) بعد هذا البيت قوله :

إِذَا سَاءَ يَوْمٌ فى الكَرِيهَةِ مَنْظَرًا تَصَلَّاهُ عِلْمًا أَنْ سَيَحْسُنُ مَسْمَعا

فَإِنْ تَرْمِ عَنْ عُمْرٍ تَدَانَى بِهِ المَدَى فَخَانَكَ حَتَّى لَمْ تَجِدْ فِيهِ مَنْزَعا

فَمَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفَ لَاقَى ضَرِيبَةً فَقَطَّعَهَا ثُمَّ انْثَنَى فَتَقَطَّعَا

(٢) البيتان لإياس بن الأرتّ ، وهما من شعر الحماسة الذى اختاره أبو تمام ، وانظر شرح التبريزى (٤ – ٢١٨) .

(٣) ذكر التبريزى أنه يروى « وإنى لمما أبسط الكف » ورواية أبى تمام « وإنى لمن يبسط الكف بالندى » والشنج – بفتح الشين والنون – تقبض اليد وغيرها يبسا ، وقد شنج يشنج ، مثل فرح يفرح . و بعد هذين البيتين قوله :

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِى أُمَامَةُ أَنَّهَا ثَنَى مِنْ خَيَالٍ مَا أَزَالُ أُعَاوِدُهْ

فَشَقَّتْ عَلَى رَكْبِى وَعَنَّتْ رَكَائِبِى وردَّتْ عَلَىَّ اللَّيْلَ قَرْنًا أُكَابِدُهْ

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد ، وأولها قوله :

مَا عَهِدْنَا كَذَا بُكَاءَ المَشُوقِ كَيْفَ وَالدَّمْعُ آيَةُ المَعْشُوقِ

فَأَقِلَّا التَّعْنِيفَ إِنَّ غَرَامًا أَنْ يَكُونَ الرَّفِيقُ غَيْرَ رَفِيقِ

وَاسْتَمِيحَا الجُفُونَ دُرَّةَ دَمْعٍ فِى دُمُوعِ الفِرَاقِ غَيْرَ لَصِيقِ

وانظر الديوان (ص ٢١٥ بيروت) .

يَقِظٌ وَهْوَ أَكْثَرُ النَّاسِ إغْضَا ٭ عَلَى نَائِلٍ لَهُ مَسْرُوقِ (١)

فإنه أراد أن يمدح فذمّ .

ومما هو أقبح من ذلك قوله أيضاً (٢) :

تُشَفَّى الحَرْبُ مِنْهُ حِينَ تَغْلِي ٭ مَرَاجِلُهَا بِشَيْطَانٍ رَجِيمِ (٣)

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

لَا يَجُوزُ الأُمُورَ صَفْحًا وَلَا يُرْ ٭ قِلُ إلَّا عَلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ

فَتَنَاهَوْا ؛ إنَّ الخَلِيقَ مِنَ القَوْ ٭ مِ بِذَاكَ الفَعَالِ غَيْرُ خَلِيقِ

مَلَكَتْ مَالَهُ المَعَالِي فَمَا تَلْ ٭ قَاهُ إلَّا فَرِيسَةً لِلْحُقُوقِ

ثم البيت الذى ذكره المؤلف ، و بعده قوله :

أَنَا وَلْهَانُ فِى وِدَادِكَ مَا عِشْـ ٭ ـتُ وَنَشْوَانُ فِيكَ غَيْرُ مُفِيقِ

رَاحَتِى فِى الثَّنَاءِ مَا بَقِيَتْ لِى ٭ فَضْلَةٌ مِنْ لِسَانِىَ المَفْتُوقِ

فَأُغَنِّ بِالنِّعْمَةِ الَّتِى هِىَ كَالحَوْ ٭ رَاءِ لَا فَارِكٍ وَلَا بِعَلُوقِ

بَعْلُهَا يَأْمَنُ النُّشُوزَ عَلَيْهَا ٭ وَهْىَ فِى مَأْمَنٍ مِنَ التَّطْلِيقِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بعض بنى عبد الكريم الطائيين ، وأولها قوله :

أَرَامَةُ ؛ كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمٍ ٭ لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالأُنْسِ المُقِيمِ

(٣) تشفى : تجعل لها أثافى ، وهى حجارة تنصب ليوضع عليها القدر ، والمراجل : جمع مرجل ، بزنة منبر ، وهى القدر ، ووقع فى ا ، ب ، ج « ينقى الحرب » وهو تحريف ، وقبل هذا البيت قوله :

سَفِيهُ الرُّمْحِ جَاهِلُهُ ، إذَا مَا ٭ بَدَا فَضْلُ السَّفِيهِ عَلَى الحَلِيمِ

إذَا مَا قِيلَ : أُرْعِفَتِ العَوَالِى ؛ ٭ فَلَيْسَ المُرْعِفَاتُ سِوَى الكُلُومِ

إذَا مَا الضَّرْبُ حَشَّ الحَرْبَ أَبْدَى ٭ أَغَرَّ الرَّأْىِ فِى الخَطْبِ البَهِيمِ

وقد استعمل هذا فى شعره حتى أفحش ، كقوله[١] :

أَنْتَ دَلْوٌ وَذُو السَّمَاحِ أَبُو مُو سَى قَلِيبٌ وَأَنْتَ دَلْوُ الْقَلِيبِ

ومراده من ذلك أنه جعله سببا لعطاء المشار إليه كما أن الدلو سبب فى امْتِيَاح الماء من القليب ، ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب إلى حدٍّ يدندن أبو تمام حوله هذه الدَّنْدَنة ، ويلقيه فى هذا المثال السخيف ، على أنه لم يقنع بهذه السقطة القبيحة فى شعره ، بل أوردها فى مواضع أخرى منه ؛ فمن ذلك قوله[٢] :

مَا زَالَ يَهْذِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلاَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ مَحْمُومُ[٣]

فإنه أراد أن يبالغ فى ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا ، فقال « ما زال يهذى » وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت .

وعلى نحو منه جاء قول بعض المتأخرين :

وَيَلْحَقُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هِزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْمَجْهُودُ مِنْ أُمِّ مِلْدَمِ

وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله ، وإن كان المعنى المقصود به حسنا ، وكم ممن يتأول معنى كريما فأساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما ، كهذا وأمثاله .

ومن أحسن ما قيل فى مثل هذا الموضع قول ابن الرومى :

---

(١) البيت فى الصناعتين (ص ٢٨٠ الآستانة) منسوبا له ، وبعده قوله :

أَيُّهَا الدَّلْوُ لاَ عَدِمْتُكَ دَلْوًا مِنْ جِيَادِ الدِّلاَءِ صُلْبَ الصَّلِيبِ

ومن هذا المعنى أيضا قول أبى تمام من قصيدة له يرثى فيها إسحاق بن أبى ربعى .

إِذَا تَيَمَّمْنَاهُ فِي مَطْلَبٍ كَانَ قَلِيباً وَرِشَاءَ الْقَلِيبِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن شبابة بن الهيثم ، وأولها قوله :

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

(٣) قبل هذا البيت قوله :

لِلّٰهِ كَفُّ مُحَمَّدٍ وَوِلاَدُهَا بِالْبَذْلِ إِذْ بَعْضُ الأَكُفِّ عَقِيمُ

ذَهَبَ الَّذِينَ تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَزَّ الْكُمَاةِ عَوَالِيَ الْمُرَّانِ
كَانُوا إِذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمُ فَالْأَرْيَحِيَّةُ مِنْهُمُ بِمَكَانِ

ومن شاء أن يمدح فليمدح هكذا ، وإلا فليسكت .

ووجدت أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولى قد عاب على حسان بن ثابت رضى الله عنه قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا(١)

مُتَفَجِّرٌ نَادَمْتُهُ فَكَأَنَّنِي لِلدَّلْوِ أَوْ لِلْمِرْزَمَيْنِ نَدِيمُ
غَيْثٌ حَوَى كَرَمَ الطَّبَائِعِ دَهْرَهُ وَالْغَيْثُ يَكْرُمُ مَرَّةً وَيَلُومُ

(١) بعد هذا البيت قوله :

مَتَى مَا تَزُرْنَا مِنْ مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ وَغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنَا أَنْ يُهَدَّمَا
أَبَى فِعْلُنَا الْمَعْرُوفَ أَنْ نَنْطِقَ الْخَنَى وَقَائِلُنَا بِالْعُرْفِ إِلَّا تَكَلُّمَا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا

وقد روى أبو عبيدة قال : قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبى وقاص : قدم الفرزدق المدينة فى إمرة أبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : فإنى والفرزدق وكثير عزة لجلوس فى المسجد نتناشد الأشعار إذ طلع علينا غلام شخت آدم فى ثو بين ممصرين ، ثم قصد نحونا حتى انتهى إلينا ، فلم يسلم ، وقال : أيكم الفرزدق ؟ قال إبراهيم بن محمد : فقلت له مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ؟! قال : لو كان كذلك لم أقل له هذا ، فقال له الفرزدق : من أنت ياغلام ؟ لا أمّ لك ! قال : رجل من الأنصار ، ثم من بنى النجار ، ثم أنا ابن أبى بكر بن حزم ، بلغنى أنك تقول : إنك أشعر العرب ، قال : وتزعمه مضر ! وقد قال حسان بن ثابت شعرا ، فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك فيه سنة ؛ فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب ، وإلا فأنت كذاب منتحل ؛ ثم أنشده الأبيات الأربعة التى ذكرناها . وقد حكى قدامة بن جعفر الكاتب فى نقد الشعر (ص ١٨) ماورد على البيت الأول منها من النقد ، وردّه ، فارجع إليه هناك .

وقال : إنه جمع الجفنات والأسياف جمع قلة ، وهو فى مقام فخر ، وهذا مما يحطُّ من المعنى ويضَع منه ، وقد ذهب إلى هذا غيره أيضا ، وليس بشىء ؛ لأن الغرض إنما هو الجمع ؛ فسواء أ كان جمع قلة أم جمع كثرة ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّٰهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أفترى نعم الله كانت قليلة على إبراهيم صلوات الله عليه ، وكذلك ورد قوله عز وجل فى سورة النمل : (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) فقال : (واستيقنتها أنفسهم) فجمع النفس جمع قلة ، وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة ، بل كانوا مئين ألوفا ، وهذا أيضا مما يبطل قول الصولى وغيره فى مثل هذا الموضع ؛ وكذلك ورد قوله عز وجل : (اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) والنفوس المتوفاة والنائمة لا ينتهى إلى كثرتها كثرة ؛ لأنها نفوس كلّ مَنْ فى العالَم .

واعلم أن للمدح ألفاظا تخصُّه ، وللذم ألفاظا تخصُّه ، وقد تعمَّق قوم فى ذلك حتى قالوا : من الأدب ألّا تخاطب الملوكَ ومَنْ يقاربهم بكاف الخطاب ، وهذا غلط بارد ؛ فإن الله الذى هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف فى أول كتابه العزيز فقيل : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقد ورد أمثال هذا فى مواضع من القرآن غير محصورة ، إلا أنى قد راجعت نظرى فى ذلك ، فرأيت الناس بزمانهم أشبه منهم بأيامهم ، والعوائد لاحكم لها ، ولا شكّ أن العادة أوجبت للناس مثل هذا التعمق فى ترك الخطاب بالكاف ، لكنى تأملت أدبَ الشعراء والكتّاب فى هذا الموضع فوجدتُ الخطاب لا يُعاب فى الشعر ويعاب فى الكتابة إذا كان

المخاطب دون المخاطب درجة ، وأما إن كان فوقه فلا عَيْبَ فى خطابه إياه بالكاف ؛ لأنه ليس من التفريط فى شىء .

فمن خطاب الكاف قول النابغة(١) :

وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ(٢)

وكذلك قوله أيضاً(٣) :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ(٤)

وعليه جاء قول بعض المتأخرين أيضاً ؛ فقال أبو نواس(٥) :

---

(١) من قصيدة له يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ، ويتنصل مما وشى به إليه ؛ وأولها قوله :

عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَى فَالْفَوَارِعُ ... فَشَطَّا أَرِيكٍ فَالتِّلَاعُ الدَّوَافِعُ

(٢) صواب الإنشاد « فإنك كالليل » ، وقبل هذا البيت قوله :

فَإِنْ كُنْتُ لَا ذُو الضِّغْنِ عَنِّى مُكَذَّبٌ ... وَلَا حَلِفِى عَلَى الْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَىْءٍ أَقُولُهُ ... وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

(٣) هو من كلمة أخرى يعتذر فيها إلى النعمان ، وهى من عيون شعره ، وأولها قوله :

أَتَانِى أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِى ... وَتِلْكَ الَّتِى أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ

فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشْنَ لِى ... هَرَاسًا بِهِ يُعْلَى فِرَاشِى وَيُقْشَبُ

(٤) هذا البيت هو الثالث من الكلمة ، وقبله البيتان السابقان ، وبعده قوله :

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّى وِشَايَةً ... لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِى أَغَشُّ وَأَكْذَبُ

وَلَكِنَّنِى كُنْتُ امْرَأً لِىَ جَانِبٌ ... مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ ... أُحَكَّمُ فِى أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ

كَفِعْلِكَ فِى قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فِى مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

(٥) من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن الربيع ، وأولها قوله :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ حُسْنَ رُسُومِ ... عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَطِيبَ نَسِيمِ

إِلَيْكَ أَبَا الْمَنْصُورِ عَذَّبْتُ نَاقَتِي ... زِيَارَةَ خِلٍّ وَامْتِحَانَ كَرِيمِ (١)

لِأَعْلَمَ مَا تَأْتِي وَإِنْ كُنْتُ عَالِمًا ... بِأَنَّكَ مَهْمَا تَأْتِ غَيْرُ مَلُومِ (٢)

وكذلك ورد قول السلامى :

إِلَيْكَ طَوَى عُرْضَ الْبَسِيطَةِ جَاعِلٌ ... قُصَارَى الْمَطَايَا أَنْ يَلُوحَ لَهَا الْقَصْرُ (٣)

وَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلْكٍ هُوَ الْوَرَى ... وَدَارٍ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمٍ هُوَ الدَّهْرُ

وعليه ورد قول البحترى (٤) :

وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ طَالِبًا فَبَسَطْتَ مِنْ ... أَمَلِي وَأَطْلَبَ جُودُ كَفِّكَ مَطْلَبِي (٥)

وجُلُّ خطاب الشعراء للممدوحين إنما هو بالكاف ، وذلك محظور على الكتاب ؛ فإنه ليس من الأدب عندهم أن يخاطب الأدنى الأعلى بالكاف ، وإنما يخاطبه مخاطبة الغائب ، لامخاطبة الحاضر ، على أن هذا الباب بجملته يوكل النظر فيه إلى فَطَانة الخطيب والشاعر ، وليس مما يوقف فيه على المسموع خاصة .

ومن ألطف ما وجدته أنك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر

---

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ؛ وفى الديوان « عذبت ناقتى » ، وفيه « زيادة ود وامتحان كريم » .

(٢) فى ا ، ب ، ج « لأعلم ما يأتى » ، وفى نسخة من الديوان « بأنك مهما قلت غير مليم » .

(٣) فى ا ، ب ، ج « قصار المطايا » وقصارى المطايا هو الصواب ، والمراد به أن ذلك غاية أمرها ونهاية ماتسير له .

(٤) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق ، وأولها قوله :

رَحَلُوا فَأَيَّةُ عَبْرَةٍ لَمْ تُسْكَبِ ... أَسَفًا ؟ وَأَيُّ عَزِيمَةٍ لَمْ تُغْلَبِ ؟

(٥) فى الديوان (ص ٢٠ ج ١ مصر) : « إنى أتيتك » و بعد البيت قوله :

وَغَدَوْتَ خَيْرَ حِيَاطَةٍ مِنِّى عَلَى ... نَفْسِى وَأَرْأَفَ بِى هُنَالِكَ مِنْ أَبِى

بأن تقول : افعل كذا وكذا ، وتخرجه مخرج الاستفهام ، وهذا الأسلوب حَسَنٌ جدا ، وعليه مسحة من جمال ، بل عليه الجمال كله .

فمما جاء منه قول البحترى فى قصيدة أولها :

* بِوُدِّىَ لَوْ يَهْوَى الْعَذُولُ وَيَعْشَقُ(١) *

فقال منها :

فَهَلْ أَنْتَ يَا ابْنَ الرَّاشِدِينَ مُخَتِّمِى بياقُوتَةٍ تبهى عَلَىَّ وَتُشْرِقُ(٢) ؟

وهذا من الأدب الحسن فى خطاب الخليفة ؛ فإنه لم يخاطبه بأن قال : خَتِّمْنى بياقوتة ، على سبيل الأمر ، بل خاطبه على سبيل الاستفهام ، وقد أعجبنى هذا المذهب ، وحسن عندى .

وقد حذا حذو البحترى شاعر من شعراء عصرنا فقال فى مدح الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد من قصيد له على قافية الدال ؛ فقال من أبيات يصف بها قصيدهُ :

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها المعتز بالله ويستوهبه خاتما ، وعجزه قوله :

* فيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهوَى كَيْفَ تَعْلَقُ *

(٢) بعد هذا البيت قوله :

يَغَارُ احْمِرَارُ الْوَرْدِ مِنْ حُسْنِ صِبْغِهَا وَيَحْكِيهِ جَادِىُّ الرَّحِيقِ الْمُعَتَّقُ
إِذَا بَرَزَتْ وَالشَّمْسُ قُلْتَ تَجَارَتَا إِلَى أَمَدٍ أَوْ كَادَتِ الشَّمْسُ تُسْبَقُ
إِذَا الْتَهَبَتْ فِى اللَّحْظِ ضَاهَى ضِيَاؤُهَا جَبِينَكَ عِنْدَ الْجُودِ إِذْ يَتَأَلَّقُ
أُسَرْبَلُ مِنْهَا ثَوْبَ فَخْرٍ مُعَجَّلٍ وَيَبْقَى بِهَا ذِكْرٌ عَلَى الدَّهْرِ مُخْلِقُ
عَلَامَةُ جُودٍ مِنْكَ عِنْدِى مُبِينَةٌ وَشَاهِدُ عَدْلٍ لِى بِنُعْمَاكَ يَصْدُقُ
وَمِثْلُكَ أَعْطَاهَا وَأَضْعَافَ مِثْلِهَا وَلَا غَرْوَ لِلْبَحْرِ انْبَرَى يَتَدَفَّقُ

أَمَقْبُولَةٌ يا ابْنَ الخَلَائِفِ مِنْ فَمِى لَدَيْكَ بِوَصْفِى غَادَةُ الشِّعْرِ رُؤْدَهْ

فقوله « أمقبولة » من الأدب الحسن الذى نسج فيه على منوال البحترى .

وهذا باب مفرد ، وهو باب الاستفهام فى الخطاب ، وإذا كان الشاعر فطنا عالما بما يضعه من الألفاظ والمعانى تَصَرَّفَ فى هذا الباب بضروب التصرفات ، واستخرج من ذات نفسه شيئاً لم يسبقه إليه أحد .

واعلم أن من المعانى ما يعبر عنه بألفاظ متعددة ويكون المعنى المندرج تحتها واحداً ؛ فمن تلك الألفاظ ما يليق استعماله بالمدح ومنها ما يليق استعماله بالذم ، ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه سواء فى الاستعمال ، وإنما يرجع فى ذلك إلى العُرْف دون الأصل .

ولنضرب له مثالا فنقول : هل يجوز أن يخاطب الملك فيقال له : وَحَقِّ دِمَاغك ؛ قياساً على وَحَقِّ رأسك ؟ وهــذا يرجع إلى أدب النفس دون أدب الدرس .

فإذا أراد مؤلف الكلام أن يمدح ذكر الرأس وَالْهَامَة والكاهل ، وماجرى هذا المجرى ، فإذا أراد أن يهجو ذكر الدِّمَاغ والْقَفَا والْقَذَال ، وما جرى هذا المجرى ، وإن كانت معانى الجميع متقاربة ، ومن أجل ذلك حسنت الكناية فى الموضع الذى يقبح فيه التصريح .

ومن أحسن ما بلغنى من أدب النفس فى الخطاب أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل قَبَاثَ بن أَشْيَم ، فقال له : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد ، فانظر إلى أدب هذا العربىّ الذى من شأنه وشأن أمثاله جفاء الأخلاق والبعد عن فطانة الآداب .

وأما الإفراط فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة ، وحمده آخرون ، والمذهب

عندى استعماله ؛ فإن أحسن الشعر أكذبه ، بل أصدقه أكذبه ، لكنه تتفاوت درجاته ؛ فمنه المستحسن الذى عليه مدار الاستعمال ، ولا يطلق على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه مهما ذكر به من المعاملات فى صفاته فإنه دون ما يستحقه .

ومما ورد من ذلك فى الشعر قول عنترة (١) :

وَأَنَا المَنِيَّــةُ فى المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... وَالطَّعْنُ مِــنِّى سَــابِقُ الآجَالِ (٢)

وقد يروى بالياء ، وكلا المعنيين حسن ، إلا أن الياء أكثر غلوا .

ومما جاء على نحو من ذلك قول بشار (٣) :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْــبَةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْقَطَرَتْ دَمَا (٤)

ومنه ما يستهجن ، كقول النابغة الذبيانى (٥) :

---

(١) من قصيدة له يقولها وقد أغار على بنى ضبة ، وأولها قوله :

عَفَتِ الدِّيَارَ وَبَاقِى الأَطْلَالِ ... رِيحُ الصَّبَا وَتَقَلُّبُ الأَحْوَالِ

وَعفَا مَغَانِيَهَا فَأَخْلَقَ رَسْمَهَا ... تَرْدَادُ وَكْفِ العَارِضِ الهَطَّالِ

(٢) رواية الديوان « وأنا المنية حين تشتجر القنا » و بعد البيت قوله :

وَلَرُبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ... وَلَبَانُهُ كَنَوَاضِحِ الجِرْيَالِ

تَنْتَابُهُ طُلْسُ السِّبَاعِ مُغَادَرًا ... فِى قَفْرَةٍ مُتَمَزِّقَ الأَوْصَالِ

وَلَرُبَّ خَيْلٍ قَدْ وَزَعْتُ رَعِيلَهَا ... بِأَقَبَّ لَاضَغِنٍ وَلَا مِجْفَالِ

وَمُسَرْبَلٍ حَلَقَ الحَدِيدِ مُدَجَّجٍ ... كَاللَّيْثِ بَيْنَ عَرِينَةِ الأَشْبَالِ

(٣) هذا أول بيتين رواهما الخالديان فى « المختارين شعر بشار » (ص ١٦٣) وثانيهما قوله :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا تَزَالُ جِيَادُنَا ... تُسَاوِرُ مَلْكاً أَوْ تُنَاهِبُ مَغْنَمَا

(٤) فى « المختار من شعر بشار » : « أو مطرت دما » .

(٥) البيت رابع خمسة أبيات له ، وها كها كلها برواية الديوان :

إِذَا ارْتَعَشَتْ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا ... وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ (١)

وهذا يصف طول قامتها ، لكنه من الأوصاف المنكرة التى خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان .

وكذلك ورد قول أبى نواس (٢) :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِى لَمْ تُخْلَقِ (٣)

وهذا أشد إفراطا من قول النابغة . ويروى أن العتابى لقى أبا نواس فقال له : أما استحييت اللّٰه حيث تقول ، وأنشده البيت ، فقال له : وأنت ما راقبت الله حيث قلت :

مَا زِلْتُ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَّرَحًا ... يَضِيقُ عَنِّى وَسِيعُ الرَّأْىِ مِنْ حِيَلِى

فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِى ... حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِى مِنْ يَدَىْ أَجَلِى

قال له العتابى : قد علم الله وعلمت أن هـذا ليس مثل قولك ، ولكنك قد

عَلِقْتَ بِذِكْرِ الْمَالِكِيَّةِ بَعْدَمَا ... عَلَاكَ مَشِيبٌ فِى قَذَالٍ وَمَفْرِقِ

إِذَا غَضِبَتْ لَمْ يَشْعُرِ الْحَىُّ أَنَّهَا ... غَضُوبٌ وَإِنْ نَالَتْ رِضًا لَمْ تُزَقْزِقِ

عَلَى أَنَّ حِجْلَيْهَا وَإِنْ هُنَّ أُوسِعَا ... يَمُوتَانِ مِنْ مِلْءٍ وَقِلَّةِ مَنْطِقِ

إِذَا ارْتَعَشَتْ هَابَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا ... وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ

وَإِنْ ضَحِكَتْ لِلْعُصْمِ ظَلَّتْ رَوَانِيًا ... إِلَيْهَا وَإِنْ تَبْسِمْ إِلَى الْمُزْنِ يُبْرِقِ

(١) ارتعشت : تقرطت ، يريد لبست القرط .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد ، وأولها قوله :

خَلَقَ الشَّبَابُ وَشِرَّتِى لَمْ تَخْلَقِ ... وَرُمِيتُ فِى غَرَضِ الزَّمَانِ بِأَفْوُقِ

(٣) البيت فى معاهد التنصيص (ص ٣٤٥ بولاق) وفى نقد الشعر لقدامة (ص ١٨).

أعددت لكل ناصح جواباً ، وقد أراد [(١)] أبو نواس هذا المعنى فى قالب آخر ، فقال [(٢)] :

كَدَّتْ مُنَادَمَةُ الدِّمَاءِ سُيُوفَهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الأَجْفَانُ [(٣)]

حَتَّى الَّذِى فى الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ [(٤)]

وما يجىء فى هذا الباب مايجرى هذا المجرى .

وقد استعمل أبو الطيب المتنبى هذا القسم فى شعره كثيرا ، فأحسن فى مواضع منه ؛ فمن ذلك قوله [(٥)] :

عَجَاجًا تَعْثُرُ الْعِقْبَانُ فِيهِ كَأَنَّ الْجَوَّ وَعْثٌ أَوْ خَبَارُ [(٦)]

---

(١) كذا ، والأحسن « قد أورد » .

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين الرشيد ، وأولها قوله :

حَيِّ الدِّيَارَ إِذِ الزَّمَانُ زَمَانُ وَإِذِ الشِّبَاكُ لَنَا حرى وَمَعَانُ

انظر الديوان (ص ٥٨ مصر) .

(٣) كذا فى ا ، ب ، ج ، د ؛ وفى الديوان « ألفت منادمة الدماء سيوفه » .

(٤) بعد البيتين قوله :

حَذَرَ امْرِئٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعِدَى كَالدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ

(٥) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

(٦) قبل هذا البيت قوله :

تُثِيرُ عَلَى سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرًّا تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلَا الشِّعَارُ

تثير : تهيج ، والمسبطر : العجاج الممتد الساطع ، والشعار : العلامة التى يتعارفون بها ، و « عجاجا » بدل من « مسبطرا » ؛ والعقبان : جمع عقاب ، وهو من جوارح الطير ، والوعث : السهل الكثير الرمل ، والخبار : الأرض اللينة .

ثم أعاد هذا المعنى فى موضع آخر ؛ فقال[١] :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَرًا ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا[٢]

وهذا أكثر مغالاة من الأول .

ومن ذلك قوله أيضا[٣] :

كَأَنَّمَا تَتَلَقَّاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ ... فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَافِ مَا يَسَعُ[٤]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار ، وأولها قوله :

الْحُبُّ مَامَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا ... وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَاأَعْلَنَا

(٢) قبل هذا البيت قوله :

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ وَالْجِيَادُ عَوَابِسٌ ... يَخْبُبْنَ بِالْحَلَقِ الْمُضَاعَفِ وَالْقَنَا

الجياد : الخيل ، واحدها جواد ، ويخببن : يسرعن ، والحلق : جمع حلقة ، وهى حلقة الحديد التى فى الدرع ، والمضاعف : الكثير . والسنابك : جمع سنبك ، وهو طرف مقدم الحافر ، والعثير : الغبار ، والعنق : ضرب من السير شديد .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وأولها قوله :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

(٤) قبل هذا البيت قوله :

ذَمَّ الدُّمُسْتُقُ عَيْنَيْهِ وَقَدْ طَلَعَتْ ... سُودُ الْغَمَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَزَعُ

فِيهَا الْكُمَاةُ الَّتِي مَفْطُومُهَا رَجُلٌ ... عَلَى الْجِيَادِ الَّتِي حَوْلِيُّهَا جَذَعُ

يُذْرِي اللَّقَانُ غُبَارًا فى مَنَاخِرِهَا ... وَفِي حَنَاجِرِهَا مِنْ آلِسٍ جُرَعُ

الدمستق : صاحب جيش الروم ، والقزع : قطع الغمام ، والكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع المستتر فى سلاحه ، والحولى : الذى أتى عليه حول واحد ، والجذع : الذى أتى عليه حولان ، ويذرى : يثير ، واللقان : موضع ببلاد الروم ، وآلس : نهر هناك .

وعلى هذا ورد قول قيس بن الخطيم [١] :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّى فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا [٢]

لكن أبو الطيب أكثر غلوا فى هذا المعنى ، وقيس بن الخطيم [١] أحسن؛ لأنه قريب من الممكن ؛ فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء ، وأما أن يجعل المطعون مسلكا يسلك كما قال أبو الطيب ؛ فإن ذلك مستحيل ، ولا يقال فيه بعيد .

وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين ، والأمثلة به كثيرة لاتحصى ؛ إذ كل ماخرج عن الطرفين من الإفراط والتفريط فهو اقتصاد ، ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلا ، ثم يستثنى فيه بلَوْ أو بكَادَ وماجرى مجراها ؛ فمن ذلك قوله تعالى: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) وكذلك قوله عزّ وجل : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) ؛ وقد ورد هذا فى القرآن الكريم كثيرا ، ومما ورد منه شعرا قول الفرزدق [٣] :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَاجَاءَ يَسْتَلِمُ

---

(١) فى ا ، ب ، ج « قيس بن الحطيم » بالحاء مهملة ، وصوابه بالخاء المعجمة ، وانظر اشتقاق اسمه فى شرح التبريزى على الحماسة (١ - ١٧٧) ، والبيت الذى أنشده المؤلف من كلمة له أنشدها أبو تمام فى باب الحماسة من ديوان الحماسة وأولها قوله :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا

(٢) وقع فى ا ، ب ، ج «ملكت بها كفى فأنهزت فتقها» وهو تحريف فى موضعين والتصويب عن ديوان الحماسة بشرح التبريزى (١ - ١٧٨) وعن شرح العكبرى على ديوان المتنبي (٢ - ٢٢٧ طبع الحلبى) والأصل فى هذا المعنى قول النابغة الذبيانى :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها زين العابدين ، وأولها قوله :

هٰذَا الَّذِى تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

وكذلك ورد قول البحترى (١) :

لَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تَـكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْـبَرُ

وهذا هو المذهب المتوسط .

النوع السادس والعشرون

فى الاشتقاق

اعلم أن جماعة علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس ، وليس الأمر كذلك ، بل التجنيس أمر عام لهذين النوعين من الكلام ، وذاك أن التجنيس فى أصل الوضع من قولهم : جَانَسَ الشىء الشىء ؛ إذا ماثله وشابهه ، ولما كانت الحال كذلك ووجدنا من الألفاظ مايتماثل ويتشابه فى صيغته وبنائه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس ، وكذلك لما وجدنا من المعانى مايتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضا ؛ فالتجنيس إذن ينقسم قسمين : أحدهما تجنيس فى اللفظ ، والآخر تجنيس فى المعنى ؛ فأما الذى يتعلق باللفظ فإنه لم ينقل عن بابه ولا غيّر اسمه ، وقد تقدم ذكره فى باب الصناعة اللفظية ، وأما الذى يتعلق بالمعنى فإنه نقل عن بابه فى التجنيس ، وسمى الاشتقاق : أى أحد المعنيين مشتق من الآخر .

وهو على ضربين : صغير ، وكبير .

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ويهنئه بعيد الفطر ، وأولها قوله :

أُخْفِى هَوًى لَكِ فى الضُّلُوعِ وَأُظْهِرُ وَأُلَامُ فى كَمَدٍ عَلَيْكِ وَأُعْذَرُ

فالصغير: أن تأخذ أصلا من الأصول فتجمع بين معانيه، و إن اختلفت صيغه ومبانيه، كترتيب س ل م ؛ فإنك تأخذ منه معنى السلامة فى تصرفه ؛ نحو سَلِمَ وسالِمٍ وسَلْمَانَ وَسَلْمَى ، والسَّليم اللديغ أطلق عليه ذلك تفاؤلا بالسلامة .

والأصل فى ذلك أن يضع واضع اللغة اسما أولا لمسمى أول ، ثم يجد مسمى آخر أو مسميات شبيهة بالمسمى الأول فيضع لها اسما كالاسم الأول ، كقوله ضَرِير اسم للأعمى ، والضر : ضد النفع ، والضَّرَّاء : الشدة من الأمر ، والضر ـ بالضم ـ : الهزال وسوء الحال ، والضرر : الضيق ، والضَّرَّة : إحدى الزوجتين ؛ فإن هذه المسميات كلها تدلّ على الأذى والشر ، وأسماؤها متشابهة لم تخرج عن الضاد والراء ، إلا أنا الآن لانعلم ما هو الأول منها حتى نحكم على الثانى أنه مشتق منه ، لكن نعلم فى السليم اللديغ أنه مشتق من السلامة ؛ لأنه ضدها ؛ قيل : من أجل التفاؤل بالسلامة ، وعلى هذا جاء غيره من الأصول ، كقولنا : هَشَمَكَ هاشِم ، وَحارَبَكَ مُحارِب ، وَسالَمَكَ سالِم ، وَأصابَ الأرضَ صَيِّبٌ ، فهذه الألفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد ؛ أما هاشم فإنه لم يسم بهذا الاسم إلا لأنه هَشَمَ الثريد فى عام مَحْلٍ فسمى بذلك ، وأما مُحارب فإنه اسم فاعل من حَارَبَ فهو مُحارب ، وأما سالم فمن السلامة ، وهو اسم فاعل من سلم ، وأما الصَّيِّب فهو المطر الذى يشتد صَوْبه : أى وَقْعُه على الأرض ، ولا يقاس على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم «أَسْلَمُ سالَمَها اللهُ ، وَغِفارٌ غَفَرَ اللهُ لها ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ» فإن أسلم وغفار وعصية أسماء قبائل، ولم تسمّ أسلم من المسالمة ، ولا غفار من المغفرة، ولا عصية من تصغير عصا ، وهذا هو التجنيس ، وليس بالاشتقاق ، والنظر فى مثل ذلك يحتاج إلى فكرة وتدبر كى لايختلط التجنيس بالاشتقاق .

ومما جاء من ذلك شعرا قول البحترى :

* أَمُحِلَّتِيْ سَلْمَى بِكَاظِمَةَ اسْلَمَا (١) *

وكذلك قول الآخر (٢) :

وَمَا زَالَ مَعْقُولاً عِقَالٌ عَنِ النَّدَى وَمَا زَالَ مَحْبُوسًا عَنِ الْخَيْرِ حَابِسُ (٣)

وربما ظن أن هـذا البيت وما يجرى مجراه تجنيس ؛ حيث قيل فيه : معقول وعقال ، ومحبوس وحابس ، وليس الأمر كذلك ، وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يُتْقِن معرفته .

وقد تقدم القول أن حقيقة التجنيس هى : اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وعقال ومعقول وحابس ومحبوس اللَّفْظُ فيهما واحد والمعنى أيضا واحد ، فهذا مشتق من هذا : أى قد شق منه .

وكذلك ورد قول عنترة (٤) :

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ أَنَّ قَوْمِي لَهُمْ حَدٌّ إِذَا لُبِسَ الْحَدِيدُ (٥)

فإن حَدًّا وحديدا لفظهما واحد ومعناهما واحد .

وأما الاشتقاق الكبير فهو : أن تأخذ أصلا من الأصول فتعقد عليه وعلى

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها أحمد و إبراهيم ابنى المدبر ؛ وعجزه قوله :

* وَتَعَلَّمَا أَنَّ الْهَوَى مَا هِجْتُمَا *

انظر الديوان (٢ – ٢٣٩ مصر) .

(٢) هو جرير بن عطية من كلمة له يهجو فيها الفرزدق ، وأولها قوله :

وَمَا ذَاتُ أَرْوَاقٍ تَصَدَّى لِجُؤْذَرٍ بِحَيْثُ تَلَاقَى عَازِبٌ فَالْأَوَاعِسُ

(٣) البيت فى الصناعتين (ص ٢٥٦) وجعله أبو هلال من التجنيس ؛

(٤) كذلك وقع فى جميع أصول الكتاب ، وهذا خطأ ؛ فالبيت ليس لعنترة ، وإنما هو لحيان بن ربيعة الطائى ، وهو من شعر الحماسة (انظر التبريزى : ١ – ٢٧٩) وقد نسب على الصواب فى الصناعتين لأبى هلال العسكرى (ص ٢٥٦) .

(٥) فى رواية الحماسة « لَهُمْ جَدٌّ » وذكر التبريزى أنه يروى « لهم حد » .

تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها وإن تباعد شىء من ذلك عنها رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليها .

ولنضرب لذلك مثالاً ؛ فنقول : إن لفظة « ق م ر » من الثلاثى لها ست تراكيب ، وهى : ق ر م ، ق م ر ، ر ق م ، ر م ق ، م ق ر ، م ر ق ؛ فهذه التراكيب الست يجمعها معنى واحد ، وهو القوة والشدة ، فالقَرَم : شدة شهوة اللحم ، وَقمَرَ الرجُلُ ؛ إذا غلب من يقامره ، والرّقم : الداهية ، وهى الشدة التى تلحق الإنسان من دهره ، وعيش مُرَمَّق : أى ضيق ، وذلك نوع من الشدة أيضاً ، والمَقْرُ : شبه الصبر ، يقال : أمقر الشىء ، إذا أمَرَّ ، وفى ذلك شدة على الذائق وكراهة ، ومَرَق السهم ؛ إذا نفذ من الرمية ، وذلك لشدة مَضَائه وقوّته .

واعلم أنه إذا سقط من تراكيب الكلمة شىء فجائز ذلك فى الاشتقاق ؛ لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة ، بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها أدت إلى معنى واحد يجمعها ؛ فمثال ما سقط من تركيب الثلاثى لفظة « و س ق » فإن لها خمس تراكيب ، وهى : و س ق ، و ق س ، س و ق ، ق س و ، ق و س ، وسقط من جملة التراكيب قسم واحد ، وهو س ق و ، وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة أيضاً ؛ فالوسق من قولهم : استوسق الأمر : أى اجتمع وقوى ، والوَقْسُ : ابتداء الجَرَب[1] ، وفى ذلك شدة على من يصيبه و بلاء ، والسَّوْق : متابعة السير ، وفى هذا عناء وشدة على السائق والمسوق ، والقَسْوَة : شدة القلب وغلظه ، والقَوْسُ معروفة ، وفيها نوع من الشدة والقوة ؛ لنزعها السهم وإخراجه إلى ذلك المرمى المتباعد .

واعلم أنا لا نَدَّعى أن هذا يطرد فى جميع اللغة ، بل قد جاء شىء منها كذلك ، وهذا مما يدل على شرفها وحكمتها ؛ لأن الكلمة الواحدة تَتَقَلَّب

(١) فى ا ، ب ، ج « الحرب » بالحاء المهملة ؛ وهو تحريف ولا يلتئم مع مابعده .

على ضروب من التقاليب ، وهى مع ذلك دَالَّة على معنى واحد ، وهذا من أعجب الأسرار التى توجد فى لغة العرب وأغربها ، فاعرفه .

إلا أن الاستعمال فى النظم والنثر إنما يقع فى الاشتقاق الصغير دون الكبير ، وسبب ذلك أن الاشتقاق الصغير تكثر الألفاظ الواردة عليه ، والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد فى اللغة إلا قليلا ، وأيضا فإن الحسن اللفظى الذى هو الفصاحة إنما يقع فى الاشتقاق الصغير ، ولا يقع فى الاشتقاق الكبير، ألا ترى إلى هذين الأصلين الواردين ههنا ، وهما « ق ر م » و « و س ق» إذا نظرنا إلى تراكيبهما وأردنا أن نسبكهما فى الاستعمال لم يأت منهما مثل ما يأتى فى الاشتقاق الصغير حُسْناً ورَوْنَقا ؛ لأن ذاك لفظه لفظ تجنيس ، ومعناه معنى اشتقاق ، والاشتقاق الكبير ليس كذلك .

النوع السابع والعشرون

فى التضمين

وهــــذا النوع فيه نظر بين حَسَنٍ يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم ، وهو عندهم معدود من عيوب الشعر ، ولكل من هذين القسمين مقام .

فأما الحسن الذى يكتسب به الكلام طلاوة فهو : أن يضمن الآيات والأخبار النبوية ، وذلك يرد على وجهين : أحدهما : تضمين كلى ، والآخر تضمين جزئى .

فأما التضمين الكلى فهو : أن تذكر الآية والخبر بجملتهما ، وأما التضمين الجزئى فهو : أن تدرج بعض الآية والخبر فى ضمن كلام ؛ فيكون جزءاً منه ،

كالذى أوردته فى حل الآيات والأخبار فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب ، وقد قيل : إنه لايجوز درج آيات القرآن الكريم فى غضون الكلام من غير تبيين ، كى لايشتبه ، وهذا القول لا أقول به ؛ فإن القرآن الكريم أَبْيَنُ من أن يحتاج إلى بيان ، وكيف يخفى وهو المعجز الذى لواجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لايأتون بمثله ، فإن كانت المفاوضة فى التفرقة بينه و بين غيره من الكلام إذا أدرج فيه مع جاهل لايعرف الفرق فذاك لا كلام معه ، وإن كان الكلام مع عالم بذلك فذاك لايخفى عنه القرآن الكريم من غيره .

ومذهبى فى هذا هو ما تقدم ذكره فى الفصل العاشر من مقدمة الكتاب ، وهو أحسن الوجهين عندى ، وذاك أنه لاتؤخذ الآية بكمالها ، بل يؤخذ جزء منها و يجعل أوّلا لكلام أوآخرا ، هذا إذا لم يقصد به التضمين ؛ فأما إذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجا ، وهذا ينكره من لم يذق ما ذقته من طعم البلاغة ، ولا رأى ما رأيته .

وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الإسناد ، وذلك يقع فى بيتين من الشعر ، أو فصلين من الكلام المنثور ، على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثانى ؛ فلا يقوم الأول بنفسه ، ولايتم معناه إلا بالثانى ، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر ، وهو عندى غير مَعِيب ؛ لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلَّق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً ؛ إذ لافرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر و بين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى ؛ لأن الشعر هو : كل لفظ موزون مُقَفًّى دلَّ على معنى ، والكلام المسجوع هو : كل لفظ مقفى دل على معنى ؛ فالفرق بينهما يقع فى الوزن لاغير .

والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى مواضع منه ؛ فن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ) فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض ؛ فلا تُفْهَم كل واحدة منهن إلا بالتي تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان عيباً لما ورد فى كتاب الله عز وجل .

وكذلك ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضاً : (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) فالآيتان الأوليان لاتفهم إحداهما إلا بالأخرى .

وهكذا ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) فهذه ثلاث آيات لاتفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة ، ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة .

ومما ورد من ذلك شعراً قول بعضهم :

وَمِنَ الْبَلْوَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي النَّاسِ كُنْهُ
أَنَّ مَنْ يَعْرِفُ شَيْئًا يَدَّعِي أَكْثَرَ مِنْهُ

ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولاتمَّ معناه إلا بالبيت الثانى :

وقد استعملته العرب كثيراً ، وورد فى شعر فحول شعرائهم ؛ فمن ذلك قول امرئ القيس[1] :

---

(١) البيتان من معلقة امرىء القيس التى مطلعها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقبل البيتين قوله :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي

وانظر (ج ١ ص ٣٨٤) من هذا الكتاب .

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ :
أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وكذلك ورد قول الفرزدق(١) :

وَمَا أَحَدٌ مِنَ الأَقْوَامِ عَدُّوا عُرُوقَ الأَكْرَمِينَ إِلَى التُّرَابِ(٢)
بِمُحْتَفِظِينَ إِنْ فَضَّلْتُمُونَا عَلَيْهِمْ فِي الْقَدِيمِ وَلاَ غِضَابِ(٣)

وكذلك ورد قول بعض شعراء الحماسة(٤) :

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ(٥) عَلَيْهِ وَإِنْ عَالَوْا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ
مِنَ الْجَانِبِ الأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَا غِنًى جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

الضربُ الثانى من التضمين : وهو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره ؛ قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ، ولو لم يذكر ذلك

---

(١) روى أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى هذين البيتين ، وروى معهما بيتا ثالثا ، وهو قوله :

وَلَوْ رَفَعَ السَّحَابُ إِلَيْهِ قَوْماً عَلَوْنَا فِي السَّمَاءِ إِلَى السَّحَابِ

وقال قبل رواية هذه الأبيات بإسناده عن أبى عبيدة : « اجتمع الفرزدق وجرير وكثير وابن الرقاع عند سليمان بن عبد الملك ، فقال : أنشدونا من فخركم شيئا حسنا فبدرهم الفرزدق ، فقال » وأنشد هذه الأبيات (ج ١٩ ص ٢٣ بولاق) .

(٢) فى ا ، ب ، ج « عروف الأكرمين » وهو تحريف ، وصوابه عن الأغانى ؛ وفى الأغانى « وما أحد من العلماء عدت »

(٣) فى الأغانى « بمختلفين » .

(٤) روى البيتين أبو تمام فى باب الحماسة ، وروى معهما ثالثا ، وهو قوله :

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ وَلَمْ تَكُ مِنْهُمُ فَكُلْ مَا عُلِفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وَطَيِّبِ

وانظر شرح التبريزى (١ – ٣٣٥) .

(٥) فى ا ، ب ، ج « خير تقية » وصوابه عن الحماسة .

التضمين لكان المعنى تاما ، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت ، أو أقلّ منه ، كما قال جحظة :

قُمْ فاسْقِنِيهَا يَاغُلَامُ وَغَنِّنِي ذَهَبَ ٱلَّذِينَ يُعَاشُ فِى أَكْنَافِهِمْ[١]

ألا ترى أنه لو لم يقل فى هذا البيت « ذهب الذين يعاش فى أكنافهم » لكان المعنى تاما لايحتاج إلى شىء آخر ، فإن قوله « قم فاسقنيها يا غلام وغنى » فيه كفاية ؛ إذ لاحاجة له إلى تعيين الغناء ؛ لأن فى ذلك زيادة على المعنى المفهوم ، لا على الغرض المقصود .

وقد ورد هذا فى عدة مواضع من شعر أبى نواس فى الخمريات ، كقوله فى مخاطبة بعض خلطائه على مجلس الشراب[٢] :

فَقُلْتُ هَلْ لَكَ فى الصَّهْبَاءِ تَأْخُذُهَا مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍ فَالْعَيْشُ مُقْتَبِلُ[٣]

حِيرِيَّةٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ صَافِيَةٌ تَطِيرُ بِالْكَأْسِ مِنْ لَألَائِهَا شُعَلُ[٤]

فَقَالَ هَاتِ وَغَنِّينَا عَلَى طَرَبٍ وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ[٥]

---

(١) الشطر الثانى للبيد بن ربيعة صدر بيت ، وهو :

ذَهَبَ ٱلَّذِينَ يُعَاشُ فِى أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِى خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

(٢) من كلمة له أولها قوله :

وَمُعْتَدٍ بِالَّذِى تَحْوِى أَنَامِلُهُ مِنْ كَأْسِ مُنْتَخَبٍ لَمْ يَثْنِهِ الْمَلَلُ

(٣) فى الديوان « من كف ذات هن » .

(٤) فى ا ، ب ، ج « حبرية » وتصويبه عن الديوان (٣١٨) والحيرية : المنسوبة إلى الحيرة ، وهى مدينة بالعراق .

(٥) فى الديوان « فقلت هات وأسمعنا » وهو أحسن مما هنا ؛ والشطر الثانى من البيت صدر مطلع لامية الأعشى ، وهو قوله :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

وكذلك قوله أيضاً(١) :

وَظَبْيٍ خَلُوبِ اللَّفْظِ حُلْوٍ كَلاَمُهُ ... مُقَبَّلُهُ سَهْلٌ وَجَانِبُهُ وَعْرُ
نَحَلْتُ لَهُ مِنْهَا فَخَرَّ لِوَجْهِهِ ... وَأَمْكَنَ مِنْهُ مَا يُحِيطُ بِهِ الْأُزْرُ(٢)
فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَالْكَرَى كُحْلُ عَيْنِهِ ... فَقَبَّلْتُهُ وَالصَّبُّ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ
إِلَى أَنْ تَجَلَّى نَوْمُهُ عَنْ جُفُونِهِ ... وَقَالَ كَسَبْتَ الذَّنْبَ قُلْتُ لِيَ الْعُذْرُ
فَأَعْرَضَ مُزْوَرًّا كَأَنَّ بِوَجْهِهِ ... تَفَقُّؤَ رُمَّانٍ وَقَدْ بَرَدَ الصَّدْرُ
فَمَا زِلْتُ أَرْقِيهِ وَأَلْثِمُ خَدَّهُ ... إِلَى أَنْ تَغَنَّى رَاضِياً وَبِهِ سُكْرُ
أَلاَ يَا أَسْلَمِي يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى ... وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ(٣)

وقد ضمن أبو نواس هذا الشطر نفسه فى كلمة أخرى ، وهى قوله :

بَادِرْ صَبُوحَكَ وَانْعَمْ أَيُّهَا الرَّجُلُ ... وَاعْصِ الَّذِينَ بِجَهْلٍ فى الهوى عَذَلُوا
وَاخْلَعْ عِذَارَكَ وَاضْحَكْ كُلَّ ذِى طَرَبٍ ... واعْدِلْ بِنَفْسِكَ فِيهِمْ أَيْنَمَا عَدَلُوا
نَالَ السُّرُورَ وَخَفْضَ الْعَيْشِ فى دَعَةٍ ... وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْمَاجِنُ الْهَزِلُ
سَقْياً لِمَجْلِسِ فِتْيَانٍ أُنَادِمُهُمْ ... مَا فِى أَدِيمِهِمُ وَهْىٌ وَلاَ خَلَلُ
هٰذَا لِذَاكَ كَمَا هٰذَا وَذَاكَ لِذَا ... فَالشَّمْلُ مُنْتَظِمٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلُ
أَكْرِمْ بِهِمْ وَبِنَغْمٍ مِنْ مُغَنِّيَةٍ ... فَفِى الْغِنَاءِ بِنَغْمٍ يُضْرَبُ الْمَثَلُ
هَيْفَاءَ تُسْمِعُنَا وَالْعُودُ يُطْرِبُنَا ... وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ

(١) من كلمة له أولها قوله :

غَدَوْتُ وَمَا يَشْجُو فُؤَادِى خَوَادِشٌ ... وَمَا وَطَرِى إِلاَّ الْغَوَايَةُ وَالْخَمْرُ
مُعَتَّقَةٌ حَمْرَاءُ وَقْدَتُهَا جَمْرُ ... وَنَكْهَتُهَا مِسْكٌ وَطَلْعَتُهَا تِبْرُ

انظر الديوان (ص ٢٨٠ مصر) .

(٢) فى الديوان « رهفت له منها » وفيه « ماتحيط به الأزر » .

(٣) هذا البيت مطلع قصيدة لذى الرمة غيلان بن عقبة وفى ا ، ب ، ج « ألا فاسلمى »

وقد استعمل هذا الضرب كثيراً الخطيبُ عبدالرحمن بن نُبَاتَةَ رحمه الله؛ فمن ذلك قوله فى بعض خطبه ، وهو : فيأيُّها الغَفَلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مُصَدِّقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون .

وكذلك قوله فى ذكر يوم القيامة ، وهو : فيومئذٍ تغدو الخلائق على الله بهما ، فيحاسبهم على ما أحاط به علما ، وينفذ فى كل عامل بعمله حكما ، وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَىِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً .

ألا ترى إلى براعة هذا التضمين الذى كأنه قد رصع فى هذا الموضع رصعاً .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله فى ذكر يوم القيامة ، وهو : هُنَاكَ يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سَرَابا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا .

ومما ينتظم بهذا السلك قوله فى خطبة أخرى ، وهو : أسْكَتَهُمُ الله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم وسيجدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرّقهم ، يوم يُعِيدُ الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

ومن هذا الباب قوله أيضا : هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

وأمثال هذه التضمينات فى خطبه كثيرة ، وهى من محاسن ما يجىء فى هذا النوع .

النوع الثامن والعشرون

فى الإرصاد

وحقيقته : أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له : أى أعدها فى نفسه ، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته .

وذلك من محمود الصنعة ؛ فإن خير الكلام ما دلَّ بعضه على بعض ، وفى الافتخار بذلك يقول ابن نباتة السعدى :

خُذْهَا إذَا أُنْشِدَتْ فِى الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ ... صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا
يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ ... وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانُ يُطْرِيهَا

فمن هذا الباب قول النابغة[1] :

فِدَاءٌ لِامْرِئٍ سَارَتْ إِلَيْهِ ... بِعِذْرَةِ رَبِّهَا عَمِّى وَخَالِى
وَلَوْ كَفِّى الْيَمِينُ بَغَتْكَ خَوْنًا ... لَأَفْرَدْتُ الْيَمِينَ عَنِ الشِّمَالِ[2]

ألا ترى أنه يعلم إذا عرفت القافية فى البيت الأول أن فى البيت الثانى ذكر الشمال .

وكذلك جاء قول البحترى[3] :

أَحَلَّتْ دَمِى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ ... بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَلَامِى[4]

(١) البيتان من كلمة للنابغة الذبيانى يمدح فيها النعمان بن المنذر ، وليسا بمتصلين وأولها :

أَمِنْ ظَلَّامَةَ الدِّمَنُ الْبَوَالِى ... بِمُرْفَضِّ الْحُبَىِّ إِلَى وُعَالِ

(٢) فى ا ، ب ، ج « نفقتك خوفا » وتصويبه عن الديوان .

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل ، وأولها قوله :

أَلَا هَلْ أَتَاهَا بِالْمَغِيبِ سَلَامِى ... وَهَلْ خَبَّرَتْ وَجْدِى بِهَا وَغَرَامى

(٤) هذا البيت ليس متصلا بما بعده فى القصيدة ، بل بينهما بيتان ، وهما قوله :

فَلَيْسَ الَّذِى حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ وَلَيْسَ الَّذِى حَرَّمْتِهِ بِحَرَامِ

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثانى أن عجزه هو ما قاله البحترى .

وقد جاء الإرصاد فى الكلام المنثور كما جاء فى الشعر ؛ فمن ذلك قوله تعالى : (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فإذا وقف السامع على قوله تعالى (لقضى بينهم فيما فيه) عرف أن بعده (يختلفون) لما تقدم من الدلالة عليه .

ومن ذلك أيضاً قوله عز وجل : (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

فِدَاؤُكِ مَا أَبْقَيْتِ مِنِّى فَإِنَّهُ حُشَاشَةُ جِسْمٍ فِى نُحُولِ عِظَامِى
صِلِى مُغْرَمًا قَدْ وَاتَرَ الشَّوْقُ دَمْعَهُ سِجَامًا عَلَى الْخَدَّيْنِ بَعْدَ سِجَامِ

ومن لطيف ماجاء من هذا النوع قول البحترى أيضا :

أَبْكِيكُمَا دَمْعًا ، وَلَوْ أَنِّى عَلَى قَدْرِ الْجوَى أَبْكِى بَكَيْتُكُمَا دَمَا

ومن جيده قول الآخر :

وَلَوْ أَنَّنِى أُعْطِيتُ مِنْ دَهْرِىَ الْمُنَى وَمَا كُلُّ مَنْ يُعْطَى الْمُنَى بِمُسَدَّدِ
لَقُلْتُ لِأَيَّامٍ مَضَيْنَ أَلاَ ارْجِعِى وَقُلْتُ لِأَيَّامٍ أَتَيْنَ أَلاَ أَبْعِدِى

فإذا وقع السامع على قوله عز وجل (وإنَّ أوْهَنَ البيوت) يعلم أن بعده بيت العنكبوت .

ورأيت أبا هلال العسكرى [١] قد سمى هذا النوع التَّوْشِيحَ ؛ وليس كذلك ، بل تسميته بالإرصاد أولى ، وذلك حيث ناسب الاسم مُسَمَّاهُ ، ولاَقَ به ، وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان ، وسيأتى ذكره بعد هذا النوع ، إن شاء الله تعالى .

واعلم أنه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة فى تسمية أنواع علم البيان ، حتى إنَّ أحدهم يَضَع لنوع واحد منه اسمين ، اعتقاداً منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان ، وليس الأمر كذلك ، بل هما نوع واحد .

فمن غلط فى ذلك الغانمى ؛ فإنه ذكر بابا من أبواب علم البيان وسَمَّاه التَّبليغ وقال : هو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه ، فيبلغ بذلك الغاية القُصْوَى فى الجودة ؛ كقول امرئ القيس [٢] :

---

(١) انظر كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى (ص ٣٠٢ الآستانة) .

(٢) لامرئ القيس قصيدة على هذا الروى أولها :

خَلِيلَىَّ مُرَّا بِى عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ ... لِنَقْضِىَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

ومن الرواة من يروى البيت الذى أنشده المؤلف فى هذه القصيدة ، ومنهم من يرويه فى قصيدة لعلقمة بن عبدة التميمى ، المعروف بعلقمة الفحل ؛ وهى قصيدة على روى كلمة امرئ القيس ، ويتحدث الرواة أن الشاعرين أنشدا قصيدتيهما معا ، وأول كلمة علقمة قوله :

ذَهَبْتَ مِنَ الْهِجْرَانِ فِى كُلِّ مَذْهَبِ ... وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

وقد روى أبو هلال العسكرى هذا البيت منسوبا لامرئ القيس (الصناعتين : ٣٠١) ورواه ابن رشيق فى العمدة (٢ ــ ٥٥) منسوبا له أيضا .

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِى لَمْ يُثَقَّبِ (١)

فإنه أتى بالتشبيه تاما قبل القافية ، ثم لما جاء بها بلغ الأمَدَ الأقصى فى المبالغة .

ثم إن الغانمى ذكر بعد هذا الباب بابا آخر ، وسماه الإشباع ، فقال : هو أن يأتى الشاعر بالبيت مُعلق القافية على آخر أجزائه ، ولا يكاد يفعل ذلك إلاَّ حُذَّاق الشعراء ، وذاك أن الشاعر إذا كان بارعا جَلَبَ بقدرته وذكائه وفطنته إلى البيت وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة فيه قافية متممة لأعاريضه ووزنه فجعلها نعتا للمذكور ، كقول ذى الرُّمَّة (٢) :

قِفِ الْعِيسَ فى أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ (٣)

هذا كلام الغانمى بعينه .

والبابان المذكوران سواء ، لافرق بينهما بحال ؛ والدليل على ذلك أن بيت امرئ القيس يتمُّ معناه قبل أن يؤتى بقافيته ، وكذلك بيت ذى الرمة ، ألا ترى أن امرأ القيس لما قال :

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَـــا الْجَزْعُ ... ...

أتى بالتشبيه قبل القافية ، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة ، وهى قوله « لَمْ يُثَقَّبِ » ، وهكذا ذو الرمة ، فإنه لما قال :

---

(١) الجزع ــ بفتح الجيم وسكون الزاى ــ خرز يمان فيه سواد و بياض، وتشبه به الأعين .

(٢) هذا البيت مطلع قصيدة له يذكر فيها قومه ويهجو عشيرة امرىء القيس ، وبعده :

أَظُنُّ الَّذِى يُجْدِى عَلَيْكَ سُؤَالُهَا دُمُوعًا كَتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ

(٣) البيت فى الصناعتين (٣٠١) مع مابعده ، وفى العمدة (٢ ــ ٥٤) ، وفى العمدة « كتبديد الجمان » ولها وجه وجيه .

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ ... ...

أتى بالتشبيه أيضا قبل أن يأتى بالقافية ، ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة وهى قوله « المسلسل » .

واعلم أن أباهلال العسكرى قد سمى هذين القسمين بعينهما الإيغال ؛ وقال[1] : هو أن يستوفى الشاعرُ معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع

---

(١) انظر « الصناعتين » لأبى هلال (ص ٣٠١) ومثل ماذكره المؤلف عن أبى هلال قد ذكره ابن رشيق فى العمدة (٢ – ٥٤ وما بعدها) ، ومثلا له أيضا بقول الأعشى ميمون بن قيس :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

وبقول امرئ القيس :

إِذَا مَاجَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ

وبقول زهير بن أبى سلمى :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

ومثل له ابن رشيق بقول الخنساء :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

وبقول الطرماح يصف فرسا بسعة منخره :

لَايَكْتُمُ الرَّبْوَ إِلَّا رَيْثَ يُخْرِجُهُ مِنْ مَنْخِرٍ كَوِجَارِ الثَّعْلَبِ الْخَرِبِ

وبقول مسلم بن الوليد – وكان الرشيد يعجب به – :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ

وبقول بشار بن برد :

وَغَيْرَانَ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ كَأَنَّهُ أُسَامَةُ ذُو الشِّبْلَيْنِ حِينَ يَجُوعُ

فيزيد فيه معنى آخر ، وأصل الإيغال من أَوْغَلَ فى الأمرِ ؛ إذا أبعد الذهاب فيه ، ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذى الرمة :

* قِفِ الْعِيسَ فى أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ * البيت .

وهذا أقرب أمرا من الغانمى ؛ لأنه ذكره فى باب واحد ، وسماه باسم واحد ، ولم يذكره فى باب آخر كما فعل الغانمى ، وليس الأخذ على الغانمى فى ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن ينتصب لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التى ذكرها داخلا فى الآخر فيذهب عليه ويخفى عنه ، وهو أشهر من فَلَق الصَّبَاح .

وههنا ماهو أغرب من ذاك ؛ وذلك أنه قد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومه طُرُقًا خارجة عن موضوع علم البيان ، وهى بِنَجْوَةٍ عنه ؛ لأنها فى وَادٍ وعلم البيان فى واد .

فمن فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات ؛ فإنه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمة وكلمة مهملة ، والرسالة التى حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم ، ونظم غيره شعرا آخر كل بيت منه أول للبيت الذى يليه ، وكل هذا ـ وإن تضمن مشقةً من الصناعة ـ فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ؛ لأن الفصاحة هى ظهور الألفاظ مع حسنها ، على ما أشرت إليه فى مقدمة كتابى هذا ، وكذلك البلاغة فإنها الانتهاء فى محاسن الألفاظ والمعانى ؛ من قولنا : بلغت المكان ؛ إذا انتهيت إليه ، وهذا الكلام المَصُوغ بما أتى به الحريرى فى رسالته وأورده ذلك الشاعر فى شعره لايتضمن فصاحةً ولا بلاغة ، وإنما يأتى ومعانيه غَثَّة باردة ، وسبب ذلك أنها تُسْتَكْرَهُ استكراها ، وتوضع فى غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه ؛ فإنها تجىء مُسْتَكْرَهَة أيضا غير ملائمة لأخواتها ، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والمعانى ، فإذا خرج عنه شىء من هذه

الأوضاع المشار إليها لا يكون معدودا منه ، ولا داخلا فى بابه ، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه لورد فى كتاب الله عز وجل الذى هو مَعْدِن الفصاحة والبلاغة ، أو ورد فى كلام العرب الفصحاء ، ولم نره فى شىء من أشعارهم ولا خطبهم .

ولقد رأيت رجلا أديبا من أهل المغرب ، وقد تغلغل فى شىء عجيب ، وذاك أنه شجر شجرة ونظمها شعرا ، وكل بيت من ذلك الشعر يقرأ على ضروب من الأساليب اتباعا لشعب تلك الشجرة وأغصانها ؛ فتارة تقرأ كذا ، وتارة تقرأ كذا ، وتارة يكون جزء منه ههنا ، وتارة ههنا ، وتارة يقرأ مقلوبا ، وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى يفهم إلا أنه ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشَّعْبَذة والمعالجة والمصارعة ، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة .

ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى قد ذكر بابا من الأبواب فى كتابه ؛ فقال[١] : ينبغى ألاَّ تستعمل فى الكلام المنظوم والمنثور ألفاظَ المتكلمين والنحويين والمهندسين ، ومعانيهم ، ولا الألفاظ التى تختصُّ بها بعضُ المِهَن والعلوم ؛ لأن الإنسان إذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة ، ثم مثل ذلك بقول أبى تمام[٢] :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أَثْمَارُهَا شَبَهٌ ... وَهِمَّةٌ جَوْهَرٌ مَعْرُوفُهَا عَرَضُ[٣]

---

(١) انظر « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (ص ١٥٩) .

(٢) من كلمة له يعاتب فيها عياش بن لهيعة ، وأولها قوله :

ذُلُّ السُّؤَالِ شَجًى فى الحَلْقِ مُعْتَرِضُ ... مِنْ دُونِهِ شَرَقٌ مِنْ تَحْتِهِ جَرَضُ

مَا مَاءُ كَفِّكَ إنْ جَادَتْ وَإنْ بَخِلَتْ ... مِنْ مَاءِ وَجْهِى إذَا أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ

انظر الديوان (ص ٤٠٠ بيروت) .

(٣) قبل هذا البيت قوله :

و بقوله أيضا(١) :

خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بالعُقُولِ حَبَابُهَا كتلَعُّبِ الأَفْعَالِ بِالأَسْمَاءِ(٢)

مَنْ أَشْتَكِي؟ وَإلَى مَنْ أَعْتَزِي؟ وَنَدَى مَنْ أَجْتَدِي؟ كُلُّ أَمْرِي فِيكَ مُنْتَقِضُ

قال الخفاجى بعد رواية بيت أبى تمام هذا : « لأن الجوهر والعرض من ألفاظ أهل الكلام الخاصة بهم » اهـ ، وعندهم أن الجوهر كل ماقام بنفسه كالقلم والكتاب ، والعرض عندهم كل ماقام بغيره كاللون والطعم .

(١) من قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت ، وأولها قوله :

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِى الْغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِى

انظر الديوان (ص ٢ بيروت) .

(٢) قبل هذا البيت قوله :

غَنِيَ الرَّبِيعُ بِرَوْضِهِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَى إِلَيْهِ الْوَشْيَ مِنْ صَنْعَاءِ

صَبَّحْتُهُ بِمُدَامَةٍ صَبَّحْتُهَا بِسُلَافَةِ الْخُلَطَاءِ وَالنُّدَمَاءِ

بِمُدَامَةٍ تَغْدُو الْمُنَى لِكُئُوسِهَا خَوَلاً عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

رَاحٍ إِذَا مَا الرَّاحُ كُنَّ مَطِيَّهَا كَانَتْ مَطَايَا الشَّوْقِ فِى الْأَحْشَاءِ

عِنَبِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ سَبَكَتْ لَهَا ذَهَبَ الْمَعَانِي صَاغَةُ الشُّعَرَاءِ

صَعُبَتْ وَرَاضَ الْمَزْجُ سَيِّئَ خُلْقِهَا فَتَعَلَّمَتْ مِنْ حُسْنِ خُلْقِ الْمَاءِ

ومثل البيتين اللذين مثل بهما المؤلف تبعا لابن سنان الخفاجى قول أبى الطيب المتنبي:

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلاً مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

وَكَيْفَ تُرَجِّي الرُّومُ وَالرُّوسُ هَدْمَهَا وَذَا الطَّعْنُ آسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ

وقول أبى العلاء المعرى :

تَلَاقٍ تَفَرَّى عَنْ فِرَاقٍ تَذُمُّهُ مَآقٍ ، وَتَكْسِيرُ الصِّحَاحِ فِى الْجَمْعِ

ويحكى أن عز الدولة بختيار بن معز الدولة قال يوما ، وفى مجلسه جماعة من ندمائه

وهذا الذى أنكره ابن سنان هو عين المعروف فى هذه الصناعة :

إنَّ الَّذِى تَكْرَهُونَ مِنْهُ هُوَ الَّذِى يَشْتَهِيهِ قَلْبِى

وسأبين فساد ما ذهب إليه ، فأقول : أما قوله « إنه يجب على الإنسان إذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة » فهذا مسلم إليه ، ولكنه شذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدَّة من كل علم وكل صناعة ؛ لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى ، وهذا لاضابط له يضبطه ، ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور فى صَوْغ معنًى من المعانى وأدَّاه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويَحِيدَ عنه ؛ لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذى قصده ، ألا ترى إلى قول أبى تمام فى الاعتذار (١) :

فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ عَنَّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَإٍ مِنِّى فَعُذْرِى عَلَى عَمْدِ (٢)

وكتابه : لينشد كل واحد منكم أغزل مايعرفه من الشعر ، فأنشد كل واحد ماحضره ، فلما انتهى القول إلى أبى الخطاب المفضل بن ثابت الصابى، وكان أبوه طبيبا ، أنشده قول أبى العتاهية :

قَالَ لِى أَحْمَدُ وَلَمْ يَدْرِ مابِى : أَتُحِبُّ الْغَدَاةَ عُتْبَةَ حَقًّا ؟
فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ حُبًّا جَرَى فِى الْعُرُوقِ عِرْقًا فَعِرْقَا

فقال له بختيار : لاتخرج بنا يا أبا الخطاب عن صناعة الطب التى ماتزنها عن كلالة .

(١) من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقى ، ويعتذر إليه ، وهو آخرها بيتا ؛ وأولها قوله :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَقْوَتْ مَغَانِيكُمُ بَعْدِى وَمَحَّتْ كَمَا مَحَّتْ وَشَائِعُ مِنْ بُرْدِ
وَأَنْجَدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكُمْ فَيَادَمْعُ أَنْجِدْنِى عَلَى سَاكِنِى نَجْدِ

(٢) فى نسختين من الديوان « فإن يك جرم عز » .

فإن هذا من أحسن مايجيء فى باب الاعتذار عن الذنب ، وكان ينبغى له ــ على ما ذكره ابن سنان ــ أن يترك ذلك ولا يستعمله ، حيث فيه لفظتا « الخطأ » و « العمد » اللتان هما من أخصّ ألفاظ الفقهاء .

وكذلك قول أبى الطيب المتنبى(١) :

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا ... رَدَّ الْإِلٰهُ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا(٢)
نُسِقُوا لَنَا نَسْقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمًا ... وَأَتَى فَذٰلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

وهذا من المعانى البديعة ، وما كان ينبغى لأبى الطيب أن يأتى فى مثل هــذا الموضع بلفظة « فذلك » التى هى من ألفاظ الحساب ، بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذى لايتم إلا بتلك اللفظة موافقة لابن سـنان فيما رآه وذهب إليه ، وهذا محض الخطأ وعين الغلط .

وأما ما أنكره على أبى تمام فى قوله :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أَثْمَارُهَا شَبَهٌ ... وَهِمَّةٌ جَوْهَرٌ مَعْرُوفُهَا عَرَضُ

فإن هذا البيت ليس منكرا لما استعمل فيه من لفظتى الجوهر والعرض اللتين هما من خصائص ألفاظ المتكلمين ، بل لأنه فى نفسه ركيك ؛ لتضمنه لفظة « الشبه » فإنها لفظة عامية ركيكة ، وهى التى أسخفت بالبيت بجملته ،

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل محمد بن العميد ، وأولها قوله :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

(٢) قبل هذا البيت قوله :

مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنِّى بَعْدَهَا ... شَاهَدْتُ رَسْطَالِيسَ وَالْإِسْكَنْدَرَا
وَمَلِلْتُ نَحْرَ عِشَارِهَا فَأَضَافَنِى ... مَنْ يَنْحَرُ الْبِدَرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرَى
وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرَا

ورب قليل أفسد كثيرا ، وأما لفظتا الجوهر والعرض فلا عيب فيهما ، ولا ركاكة عليهما .

وأما البيت الآخر ، وهو :

خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بِالْعُقُولِ حَبَابُهَا كَتَلَعُّبِ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ

فليس بمنكر ، وهل يشك فى أن التشبيه الذى تضمنه واقع فى موقعه ؟ ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال إلى حال ، وكذلك تفعل الخمرُ بالعقول فى تنقّل حالاتها ، فما الذى أنكره ابن سنان من ذلك ؟

وقد جاء لبعض المتأخرين من هذا الأسلوب ما لا يدافع فى حسنه ، وهو قوله :

عَوَامِلُ رِزْقٍ أَعْرَبَتْ لُغَةَ الرَّدَى فَجِسْمٌ لَهُ خَفْضٌ وَرَأْسٌ لَهُ نَصْبُ

فإنه لما حصل له المشابهة فى الاسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره من الخفض والنصب ، وعلى ما ذكره ابن سنان فإن ذلك غير جائز ، وهو من مستحسنات المعانى ، هذا من أعجب الأشياء !!.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم :

وَفَتًى مِنْ مَازِنٍ فَاقَ أَهْلَ الْبَصْرَهْ
أُمُّـــهُ مَعْرِفَةٌ وَأَبُوهُ نَـكِرَهْ

وهل يشك فى حسن هذا المعنى ولطافته ؟.

وكذلك ورد من هذا النوع فى شعر بعض العراقيين يهجو طبيبا فقال :

قَالَ حِمَارُ الطَّبِيبِ تُومَا لَوْ أَنْصَفُونِى لَـكُنْتُ أَرْكَبْ[1]
لِأَنَّنِى جَاهِلٌ بَسِيطٌ وَرَاكِبِى جَهْلُهُ مُرَكَّبْ

وهذا من المعنى الذى أغرب فى الملاحة ، وجمع بين خفة السخرية ووقار الفصاحة.

---

(١) يروى هذان البيتان فى كثير من كتب الأدب على هذا الوجه ، ووقع فى بعضها « قال حمار الحكيم توما » وفى بعضها « قال حمار الحكيم يوما » .

وقد تقدم القول فى صدر كتابى هذا أنه يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلّق بكل علم وكل صناعة ، ويخوض فى كل فن من الفنون ؛ لأنه مُكَلَّف بأن يخوض فى كل معنى من المعاني ؛ فاضمم يدك على ما ذكرته ونَصَصْتُ عليه ، واترك ما سواه ؛ فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده .

وهذا النوع إذا استعمل على الوجه المرضى كان حسناً ، وإذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحاً ، كما جاء فى كلام أبى العــلاء بن سليمان المعرّىّ ، وهو قوله فى رسالة كتبها إلى بعض إخوانه : حَرَس الله سـعادته ما أدغمت التاء فى الظاء ، وتلك سعادة بغير انتهاء ؛ وهذا من الغث البارد ، لـكن قد جاءه فى الشعر ماهو حسن فائق ، كقوله(١) :

فَدُونَــكُمُ خَفْضَ الحَيَاةِ فَإِنَّنَا نَصَبْنَا المَطَايَا فِى الْفَلاةِ عَلَى الْقَطْعِ

والخفض والنصب من الإعراب النحوى ، والخفض : رَفاهة العيش ، والقطع : من منصوبات النحو ، والقطع : قطع الشىء ، يقال : قطعته ؛ إذا بترته .

النوع التاسع والعشرون

فى التوشيح

وهو : أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرين مختلفين ؛ فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعراً مستقيما من بحر على عروض ، وإذا أضاف

---

(١) من قصيدة له يودّع فيها بغداد ؛ وأولها قوله :

نَبِىٌّ مِنَ الغِرْبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعِ يُخَبِّرُنَا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى الصَّدْعِ

انظر ديوان سقط الزند (ص ١١٠ مصر عام ١٩٠١ م) .

إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر على عروض ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح ، وكذلك يجرى الأمر فى الفقرتين من الكلام المنثور ؛ فإن كل فقرة منهما تصاغ من سجعتين .

وهذا لايكاد يستعمل إلا قليلا ، وليس من الحسن فى شىء ، واستعماله فى الشعر أحسن منه فى الكلام المنثور ؛ فن ذلك قول بعضهم (١) :

---

(١) لأبى بكر أحمد بن الحسين الأرجانى قصيدة طويلة يمدح فيها قاضى قضاة فارس طاهر بن محمد ، وقد زاد على ذلك أن الشطر الأول من كل بيت مبنى على قافيتين كما أن الشطر الثانى كذلك ، فيمكن أن يقرأ البيت الواحد على ثلاثة أوجه ، ونحن نذكر لك من هذه القصيدة عدة أبيات ، ونبين لك الوجوه التى يمكن أن تقرأ عليها ، قال :

صَبٌّ مُقِيمٌ سَائِرٌ فُؤَادُهُ طَوْعُ الهوَى مَعَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ
غائِبُ قَلْبٍ حاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى فى عَهْدِهِمْ وَالمَعْهَدِ
لَهُ جَوًى مُخَامِرٌ يَعْتَادُهُ إِذَا اشْتَكَى طَيْفَ الكَرَى فِى العُوَّدِ

فهذه الأبيات على هذا الوجه من بحر الكامل من العروض الأولى ، ويصح أن تقرأ هكذا :

صَبٌّ مُقِيمٌ سَائِرٌ فُؤَادُهُ طَوْعُ الهوَى
غائِبُ قَلْبٍ حاضِرٌ وِدَادُهُ لِمَنْ نَأَى
لَهُ جَوًى مُخَامِرٌ يَعْتَادُهُ إِذَا اشْتَكَى

فتكون من مجزوء الكامل ، وتقرأ أيضا على وجه آخر هكذا :

صَبٌّ مُقِيمٌ سَائِرٌ مَعَ الخَلِيطِ المُنْجِدِ
غائِبُ قَلْبٍ حَاضِرٌ فِى عَهْدِهِمْ وَالمَعْهَدِ

أَسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الحَوَادِثِ مَارِسَا رُكْنَا ثَبِيرٍ ، أَوْ هِضَابُ حِرَاءِ
وَنَلِ المُرَادَ مُمَكَّنًا مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الدُّهُورِ ، وَفُزْ بِطُولِ بَقَاءِ

وهذا من الجيد الذي يأتى فى هذا النوع ، إلا أن أثر التكلف عليه باد ظاهر ، وإذا نظر إلى هذين البيتين وجدا وهما يذكران على قافية أخرى وبحر آخر ، وذاك أن يقال :

اسْلَمْ وَدُمْتَ عَلَى الْحَوَا دِثِ مَارِسًا رُكْنَا ثَبِيرِ
وَنَلِ الْمُرَادَ مُمَكَّنًا مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الدُّهُورِ

وقد استعمل ذلك الحريرى فى مقاماته ، نحو قوله :

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى ، وَقَرَارَةُ الْأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدًا ، بُعْدًا لَهَا مِنْ دَارِ
وَإِذَا أَظَلَّ سَحَابُهَا لَمْ يُنْتَفَعْ مِنْهُ صَدًى ، لِجَهَامِهِ الْغَرَّارِ

واعلم أن هذا النوع لايستعمل إلا متكلفا عند تعاطى التمكن من صناعة النظم ، وحسنُهُ مَنُوطٌ بما فيه من الصناعة ، لا بما فيه من البراعة ؛ ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيد من أوله إلى آخره يتضمن غزلا ومديحا على ما جرت به عادة القصائد أليس أنه كان يجىء باردا غثًّا لايسلم منه على محكّ النظر عشره ؟ والعشر كثير ، وما كان على هذه الصورة من الكلام فإنما يستعمل أحيانا على الطبع ، لاعلى التكلف ، وهو وأمثاله لايحسن إلا إذا كان يسيرا ، كالرقم فى الثوب أو الشّية فى الجلد .

لَهُ جَـــوًى مُخَامِرٌ طَيْفَ الْكَرَى فى الْعُوَّدِ

فتكون من مجزوء الكامل أيضا . وهذا أشد تكلفا مما ذكره المؤلف ، وانظر ديوان الأرجانى (ص ٢١٣ بيروت) .

النوع الثلاثون

فى السرقات الشعرية

ولربما اعترض معترض فى هذا الموضوع فقال : قد تقدم نثر الشعر فى أول الكتاب ، وهو أخذ الناثر من الناظم ، ولا فرق بينه وبين أخذ الناظم من الناظم ؛ فلم يكن إلى ذكر السرقات الشعرية إذَنْ حاجةٌ . ولو أنعم هذا المعترض نظره لظهر له الفرق ، وعلم أن نثر الشعر لم يتعرض فيه إلى وجوه المأخذ وكيفية التوصل إلى مداخل السرقات ؛ وهذا النوع يتضمن ذكر ذلك مفصلا .

واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى ؛ إذ لايستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول ، لكن لاينبغي لك أن تعجل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فَتُنَادِيَ على نفسك بالسرقة ، فكثيرًا مارأينا من عجل فى ذلك فعثر ، وتعاطى فيه البديهة فعَتَرَ ، والأصْلُ المعتمد عليه فى هذا الباب التورية والاختفاء بحيث يكون ذلك أخفى من سِفَادِ الغراب ، وأظرف من عنقاء مغرب فى الإغراب .

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول : إن لأحد من المتأخرين مَعْنًى مبتدعا ؛ فإن قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وإنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طُرِق مراراً .

وهذا القول وإن دخل فى حيز الإمكان إلا أنه لايلتفت إليه ؛ لأن الشعر من الأمور المتناقلة ، والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يَعِنُّ لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً فناقصاً ؛ فقَصَّد القصائد ، وهو أول من قَصَّد ، ولو لم يكن له معنى اختص به سوى أنه أول من قَصَّد القصائد

لكان فى ذلك كفاية ، وأى فضيلة أكبر من هذه الفضيلة ؟ ثم تتابع المقصّدون ، واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد ، وكثرت المعانى المقولة بسببه ، ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى الغريبة ، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الْحَمْدَانية ؛ فعظم الشعر ، وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه ، وكان ختامَهُ على الثلاثة المتأخرين ، وهم : أبو تمام حبيب بن أوس ، وأبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإذا قيل : إن المعانى المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع ؛ عُورض ذلك بما ذكرته .

والصحيح أن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لانهاية له ؟ إلا أن من المعانى مايتساوى الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ؛ لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ، كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَا عَفَتْ آثَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ

وكقولهم : إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه ؛ وإن الواشى لو علم بمزار الطيف لساءه ، وكقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر ، وكالسحاب ، وإنه لايمنع عطاء اليوم عطاء غد ، وإنه يجود ابتداء من غير مسألة ، وأشباه ذلك . وكقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أول حادث ، وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحداً وإنما كان قبيلة ، وإن بعد هذا الذاهب لايعد للمنية ذنب ، وأشباه ذلك . وكذلك يجرى الأمر فى غير ما أشرت إليه من معانٍ ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى فى إيرادها ، ومثل ذلك لايطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص ، كقول أبى تمام :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فِى النَّدَى وَالْبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ الْمِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، وكان لابتداعه سبب ، والحكاية فيه مشهورة ، وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها :

* مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ[1] *

انتهى إلى قوله :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقال الحكيم الكندى : وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذراً عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقاً له .

وكذلك ورد قول أبى الطيب المتنبى فى عضد الدولة وولديه[2] :

وَأَنْتَ الشَّمْسُ تَبْهَرُ كُلَّ عَيْنٍ فَكَيْفَ وَقَدْ بَدَتْ مَعَهَا اثْنَتَانِ
فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلَا يَتَحَاسَدَانِ
وَلَا مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِي وَلَا وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ
وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ لَهُ يَاءَيْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ

وهــذا معنى لأبى الطيب ، وهو الذى ابتدعه : أى أن زيادة أولاد عدوّك

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة التى منها الأبيات المذكورة ، وعجزه :

* نَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبُعِ الْأَدْرَاسِ *

(٢) ولدا عضد الدولة : هما أبو الفوارس وأبو دلف ، وأول هذه القصيدة قوله :

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فى الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

كزيادة التصغير ؛ فإنها زيادة نقص .

وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو (١) :

تَشْكُو المُحِبَّ وَتُلْفَى الدَّهْرَ شَاكِيَةً ... كَالْقَوْسِ تُصْمِى الرَّمَايَا وَهْىَ مِرْنَانُ (٢)

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مُبْتَدَع لابن الرومى ، وليس كذلك ، ولكنه مأخوذ من المثل المضروب ، وهو قولهم : يَلْدَغُ ويَصِى ، ويضرب ذلك لمن يبتدئ بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته ، وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو ولا غيره من المعانى المبتدعة ، بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره .

والذى عندى فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ، ولو لفظة واحدة ؛ فإن ذلك من أدلّ الدليل على سرقته .

واعلم أن علماء البيان قد تكلموا فى السرقات الشعرية فأكثروا ، وكنت ألفت فيه كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نَسْخاً ، وَسَلْخاً ، وَمَسْخاً .

أما النسخ فهو : أخذ اللفظ والمعنى برمته ، من غير زيادة عليه ، مأخوذاً ذلك من نسخ الكتاب .

وأما السلخ فهو : أخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سَلْخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ .

---

(١) قبل هذا البيت قوله :

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا يُمْنَى الرِّجَالُ بِهِ ... مُسْتَضْعَفَاتٌ لَهُ مِنْهُنَّ أَقْرَانُ

مُنَاضِلَاتٌ بِنَبْلٍ لَا تَقُومُ لَهُ ... كَتَائِبُ التُّرْكِ يُزْجِيهِنَّ خَاقَانُ

يَا رُبَّ حُسَّانَةٍ مِنْهُنَّ قَدْ فَعَلَتْ ... سُوءًا وَقَدْ تَفْعَلُ الْأَسْوَاءَ حُسَّانُ

(٢) فى ا ، ب ، ج « يشكى المحب ويلقى الدهر شاكيه » وهو تحريف من عدة أوجه ، وقد عرفت الأبيات السابقة على هذا البيت .

وأما المسخ فهو : إحالة المعنى إلى مادونه ، مأخوذاً ذلك من مسخ الآدميين قِرَدَة .

وههنا قسمان آخران أخللت بذكرهما فى الكتاب الذى ألفته ؛ فأحدهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى ضده ؛ وهذان القسمان ليسا بنسخ ولا سلخ ولا مسخ .

وكل قسم من هذه الأقسام يتنوّع ويتفرّع ، وتخرج به القسمة إلى مسالك دقيقة ، وقد استأنفت مافاتنى من ذلك فى هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

ومن المعلوم أن السرقات الشعرية لايمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التى لايحصرها عدد ، فَمَنْ رَامَ الأخذ بنواصيها ، والاشتمال على قواصيها ، بأن يتصفح الأشعار تصفحاً ، ويقتنع بتأملها ناظراً ؛ فإنه لايظفر منها إلا بالحواشى والأطراف ؛

وكنت سافرت إلى الشام فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودخلت مدينة دمشق ؛ فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط فى قصيد له أولها(1) :

* خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاناً لِقَلْبِهِ *

ويزعمون أنه من المعانى الغريبة ، وهو :

أَغَارُ إذَا آنَسْتُ فِى الْحَىِّ أَنَّةً ... حذاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِحُبِّهِ

(1) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ *

وبعد المطلع قوله :

وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ ... إِذَا هَبَّ كَانَ الْوَجْدُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ

خَلِيلَىَّ لَوْ أَحْبَبْتُمَا لَعَلِمْتُمَا ... مَحَلَّ الهوَى مِنْ مُغْرَمِ الْقَلْبِ صَبِّهِ

تَذَكَّرَ فَذُوالذِّكْرَى يَشُوقُ وَذُوالهوَى ... يَتُوقُ ، وَمَنْ يَعْلَقْ بِهِ الْحُبُّ يُصْبِهِ

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى فى قوله[(١)] :

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ المَشُوقِ فَدَيْتُهُ ... مِمَّا بِهِ لَأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ[(٢)]

وقول أبى الطيب أدق معنى ، وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً ، ثم إنى وقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبى .

وسافرت إلى الديار المصرية فى سنة ست وتسعين فوجدت أهلها يعجبون ببيت من الشعر يَعْزونه إلى شاعر من أهل اليمن يقال له عِمارة ، وكان حديث عهد بزماننا هذا فى آخر الدولة العلوية بمصر ، وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن ، وهو[(٣)] :

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّى بَعْدَ فُرْقَتِهِ ... مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمِ

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحا لبعض الخلفاء فى حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يَا مَنْ رَأَى حَرَمًا يَسْرِى إِلَى حَرَمِ ... طُوبَى لِمُسْتَلِمٍ يَأْتِى وَمُلْتَزِمِ

---

(١) من قصيدة له أولها قوله :

الْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ ... وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ

(٢) قبل هذا البيت قوله :

لَا تَعْذِلِ الْمُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِهِ ... حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِى أَحْشَائِهِ

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ ... مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

وَالْعِشْقُ كَالْمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ ... لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره الصالح ؛ وقبل البيت من أولها قوله :

الْحَمْدُ لِلْعِيسِ بَعْدَ الْعَزْمِ وَالْهِمَمِ ... حَمْدًا يَقُومُ بِمَا أَوْلَتْ مِنَ النِّعَمِ

ثم قلت فى نفسى : يالله العجب ! ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين دَرَسَت أشعارهم ، ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره ، بل هما كما يقال : أشهر من الشمس والقمر ، وشعرهما دائر فى أيدى الناس ، بخلاف غيرهما ، فكيف خفى على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما ؟

وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدمُ الحفظ للأشعار ، والاقتناعُ بالنظر فى دواوينهما ، ولمَّا نصبت نفسى للخَوْض فى علم البيان ورُمْت أن أكون معدوداً من علمائه علمت أن هذه الدرجة لاتنال إلا بنقل مافى الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور :

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَاحَوَى الْقِمَطْرُ   مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَاحَوَاهُ الصَّدْرُ

ولقدوقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لايوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تُحصَ أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ماتكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ؛ إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد وأبى الطيب المتنبى ، وهؤلاء الثلاثة هم لاتُ الشعر وعُزَّاه ومَناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حَوَتْ أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء .

لاأجحدُ الحقَّ عِندى للرِّكَابِ يَدٌ   تمنَّتِ اللُّجُمُ فِيهَا رُتْبَةَ الْخُطُمِ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ الْعِزِّ مِنْ نَظَرِى   حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ الْعَصْرِ مِنْ أَمَمِ
وَرُمْنَ مِنْ كَعْبَةِ الْبَطْحَاءِ وَالْحَرَمِ   وَفْداً إِلَى كَعْبَةِ الْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ

أما أبو تمـام فإنه رَبُّ معان ، وَصَيْقَل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ؛ فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذى برز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تَنْقِيب وتَنْقِير ؛ فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حَذام ؛ فَخُذْنى فى ذلك قول حكيم ، وتَعَلَّمْ ففوق كل ذى علم عليم .

وأما أبو عبادة البحترى فإنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يَشْعُرَ فغَنَّى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبى عنه ، وعن أبى تمام ، وعن نفسه ؛ فقال : أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى ، وَلَعَمْرِى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ؛ فإن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختصَّ بالإبداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثمًا ، ولا منه متلثما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضلُّ بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حَمْدَان فيصف لسانُهُ ، ما أدَّى إليه عِيانه ، ومع هـذا فإنى رأيت الناس

عادلين فيه عن سنن التوسط ، فإما مُفرِط فى وصفهِ وإما مُفرِّط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عُذْره ، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبياتٍ يمدح بها سيف الدولة(١) :

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا

وَلَا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ ... قَدْ أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

ولما تأملت شعره بعين المَعْدَلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ماضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساما خمسة : خُمْس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ، فإنها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوام .

ولسائل ههنا أن يسأل ويقول : لم عدلت إلى شعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم ؟

فأقول : إنى لم أعدل إليهم اتفاقا ، وإنما عدلت إليهم نظرا واجتهادا ، وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك إلا وعرضته على نظرى ، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبى عبادة ، ولا أنقش

(١) من قصيدة له أولها :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ ... مَاذَا يَزِيدُكَ فِى إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وَفِى الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ ... مَا دَلَّ أَنَّكَ فِى الْمِيعَادِ مُتَّهَمُ

ديباجة ، ولا أبهج سبكا ، فاخترت حينئذ دواوينهم ؛ لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ماسواها مع ما بقى على خاطرى من غيرها .

وقد أوردت فى هذا الموضع من السرقات الشعرية ما لم يورده غيرى ، ونبهت على غوامض منها .

وكنت قدمت القول أنى قسمتها إلى خمسة أقسام ؛ منها الثلاثة الأول ، وهى : النسخ ، والسلخ ، والمسخ ، ومنها القسمان الآخران ، وها أنا أبين ماتنقسم إليه هذه الأقسام من تشعبها وتفريعها ؛ فأقول :

أما النسخ فإنه لا يكون إلا فى أخذ المعنى واللفظ جميعاً ، أو فى أخذ المعنى وأكثر اللفظ ؛ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب ، وعلى ذلك فإنه ضربان :

الأول : يسمى وقوع الحافر على الحافر ، كقول امرئ القيس[١] :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

وكقول طرَفة[٢] :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وقد أكثر الفرزدق وجرير من هذا فى شعرهما ، فمنه ما وردا فيه مورد امرئ القيس وطرَفة فى تخالفهما فى لفظة واحدة ، كقول الفرزدق :

أَتَعْدِلُ أَحْسَابًا لِئَامًا حُمَاتُهَا بِأَحْسَابِنَا إِنِّى إِلَى اللهِ رَاجِعُ

---

(١) من معلقته التى أولها قوله :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٢) من معلقته التى أولها قوله :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِى الْوَشْمِ فى ظَاهِرِ الْيَدِ

وكقول جرير :

أَتعْدِلُ أَحْسَاباً كِرَاماً حُماتُهَا   بِأَحْسَابِكُمْ إِنِّى إِلَى اللهِ رَاجِعُ

ومنه ما تساويا فيه لفظاً بلفظ ، كقول الفرزدق :

وَغُرٍّ قَدْ نَسَقْتُ مُشَهَّرَاتٍ   طَوَالِعَ لاَ تُطِيقُ لهَا جَوَابَا[1]

بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَبِكُلِّ ثَغْرٍ   غَرَائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ انْتِسَابَا

بَلَغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقاً   وَمَسْقِطَ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

وكذلك قال جرير من غير أن يزيد .

وقد حكى أن امرأة من عقيل يقال لها «ليلى» كان يتحدث إليها الشباب ، فدخل الفرزدق إليها ، وجعل يحادثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تألفه ، فدخل إليها ، فأقبلت عليه وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك ، فقال للفتى : أتصارعنى؟ فقال : ذاك إليك ، فقام إليه ، فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه ، وجلس على صدره ، فضرط ، فوثب الفتي عنه ، وقال : ياأبا فراس ، هذا مقام العائذ بك والله ماأردت ماجرى ، فقال : ويحك ! والله مابى أنك صرعتنى ، ولكن كأنى بابن الأتان – يعنى جريراً – وقد بلغه خبرى فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لِتَحْظَى بِقُرْبِهَا   فَخَانَكَ دُبْرٌ لاَ يَزَالُ يَخُونُ

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَهُ   كَمَا شَدَّ جُرْبَانَ الدِّلاَصِ قُيُونُ

قال : فوالله ما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر ، فقال فيه هذين البيتين ، وهذا من أغرب ما يكون فى مثل هذا الموضع وأعجبه .

ويقال : إن الفرزدق وجريراً كانا ينطقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد . وهذا عندى مستبعد ؛ فإن ظاهر الأمر يدلّ على خلافه ، والباطن لايعلمه إلا الله تعالى .

وإلا فإذا رأينا شاعراً متقدم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى

(١) كذا فى النقائض والديوان ، وهو الصواب ، وفى ا ، ب ، ج «وغرقد وسقت مشمرات» وهو تحريف ، وأراد بالغر القصائد التى يقولها فى هجاء جرير .

من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه ، وهَبْ أن الخواطر تتفق فى استخراج المعانى الظاهرة المتداولة؛ فكيف تتفق الألسنة أيضاً فى صَوْغها الألفاظ ؟ .

ومما كنت أستحسنه من شعر أبى نواس قوله من قصيدته التى أولها :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنَّ اللَّوْمَ إغْرَاءُ *

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمُ إلاَّ بِمَا شَاءُوا

وهذا من عالى الشعر ، ثم وقفت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج على هذا البيت فى أصوات معبد ، وهو :

لَهْفِى عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمان لَهُمْ فَمَا أصَابَهُمُ إلاَّ بِمَا شَاءُوا

وما أعلم كيف هذا .

الضرب الثانى من النسخ : وهو الذى يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ ، كقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء :

أَجَادَ طُوَيْسٌ وَالسُّرَيْجِىُّ بَعْدَهُ وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلاَّ لِمَعْبَدِ

ثم قال أبو تمام :

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمُغَنِّينَ جَمَّةٌ وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلاَّ لِمَعْبَدِ

وهذه قصيدة أولها :

* غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ *(١)

فقال :

وَقَائِعُ أَصْلُ النَّصْرِ فِيهَا وَفَرْعُهُ إذَا عُدِّدَ الإِحْسَانُ أَوْ لَمْ يُعَدَّدِ

فَمَهْمَا تَكُنْ مِنْ وَقْعَةٍ بَعْدُ لاَ تَكُنْ سِوَى حَسَنٍ مِمَّا فَعَلْتَ مُرَدَّدِ

مَحَاسِنُ أصناف المغنين جمة البيت .

وأما السلخ : فإنه ينقسم إلى اثنى عشر ضربا ، وهذا تقسيم أوجبته القسمة، وإذا تأملته علمت أنه لم يبق شىء خارج عنه .

فالأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه ، ولا يكون هو إياه ،

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَعَادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدِ *

وهذا من أدقّ السرقات مذهبا ، وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليلا .

فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

لَقَدْ زَادَنِى حُبًّا لِنَفْسِىَ أَنَّنِى بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ ٱمْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره إلا أنه شبيه به ، فقال :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى مِنْ نَاقِصٍ فَهِىَ الشَّهَادَةُ لِى بِأَنِّىَ فَاضِلُ

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذاك المعنى عَسِر غامض ، وهو غير متبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الأشعار ، وغاص فى استخراج المعانى ، و بيانه أن الأول يقول: إن بُغْضَ الذى هو غير طائل إياى مما زاد نفسى حبا إلى : أى جمّلها فى عينى وحسنها عندى كونُ الذى هو غير طائل مبغضى ، والمتنبى يقول : إن ذمَّ الناقص إياى شاهد بفضلى ؛ فذم الناقص إياه كبغض الذى هو غير طائل ذلك الرجل ، وشهادة ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذى هو غير طائل نفس ذلك الرجل عنده .

ومن هذا الضرب ما هو أظهر مما ذكرته وأبين ، كقول أبى تمام :

رَعَتْهُ ٱلْفَيَافِى بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ

أخذ البحترى هذا المعنى واستخرج منه ما يشابهه ، كقوله فى قصيدة يفخر فيها بقومه :

شَيْخَانِ قَدْ ثَقُلَ السِّلَاحُ عَلَيْهِمَا وَعَدَاهُمَا رَأْىُ السَّمِيعِ ٱلْمُبْصِرِ

رَكِبَا ٱلْقَنَا مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلَا ٱلْقَنَا فِى عَسْكَرٍ مُتَحَامِلٍ فِى عَسْكَرِ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض ثم سار فيها فرعته : أى أهزلته ، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها ، والبحترى نقل هذا إلى وصف الرجل بعلو السن والهرم ؛ فقال : إنه كان يحمل الرمح فى القتال ثم صار يركب عليه : أى يتوكأ منه على عصا ، كما يفعل الشيخ الكبير .

وكذلك ورد قول الرجلين أيضاً ؛ فقال أبو تمام :

لا أَظْلِمُ النَّأْىَ قَدْ كَانَتْ خَلَائِقُهَا مِنْ قَبْلِ وَشْكِ النَّوَى عِنْدِى نَوًى قُذُفَا

أخذه البحترى فقال :

أُعاتِكُ ، مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِى إِلَيْكِ فَأَلْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مُبْعِدِى

وهذا أوضح من الذى تقدمه ، وأكثر بياناً .

الضرب الثانى من السلخ : أن يؤخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ، ولا يكاد يأتى إلا قليلا .

فمنه قول عُرْوَة بن الوَرْد من شعراء الحماسة :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِى ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِراً مِنَ الْمَالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُـذْراً أَوْ يَنَالَ رَغِيبَةً وَمُبْلِـغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِـحِ

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فَتًى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

فعُرْوَةُ بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف .

وهذا الضرب فى سرقات المعانى من أشكلها ، وأدقها ، وأغربها ، وأبعدها مذهبا ، ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون بعض .

وقد يجىء منه ماهو ظاهر لايبلغ فى الدقة مبلغ هذه الأبيات المشار إليها ؛ كقول ابن المقفع فى باب الرثاء من كتاب الحماسة :

فَقَدْ جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ ؛ إِنَّنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

وجاء بعده من أخذ هذا المعنى فقال :

وَقَدْ عَزَّى رَبِيعَةَ أَنَّ يَوْماً عَلَيْهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لاَ يَعُودُ

وهذا من البديع النادر .

وههنا ماهو أشد ظهوراً من هذين البيتين فى هذا الضرب من السرقات الشعرية ؛ وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة التى يقوم بعضها مقام بعض ، وذاك الاعتداد به لمكان وضوحه ، لكن قد يجىء منه ماهو صفة من صفات الترادف لا الاسم نفسه ، فيكون حسناً ، كقول جرير :

وَلاَ يَمْنَعْكَ مِنْ أَرَبٍ لِحَاهُمْ سَوَاءٌ ذُو الْعِمَامَةِ وَالْخِمَار

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى فقال :

وَمَنْ فى كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فى كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

الضرب الثالث من السلخ : وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وذلك من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق .

فمن ذلك قول البحترى فى غلام :

فَوْقَ ضَعْفِ الصَّغِيرِ إنْ وُكِلَ الأَمْـرُ إلَيْهِ وَدُونَ كَيْدِ الْكِبَارِ

سبقه أبو نواس فقال :

لَمْ يَخَفْ مِنْ كِبَرٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ وَلاَ أَزْرَى مِنَ الصِّغَرِ

وكذلك قوله أيضاً :

كُلُّ عِيدٍ لَهُ انْقِضَاءٌ ؛ وَكُلٌّ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جُودِهِ فِي عِيدِ

أخذه من على بن جَبَلة [فى قوله] :

لِلْعِيدِ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ مُنْتَظَرٌ وَالنَّاسُ فى كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ فى عِيدِ

وكذلك قوله :

جَادَ حَتَّى أَفْنَى السُّؤَالَ ؛ فَلَمَّا بَادَ مِنَّا السُّؤَالُ جَادَ ابْتِدَاء

أخذه من على بن جَبَلَة [فى قوله :]

أَعْطَيْتَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ لَكَ سائِلاً   وَبَدَأْتَ إِذْ قَطَعَ الْعُفَاة سُؤَالَهَا

وقد افتضح البحترى فى هذه المآخذ غاية الافتضاح ، هذا على بسطة باعه فى الشعر وغناه عن مثلها ، وقد سلك هذه الطريق فحول الشعراء ولم يستنكفوا من سلوكها؛ فمن فعل ذلك أبو تمام ؛ فانه قال :

قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ   فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمَا

سبقه عبد السلام بن رَغْبَان المعروف بديك الجن فقال :

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَى المَوْتَ فى صُو   رَةِ لَيْثٍ فى لِبْدَتَىْ رِئْبَالِ
فَالْقَهُ غَيْرَ أَنَّمَا لِبْدَتَاهُ   أَبْيَضٌ صَارِمٌ وَأَسْمَرُ عَالِ
تَلْقَ لَيْثاً قَدْ قَلَّصَتْ شَفَتَاهُ   فَيُرَى ضَاحِكاً لِعَبْسِ الصِّيَالِ

وكذلك قال أبو تمام :

فَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً بِشِعْرِى   وَلٰكِنِّى مَدَحْتُ بِكَ المَدِيحَا

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم حيث قال :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَقَالَتِى   لٰكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِى بِمُحَمَّدِ

ولا شك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان حيث استخلف عمر رضى الله عنه ؛ فقال له عمر : استخلف غيرى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ماحَبَوْنَاكَ بِهَا وإنما حبوناها بك .

وهكذا فعل ابن الرومى ؛ فمما جاء له قوله :

جَرَحَتْهُ الْعُيُونُ فاقْتَصَّ مِنْهَا   بِجَوًى فى الْقُلُوبِ دَامِى النُّدُوبِ

سبقه أبو تمام فقال :

أَدْمَيْتُ بِاللَّحَظَاتِ وَجْنَتَهُ   فَاقْتَصَّ نَاظِرُهُ مِنَ الْقَلْبِ

وكذلك قول ابن الرومي :

وَكَلْتُ مَجْدَكَ فى اُقْتِضَائِكَ حَاجَتِى   وَكَفَى بِهِ مُتَقَاضِياً وَوَكِيلاَ

سبقه أبو تمام فقال :

وَإِذَا المَجْدُ كَانَ عَوْنِى عَلَى المَرْ   ءِ تَقَاضَيْتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضِى

وكذلك قال ابن الرومى :

وَمَالِى عَزَاءٌ عَنْ شَبَابِى عَلِمْتُهُ   سِوَى أَنَّنِى مِنْ بَعْدِهِ لاَ أُخَلَّدُ

سبقه منصور النمرى فقال :

قَدْ كِدْتُ أَقْضِى عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ أَساً
لَوْلاَ تَعَزِّىَّ أَنَّ الْعَيْشَ مُنْقَطِعُ

وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى ؛ فمما جاء منه قوله :

فَدَى نَفْسَهُ بِضَمَانِ النُّضَارِ   وَأَعْطَى صُدُورَ الْقَنَا الْذَّابِلِ

أخذه من قول الفرزدق :

كَانَ الْفِدَاءَ لَهُ صُدُورُ رِمَاحِنَا   وَالْخَيْلُ إِذْ رَهَجُ الْغُبَارِ مُثَارُ

وكذلك قوله أيضا :

أَيْنَ أَزْمَعْتَ أَيُّهٰذَا الْهُمَامُ   نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَا وَأَنْتَ الْغَمَامُ

أخذه من بشار حيث قال :

كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيبُ عَنْهُمْ   نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَأَهُ الْقِطَارُ

وكذلك قوله :

فَلاَ زَالَتْ دِيَارُكَ مُشْرِقَاتٍ   وَلاَ دَانَيْتِ يَا شَمْسُ الْغُرُوبَا
لِأُصْبِحَ آمِناً فِيكَ الرَّزَايَا   كَمَا أَنَا آمِنٌ فِيكَ الْعُيُوبَا

أخذه من ابن الرومى حيث قال :

أَسَالِمُ قَدْ سَلِمْتَ مِنَ الْعُيُوبِ   أَلاَ فَاسْلَمْ كَذَاكَ مِنَ الْخُطُوبِ

والذى عندى فى الضرب المشار إليه أنه لا بدّ من مخالفة المتأخر المتقدم : إما بأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز فى لفظه ، أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته .

ومن هذا الضرب ما يستعمل على وجه يزداد قبحه ، وتكثر البشاعة به ، وهو : أن يأخذ أحد الشاعرين معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافية ؛ فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافيـــة ، ومثاله فى ذلك كمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها فى مثل ما سرقها منه ، والأولى به أنْ كان نظم تلك الجوهرة فى عقد ، أو صاغها فى ســـوار أو خلخال ؛ ليكون أكْتَمَ لأمرها .

وممن فعل ذلك من الشعراء فافتضح أبو الطيب المتنبى حيث قال فى قصيدته التى أولهـا :

* غَيْرِى بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ *

لَمْ يُسْلِمِ الكَرُّ فى الأَعْقَابِ مُهْجَتَهُ إنْ كانَ أَسْلَمَهَا الأَصْحَابُ وَالشِّيَعُ

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبى تمام فى وزنها وقافيتها أولهـا :

* أَىُّ القُلُوبِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَنْصَدِعُ *

وهذا المعنى الذى أورده أبو الطيب مأخوذ من بيت منها ، وهو :

مَا غَابَ عَنْكُمْ مِنَ الْإِقْدَامِ أَكْرَمُهُ فى الرَّوْعِ إذْ غَابَتِ الأَنْصَارُ وَالشِّيَعُ

وليس فى السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة ؛ فإنه لم يكتف الشاعر فيها بأن يسرق المعنى حتى ينادى على نفسه أنه قد سرقه .

الضرب الرابع من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة .

فمن ذلك قول أبى نواس :

قالوا عَشِقْتَ صَغِيرَةً فَأَجَبْتُهُمْ أَشْهَى المَطِيِّ إلَىَّ مَالَمْ يُرْكَبِ
كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لُؤْلُؤٍ مَثْقُوبَةٍ لُبِسَتْ وَحَبَّةِ لُؤْلُؤٍ لَمْ تُثْقَبِ

فقال مسلم بن الوليد فى عكس ذلك :

إنَّ المَطِيَّةَ لَا يَلَذُّ رُكُوبُهَا حَتَّى تُذَلَّلَ بِالزِّمَامِ وَتُرْكَبَا
وَالْحَبُّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ حَتَّى يُفَصَّلَ فى النِّظَامِ وَيُثْقَبَا

ومن هذا الباب قول ابن جعفر :

وَلَمَّا بَدَا لِى أَنَّهَا لَا تُرِيدُنِى وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّى بِمُنْجَلِى
تَمَنَّيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَاىَ لَعَلَّهَا تَذُوقُ صَبَابَاتِ الْهَوَى فَتَرِقَّ لِى

وقال غيره :

وَلَقَدْ سَرَّنِى صُـدُودُكِ عَنِّى فى طِلَابِيكِ وَامْتِنَاعُكِ مِنِّى
حَذَرًا أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِى وَإِذَا مَاخَلَوْتِ كُنْتِ التَّمَنِّى

أما ابن جعفر فانه تداءب وألقى عن منكبه رداء الغيرة ، وأما الآخر فجاء بالضد من ذلك وتغالى به غاية الغلو .

وكذلك ورد قول أبى الشيص :

أَجِدُ المَلَامَـةَ فِى هَوَاكِ لَذِيذَةً شَغَفًا بِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

أخذ أبو الطيب المتنبى هذا المعنى وعكسه فقال :

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلَامَـةً إنَّ المَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

وهذا من السرقات الخفية جدا ، ولأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة .

وقد توخيته فى شىء من شعرى فجاء حسنا ؛ فمن ذلك قولى :

لَوْلَا الْكِرَامُ وَمَا سَنُّوهُ مِنْ كَرَمٍ لَمْ يَدْرِ قَائِلُ شِعْرٍ كَيْفَ يَمْتَدِحُ

أخذته من قول أبى تمام :

وَلَوْلَا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَادَرَى ... بُنَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

الضرب الخامس من السلخ : وهو أن يؤخذ بعض المعنى ؛

فمن ذلك قول أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِامْرِئٍ إِنْ حَبَوْتَهُ ... ببذلٍ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لِامْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

أخذه أبو تمام فقال :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفْرًا وَهْىَ إِنْ شُهِرَتْ ... كَانَتْ فَخَارًا لِمَنْ يَعْفُوهُ مُؤْتَنِفَا

مَازِلْتُ مُنْتَظِرًا أُعْجُوبَةً زَمَنًا ... حَتَّى رَأَيْتُ سُؤَالًا يَجْتَنِى شَرَفَا[(١)]

فأمية بن أبى الصلت أتى بمعنيين اثنين : أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء غيرك شين ، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لاغير

ومن هذا الضرب قول على بن جبلة :

وآثل مالم يحوه مُتَقَدِّمٌ ... وَإِنْ نَالَ مِنْهُ آخر فَهْوَ تَابِعُ

فقال أبو الطيب المتنبى :

تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ ... فَمَا يَفْعَلُ الْفَعَلَاتِ إِلَّا عَذَارِيَا

فعلىّ بن جبلة اشتمل ماقاله على معنيين أحدهما أنه فعل مالم يفعله أحد ممن تقدمه ، وإن نال منه الآخر شيئاً فإنما هو مقتد به وتابع له ، وأما أبو الطيب المتنبى فإنه لم يأت إلا بالمعنى الواحد ، وهو أنه يفعل مالا يفعله غيره ، غير أنه أبرزه فى صورة حسنة .

ومن ذلك قول أبى تمام :

كَلِفٌ بِرَبِّ الْمَجْدِ يَعْلَمُ أَنَّهُ ... لَمْ يُبْتَدَأْ عُرْفٌ إِذَا لَمْ يُتْمَمِ[(٢)]

فقال البحترى :

وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ ... وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَا

---

(١) فى الديوان « مازلت منتظرا أعجوبة عننا » والعنن : الظاهرة .

(٢) فى الديوان « كلفا برب الحمد » .

فأبو تمـام قال : إن الممدوح يرب صنيعه : أى يستديمه ، ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه ؛ والبحترى قال : إنه يستديم صنيعه لاغير ، وذلك بعض ماذكره أبو تمـام .

وكذلك قال البحترى :

ادْفَعْ بِأَمْثَـــالِ أَبِي غَالِبٍ عَادِيَةَ الْعُـدْمِ أَوِ اسْتَعْفِفِ

أخذه ممن تقدمه حيث قال :

انْتَجِ الْفَضْلَ أَوْ تَخَلَّ عَنِ الدُّنْيـــا فَهَاتَانِ غَايَةُ الْهِمَمِ

فالبحترى أخذ بعض هذا المعنى ولم يستوفه .

وكذلك ورد قول ابن الرومى :

نَزَلْتُمْ عَلَى هَامِ الْمَعَالِي إِذَا ارْتَقَى إِلَيْهَا أُنَاسٌ غَيْرُكُمْ بِالسَّلَالِمِ

أخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَاطَلَبُوا فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةً نَزَلُوا

وهذا بعض المعنى الذى تضمنه قول ابن الرومي ؛ لأنه قال : إنكم نزلتم على هام المعالى ، وإن غيركم يرقى إليها رقيا ، وأما المتنبى فإنه قال : إنكم إذا أردتم غاية نزلتم ، وأما قوله « فوق السماء » فإنه يغنى عنه قول ابن الرومى « نزلتم عَلَى هام المعالى » ؛ إذ المعالى فوق كل شىء ؛ لأنها مختصة بالعلوّ مطلقا .

الضرب السادس من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر .

فمما جاء منه قول الأخنس بن شهاب (١) :

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ

أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه ، وهو قوله :

إِنْ قَصَّرَ الرُّمْحُ لَمْ يَمْشِ الْخُطَا عَدَداً أَوْ عَرَّدَ السَّيْفُ لَمْ يَهْمُمْ بِتَعْرِيدِ

وكذلك ورد قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

(١) هو من الحماسة وانظر شرح التبريزى (٢ - ٢٤٨) .

غَرَائِبُ آلافٌ إذا حانَ وِرْدُها أَخذْنَ طَرِيقاً لِلقصائِدِ مُعْلَمَا

أخذه أبو تمام فزاد عليه ؛ إذ قال في وصف قصيد له وقرن ذلك بالممدوح :

غَرَائِبُ لاقَتْ فِي فِنائِكَ أُنْسَها مِنَ المَجْدِفَهْيَ الآنَ غيرُغرائِبِ

وكذلك ورد قول ولد مسلمة بن عبد الملك :

أذَلَّ الحياةِ وَكُرْهَ المماتِ وَكُلاًّ أَرَاهُ طعامًا وَبِيلاَ

فإنْ لمْ يَكُنْ غيرُ إحْدَاهُما فَسيْرًا إلى المَوْتِ سيْرًا جَمِيلاَ

أخذه أبو تمام فقال :

مَثَّلَ المَوْتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَالذُّلَّ وَكُلاًّ رَآهُ خَطْبًا عَظِيما

ثُمَّ سارَتْ بِهِ الحَمِيَّةُ قُدْمًا فَأَمَاتَ العِدَا وماتَ كَرِيمَا

فزاد عليه بقوله :

* فَأَمَاتَ العِدَا وَمَاتَ كَرِيمَا *

ويروى أنه نظر عبد الله بن علي رضي الله عنه عند قتال المروانية إلى فتًى عليه أبهة الشرف ، وهو يبلي في القتال بلاء حسنا ، فناداه : يافتى ، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد ، فقال : إلاَّ أَكُنْهُ فلست بدونه ، قال : فلك الأمان ولو كنت من كنت ، فأطرق ثم تمثل بهذين البيتين المذكورين .

وكذلك ورد قول أبي تمام :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إذا عَنَّ سُودَدٌ وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ

أخذه من قول المعذل بن غيلان :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إلَى جَانِبِ العُلاَ إذَا كانَتِ العَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الفَقْرِ

إلا أنه زاده زيادة حسنة بقوله :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ *

وبما يجرى هذا المجرى قول البحترى :

خَـلِّ عَنَّا فَإِنَّمَـا أَنْتَ فِينَا وَاوُ عَمْرٍو أَوْ كَالحَدِيثِ المُعَادِ

أخذه من قول أبى نواس :

قُلْ لِمَنْ يَدَّعِى سُلَيْمَى سَفَاهاً لَسْتَ مِنْهَا وَلاَ قُلاَمَةَ ظُفْرِ
إِنَّمَـا أَنْتَ مُلْصَقٌ مِثْلَ وَاوٍ أُلْحِقَتْ فى الهِجَاءِ ظُلْماً بِعَمْرِو

إلا أن البحترى زاد على أبى نواس فى قوله « أو كالحديث المعاد » .

وهكذا ورد قول البحترى أيضا :

رَكِبُوا الْفُرَاتَ إِلَى الْفُرَاتِ وَأَمَّلُوا جَذْلاَنَ يُبْدِعُ فِي السَّمَاحِ وَيُغْرِبُ

أخذه من مسلم بن الوليد فى قوله :

رَكِبْتُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ فِي مُؤْخِرَاتِهِ فَأَوْفَتْ بِنَا مِنْ بَعْدِ بَحْرٍ إِلَى بَحْرِ

إلا أن البحترى زاد عليه بقوله :

* جذلان يبدع فى السماح و يغرب *

وكذلك ورد قول أبى نواس :

وَلَيْسَ لله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ[1]

وهذا البيت قد لهج به الناس لهجا كثيراً ، ومنهم من ظنه مبتدعا لأبى نواس ، ويحكى عن أبى تمام أنه دخل على ابن أبى دواد ، فقال له : أحسبك عاتباً يا أبا تمام ، فقال : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا ، قال : من أين هذه يا أبا تمام ؟ قال : من قول الحاذق أبى نواس ، وأنشده البيت ، وهذه الحكاية عندى موضوعة ؛ لأن أبا تمام كان عارفا بالشعر ، حتى إنه قال : لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال ، وما كان يخفى عنه أن هذا المعنى ليس لأبى نواس ، و إنما هو مأخوذ من قول جرير :

(١) كذا فى أصول الكتاب وفى الديوان (ص ٨٧) ؛ ويروى :

* لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ *

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

إلا أنّ أبا نواس زاده زيادة حسنة ، وذلك أن جريراً جعل الناس كلهم بنى تميم ، وأبا نواس جعل العالم كله فى واحد ، وذلك أبلغ .

ومما ينتظم فى هذا السلك قول الفرزدق :

عَلَامَ تَلَفَّتِينَ وَأَنْتِ تَحْتِى وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمُ أَمَامِى

مَتَى تَأْتِى الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِى مِنَ الْأَنْسَاعِ وَالدَّبَرِ الدَّوَامِى

أخذه أبو نواس فصار أملك به ، وأحسن فيه غاية الإحسان ، فقال :

وَإِذَا الْمَطِىُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

فالفرزدق قال : « تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى » وليست استراحتها بمانعة من معاودة إتعابها مرة أخرى ؛ وأما أبو نواس فإنه حَرّم ظهورهن على الرجال : أى أنها تُعْفَى من السفر إعفاء مستمرًا ، ولا شك أن أبا نواس لم يتنبه لهذه الزيادة إلا من فعل العرب فى السَّائبة وَالْبَحِيرة .

وعلى هذا الأسلوب ورد قول المتنبى :

وَمَلْمُومَةٍ زَرَدٌ ثَوْبُهَا وَلٰكِنَّهُ بِالْقَنَا مُخْمَلُ

أخذه من أبى نواس فى قوله :

أَمَامَ خَمِيسٍ أُرْجُوَانٍ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ مُحُوكٌ مِنْ قَنًا وَجِيَادِ

فزاد أبو الطيب زيادة صار بها أحق من أبى نواس بهذا المعنى .

وكذلك قال أبو الطيب المتنبى :

وَإِنْ جَادَ قَبْلَكَ قَوْمٌ مَضَوْا فَإِنَّكَ فى الْكَرَمِ الْأَوَّلُ

فأخذته أنا وزدت عليه ؛ فقلت :

أَنْتَ فى الجُودِ أَوَّلٌ وَقَضَى اللّهُ بِأَلَّا يُرَى لَكَ الدَّهْرَ ثَانِ

وهذا النوع من السرقات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

الضرب السابع من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى .

وهـذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة ؛ فمن ذلك قول أبى تمام :

جَذْلَانُ مِنْ ظَفَرٍ حَرَّانُ إِنْ رَجَعَتْ مَخْضُوبَةً مِنْكُمُ أَظْفَارُهُ بِدَمِ

أخذه البحترى ؛ فقال :

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

ومن هذا الأسلوب قولهما أيضاً ؛ فقال أبو تمام :

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا

وقال البحترى :

قَلَّ الْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ مَدْحُهُمْ وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّىْءُ حَتَّى يَكْثُرَا[1]

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس :

يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْفَتَى تَقَلُّبُ عَيْنَيْهِ إِلَى شَخْصِ مَنْ يَهْوَى

أخذه أبو الطيب المتنبى ؛ فقال :

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

ومما ينتظم فى هذا السلك قول أبى الطيب المتنبي :

(١) فى ا ، ب ، ج « حتى يكثر » والصواب النصب ، والبيت من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن كنداج ، وأولها قوله :

لِلّٰهِ عَهْدُ سُوَيْقَةٍ مَا أَنْضَرَا إِذْ جَاوَرَ الْبَادُونَ فِيهِ الْحُضَّرَا

وفى الديوان « قل الكرام فصار يكثر فذهم » ويحتمله مافى ا .

إذَا مَا ازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِى فَقَدْ وَقَعَ انْتِقَاصِى فِى ازْدِيَادِ (١)

أخذه ابن نُبَاتة السعدىّ ؛ فقال :

إذا كَانَ نُقْصَانُ الْفَتَى مِنْ تَمَامِهِ فَكُلُّ صَحِيحٍ فى الْأَنَامِ عَلِيلُ

وكذلك ورد قول أبى العلاء بن سليمان فى مرثية :

وَمَا كلفة الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ وَلَـكِنَّهَا فِى وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطْمِ (٢)

أخذه الشاعر المعروف بالقيسرانى ؛ فقال :

وَأَهْوَى الَّتِى أَهْوَى لَهَا الْبَدْرُ سَاجِدًا أَلَسْتَ تَرَى فى وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

وكذلك قول ابن الرومى :

إذَا شنئت عَيْنُ امْرِئٍ شَيْبَ نَفْسِهِ فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّنَاءَةِ أَجْدَرُ

أخذه من تأخر زمانه عنه ؛ فقال :

إذَا كَانَ شَيْبِى بَغِيضًا إلَىَّ فَكَيْفَ يَكُونُ إلَيْهَا حَبِيبَا

ومما ينخرط فى هذا السلك قول بعضهم :

مُخَصَّرَةُ الْأَوْسَاطِ زَانَتْ عُقُودَهَا بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عُقُودُهَا

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

كَأَنَّ عَلَيْهَا كُلَّ عِقْدٍ مَلَاحَةً وَحُسْنًا وَإنْ أَضْحَتْ وَأَمْسَتْ بِلَا عِقْدِ

ثم أخذه البحترى ؛ فقال :

إذَا أَطْفَأَ الْيَاقُوتَ إشْرَاقُ وَجْهِهَا فَإنَّ غَنَاءً ما توخت عقودها

وأمثال هذا كثيرة ، وفيما أوردناه مَقْنَع .

الضرب الثامن من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزاً .

وذلك من أحسن السرقات ؛ لما فيه من الدلالة على بَسْطَة الناظم فى القول، وسعة باعه فى البلاغة ؛ فمن ذلك قول بشار :

(١) فى الديوان « متى ما ازددت » . (٢) فى سقط الزند « أثر اللدم » .

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ   وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه سلم الخاسر، وكان تلميذه، فقال :

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا   وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

فبين البيتين لفظتان فى التأليف .

ومن هذا الأسلوب قول أبى تمام :

بَرَّزْتَ فى طَلَبِ المَعَالِى وَاحِدًا   فِيهَا تَسِيرُ مُغَوِّرًا وَمُنَجِّدَا
عَجَبٌ بِأَنَّكَ سَالِمٌ فى وَحْشَةٍ   فى غَايَةٍ مَازِلْتَ فِيهَا مُفْرَدَا(١)

أخذه ابن الرومى ؛ فقال :

غَرَّبَتْهُ الخَلَائِقُ الزُّهْرُ فى النَّا   سِ وَمَا أَوْحَشَتْهُ بِالتَّغْرِيبِ

وكذلك ورد قول أبى نواس :

وَكَّلْتُ بِالدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ   مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّ مَاجَرَحَا

أخذه ابن الرومى ؛ فقال :

الدَّهْرُ يُفْسِدُ مَا اسْتَطَاعَ وَأَحْمَدٌ   يَتَتَبَّعُ الإِفْسَادَ بِالإِصْلَاحِ

وعلى هذا ورد قول ابن الرومى :

كَأَنِّى أَسْتَدْنِى بِكَ ابْنَ حَنِيَّة   إِذَا النَّزْعُ أَدْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

أخذه بعض شعراء الشام ، وهو ابن قسيم الحموى ، فقال :

فَهْوَ كَالسَّهْمِ كُلَّمَا زِدْتَهُ مِنْـ   ـكَ دُنُوًّا بِالنَّزْعِ زَادَكَ بُعْدَا

(١) فى الديوان « عجب لأنك سالم » بالرفع ؛ وهو جائز عربية ، وهو مبتدأ خبره محذوف ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ غير محتاج إلى خبر لدلالته على معنى الفعل والفاعل ؛ ألا تراه فى معنى أعجب ، وهمزة الاستفهام مقدرة بعده ؛ فكأنه قال: أعجب من فعالك لأنك سالم تفعل ذلك . وكذا فى ا . ب . وفى . ج «عجبا»

ولقيت جماعة من الأدباء بالشأم ، ووجدتهم يزعمون أن ابن قسيم هو الذى ابتدع هذا المعنى ، وليس كذلك ، وإنما هو لابن الرومى .

ومما يجرى هذا المجرى قول أبى العتاهية :

وَإِنِّى لَمَعْذُورٌ عَلَى فَرْطِ حُبِّهَا ... لِأَنَّ لَهَا وَجْهاً يَدُلُّ عَلَى عُذْرِى

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

لَهُ وَجْهٌ إِذَا أَبْصَرْ ... تَهُ نَاجَاكَ عَنْ عُذْرِى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الإيجاز .

ومما يجرى على هذا النهج قول أبى تمام :

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِى ... عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ

حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلَا وَاللهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذْنِى بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِى

أخذه أبو الطيب المتنبى فأوجز ؛ حيث قال :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ ... فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ

وكذلك قولهما فى موضع آخر ؛ فقال أبو تمام :

كَمْ صَارِمًا عَضْباً أَنَافَ عَلَى قَفَا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ الْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ ... وَطَنَ النُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

أخذه أبو الطيب فزاد وأحسن ؛ حيث قال :

يُسَابِقُ الْقَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ ... فَمَا يُصِيبُهُمُ مَوْتٌ وَلَا هَرَمُ

ومن هذا الضرب قول بعض الشعراء :

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تَعَجَّلْتَهُ ... وَأَخَّرْتَ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ

فَصِرْتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنِىُّ ... وَمَا كُنْتَ تَعْدُو الَّذِى تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب المتنبى ؛ فقال :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِى جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِى فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب التاسع من السلخ : وهو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا ، أو خاصا فيجعل عاما .

وهو من السرقات التى يُسَامَحُ صاحبها ؛ فمن ذلك قول الأخطل[1] :

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِىَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

أخذه أبو تمام ؛ فقال :

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَغْتَدِى لِلْبُخْلِ تِرْبًا ؟ ساءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وهذا من العام الذى جعل خاصا ؛ ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقا ، وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابه ؛ وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل ، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق .

وأما جعل الخاص عاما فكقول أبى تمام :

وَلَوْ حَارَدَتْ شُولٌ عَذَرْتُ لِقَاحَهَا وَلٰكِنْ مُنِعْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حَافِلُ

أخذه أبو الطيب المتنبى فجعله عاما إذ يقول :

وَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ كَما يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ

الضرب العاشر من السلخ : وهو زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ؛ وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه ، فمما جاء منه قول أبى تمام :

---

(١) المشهور أن هذا البيت لأبى الأسود الدؤلى ، وقبله قوله :

يأَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِى السَّقَامِ وَذِى الضَّنَى كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

اَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

هُوَ الصُّنعُ إنْ يَعْجَلْ فنفعٌ وَإنْ يَرِثْ فَلَلرَّيْثُ فِي بَعْضِ المَوَاطِنِ أَنْفَعُ

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له ، وذلك قوله :

وَمِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيرِ الجَهَامُ

وهذا من المبتدع ، لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى فى المثال المناسب له !.

وكذلك قولهما فى موضع آخر ؛ فقال أبو تمام(١) :

قَدْ قَلَّصتْ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمَا

أخذه أبو الطيب المتنبى ؛ فقال :

وَجَاهِلٍ مَدَّهُ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وَفَمُ

إذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

ومما ينخرط فى هذا السلك قول أبى تمام :

وَكَذَاكَ لَمْ تُفْرِطْ كَآبَةُ عَاطِلٍ حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالِ

أخذه أبو عبادة البحترى ؛ فقال :

وَقَدْ زَادَهَا إفْرَاطَ حُسْنٍ جِوَارُهَا لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ المَجْدِ خيب

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى طَوَالِعَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنا .

الضرب الحادى عشر من السلخ : وهو اتّحاد الطريق واختلاف المقصد ، ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة ، فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثية بولدين صغيرين :

مَجْدٌ تَأَوَّبَ طَارِقًا حَتَّى إذَا قُلْنَا أَقَامَ الدَّهْرَ أَصْبَحَ رَاحِلَا

---

(١) انظر (ص ٣٧٧ من هذا الجزء) .

نجمانِ شاءَ اللهُ ألاّ يطلعا ... إلاّ ارتدادَ الطرْفِ حتّى يأفلا
إنّ الفجيعةَ بالرّياضِ نواضراً ... لأجلُّ منها بالرّياضِ ذوابلا
لهفى على تلكَ الشّواهدِ فيهما ... لو أُخّرتْ حتّى تكونَ شمائلا
إنّ الهلالَ إذا رأيتَ نموّهُ ... أيقنتَ أن سيكونُ بدراً كاملا
قلْ للأميرِ وإنْ لقيتَ موقرا ... منهُ بريبِ الحادثاتِ حُلاحلا
إنْ ترزَ فى طرفَىْ نهارٍ واحدٍ ... رُزأينِ هاجا لوعةً وبلابلا
فالثقل ليسَ مضاعفاً لمطيّةٍ ... إلاّ إذا ما كانَ وهماً بازلا
لاغروَ إنْ فننانِ منْ عيدانهِ ... لقيا حماماً للبريّةِ آكلا[1]
إنّ الأشاءَ إذا أصابَ مشذّبٌ ... منهُ اتمهلّ ذرًا وأثّ أسافلا
شمخَتْ خلالُكَ أنْ يواسيكَ امرؤٌ ... أوْ أنْ تذكّرَ ناسياً أوْ غافلا
إلاّ مواعظَ قادها لكَ سمحةً ... إسجاحُ لُبّكَ سامعاً أوْ قائلا
هلْ تكلفُ الأيدى بهزّ مهنّدٍ ... إلاّ إذا كانَ الحسامَ القاصلا

وقال أبو الطيب فى مرثية بطفل صغير :

فإنْ تكُ فى قبرٍ فإنّكَ فى الحشا ... وإنْ تكُ طفلاً فالأسى ليسَ بالطفلِ
ومثلُكَ لا يُبكى على قدْرِ سنّهِ ... ولكنْ على قدْرِ الفراسةِ والأصلِ
ألستَ منَ القومِ الّذى منْ رماحِهمْ ... نداهمْ ومنْ قتلاهمُ مُهجةُ البخلِ
بمولودِهمْ صمتُ اللّسانِ كغيرهِ ... ولكنّ فى أعطافهِ منطقَ الفضلِ
تسلّيهمُ علياؤهمْ عنْ مصابِهمْ ... ويشغلُهمْ كسبُ الثّناءِ عنِ الشّغلِ
عزاءَكَ سيفَ الدّولةِ المقتدَى بهِ ... فإنّكَ نصلٌ والشّدائدُ للنّصلِ

---

(١) فى الديوان « لاغرو إن فننان من عيدانة » والعيدانة ـ بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة ـ : النخلة الطويلة .

تَخُونُ الْمَنَايَا عَهْدَهُ فى سَلِيلِهِ وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ وَالرَّجْلِ
بِنَفْسِى وَلِيدٌ عَادَ مِنْ بَعْدِ حَمْلِهِ إِلَى بَطْنِ أُمٍّ لَا تُطَرِّقُ بِالْحَمْلِ
بَدَا وَلَهُ وَعْدُ السَّحَابَةِ بِالرِّوَى وَصَدٌّ وَفِينَا غُــــلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ
وَقَدْ مَدَّتِ الْخَيْلُ الْعِتَاقُ عُيُونَهَا إِلَى وَقْتِ تَبْدِيلِ الرِّكَابِ مِنَ النَّعْلِ
وَرِيعَ لَهُ جَيْشُ الْعَــــدُوِّ وَمَا مَشَى
وَجَاشَتْ لَهُ الْحَرْبُ الضَّرُوسُ وَمَا تَغْلِى

فتأمل أيها الناظم إلى ماصنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد ، وكيف هام كل واحد منهما فى وَادٍ منه ، مع اتفاقهما فى بعض معانيه ؟ .

وسأبين لك ما اتفقا فيه ، وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول ، فأقول :

أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لَهْفِى عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِمَا لَوْ أُخِّرَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بِمَوْلُودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ وَلٰكِنَّ فى أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ الْفَصْلِ

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله « صمت اللسان » و « منطق الفصل » .

وقال أبو تمام :

نَجْمَانِ شَاءَ اللهُ أَلَّا يَطْلُعَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْفُلَا

وقال أبو الطيب :

بَدَا وَلَهُ وَعْدُ السَّحَابَةِ بِالرِّوَى وَصَدٌّ وَفِينَا غُلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ

فوافقه فى المعنى ، وزاد عليه بقوله :

* وَصَدٌّ وَفِينَا غُلَّةُ الْبَلَدِ الْمَحْلِ *

لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته .

وأما مااختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضًا ، وذاك أن معناه أمْتَنُ من معناه ، ومَبْناه أحكم من مبناه ، وربما أكْبَرَ هذا القولَ جماعةٌ من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه ، لامع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعرَ عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ؛ وبيان ذلك أنه قد تقدَّم القولُ على مااتفقا فيه من المعنى ، وأما الذى اختلفا فيه فإن أبا الطيب قال :

عَزَاءَكَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْمُقْتَدَى بِهِ ... فَإِنَّكَ نَصْلٌ وَالشَّدَائِدُ لِلنَّصْلِ

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إنْ تُرْزَ فى طَرَفَىْ نَهَارٍ وَاحِدٍ ... رُزْأَيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلاَبلاَ

فالثقل ليس مُضَاعَفاً لِمَطِيَّةٍ ... إلاَّ إذَا مَا كَانَ وَهْمًا بَازِلاَ

فإن قول أبى الطيب « والشدائد للنصل » أكرم لفظاً ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضاً :

تَخُونُ الْمَنَايَا عَهْدَهُ فى سَلِيلِهِ ... وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْفَوَارِسِ وَالرَّجْلِ

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لاَ غَرْوَ إنْ فَنَنَانِ مِنْ عِيدَانِهِ ... لَقِيَا حِمَامًا لِلْبَرِيَّةِ آكِلاَ

إنَّ الْأَشَاءَ إذَا أَصَابَ مُشَذِّبٌ ... مِنْهُ اتْمَهَلَّ ذُرًا وَأَثَّ أَسَافِلاَ

وكذلك قال أبو الطيب :

أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِى مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ الْبُخْلِ

تُسَلِّيهِمُ عَلْيَاؤُهُمْ عَنْ مُصَابِهِمْ ... وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثَّنَاءِ عَنِ الشُّغْلِ

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذان هما :

شَمَخَتْ خِلاَلُكَ أنْ يُوَاسِيَكَ امْرُؤٌ ... أوْ أنْ تُذَكَّرَ نَاسِيًا أوْ غَافِلاَ

إلاَّ مَوَاعِظَ قَادَهَا لَكَ سَمْحَةً ... إسْجَاحُ لُبِّكَ سَامِعًا أوْ قَائِلاَ

وأعلم أن التفضيل بين المعنيين المتفقين أيسر خطباً من التفضيل بين المعنيين المختلفين .

وقد ذهب قوم إلى منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين ، واحتجوا على ذلك بأن قالوا : المفاضلة بين الكلامين لا تكون إلا باشتراكهما فى المعنى ؛ فإن اعتبار التأليف فى نظم الألفاظ لا يكون إلا باعتبار المعانى المندرجة تحتها ؛ فما لم يكن بين الكلامين اشتراك فى المعنى حتى يُعْلَمَ مَوَاقع النظم فى قوة ذلك المعنى أوضَعْفه واتّسَاق ذلك اللفظ أو اضطرابه ، وإلاَّ فكلُّ كلام له تأليف يخصه بحسب المعنى المندرج تحته ، وهذا مثل قولنا : العسل أحلى من الخل ؛ فإنه ليس فى الخل حلاوة حتى تقاس حلاوة العسل عليها .

وهذا القول فاسد ؛ فإنه لو كان ماذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة حقا لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه وحسنه وقبيحه ، وهذا محال ، وإنما خفى عليهم ذلك لأنهم لم ينظروا إلى الأصل الذى تقع المفاضلة فيه ، سواء اتفقت المعانى أو اختلفت ، ومن ههنا وقع لهم الغلط .

وسأبين ذلك فأقول : من المعلوم أن الكلام لا يختص بمزية من الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بوصفين هما الفصاحة والبلاغة ، فثبت بهذا أن النظر إنما هو فى هذين الوصفين اللذين هما الأصل فى المفاضلة بين الألفاظ والمعانى على اتفاقهما واختلافهما ؛ فمتى وجدا فى أحد الكلامين دون الآخر أو كانا أخص به من الآخر حكم له بالفضل .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج فى تفضيل الشعر أشياء تتضمن خَبْطًا كثيراً ، وهو مروى عن علماء العربية ، لكن عَذَرْتهُمْ فى ذلك ؛ فإن معرفة الفصاحة والبلاغة شىء خلاف معرفة النحو والإعراب .

فمما وقفت عليه أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدرك يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . وهذا تفضيل بالأعصار ،

لا بالأشعار ، وفيه ما فيه ، ولو [لا] أن أبا عمرو عندى بالمكان العلى لبسطت لسانى فى هذا الموضع .

وسئل جرير عن نفسه وعن الفرزدق والأخطل ، فقال : أما الفرزدق ففى يده نَبْعَة من الشعر وهو قابض عليها ، وأما الأخطل فأشدّنا اجتراء وأرمانا للقرائض ، وأما أنا فمدينة الشعر . وهذا القول فى التفضيل قول إقناعىّ لا يحصل منه على تحقيق ، لكنه أقرب حالا مما روى عن أبى عمرو بن العلاء .

وسئل الأخطل عن أشعر الناس ، فقال : الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقيل : فمن ذاك ؟ قال : الأعشى ، قيل : ثم مَنْ ؟ قال : طرفة . وهذا قول فيه بعض التحقيق ؛ إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس ؛ لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها .

وسئل الشريف الرضى عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب ، فقال : أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤذر ، وأما المتنبى فقاتل عسكر ، وهذا كلام حسن واقع فى موقعه ؛ فإنه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل .

ويروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره ، فقيل له : ولم ذاك ؟ فقال : لأنى نظمت اثنى عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد ، فيكون لى حينئذ اثنا عشر ألف بيت ؛ وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له ؛ لأن باقلا الذى يضرب به المثل فى العى لو نظم قصيدا لما خلا من بيت واحد جيد ، ومن الذى ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منه بيت واحد؟! لكن كان الأولى ببشار أن قال: لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ليس واحدة منهن إلا وجيدها أكثر من رديئها ، وليس فى واحدة منهن مايسقط؛ فإنه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء ، ومع هذا فقد وصل إلىّ مافى أيدى الناس من شعره مُقَصَّدا ومُقطَّعا فما وجدته بتلك الغاية التى ادعاها، لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة إلى رديئه ، وتندر له الأبيات اليسيرة .

وبلغنى عن الأصمعى وأبى عبيد وغيرهما أنهم قالوا : هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة ، وهم عندى معذورون ؛ لأنهم ماوقفوا على معانى أبى تمام ، ولا على معانى أبى الطيب ، ولا وقفوا على ديباجة أبى عبادة البحترى ، وهذا الموضع لا يُسْتَفتى فيه علماء العربية ، وإنما يستفتى فيه كاتب بليغ ، أو شاعر مفلق ؛ فإنّ أهل كل علم أعلم به . وكما لايسأل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لايسأل الحاسب عن مسألة فقهية ، وكما لايسأل أيضا النحوى عن مسألة طبية فكذلك لايسأل الطبيب عن مسألة نحوية ، ولا يعلم كل علم إلا صاحبه الذى قلب ظهره لبطنه وبطنه لظهره .

على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة ، مامن أحد إلاَّ ويُحِبُّ أن يتكلم فيه ، حتى إنى رأيت أجلاف العامة ممن لم يخطَّ بيده ورأيت أغتام الأجناس ممن لاينطق بالكلمة صحيحة ، كلهم يخوض فى فن الكتابة والشعر ، ويأتون فيه بكل مضحكة ، وهم يظنون أنهم عالمون به ، ولا لوم عليهم فإنه بلغنى عن ابن الأعرابى ــ وكان من مشاهير العلماء ــ أنه عرض عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها :

* وَعَاذِلٍ عَذَلْتُهُ فى عَـــذْلِهِ *

وقيل له : هذه لفلان ، من شعراء العرب ، فاستحسنها غاية الاستحسان ، وقال : هذا هوالديباج الخسروانى ، ثم استكتبها ، فلما أنهاها قيل له : هذه لأبى تمام ؛ فقال : من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ، ثم ألقى الورقة من يده ، وقال : ياغلام ، خَرّق خرّق ، فإذا كان ابن الأعرابى مع علمه وفضله لايدرى أىّ طرفيه أطول فى هذا الفن ولا يعلم أين يضع يده فيه ويبلغ به الجهل إلى أن يقف مع التقليد الشنيع الذى هذا غايته فما الذى يقول غيره ؟! وما الذى يتكلم فيه سواه ؟!

والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر

العرب أولا وآخرا ، ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ماأشرت إليه ، ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى ؛ فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به ، حتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب ؛ وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ماأتوا به من المعانى المختلفة ، وأشعر منهم عندى الثلاثةُ المتأخرون ، وهم : أبو تمام ، وأبو عبادة البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لايدانيهم مُدَانٍ فى طبقة الشعراء ، أما أبو تمام وأبو الطيب فَرَبَّا المعانى ، وأمَّا أبو عبادة فربُّ الألفاظ فى ديباجتها وسبكها .

وبلغنى أن أبا عبادة البحترى سأل ولده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر ، فقال : جرير أشعر ، قال : وبم ذلك ؟ قال : لأن حَوْكَه شبيهُ بحوكك ، قال : ثكلتك أمك ! أو فى الحكم عصبية ؟ قال : يا أبت ، فمن أشعر ؟ قال : الفرزدق ، قال : وبم ذاك ؟ قال : لأن أهاجى جرير كلها تدور على أربعة أشياء : هى القين ، والزنا ، وضرب الرومى بالسيف ، والنفى من المسجد ، ولا يهجو الفرزدقَ بسوى ذلك ، وأما الفرزدق فإنه يهجو جريرا بأنحاء مختلفة ، ففى كل قصيد يرميه بسهام غير السهام التى يرميه بها فى القصيد الآخر ؛ وأنا أستكذب راوى هذه الحكاية ، ولا أصدقه ؛ فإن البحترى عندى ألبُّ من ذلك ، وهو عارف بأسرار الكلام ، خبير بأوساطه وأطرافه ، وجيده ورديئه ، وكيف يدعى على جرير أنه لم يَهْجُ الفرزدق إلا بتلك المعانى الأربعة التى ذكرها وهو القائل :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسَمِى وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ (١)

(١) فى ا ، ب ، ج «لما وضعت على الفرزدق منسمى» وهو تصحيف ، وتحقيقه عن النقائض .

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة فى بيت واحد .

ولقد تأملت كتاب النقائض فوجدت جريرا رَبَّ تغزل ومديح وهجاء وافتخار ، وقد كسا كل معنى من هذه المعانى ألفاظا لائقة به ويكفيه من ذلك قوله :

وَعَاوٍ عَوَى مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ رَمَيْتُهُ ... بِقَافِيَةٍ أَنْفَاذُهَا تَقْطُرُ الدَّمَا [1]

وَإِنِّى لَقَوَّالٌ لِكُلِّ غَرِيبَةٍ ... وَرُودٍ إِذَا السَّارِى بِلَيْلٍ تَرَنَّمَا

خَرُوجٍ بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ كَأَنَّهَا ... شَبَا هُنْدُوَانِىٍّ إِذَا هُزَّ صَمَّمَا [2]

غَرَائِبُ آلَافٌ إِذَا حَانَ وِرْدُهَا ... أَخَذْنَ طَرِيقاً لِلْقَصَائِدِ مُعْلَمَا

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها الشعراء .

وسأذكر من هجاك الفرزدق ماليس فيه شىء من تلك المعانى الأربعة التى أشار البحترى إليها ؛ فمن ذلك قوله :

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْفَرَزْدَقَ حَيَّةٌ ... وَمَا قَتَلَ الْحَيَّاتِ مِنْ أَحَدٍ قَبْلِى

أَلَمْ تَرَ أَنِّى لَا أُنَبِّلُ رَمْيَتِى ... فَمَنْ أَرْمِ لَا تُخْطِئْ مَقَاتِلَهُ نَبْلِى [3]

رَأَيْتُكَ لَا تَحْمِى عِقَالاً وَلَمْ تُرِدْ ... قِتَالاً فَمَا لَاقَيْتَ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ [4]

---

(١) فى النقائض والديوان « بقارعة أنفاذها تقطر الدما » ويروى « أقطارها تقطر الدما » ؛ وفى ا ، ب ، ج « بقافية أنفادها يقطر الدما » .

(٢) فى ا ، ب ، ج « جروح بأفواه الرواة » وفيها « إذا هزصمصما » وما أثبتناه عن النقائض والديوان ، وفيهما « قرى هندوانى » والقرى : الظهر .

(٣) فى النقائض والديوان :

* أَلَمْ تَرَ أَنِّى لَا تبلُّ رَمِيَّتِى *

(٤) فى ا ، ب ، ج « فما لاقيت شرا من القتل » وهو تحريف ، و « شر » خبر « ما » .

وقوله :

أَبْلِغْ هَدِيَّتِيَ الْفَرَزْدَقَ إِنَّهَا ... عِبْءٌ تُزَادُ عَلَى حَسِيرٍ مُثْقَلِ(١)

إِنِّى انْصَبَبْتُ مِنَ السَّماءِ عَلَيْكُمُ ... حَتَّى اخْتَطَفْتُكَ يَافَرَزْدَقُ مِنْ عَلِ

وقوله :

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مِرْبَعاً ... أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَامِرْبَعُ

وَرَأَيْتُ نَبْلَكَ يَافَرَزْدَقُ قَصَّرَتْ ... وَرَأَيْتُ قَوْسَكَ لَيْسَ فِيهَا مَنْزَعُ

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ تَبَيَّنَ لُؤْمُهُ ... حَيْثُ الْتَقَتْ خُشَشَاؤُهُ وَالْأَخْدَعُ

وقوله :

أَحَارِثُ؛ خُذْ مَنْ شِئْتَ مِنَّا وَمِنْهُمُ ... وَدَعْنَا نَقِسْ مَجْداً تُعَدُّ فَضَائِلُهْ(٢)

لَبِسْتُ سِلَاحِى وَالْفَرَزْدَقُ لُعْبَةٌ ... عَلَيْهِ وِشَاحَا كُرَّجٍ وَجَلَاجِلُهْ

فَلَسْتَ بِذِى عِزٍّ وَلَا ذِى أُرُومَةٍ ... وَمَا تُعْطَ مِنْ ضَيْمٍ فَإِنَّكَ قَابِلُهْ

وقوله :

لَا يَخْفَيَنَّ عَلَيْكَ أَنَّ مُجَاشِعاً ... لَوْ يُنْفَخُونَ مِنَ الْخُؤُورَةِ طَارُوا

قَدْ يُؤْسَرُونَ فَلَا يُفَكُّ أَسِيرُهُمْ ... وَيُقَتَّلُونَ فَتَسْلَمُ الْآثَارُ

وقوله :

بَنِى مَالِكٍ؛ إِنَّ الْفَرَزْدَقَ لَمْ يَزَلْ ... يُلَقَّى الْمَخَازِى مِنْ لَدُنْ أَنْ تَيَفَّعَا(٣)

---

(١) فى ا ، ب ، ج « على حصير مثقل » .

(٢) فى النقائض والديوان « تعد فواضله » .

(٣) فى ا ، ب ، ج « من لدن أن ينقعا » وهو تحريف . وفى النقائض والديوان « فلوّ المخازى » .

مَدَدْتُ لَهُ الْغَايَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهُ قَعُودَ الْقَوَافِي ذَا عُلُوبٍ مُوَقَّعَا(١)

وقوله :

أَلاَ إِنَّمَا كَانَ الْفَرَزْدَقُ ثَعْلَباً ضَغَا وَهْوَ فِي أَشْدَاقِ لَيْثٍ ضُبَارِمِ(٢)

وقوله :

مَهْلاً فَرَزْدَقُ إِنَّ قَوْمَكَ فِيهِمُ خَوَرُ الْقُلُوبِ وَخِفَّةُ الْأَحْلاَمِ(٣)
الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمَى بِجَمِيعِهِمْ وَالنَّازِلُونَ بِشَرِّ دَارِ مُقَامِ

وقوله :

إِذَا سَفَرَتْ يَوْماً نِسَاءُ مُجَاشِعٍ بَدَتْ سَوْأَةٌ مِمَّا تُجِنُّ الْبَرَاقِعُ
مَبَاشِيمُ عَنْ غِبِّ الْهَرِيرِ كَأَنَّمَا تُصَوِّتُ فِي أَعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعُ
رَأَتْ مَلَلاً مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ قَصَّرَتْ عَنِ الْعُلْوِ لاَ يَأْبَى عَنِ الْعُلْوِ بَارِعُ
أَتَعْدِلُ أَحْسَاباً كِرَاماً حُمَاتُهَا بِأَحْسَابِكُمْ إِنِّي إِلَى اللّٰهِ رَاجِعُ
إِذَا قِيلَ أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ قَبِيلَةً وَأَعْظَمُ عَاراً قِيلَ تِلْكَ مُجَاشِعُ

وقوله :

عَلِقَ الْأُخَيْطِلُ فِي حِبَالِيَ بَعْدَ مَا عَثَرَ الْفَرَزْدَقُ ؛ لاَ لَعاً لِلْعَاثِرِ !

(١) فى النقائض والديوان :

* رَمَيْتُ ابْنَ ذِى الْكِيرَيْنِ حَتَّى تَرَكْتُهُ *

(٢) فى ا ، ب ، ج « ضفا وهى » وما أثبتناه عن النقائض والديوان .

(٣) فى النقائض :

* أَبَنِي أُدَيْرَةَ إِنَّ فِيكُمْ فَاعْلَمُوا *

والبيتان ليسا مما هجا به جرير الفرزدق ، بل هما فى هجاء غسان بن ذهل السليطى .

لَقِىَ الْفَرَزْدَقُ مَا لَقِيتَ وَقَبْلَهُ ... طَاحَ التَّعِيسُ بِغَيْرِ عِرْضٍ وَافِرِ
وَإِذَا رَجَوْا أَنْ يَنْقُضُوا لِىَ مِرَّةً ... مَرَسَتْ قُوَاىَ عَلَيْهِمُ وَمَرَائِرِى

ولجرير مواضع كثيرة فى هجاء الفرزدق غير هذه؛ ولولا خوف الإطالة لاستقصيتها جميعها، ولو سلمت إلى البحترى ما زعم من أن جريرا ليس له فى هجاء الفرزدق إلا تلك المعانى الأربعة لاعترضت عليه بأنه قد أقرّ لجرير بالفضيلة، وذاك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذى إذا أخذ معنى واحدا تصرّف فيه بوجوه التصرفات، وأخرجه فى ضروب الأساليب، وكذلك فعل جرير؛ فإنه أبرز من هجاء الفرزدق بالقَيْن كلّ غريبة، وتصرف فيه تصرّفا مختلف الأنحاء؛ فمن ذلك قوله:

أَلْهَى أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا ... لَىُّ الْكَتَائِفِ وَارْتِفَاعُ الْمِرْجَلِ

وقوله:

وُجِدَ الْكَتِيفُ ذَخِيرَةً فِى قَبْرِهِ ... وَالْكَلْبَتَانِ جُمِعْنَ وَالْمِنْشَارُ(١)
يَبْكِى صَدَاهُ إِذَا تَصَدَّعَ مِرْجَلٌ ... أَوْ إِنْ تَفَلَّقَ بُرْمَةٌ أَعْشَارُ
قَالَ الْفَرَزْدَقُ رَقِّعِى أَكْيَارَنَا ... قَالَتْ وَكَيْفَ تُرَقَّعُ الْأَكْيَارُ

وقوله:

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُدُّوا ... أَبَانَ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ(٢)

---

(١) قوله «الكتيف» هو كذلك فى الديوان؛ وفى ا، ب، ج «الكنيف» وقوله «والمنشار» هو كذلك فى ا، ب، ج؛ وفى الديوان والنقائض «والمئشار».

(٢) وقع هذا البيت فى أصول الكتاب هكذا:

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ جَدُّوا ... بِأَنَّ الْمُفْرِقَاتِ مِنَ الْغِرَابِ

وهو تحريف شنيع فى عدة مواضع.

فَأَوْرَثَكَ الْعَلاةَ وَأَوْرَثُونِى ... رِبَاطَ الْخَيْلِ أَفْنِيَةَ الْقِبَابِ
وَسَيْفُ أَبِى الفرزْدَقِ فَاعْلَمُوهُ ... قَدُومٌ غَيْرُ ثَابِتَةِ النِّصَابِ

فانظر أيها الواقف على كتابى هذا إلى هذه الأساليب التى تَصَرَّف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقَيْن ؛ فقال أولا : إن أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون ، ثم قال ثانيا : إنه يبكى عليه ويندبه بعد الموت المِرْجَلُ والبرمة الأعشار التى يُصْلحها ، ثم قال ثالثاً : إن أباك أورثك آلة القيون ، وأورثنى أبى رباط الخيل ؛ وقد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الأساليب التى ذكرتها ، ولا حاجة إلى التطويل بذلك ههنا ، وهذا القدر فيه كفاية .

وحيث انتهى بنا القول إلى ههنا فلنرجع إلى النوع الذى نحن بصدد ذكره ، وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد ؛ فمما جاء منه قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُ ... عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِى بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ ... إِذَا مَا الْتَقَى الجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثاً ، وأوردوه بضروب من العبارات؛ فقال أبو نواس :

تَتَمَنَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ... ثِقَةً بِاللَّحْمِ مِنْ جُزُرِهْ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا ... فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِى كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقال أبو تمام :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ أَعْنَاقُ أَعْلَامِهِ ضُحًى ... بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِى الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا ... مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

وقد ذكر فى هذا المعنى غير هؤلاء ، إلا أنهم جاءوا بشىء واحد لا تفاضل بينهم

فيه ، إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ ، ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم ابن الوليد ، فقال :

أَشْرَبْتَ أَرْوَاحَ الْعِدَا وَقُلُوبَهَا ... خَــوْفًا فَأَنْفُسُهَا إِلَيْكَ تَطِيرُ
لَوْحَا كَمتَكَ فَطَالَبتكَ بِذَحْلِهَا ... شَهِدَتْ عَلَيْكَ ثَعَالِبٌ وَنُسُورُ

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ؛ وكذلك فعل أبو الطيب المتنبى ؛ فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدّمه[1] ، إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذى قصدوه ، فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجملته ، وصار كأنه مبتدع لهـــذا المعنى دون غيره ، فمما جاء منه قوله :

يُفَدِّى أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْرًا سِلَاحَهُ ... نُسُورُ الْمَلَا أَحْدَاثُهَا وَالْقَشَاعِمُ
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ ... وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

ثم أورد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره ؛ فقال :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ تَزْحَفُ تَحْتَهَا ... سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهُ

وهذا معنى قد حوى طرفى الإغراب والإعجاب ؛ وقال فى موضع آخر :

وَذِى لَجَبٍ لَاذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ ... بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْىَ ضَعِيفَةٌ ... تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً ... تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وهذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الإحسان فى شعره إلا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم .

(١) فى ا ، ب ، ج « هذه الطريق التى سلكها من تقدمه » .

ومما ينتظم بهذا النوع ماتوارد عليه أبو عبادة البحترى وأبوالطيب المتنبى فى وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان ؛ فأول إحداهما :

* أَجِدَّكَ مَاينفكُّ يَسْرِى لِزَيْنَبا[(١)] *

وأول الأخرى :

* فى الخَدِّإنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلاَ[(٢)] *

أما البحترى فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها :

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بِبطْنِ خَبْتٍ   وَقَدْ لاَقَى الْهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْرَا

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأْت أحد بمثلها ، وكل الشعراء لم تسْمُ قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه .

فمما جاء للبحترى من قصيدته :

وَمَا تَنقِمُ الحُسَّادُ إِلاَّ أَصَالَةً   لَدَيْكَ وَعَزْمًا أَرْيَحِيًّا مُهَذَّبَا[(٣)]

وَقَدْ جَرَّبُوا بِالْأَمْسِ مِنْكَ عَزِيمَةً   فَضَلْتَ بِهَا السَّيْفَ الْحُسَامَ الْمُجَرَّبَا[(٤)]

(١) هذا صدر مطلع قصيدة البحترى ، وعجزه قوله :

* خيَالٌ إذَا آبَ الظَّلاَمُ تَأَوَّبَا *

(٢) هذا صدر مطلع قصيدة المتنبى ، وعجزه قوله :

* مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الخُدُودُ مُحُولاَ *

(٣) فى الديوان « وما نقم الحساد » وفيه « وفعلا أريحيا مهذبا » .

(٤) فى ا ، ب ، ج « فصلت بها » بالصاد المهملة ، وهو تحريف .

غداةَ لقيتَ اللَّيثَ واللَّيثُ مُخْدِرٌ يُحدِّدُ نابًا لِلقاءِ ومِخْلبـا
إذا شاءَ غادى عانةً أو عدا على عقائلِ سِرْبٍ أو تقنَّص رَبْرَبا
شهدتُ لقد أنصفتَه حين تنبرى له مُصْلِتاً عضْبًا من البيضِ مِقْضبا
فلمْ أرَ ضِرغامَينِ أصدقَ منكما عِراكاً إذا الهيَّابةُ النِّكسُ كذّبا
هِزَبْرًا مشى يبغى هِزَبْرًا وأغلبا من القومِ يغشى باسلَ الوجهِ أغلبا
أدلَّ بشغبٍ ثم هالتْهُ صولةٌ رآكَ لها أمضى جَنانًا وأشغبا
فأحجمَ لمّا لم يجدْ فيك مطمعًا وأقدمَ لمّا لم يجدْ عنك مهربا
فلمْ يُغنِهِ أن كرَّ نحوكَ مُقبلًا ولم يُنجِهِ أنْ حادَ عنك مُنكِّبا
حملتَ عليه السيفَ لا عزمُكَ انثنى
ولا يدُكَ ارتدَّتْ ولا حـدُّهُ نبا

ومما جاء لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته :

أمُعفِّرَ اللَّيثِ الهِزَبْرِ بسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخرتَ الصّارمَ المصقولا
وردٌ إذا وردَ البُحـيرةَ شاربًا وردَ الفُراتَ زئيرُهُ والنِّيلا
مُتخضِّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ فى غيـلهِ من لِبْدَتيهِ غيلا
ماقُوبِلَتْ عيناهُ إلَّا ظُنَّتا تحتَ الدُّجى نارَ الفريقِ حُلولا
فى وُحدةِ الرُّهبانِ إلَّا أنَّه لا يعرفُ التحريمَ والتحليلا
يطأُ البَرى مُترفِّقًا من تيهِهِ فكأنَّه آسٍ يجُسُّ عليـلا
ويرُدُّ عُفْرتَهُ إلى يافوخِـهِ حتّى تصيرَ لِرأسِـهِ إكليلا
قصرتْ مخافتُهُ الخُطا فكأنَّما ركِبَ الكَمِيُّ جوادَهُ مشكولا
ألقى فريسـتَـهُ وبَرْبرَ دونها وقرُبْتَ قُرْبًا خالَهُ تطفيـلا
فتشابهَ القُرْبانِ فى إقدامِهِ وتخالفا فى بذلِكَ المأكولا

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا ... مَتْنًا أَزَلَّ وَسَاعِدًا مَفْتُولاَ
مَازَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ ... حَتَّى حَسِبْتَ الْعَرْضَ مِنْهُ الطُّولاَ
وَكَأَنَّمَا غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَادَّنَى ... لاَيُبْصِرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلاَ
أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكٌ ... فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلاَ
وَالْعَارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ ... مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلاَ
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ ... فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلاَ
سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ ... فَمَضَى يُهَرْوِلُ أَمْسِ مِنْكَ مَهُولاَ
وَأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ ... وَكَقَتْلِهِ أَلاَّ يَمُوتَ قَتِيلاَ
تَلَفُ الَّذِي اتَّخَذَ الْجَرَاءَةَ خُلَّةً ... وَعَظَ الَّذِي اتَّخَذَ الْفِرَارَ خَلِيلاَ

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذى يشهد به الحق وتنفيه العصبية أذكره ، وهو أن معانى أبى الطيب أكثر عددا ، وأسَدُّ مقصِدًا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح : فى تشبيهه بالأسد مرة ، وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشىء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد ، وهو قوله :

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ ... لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولاَ

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد ؛ فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق نجله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة ، وفضّله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطفَ بعد ذلك على ذكر الأَنَفَة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مَخْرَج ، وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه ، والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صَوْغ

الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضل منه فى الغَوْصِ على المعانى ، ومما يدلك على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره فى أبياته الرائية لعلمه أن بشرا قد مَلَكَ رقاب تلك المعانى ، واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها ، ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ؛ لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك الطريق وسلك غيرها ، فجاء فيما أورد مبرزا .

واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصدٍ من المقاصد يشتمل على عدة معان ؛ كتوارد البحترى والمتنبى ههنا على وصف الأسد ، وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر وفى بيتين و يصوغه الآخر فى مثل ذلك ؛ فإن بعد المَدَى يظهر مافى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر .

فإذا شئت أن تعلم فضل مابين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتيهما فى مراثى النساء التى مفتتح إحداهما :

يا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَابِنْتَ خَيْرِ أَبِ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَكْرَمِ العَرَبِ (١)

وهى لأبى الطيب ، ومفتتح الأخرى :

غُرُوبُ دَمْعٍ مِنَ الأَجْفَانِ يَنْهَمِلُ ... وَحُرْقَةٌ بِغَلِيلِ الحُزْنِ تَشْتَعِلُ

وهى للبحترى ؛ فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ماأتى به من معانى قصيدته ، والبحترى أتي بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لافرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل .

ومن الواجب أنه إذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا فى غرض من الأغراض

---

(١) الذى فى الديوان :

* كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ *

ألَّا يخرجَ عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان فى الرثاء بامرأة ، فإن من حذاقة الصنعة أن يذكر مايليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحكّ إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مفلقى الشعراء قديما وحديثا فإنهم قصروا عنه .

وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلاَ قِتَالِ

وكفى بهما شاهدا على ماذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به ، والفتيا عندى بينه وبين البحترى أن أبا الطيب أنْفَذُ فى المضيق ، وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحترى فإنه أعرف بصَوْغ الألفاظ ، وحَوْك ديباجتها ، وقد قدمت أن الحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ؛ لأنهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ، ويظهران ظهورا يعلم ببديهة النظر ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ، وأما اختلافهما فى المعنى فإنه يحتاج فى الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ، ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، بل لايتفطن له إلا الفذّ الواحد من الناس ، ولى فى هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم بين المعنيين المختلفين ، وتكلمت عليه كلاما طويلا عريضا ، وأقمت الدليل على مانَصَصْت عليه ، وما منعنى من إيرادها فى كتابى هذا إلا أنها سنحت لى بعد تصنيفه وشياعه فى أيدى الناس ، وتناقل النسخ به .

وعلى هذا الأسلوب توارد البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة للبحترى دالية أولها :

* سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَوَفَاءٌ وَلاَ عَهْدُ *

ومقطوعة للشريف الرضى أولها :

وَعَارِى الشَّوَى وَالْمَنْكِبَيْنِ مِنَ الطَّوَى
أُتِيحَ لَهُ بِاللَّيْلِ عَارِى الأَشَاجِعِ

وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب ، والشريف أجاد فى وصف الذئب نفسه .

وأما المسخ فهو : قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة .

والقسمة تقتضى أن يقرن إليه ضده ، وهو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة.
فالأول كقول أبى تمام :

فَتًى لا يَرَى أَنَّ الفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلُ

وقول أبى الطيب المتنبى :

يَرَى أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ بِأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبِ

فهو وإن لم يشوّه المعنى فقد شوّه الصورة ؛ ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا ، وأعطى الورد جُعَلا ، وهذا من أرذل السرقات ، وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعَزِّيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ
نَقُولُ بِالْعَقْلِ وَأَنْتَ الَّذِى نَأْوِى إِلَيْهِ وَبِهِ نَعْقِلُ
إِذَا عَفَا عَنْكَ وَأَوْدَى بِنَا الدَّهْرُ فَذَاكَ المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله ، فقال :

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِى الرَّزِيَّةِ فَضْلاً فَكُنِ الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجَلَّا
أَنْتَ يَافَوْقَ أَنْ تُعَزَّى عَنِ الأَحْبَابِ فَوْقَ الَّذِى يُعَزِّيكَ عَقْلَا
وَبِأَلْفَاظِكَ اهْتَدَى فَإِذَا عَزَّاكَ قَالَ الَّذِى لَهُ قُلْتَ قَبْلَا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدراً ، وهو المخصوص بالمسخ .

وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة فهذا لا يسمى سرقة ، بل يسمى إصلاحا وتهذيبا .

فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

لَوْ كَانَ مَاتُعْطِيهِمُ مِنْ قَبْلِ أَنْ ... تُعْطِيهِمُ لَمْ يَعْرِفُوا التَّأْمِيلَا

وقول ابن نباتة السعدى :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِى شَيْئًا أُؤَمِّلُهُ ... تَرَكْتَنِى أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ

وعلى هـذا النحو ورد قول أبي نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها :

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرْ ... كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرْ

ثم جاء المتنبي فقال :

فَكَأَنَّهَا نُتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ ... وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

وبين القولين كما بين السماء والأرض ؛ فإنه يقال : ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة ، وكذلك يقال ههنا أيضاً ؛ فإن بقدر ما فى قول أبي نواس من النزول والضعف ، فكذلك فى قول أبي الطيب من العلو والقوة .

وربما ظن بعض الجهال أن قول الشماخ :

إذا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي ... عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

وقول أبي نواس :

وَإِذَا الْمَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً ... فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ

من هذا القبيل الذى هو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، وليس كذلك ؛ فإن قلب الصورةِ القبيحة إلى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين إحداهما قبيحة والأخرى حسنة ؛ فالحسن والقبح إنما يرجع إلى التعبير،

لا إلى المعنى نفسه ، وقول أبى نواس هو عكس قول الشماخ ، وقد تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات ؛ ألا ترى إلى قول أبى الطيب المتنبى وقول الشريف الرضى ؛ فقال أبو الطيب :

إِنِّى عَلَى شَغَفِى بِمَا فِى خُمْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِى سَرَاوِيلَاتِهَا

وقول الشريف الرضى :

أَحِنُّ إِلَى مَاتَضْمَنُ الْخُمُرُ وَالْحُلَى وَأَصْدِفُ عَمَّا فِى ضَمَانِ الْمَآزِرِ

فالمعنى واحد ، والعبارة مختلفة فى الحسن والقبح .

وهذه السرقات ـ وهى ستة عشر نوعا ـ لايكاد يخرج عنها شىء ، وإذا أنصف الناظر فى الذى أتيت به ههنا علم أنى قد ذكرت مالم يذكره غيرى ، وأنا أسأل الله التوفيق لأن أكون لفضله شكوراً ، وألا أكون مختالا فخوراً .

وإذ فرغت من تصنيف هذا الكتاب ، وحررت القول فى تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما ، فينبغى أن أختمه بذكر فضليهما ؛ فأقول :

أعلم أن هذا الفن هو أشرف الفضائل ، وأعلاها درجة ، ولولا ذلك لما فخر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة مواقف ، فقال تارة : « أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ » ، وقال تارة : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى : كَانَ كُلُّ نَبِىٍّ يُبْعَثُ فى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ، وَأُحِلَّتْ لِىَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً وَطَهُوراً ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » ؛ وماسمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشىء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة ، فلم يقل إنه أفقه الناس ،

ولا أعلم الناس بالحساب ، ولا بالطب ، ولا بغير ذلك ، كما قال : « أنا أفصح من نطق بالضاد » .

وأيضاً فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الإعجاز بها دون غيرها ؛ فإن كتاب الله تعالى نزل عليها ، ولم ينزل بمعجز من مسائل الفقه ، ولا من مسائل الحساب ، ولا من مسائل الطب ، ولا غير ذلك من العلوم .

ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت فى الدرجة العالية ، والمنثور منها أشرف من المنظوم ؛ لأسباب : من جملتها أن الإعجاز لم يتصل بالمنظوم ، وإنما اتصل بالمنثور ؛ الآخر : أن أسباب النظم أكثر ، ولهذا نجد المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الكتاب ، بل لا نسبة لهؤلاء إلى هؤلاء ، ولو شئت أن تحصى أرباب الكتابة من أول الدولة الإسلامية إلى الآن لما وجدت منهم ممن يستحق اسم الكاتب عشرةً ، وإذا أحصيت الشعراء فى تلك المدة وجدتهم عدداً كثيراً ، حتى لقد كان يجتمع منهم فى العصر الواحد جماعة كثيرة كل منهم شاعر مفلق ، وهذا لا نجده فى الكتاب ، بل ربما ندر الفرد الواحد فى الزمن الطويل ، وليس ذلك إلا لوعورة المسلك من النثر ، وبعد مناله ، والكاتب هو أحد دِعَامتى الدولة ؛ فإن كل دولة لا تقوم إلا على دِعَامتين من السيف والقلم ، وربما لا يفتقر الملك فى ملكه إلى السيف إلا مرَّةً أو مرتين ، وأما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام ، وكثيراً ما يستغنى به عن السيف ، وإذا سُئل عن الملوك الذين غَبَرَت أيامهم لا يوجد منهم من حسن اُسمه من بعده ، إلا من حظى بكاتب خطب عنه ، وفَخَّمَ أمر دولته ، وجعل ذكرها خالدا يتناقله الناس ، رغبة فى فصل خطابه ، واستحسانا لبداعة كلامه ، فيكون ذكرها فى خفارة مادوّنه قلمه ، ورقمته أساطيره ، وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدوّ الدولة أن يروى أخبار

مناقبها فى حفله ، و يصبح ولسانه حامدا لمساعيها و بقلبه مابه من غله ، ولقد أحسن أبو تمـام فى هذا المعنى حيث قال :

سَأَجْهَدُ حَتَّى أُبْلِغَ الشِّعْرَ شَأْوَهُ ... وَإِنْ كَانَ طَوْعًا لِى وَلَسْتُ بِجَاهِدِ
فَإِنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّى صَاغِرًا ... عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِى غَـيْرُ حَامِدِ

وهذا الذى ذكرته حق وصدق ، لا ينكره إلا جاهل به ، وأنا أسأل الله الزيادة من فضله ، و إن لم أكن أهلا له فإنه هو من أهله .

ووقفت على كلام لأبى إسحق الصابى فى الفرق بين الـكتابة والشعر ، وهو جواب لسائل سأله ؛ فقال : إن طريق الإحسان فى منثور الكلام يخالف طريق الإحسان فى منظومه ؛ لأن الترسُّل هو ما وضح معناه ، وأعطاك سماعه فى أول وهلة ماتضمنته ألفاظه ، وأفخر الشعر ماغمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه .

ثم قال بعد ذلك : ولسائل أن يسأل فيقول : من أية جهة صار الأحسن فى معنى الشعر الغموض ، وفى معانى الترسُّل الوضوح ؛ فالجواب : أن الشعر بُنى على حدود مقررة ، وأوزان مقدرة ، وفصلت أبياته ؛ فكان كل بيت منها قائما بذاته ، وغير محتاج إلى غيره ، إلا ما جاء على وجه التضمين ، وهو عيب ، فلما كان النَّفَسُ لايمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه ، وكلاهما قليل ؛ احتيج إلى أن يكون الفصـــل فى المعنى ، فاعتمد أن يلطف و يدق ، والترسُّل مبنىٌّ على مخالفة هــذه الطريق ؛ إذ كان كلامًا واحداً لا يتجزأ ولا يتفصل إلا فصولا طوالا ، وهو مَوْضُوعٌ وَضْعَ مايهذ أو يمر به على أسماع شتى من خاصة ورعية ، وذوى أفهام ذكية وأفهام غبية ؛ فإذا كان متسلسلا ساغ فيها وقرب ، فجميع ما يستحب فى الأول يكره فى الثانى ، حتى إن التضمين عيب فى الشعر ، وهو فضيلة فى الترسل .

ثم قال بعد ذلك : والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء إنما أغراضهم التى يرمون إليها وَصْفُ الديار والآثار ، والحنين إلى الأهواء والأوطار ، والتشبيب بالنساء ، والطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء ، وأما المترسلون فإنما يترسَّلون فى أمر سَدَاد ثغر ، وإصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو مجادلة لمسألة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ما شاكل ذلك .

هذا ما انتهى إليه كلام أبى إسحٰق فى الفرق بين الترسل والشعر .

ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذَلَاقة اللسان ، و بلاغة البيان ، كيف يصدر عنه مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذى هو فى باب ونَصى النظر فى باب ؟ اللهم غَفْراً ، وسأذكر ماعندى فى ذلك ، لا إرادةً للطعن عليه ، بل تحقيقا لمحل النزاع ، فأقول :

أما قوله « إن الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه » فإن هذه دَعْوَى لا مستند لها ، بل الأحسن فى الأمرين معا إنما هو الوضوح والبيان ، على أن إطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لايدل على الغرض الصحيح ، بل صواب القول فى هذا أن يقال : كل كلام من منثور ومنظوم فينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة ؛ لأنها إن لم تكن مفهومة فلا تكون فصيحة ، لكن إذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال فى فهم معانيها ؛ فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة ، ومنه ما لا يفهمه إلا الخاصة ، وتتفاوت درجات فهمه ، ويكفى من ذلك كتابُ الله تعالى ؛ فإنه أفصح الكلام ، وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ، ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم إلى معانيه ، ومنه مايغمض فيعزّ فهمه ، والألفاظ المفردة ينبغى أن تكون مفهومة ، سواء

كان الكلام نظما أو نثرا ، وإذا تركبت فلا يلزم فيها ذلك ، وقد تقدم فى كتابى هذا أدلة كثيرة على هذا ؛ فتؤخذ من مواضعها .

وأما الجواب الذى أجاب به فى الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك بجواب ، وهَبْ أن الشعر كان كل بيت منه قائما بذاته ، فلم كان مع ذلك غامضا ؟ وهب أن الكلام المنثور كان واحداً لا يتجزأ ، فلم كان مع ذلك واضحا ؟ ثم لو سلمت إليه هذا ، فماذا يقول فى الكلام المسجوع الذى كل فقرة منه بمنزلة بيت من شعر ؟

وأما قوله فى الفرق بين الشاعر والكاتب « إن الشاعر من شأنه وصف الديار والآثار والحنين إلى الأهواء والأوطار والتشبيب بالنساء والطلب والاجتداء والمديح والهجاء ، وإن الكاتب من شأنه الإفاضة فى سَدَاد ثغر أو إصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو مجادلة لمسألة أودعاء إلى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية » فإن هذا تحكم محض لا يستند إلى شبهة ، فضلا عن بينة ، وأى فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار ، ويَحِنُّ إلى الأهواء والأوطار ، فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق إلى الأوطان ، ومنازل الأحباب والإخوان ، ويحنُّ إلى الأهواء والأوطار ؛ ولهذا كانت الكتب الإخوانيات بمنزلة الغَزَل والنسيب من الشعر ، وكما يكتب الكاتب فى إصلاح فساد ، أو سداد ثغر ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة ، أو تعزية ؛ فكذلك الشاعر ؛ فإن شذ عن الصابى قصائد الشعراء فى أمثال هذه المعانى فكيف خفى عنه قصيدة أبى تمام فى استعطاف مالك ابن طَوْق على قومه التى مطلعها :

* لَوأَنَّ دَهراً رَدَّ رَجْعَ جَوَابِى (١) *

أم كيف أخَلَّ بالنظر فى ديوان أبي الطيب المتنبى ، وهما فى زمن واحد ، فما تأمَّل قصيدته فى الإصلاح بين كافور الإخشيدى و بين مولاه ألذى مطلعها :

* حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادِى (٢) *

وكذلك لاشك أنه لم يقف على قصيدة أبى عبادة البحترى فى غزو البحر التى مطلعها :

* أَلَمْ تَرَ تَغْلِيسَ الرَّبِيعِ المُبَكِّرِ (٣) *

ولو أخذتُ فى تَعْدَاد قصائد الشعراء فى الأغراض التى أشار إليها وخَصَّ بها الكاتب لأطلت وذكرت الكثير الذى يحتاج إلى أوراق كثيرة ، وكل هذه الفروق التى نَصَّ عليها وعَدَّدها فليست بشىء ، ولافرق بين الكتابة والشعر فيها .

وألذى عندى فى الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه :

الأول : من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر ، وهذا فرق ظاهر .

---

(١) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* أَوْ كَفَّ مِنْ شَأْوَيْهِ طُولُ عِتَابِى *

انظر الديوان (ص ١٨ بيروت) .

(٢) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ *

(٣) هذا صدر المطلع ، وعجزه قوله :

* وَمَا حاكَ مِنْ وَشْىِ الرِّيَاضِ المُنَشَّرِ *

انظر الديوان (٢ - ٢٢) .

الثانى : أن من الألفاظ ما يعاب استعماله نثراً ، ولا يعاب نظماً ، وذلك شىء استخرجته ، ونبهت عليه فى القسم الأول المختص باللفظة المفردة فى المقالة الأولى من هذا الكتاب(١) ، وسأعيد ههنا منه شيئاً ؛ فأقول :

قد ورد فى شعر أبى تمام قوله :

هِىَ العِرْمِسُ الْوَجْنَاءُ وَابْنُ مُلِمَّةٍ وَجَأْشٌ عَلَى مَا يُحْدِثُ الدَّهْرُ خَافِضُ

وكذلك ورد فى شعر أبى الطيب المتنبى ، كقوله :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُــــهُ عَلَى قَدَمِى تَعْجِزُ عَنْـــهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ

فلفظة المَهْمَه والعَرَامس لا يعاب استعمالها فى الشعر ، ولو استعملا فى كتاب أو خطبة كان استعمالهما معيباً ، وكذلك ما يشاكلهما ويناسبهما من الألفاظ ، وكل ذلك قد ضبطته بضوابط وحددته بحدود تَفْصِله من غـيره من الألفاظ ؛ فليؤخذ من المقالة الأولى ، ولولا خوف التكرار لأعدته ههنا .

الثالث : أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورًا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فإنه لا يجيد فى الجميع ، ولا فى الكثير منه ، بل يجيد فى جزء قليل ، والكثيرُ من ذلك ردىء غير مرضىّ ، والكاتب لا يؤتى من ذلك، بل يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس ، أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة ، وهو مجيد فى ذلك كله ، وهذا لا نزاع فيه ؛ لأننا رأيناه ، وسمعناه ، وقلناه .

وعلى هذا فإنى وَجَدْت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار إليها ؛

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٦٧) وفيها هذان البيتان أيضا .

فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفِرْدَوْسِيُّ فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألفَ بيتٍ من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقَطْرَة من بحر .

اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

قد تم ـ بحمد الله تعالى ، وحسن توفيقه ـ

الجزء الثانى من كتاب :

المثل السائر ، فى أدب الكاتب والشاعر

الذى صـــــنفه

الوزير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين المعروف بابن الأثير

المتوفى فى عام ٦٣٧ من الهجرة

وهو تمام الكتاب

والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله

[القاهرة فى يوم الخميس ٢٠ شعبان سنة ١٣٥٨ هـ ـ ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٩ م]

ملاحظ المطبعة : محمد أمين عمران مدير المطبعة : رستم مصطفى الحلبى

فهرس الأبواب

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

« المثل السائر، فى أدب الكاتب والشاعر »